ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر

نضال الجبال أم انتفاضة المدن؟

حكمت محمد كريم
(ملا بختيار)

دار سائر المشرق

حكمت محمد كريم
(ملا بختيار)

ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر

نضال الجبال أم انتفاضة المدن؟

ترجمة ومراجعة: د. بندر علي أكبر



الطبعة الخامسة
٢٠١٦

جديدة المتن – سنتر بايلايان – الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-032-2

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecoupleart.com

المقدمة

أيّها القارئ العربي العزيز،

ارتأيت أن أبدأ فاتحة كتابي هذا بكلمات قد تكون بديلة للمقدمة التي كان يفترض أن أكتبها للطّبعة الخامسة لكتابي الموسوم بـ «ثورة كوردستان ومتغيرات العصر» حيث أود أن أوضح من خلالها بعض النّقاط التي قد تكون مفيدة للقارئ المتتبع، منها:

أولًا- هناك قلق وهواجس عند الكاتب قد تكون مشروعة، وأعني بذلك أن المؤلف كوردي وقد كتب كتابه هذا بالطّبع بلغة الأم أي اللغة الكوردية، وقد استوجبت الظّروف والأحكام السّياسية أن يترجم الكتاب إلى اللغة العربية التي هي لغة أمّة مهيمنة لغويًّا ومتسلّطة سياسيًا في المنطقة منذ بزوغ فجر الإسلام وانتشار الدّيانة الإسلامية مرورًا بعهود الخلافة الإسلامية.

ثانيًا- إنّ أمّتي الكوردية ولغتها محاطتان بشبكة مشحونة بالعداء التاريخي والنقمة السياسية إلى جانب عدم الاكتراث بنضال هذه الأمة وتضحياتها الجسام عبر التاريخ. لأنّ التاريخ أظهر بوضوح أن الخلافة الاسلامية والسلاطين المسلمين كانوا وراء سقوط السلطات الاقطاعية... والإمارات الكوردستانية منذ الغزوات الأولى لانتشار الدّين الإسلامي مرورًا بحكم الصفويين الفارسيين الذين أجرموا بحق الأمة الكوردية ونكّلوا بقادتها وأخمدوا ثوراتها حتى بات تاريخهم ملطخًا بدماء الكورد وصولًا إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية.

ثالثًا- لقد تحالفت الطّبقات الحاكمة في العصر الحديث وبالأخص بعد الحرب العالمية الأولى مع الاستعمار القديم والجديد في التّآمر على الكورد في كل من سوريا والعراق وذلك بحرمان الشّعب الكوردي من أدنى مطاليبه القومية المشروعة، وفي ظلّ هذا التحالف الذي أشرنا اليه آنفًا تمّ قسرًا فرض دولتين وكيانين سياسيين في هذين البلدين دون أية مراعاة للحقوق الدّيمقراطية للكورد

والقوميات الأخرى.

رابعًا- أصبحت الثّقافة السّياسية والاجتماعية والدينية العربية هي السّائدة بين الرأي العام العربي وفق حق الشّعب العربي في حكم المنطقة ومن خلاله تم فرض الثقافة العربية (الدينية — المذهبية - الاجتماعية) على الشّعوب المتعايشة معه طوال التاريخ وكأنّهم أسياد للآخرين مدى الدّهر.

خامسًا- الثّقافة الإسلامية والمذهبية المهيمنة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا في المنطقة خلقت فجوة نفسية وجرحًا داخليًا عميقًا بين العرب والكورد والقوميات الأخرى سواءً اعترفوا بهذا الأمر أم أهملوه.

سادسًا- الأمّة العربية ودولها رغم معايشتهما مع الآخرين مائة عام أو أكثر وتزودهما بالعلوم وإدراكهما المتغيّرات الحاصلة في العالم الغربي وعلى الأخص على ضفاف البحار المتاخمة للجغرافية الغربية، لم تتفاعلا مع الأحداث ومع المستجدات، بل أصرّتا على الحفاظ على ثقافة القرون الوسطى بمختلف الوسائل والسّبل إلى حدّ فرض الأمّة العربية حكومات وسلطات ديكتاتورية شمولية، إجرامية، كلّ ذلك تحت غطاء الدّين والمذهب والضّمير العربي الوحدوي.

سابعًا- حكمت الأمة العربية المنطقة في القرون الوسطى بعقلية بدوية استندت على الدّين والمذهب والثقافات البدائية إلى أن استطاع العثمانيون الأتراك اغتصاب الخلافة الإسلامية منها. وفي العصر الحديث تأسست الدّول العربية بمساندة ودعم الاستعمار الذي فرضها على شعوبها فرضًا قسريًا بسبب اكتشاف النّفط في المنطقة وجعل الآبار النفطية العامل الرّئيس لمساندة العرب، ولهذا السبب بالذّات غضّ المستعمرون النّظر عن نوعية تلك الحكومات وعدم مطالبتها بأن تحكم بالعدل بين الناس على أقل تقدير.

***

إنّ الأسباب الآنفة الذّكر ومعها مسببات أخرى لابدّ أن تثقل كاهل أي كاتب كوردي يخوض هذا الميدان ويجازف بترجمة مؤلّفه إلى اللغة العربية وخاصّة في مثل هذه الظّروف بالذّات. لماذا أؤكّد على الظروف الراهنة؟ الجواب هو: إنّ الأحداث الدّامية التي حدثت منذ بداية الثّمانينيات وخاصة بعد بروز الحركات

الجهادية الإسلامية المتأثرة بالحركة الإسلامية الأصولية في أفغانستان، وانتصار الثّورة الإسلامية الشّيعية في إيران وتأثيراتهما على الرّأي العام الإسلامي عمومًا، وبالأخص على الحركات الإسلامية الإخوانية وغير الإخوانية حتى سقوط الاتّحاد السّوفيتي وأنظمة أوروبا الشّرقية، وتقهقر اليسار العالمي وانكماش التطلعات القومية للأحزاب والحركات القومية العربية في المنطقة وانطواء الثّورة الفلسطينية وفصائلها المسلحة الثورية على نفسها بعد اتّفاقية كامب ديفيد (١٩٧٧) والأخطاء الإستراتيجية للأحزاب الدّيمقراطية واليسارية في الشرق الأوسط وعدم الاتّعاظ من الأخطاء والانحرافات السياسية ورفع الشّعارات البرّاقة وعدم التّركيز على المهام الأساسية للديمقراطية والحداثة والصراع المستميت من أجل تحقيق دولة ديمقراطية علمانية ومجتمع مدني حداثوي منفتح إلى آخر جملة من هذه الأمور، وغيرها من الأمور الأساسية الأخرى التي سببت في خراب فكري ودمار سياسي وانهيار الموانع الفلسفية والأيدولوجية داخل الأحزاب والمجتمعات والمنظمات والنقابات، هذه الأمور أحدثت فراغًا سياسيًا وثقافيًا وفلسفيًا مخفيًا أو متروكًا لإملائه من قبل بعض التّيارات السّلفية البارزة في الثمانينيات والمتأثرة بالتّطورات السّالفة الذكر.

عزيزي القارئ،

لقد أصبح المشهد بعد انتفاضة تونس واضحًا وضوح النّهار، حيث أن الحكومات العربية ودولها والأحزاب المدعية بالديمقراطية والعلمانية والشيوعية لسنوات قاربت ثلاثة أرباع قرن اصيبت بالإندحار السياسي والفشل السياسي الذريع. حين توالت تلك الانتفاضات والثورات في العالم العربي كنا نحن، الشعب الكوردي، الشعب الوحيد إلى جانب الشعب الفلسطيني الذي نمارس النّضال التّحرري الثّوري المسلح ضد النّظامين العراقي والتركي، وكانت المقاومة المسلّحة والمقاومة المدنية السياسية العلنية لم تندلع بعد في غرب كوردستان (سوريا). حتى أوان ظهور تلك الحركات كانت الحكومات العربية - بل وحتى الرأي العام العربي والإعلام العربي الرّسمي والأهلي - تنظر إلى القضية الكوردية والثورات التحررية الكوردستانية بمنظار قاتم، وكانت تقييماتها موجعة وانتقاداتها جارحة.

منذ تأسيس الدّول العربية بعد اتّفاقية سايكس بيكو (١٩١٦) حتى اندلاع الانتفاضات والثورات العربية التي سميت بالربيع العربي، لم تتبنّ أيّة حكومة عربية القضية الكوردية ولم تساند الثّورة الكوردية في مطالبتها بحق تقرير المصير، بل على

العكس، حاربت معظم هذه الدّول الثورات والأحزاب السياسية الكوردستانية إستراتيجيًا، أمّا بعض الدّول العربية التي ساندتها، فقد كان دعمها تكتيكيًا. والأمرّ من كلّ ذلك، أنّنا لم نجد حزبًا ديمقراطيًا عربيًا، حتى في بعض الأحزاب السّياسية التي تدّعي الدّيمقراطية، فيما عدا بعض الأحزاب اليسارية الهامشية، يساند المسألة الكوردية ولم تنظر تلك القوى السياسية إلى القضية الكوردية العادلة كقضية أمة لها حق تقرير المصير أسوة بالأمم والشّعوب الاخرى. إلى جانب كلّ ذلك نجد أنّ الأمّة الكوردية، طوال تاريخها، كان لها أعداء عديدون وفي نفس الوقت كان بعض هؤلاء الأعداء، أعداء للأمة العربية أيضًا كالصفويين والعثمانيين والنظامين الشاهنشاهي الإيراني والأتاتوركي.

لقد أثبتت الأيام بأنّ الأنظمة البعثية التي قمعت الحركات الكوردية قد ألحقت أضرارًا بالغة بالأمّة العربية والأحزاب الدّيمقراطية أيضًا، والنّموذجان السيئان في هذا المجال هما البعث الصدّامي العراقي والبعث الأسدي السّوري.

أيها القارئ العربي الواعي،

من خلال ذكرنا في سردنا للأحداث التاريخية والملتهبة منذ سنين وتبيان ما آل إليه «الربيع العربي» داخل الدول العربية (عدا تونس الواعدة)، يظهر كتابي هذا مترجمًا إلى اللغة العربية، لغة أم عرفها أجدادنا ونعرفها نحن الأحفاد وسوف يبقى أبناؤنا وأحفادنا متفهّمين لهذا التّعارف وهذا التّعايش الذي لاشك بأنّه سيستمرّ عبر التّاريخ.

كان بودّي أن أفتخر بالمنجزات السياسية المشتركة مع أمة عريقة كان بإمكانها أن تبني مفاخر حضارية جديدة وتحقق مكاسب تاريخية، لكن وللأسف، لقد تخلّت هذه الأمة عن حضارتها التاريخية ولم تكترث بالمستجدّات وتقاعست عن مواكبة الأحداث والتفاعل معها. عليه، وبالنّظر الى نتائج هذه الأمور جاء مخاض هذه الأمّة بولادة حدثت في زمن العولمة وعصر السّرعة، وبتلك السّرعة ظهرت أكبر قوة همجية متوحّشة باسم (داعش) وأذنابها المجرمة.

إن التّخلّف وفرض أساليب التّدين بشكل خاطئ والحفاظ على الغيبيات والعقول المتحجرة وعدم إثارة الأسئلة الحائرة والبحث عن الأجوبة المنطقية، أدّى

إلى ظهور آثار هؤلاء المجرمين المدمّرة روحيًا وعقليًا وثقافيًا بحيث كانت مساوئها أكثر بكثير من الاستبداد الجسدي. إنّ الجسد المضطهد ينهك ولكنه ينتعش بعد أن تتغير شروط العيش، بيد أن الاستبداد والاضطهاد الرّوحي، أي حينما تتلاحم روح الإنسان والمجتمع بالفلسفات الشّمولية وخاصة الدّين والمذهب، وحين تفرض الأحكام الشمولية على مناحي الحياة قاطبة دون إفساح المجال لممارسة أدنى نوع من الحرية، بحاجة الى عملية تاريخية من التّغيرات الكبيرة وهذا لم ولن يحدث بدون فهم ستراتيجي لكيفية إحقاق هذه التّغييرات أثناء المنعطفات السّياسية والاجتماعية والثقافية.

إنّ بروز الحركات السّلفية الجهادية وخاصة القاعدة، داعش وجبهة النصرة، لم تكن اعتباطية وطارئة بل كانت نتيجة حتمية للمفاهيم الخاطئة والممارسات الضارة منذ قرن من الزّمن العربي والشرق أوسطي والعالم الإسلامي بل والأخطاء الغربية أيضًا.

نتيجة لكلّ هذه الأمور الشائكة بالنّسبة لنا، نحن أبناء الشّعوب المضطهدة، لقد تشعّبت أبعاد صراعاتنا بعد الانتفاضات من صراع من أجل البقاء والتّحرر الوطني من محتلّي أوطاننا (كوردستان، أمازيغستان، بلوجستان...الخ) إلى صراع حداثوي عصري للتّحرر من هيمنة الثّقافات القومية الضّيقة وفرض دين أو مذهب بمقياس القرون الوسطى. لقد أصبحت الثّورات والانتفاضات التّحررية جزءًا لا يتجزّء من النّضال الحداثوي في عصر العولمة وعولمة المعرفة والمعلومات، وهذه أصبحت مهمة ديمقراطية متعددة الأهداف، والتّخلّي عن هذه المهمة عمل خطير سياسيًا وضار ثقافيًا.

إن كتابي هذا يترجم إلى العربية في وقت نعيش فيه، نحن الشّعوب جميعًا، في خضمّ الأحداث الصاخبة والمتصارعة والمتشابكة أيضًا، إذًا ليس من السّهولة أن نتفاهم حول المفاهيم المشتركة ونحن ما نزال متأثّرين بإرث ثقافي شمولي تسلّطي. لكن يبدو أن تاريخ الصّراعات بحاجة إلى تفجير التّناقضات لكي تنكشف في النهاية الحقائق الكبرى ومن ثم نجتاح الحواجز و الأسوار السمنتية للعقليات الشمولية.

قارئي العزيز،

لقد كتبت هذا الكتاب قبل ستة وعشرين عامًا، وكان الدافع الرّئيس لكتابته هو انتقادي لجميع الانتفاضات والثّورات المسلّحة المسجّلة في صفحات تاريخ أمّتي الكوردية، والبحث عن البديل السياسي المنسجم مع المتغيرات الحاصلة آنئذ، لقد كان الأوان عصر انهيار المعسكر الاشتراكي وبزوغ النّظام العالمي الجديد (قبل العولمة) وإن الأفكار والطّروحات التي أوردتها في متن هذا الكتاب لم تكن سهلة لقارئ كوردي اعتاد على استراتيجية تحررية منذ ما يقارب مائتي عام، وأعني بها الثّورة المسلحة. ولكن كان هذا الأمر لابدّ منه، وهكذا كتبت فصول الكتاب لكي يحقّق مبتغاه. لقد حفّزتني الضّرورات أن أخوض غمار البحث في الثّورات المسلّحة والانتفاضات الجماهيرية في العالم لكي أقارن نتائج الثّورات والانتفاضات واستنتج بالنّهاية استنتاجًا موضوعيًا بأرقام وتواريخ وبأدلة دامغة وبعد التّحليل الدقيق أصل إلى نتيجة أيهما الأصح؟ الثّورات المسلحة في الجبال أم الانتفاضات المستمرة في المدن؟

أثناء كتابتي لفصول هذا الكتاب حدثت انتفاضتان باهرتان في بلدين ولشعبين مختلفين، الشّعب الفلسطيني والشعوب الإيرانية وكانت نتيجتهما انتصارًا تاريخيًا ودليلًا ساطعًا على انتهاج نهج نضالي جديد بدلًا من الجمود الثوري المسلح.

والآن حينما نقوم بإعادة طبع الكتاب في بيروت يكون قد مرّ على تلك الاحداث ربع قرن، إذًا يحقّ لنا أن نتساءل، كيف نرى المشهد السياسي والعسكري والجماهيري ونحن بصدد طبع هذا الكتاب للمرة الخامسة.

لقد أصبح المشهد سرياليًا بشكل عجيب... كيف؟

لقد تراجع جل الأحزاب الثورية التّقليدية تقريبًا عن النّضال المسلّح، وخاصة الأحزاب الشيوعية واليسارية بما فيها الماوية والجيفارية، كما طغى النّضال الجماهيري داخل المدن والانتفاضات والمظاهرات والاحتجاجات والنّضال البرلماني على الفلسفات السّياسية العصرية، فيما تبنت الحركات الجهادية السّلفية الإستراتيجية المسلّحة بأساليب انتحارية وتخريبية وعبثية عجيبة، حتى الإخوان المسلمين، الذين كانوا يدّعون النّضال المدني، حملوا السّلاح في سوريا ومصر وفي بعض الدّول

الأخرى ولم يتوانوا في تطبيق شتّى التّكتيكات العسكرية لتحقيق أهدافهم في بعض أجزاء كوردستان. لكي أعطي صورة واضحة للتّغييرات الفلسفية للثّورات ضمن متغيّرات العصر أقول:

لقد اندلعت الثّورة المسلّحة في شمال كوردستان (تركيا) عام ١٩٨٤ بقيادة حزب العمّال الكوردستاني (PKK) واستمرّت حتى أواخر التسعينيات كإستراتيجية تحرّرية وحيدة. لكن، وتحت تأثير المتغيّرات الدّولية وميزان القوى، غيّر الشّعب الكوردي في شمال كوردستان إستراتيجية الثّورة المسلّحة الوحيدة الى توأم نضالي (مسلّح وجماهيري) في الجبال وداخل المدن. لقد تكلّل هذا التغيير بالنّجاح حيث توجّه نحو صناديق الاقتراع لخوض انتخابات البلديات. بعد نجاح هذه التّجربة انتقل الكورد إلى مرحلة أخرى، وأعني بها الدّخول في معترك الانتخابات البرلمانية، إذ حقّق في هذا المجال نجاحًا باهرًا وذلك بفوزه بثمانين مقعدًا برلمانيًا في السابع من حزيران عام ٢٠١٥. لقد كانت هذه التّجربة مهمّة جدًّا بالنّسبة للشّعب الكوردي في شمال كوردستان (تركيا) حيث أثبتت جدارة هذا النّجاح بمهارة سياسية فائقة، هذا في حين أن قائد حزب العمال الكوردستاني (PKK)، السيد عبدالله اوجلان، مازال حبيس زنزانته في جزيرة آمرلي التّركية. وما برح حزب العدالة والتنمية الإخوانية هو الذي يحكم البلاد.

أما بالنّسبة إلى غرب كوردستان فإنّ الحكومات السّورية المتعاقبة كانت تنكر وجود الشّعب الكوردي في سوريا، بل بالعكس، استمرّت في اضطهادهم وعاملتهم بعقلية شوفينية متخلّفة، بحيث حرمت الكورد من الحصول حتى على الجنسية السّورية والتي هي من أولى الحقوق المدنية والمواطنة الطبيعية، كما فرض البعث السّوري ما سمّاه بمشروع الحزام العربي أو الحزام الأخضر الذي اعتبره الشّعب الكوردي حزامًا أسود، واستنكره في حينه كل القوى الخيرة ولابد أن التّاريخ حفظ لحكومات سوريا البعثية بصفحات سود بهذا الصّدد كما أنّ له أحكامه الخاصة تجاه هذا النّوع من التّعامل مع القوميات الأخرى.

في الحقيقة أنّ غرب كوردستان كان منسيًا في الذّاكرة السياسية وخاصة داخل الرأي العام العربي والتّركي، بل والعالمي بالطّبع.

لقد كانت هناك أحزاب تهيّأت للفرصة السّانحة، حتى أزفت السّاعة، سارعت

تلك الاحزاب إلى استثمارها وخاصة حزب اتّحاد الشعوب – به يه ده، وانخرطت تلك الأحزاب بالانتفاضة الجماهيرية المدنية السورية، غير أنّ النّظام السّوري تصدّى لها بعنف. ونتيجة لهذه الإجراءات القمعية شكّل «به يه ده» قوّة مسلّحة للدّفاع عن الانتفاضة والأرض والأمن، وتطوّرت الأحداث ونمت القوة المسلّحة الصّغيرة، بتخطيط محكم ذي بعد إستراتيجي تمكّنت من التّغلب على الصّعاب وصعدت على المسرح السياسي-الجماهيري المقاوم بشكل لافت للنّظر، إلى أن استطاعت تسلّم زمام الأمور.

وفي هذه المرحلة كشّرت تنظيمات داعش الإرهابية عن أنيابها المسمومة وقلبت المعادلة السياسية والعسكرية رأسًا على عقب.

إنّ الحكومات السورية والعراقية لم تتمكن من دحر قوة نضالية مسلّحة صغيرة، والتي برزت بشكل مفاجيء، وتمكّنت فيما بعد من السّيطرة على أراضي بمساحة أراضي بريطانيا وكأنّ التّاريخ بدأ بمحاسبة نفسه. لقد كشفت القوى السّلفية المخفية والمخيفة في ثنايا التّاريخ عن حقيقتها، فيما أظهر الشّعب المهمّش تاريخيًا في غرب كوردستان قوته النّائمة، والحكومة السّورية المدعية بالعروبة والمتباهية بقوّتها التي لا تقهر بحسابها باتت قوّاتها عاجزة أمام قوّة متخلّفة ذات ٢٠ ألف مسلّح، وشعب كوردستان الذي ذاق الويلات على أيدي النّظام البعثي وجيشه وأجهزته القمعية، انتفض كانتفاضة سبارتاكوس لتحرير العبيد، حيث تمكّن بروح نضالية عالية أن يثبت للعالم بأن الشّعوب المضطهدة أقوى من الحكومات المتباهية بقواتها الخارقة، لقد غيرت بطولات النّساء والرّجال في غرب كوردستان وانتصاراتها المتتالية اللعبة، فيما بددت الغيوم السوداء التي كانت تغطى سماء كوردستان منذ العهد العثماني وصولًا بالزّمن البعثي.

لقد أصبح غرب كوردستان، بنضاله الجماهيري وبأحزابه المتفانية وقواته المقتحمة الفدائية، رقمًا كبيرًا داخل المعادلة السّياسية والعسكرية في المنطقة بل وفي العالم. حيث تعاملت معه الدّول الكبرى سياسيًا وعسكريًا ولوجستيًا.

اذًا يحقّ للقارئ الآن أن يتساءل على ماذا تدل تجربة غرب كوردستان؟ الجواب هو أنّ هذه التّجربة دلّت، وبشكل قاطع، على أنّ الشّعوب المضطهدة بإمكانها أن تقلب الأمور فيما إذا تولّدت داخلها قيادة واعية ومخلصة لقضيتها

ومدركة لمهامها ومستثمرة الظّرف المناسب.

وفي جنوب كوردستان (العراق) أثبتت الأحداث بأنّ قوات البيشمركة ذات التّاريخ النّضالي المشرف لكونها صاحبة قضية مشروعة تصدّت بعزم متين وإرادة راسخة للسّلفية الجهادية، أشدّ وأقوى من القوات المسلّحة العراقية التي تجاوزت ٥٠٠ ألف مقاتل، بينما لم يتجاوز عدد قوات البيشمركة ١٠٠ ألف مقاتل، ناهيك عن الفرق الكبير في تسليح كلّ من هاتين القوتين وتمويلهما.

وفي النّهاية أود أن أؤكّد بأنّ محتوى الكتاب وفي هذه الظّروف أيضًا ينجسم مع ما نشاهده من أحداث دامية ذات أبعاد متعدّدة. أتمنى أن ينظر إلى هذا الكتاب كبحث كتب قبل ربع قرن، بيد أن طروحاته مازالت معرّضة للنّقاش، إنني ككاتب وكمواطن كوردي عاصرت الأحداث عن كثب خلال أربعين عامًا أرى بأنّ الزّمن أصبح مهيّئًا لمناقشة الأمور والأفكار والفلسفات بعقلية منفتحة ومتحرّرة، لأن التّمسك الجامد بموروث الماضي والبقاء تحت تأثيرات الدّعايات القومية الضّيقة والأوامر السّلطوية البحتة والتزمّت العقائدي، كلّ هذه الأمور التي أشرت إليها لم تنتج غير القرارات الفوقية الجائرة ولم تولد إلّا الحقد الدّفين والتهميش المقيت.

حين يتغيّر محتوى الزّمن من كل ما يمت بتأثيرات الماضي إلى الحداثوية يجب أن نتغيّر تبعًا لتلك التغييرات ونغير أيضًا مفاهيمنا البالية. مازال أمامنا تاريخ طويل ومسؤولية تاريخية يجب ألّا نكرّر أخطاء أسلافنا السّياسيين وحتى المثقفين منهم لقد أصبحت الجرأة في النّقد في ظرفنا الرّاهن أصحّ من فرض الحصار الذّهني والثقافي.

لقد أصبحنا، نحن الكورد، وكذلك قضيتنا الكوردية من القضايا الأولى في المنطقة، لذلك بات من الصّعب إعادة الأحداث إلى المربع الأول، لأن ذلك الزّمن قد ولّى.

إنّ أهمّ ما يهمنا الآن هو توفير الدّيمقراطية في عموم المنطقة، لأننا بدون الدّيمقراطية سنبقى محاصرين سياسيًا وأمنيًا وثقافيًا وسلفيًّا، باعتقادي أنّ كل ما ننجزه نعتبره جزءًا من البناء الديمقراطي في المنطقة ونعتبر التّفاعل الدّيمقراطي بين

الشّعوب مهمّة مصيرية وضمان لحق تقرير المصير.

إنّ الأمّة العربية هي أكبر أمّة في المنطقة تربطنا نحن الكورد معها روابط عديدة، غير أنّ ما يدعو للأسف هو أنّ هذه الأمّة الكبيرة لم تنظر طوال التّاريخ إلى الأمة الكوردية كأمّة صديقة وفية مؤتمنة وفي نفس الوقت لم تقر حقوقها كغيرها من الشّعوب الأخرى في العالم.

لي الحق أن أتساءل، هل أنّ ارتباطات الكشمير والحركة الإسلامية في الفيليبين وفي شرق أوربا وفي أفريقيا وفي أواسط آسيا بالأمّة العربية جغرافيًا وسياسيًا وأمنيًا واقتصاديًا أكثر من ارتباط الأمة الكوردية بها؟ بالطّبع كلا، فالأمة الكوردية محاذية للأمة العربية في صلب الشّرق الأدنى ومتاخمة لها في البوابة الشّرقية في المنطقة. إذًا ماهي الأسباب المانعة التي تحول دون أن نكون أمتين ذات أهداف مشتركة ومصير مشترك؟ إن الأسباب والدّوافع الماضية معروفة وآثارها ما زالت واضحة لحدّ الآن. لكنّ السّؤال الذي يبرز الآن هو: لماذا تبقى الأمة العربية من الآن فصاعدًا أسيرة للأحكام والأخطاء الماضية؟ ألم يحن الآوان أن تراجع هذه الأمة الكبيرة حساباتها السّابقة وتقرّر وفق ما يتطلبه العصر الحديث؟ باعتقادي أنّ تحديد الأهداف المشتركة مهمة جدًا، لأن التّجارب الماضية أثبتت بأنّ ما نعنيه بالهدف المشترك الرّئيس هو الدّيمقراطية، والدّيمقراطية في هذا العصر ليست مبادئ فلسفية بحتة، بل هي ضرورة تاريخية من الأهداف الاقتصادية والسّياسية والثقافية والمدنية والحضارية المشتركة. إذًا لقد آن الآوان لكي نبادر إلى القول وننادي «هلمّوا، لكي نرسي معًا صرحًا جديدًا تنبني عليه علاقاتنا المتينة الحالية والمستقبلية».

ها آنذا أنهي كلماتي هذه التي كانت بديلًا للمقدمة كما أسلفت بتمنياتي الخالصة ودعوتي الحارة إلى التّحرر من الدّعايات المغرضة، وإن نتجاوز الماضي بإرهاصاته وننفتح على المستقبل انفتاحًا حضاريًا حقيقيًا وليس شكليًا وكل أملي بأن تتحقق هذه الأمنيات وأن يكون لكتابي هذا صداه في الأوساط العربية.

أكتفي بهذا القدر من التوضيح حول الكتاب، وأخيرًا، لا يسعني إلا وأن أشكر أخي ورفيقي في النضال الدكتور بندر علي المندلاوي على قبوله ترجمة الكتاب، وإنّني على يقين بأنّ الترجمة قد أخذت كثيرًا من وقته. وأشكر أيضًا

الدكتور رؤوف عثمان على مقدّمته التقييمية لمضمون الكتاب المترجم، والكاتب والصحافي جمال دملج على تقديم الطبعة الخامسة المنقَّحة. أشكرهم كثيرًا. وأرجو من القارىء الواعي، إسعافي بملاحظاته النقدية البنّاءة.

ملا بختيار

السليمانية

أواسط تشرين أول، ٢٠١٥

المؤلّف وذكريات نضالية

حكمت محمد كريم (ملا بختيار)، مؤلّف هذا الكتاب، من المناضلين والمثقفين الكورد، ومن أنشط الكتّاب في حقل السياسة والكفاح المسلّح والنشاط الجماهيري، وأغزرهم نتاجًا رغم انضمامه المبكّر إلى صفوف الحركة الكوردية، وانشغاله التام بالعمل السرّي، ثم العمل الكفاحي المسلّح في صفوف الأنصار، منذ اندلاع الشرارة الأولى للثورة الجديدة في الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٦ وإلى يوم انتصارها في الانتفاضة ربيع عام ١٩٩١.

ولد في العشرين من آب (أغسطس) عام ١٩٥٤ في مدينة خانقين الكوردية العريقة الواقعة في الجنوب الشرقي من كوردستان العراق، والغنية بآبار النفط، والمشهورة ببساتينها الوارفة الظلال وأراضيها الخصبة التي ترويها مياه نهرها الخالد «ألْوَنْد». وخانقين من المدن الكوردستانية التي واجهت أثناء الاحتلال العثماني سياسة التتريك، كما واجهت، بعد تأسيس الدولة العراقية، سياسة التعريب والتهجير القسريين، لذلك كانت هذه المدينة دومًا مسرحًا للنضال السياسي التحرّري الديموقراطي.

انضم إلى صفوف «العصبة الماركسية اللينينية الكوردستانية» في العاشر من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٠ بعد تأسيسها بأشهر. والتحق بثورة أيلول المسلّحة عام ١٩٧٤ بعد فشل «اتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠» بين الحكومة العراقية وقيادة الحركة الكوردية نتيجة لتراجع الحكومة العراقية عن تنفيذ بنود الاتفاقية. وتعرّض بسبب آرائه اليسارية، أثناء التحاقه بهذه الثورة، لبعض المضايقات والضغوط السياسية والنفسية، على يد مسؤولي منطقة خانقين. عاد إلى خانقين عام ١٩٧٥، بإيعاز من قيادة «العصبة» مثل الكثيرين من رفاقه، بعد إعلان انهيار ثورة أيلول في التاسع عشر من آذار (مارس) عام ١٩٧٥، نتيجة لاتفاقية الجزائر التي أبرمت بين الحكومتين الإيرانية والعراقية في السادس من آذار (مارس) عام ١٩٧٥ والتي تنازلت بموجبها الحكومة العراقية، عن بعض من حقوق العراق في

مياه شطّ العرب، وبعض المناطق الحدودية لمصلحة إيران، لقاء مساعدة شاه إيران في إخماد الحركة التحرّرية الكوردية المسلّحة.

رغم حجم الكارثة وهول الفاجعة اللتين أصابتا الشعب الكوردي في الصميم، وسيطرة النظام العراقي وأجهزته القمعية على كل شبر من كوردستان العراق بعد اتفاقية الجزائر، وترحيل الكورد من قراهم ومدنهم، وإسكانهم في المجمّعات القسرية الشبيهة بمعسكرات الاعتقال النازية، وتهجير سكّان القرى والمدن الحدودية الكوردية المهمة إلى وسط وجنوب وغرب العراق، وتوزيعهم على القرى الفقيرة البائسة، ومنعهم من التنقّل والاتصال بذويهم وأقاربهم. نعم رغم كل هذه المآسي والعراقيل والعقبات والقمع والاضطهاد والنفي والتشريد، فقد لملم المناضلون جراحاتهم، ورصّوا صفوفهم، ووحّدوا جهودهم، وعقدوا العزم على مواجهة المخطّط المرسوم بعناية ودقّة للقضاء على الوجود القومي للشعب الكوردي وابتلاع وطنه المجزّأ كوردستان.

كانت «العصبة الماركسية اللينينية» التي انضم إليها مؤلّف الكتاب، والتي بذلت قيادتها جهودًا مخلصة لمنع إخماد الحركة المسلّحة وانهيارها، بعد اتفاقية الجزائر، قد أوعزت إلى كوادرها بالعودة إلى أرض الوطن، والعمل من هناك بكل جدّ وتفانٍ لإعادة تنظيم صفوفها، والوقوف بوجه الهجمة الشرسة التي يتعرّض لها الشعب الكوردي الأعزل. لذلك عاد الكثير منهم، وبدأوا العمل السرّي على الفور بناءً على هذا التوجيه، إلا أنّ عيون السلطة كانت لهم بالمرصاد، فألقت القبض على معظم العناصر القيادية لـ «العصبة» في منتصف عام ١٩٧٥، وكان حكمت كريم من بين المطلوبين الذين لم تتمكّن أجهزة السلطة من القبض عليهم.

في هذه الظروف الصعبة والحرجة، ونتيجة لكفاءته التنظيمية الواعية أصبح الأخ حكمت كريم مسؤولًا عن تنظيمات الداخل كافّة. وكان يحمل معه ستّ هويّات مزوّرة أثناء تنقّلاته بين: بغداد، وكركوك، وكلار، والسماوة، والديوانية، والفلوجة، ودربنديخان، والموصل، ودهوك، وباتجاه الحدود السورية العراقية، وأربيل، والسليمانية، لإعادة تنظيم صفوف المناضلين والاتصال معهم، وتشكيل الخلايا الجديدة والاجتماع مع مسؤوليها وأعضائها، بكل حذر وحيطة، من أجل تحضيرهم للثورة المسلّحة الجديدة.

بعد الإعلان عن ميلاد الاتحاد الوطني الكوردستاني في الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٥ وتشكيل قاعدة تنظيمية واعدة للاتحاد في المدن والقرى الكوردستانية، وبدء مرحلة جديدة من النضال الجماهيري، وتوسيع دائرة النشاط التنظيمي والجماهيري، جاء دور تشكيل المفارز المسلّحة لقوّات الأنصار في جبال كوردستان، للانتقال إلى مرحلة الإعلان عن الثورة الجديدة لشعبنا وفق تكتيك واستراتيجية جديدة. وكان للأخ حكمت كريم الدور الفعّال في هذا المجال أيضًا، إذ كان بحكم مركزه القيادي ينسّق مع تنظيمات الداخل، لتهيئة المتطوّعين وتأمين الأسلحة لهم وإرسالهم للانخراط في صفوف «البيشمركة» أي الفدائيين أو الأنصار، في المفارز المسلّحة الأولى.

ممّا يجدر ذكره في هذا المجال أنّي كلّفت بالتعاون والتنسيق مع الشهيد سلام عبدالرزاق، بنقل الأخ شيروان شيروندي الذي قرّر الالتحاق بصفوف المفارز الأولى المسلّحة للأنصار، في نهاية الشهر السادس من عام ١٩٧٦، من خانقين إلى بغداد، ومنها إلى السليمانية، حيث كان الأخ حكمت ورفاق آخرون بانتظارنا، وقد تولّوا القيام بكل ما يلزم لهذا الغرض.

أمّا في المجال التنظيمي، فقد ظلّ اتصاله بتنظيمات الداخل مستمرًا، حتى بعد انتقاله من بغداد إلى السليمانية استجابة لمتطلّبات التنظيم والأمن. وأتذكّر جيدًا محتوى رسالته التي أرسلها إليّ عن طريق الشهيد سلمان داود الذي زاره بصحبة والده المرحوم الحاج داود حسين، الشخصية المناضلة المعروفة في أوساط أهالي مندلي والكورد الساكنين في بغداد، والشهيد شيرو عبد القادر، لمناقشة انضمام منظمة الثأر لدم الشهداء إلى الاتحاد الوطني الكوردستاني، والتي تأسّست بعد انهيار الحركة الكوردية المسلّحة عام ١٩٧٥ مباشرة، وقامت بعمليات مسلّحة ضدّ أجهزة النظام القمعية داخل بغداد.

وقد تمكّن الأخ حكمت محمد والشهيد سلام عبد الرزاق من إقناع الشهيدين سلمان داود وشيرو عبد القادر، بعد ثلاث زيارات متتالية إلى السليمانية، بضرورة انضمام منظّمتهم إلى الاتحاد الوطني، والعمل داخل الإطار العامّ للثورة الجديدة، ليكون لهم دور فعّال فيها، لأنّ عمل المنظّمات الصغيرة بشكل منفصل في الحركات الثورية الكبيرة يكون آنيًا ومؤقتًا، بل كارثيًا أحيانًا.

وقد اقتنع الشهيدان بهذا، وأقنعا بدورهما الأعضاء الآخرين في المنظّمة بالانضمام إلى الاتحاد الوطني. هذه الرسالة التي طلب منّي فيها الأخ حكمت أن أكون حلقة الوصل بين أعضاء هذه المنظّمة وتنظيمات الاتحاد في بغداد، عن طريق الشهيد سلمان الذي تربطني به صلة القرابة والمدينة الواحدة، أملًا في الحدّ من بعض التوجّهات المتطرّفة لدى رفاقه، والتي لمسها من المناقشات التي دارت بينه وبين الشهيدين سلمان وشيرو في تلك اللقاءات، والاستفادة من جهاز الرونيو الذي كان بحوزتهم، وتأمين بعض المستلزمات الأخرى لهم، كما ورد في نصّ الرسالة.

كما لا أنسى الرسالة التي أرسلها لي عن طريق التنظيم، يعاتبني فيها على عمل قام به أحد أصدقائي، وهو من أبناء مدينتي مندلي تجاه أحد المناضلين من أقربائه التحق بالمفارز الأولى المسلّحة للأنصار، مشهود له بالإخلاص والتفاني والتضحية والكفاءة إلى يوم استشهاده. وقد اقتضى عمله النضالي بقاءه في السليمانية، ولهذا التجأ إلى قريبه، ليقضي بضع ليال معدودات في بيته، إلا أنّه سرعان ما طلب هذا القريب منه ترك بيته، بحضور الأخ حكمت. فأثّر هذا الموقف في نفسيهما، بل آلمهما أشدّ الألم إلى حدّ دفعه إلى كتابة تلك الرسالة التي انتقد فيها بمرارة الموقف المتفرّج لبعض المثقّفين من قضية شعبهم قائلًا: «إذا كان هذا هو موقف المثقّف الكوردي من قريبه الذي نذر نفسه للدفاع عن شعبه وكرامة أبنائه، فكيف يكون موقف الآخرين منه، ممّن لا يمتّون إليه بصلة، ولا يدركون حقيقة كفاحنا وتضحيتنا.»

كذلك من ذكرياتي معه لقائي به في بغداد بعد تأسيس جمعية الطلبة الثوريين في كوردستان في السادس والعشرين من نيسان (أبريل) عام ١٩٧٦ لتسلّم البيان الأول للجمعية منه والصادر في السليمانية. وقد جلبه هو والرفيقة وصفية بني ويس، بمغامرة عجيبة إلى بغداد خصّيصًا، لنوزّعه على الطلبة المنتمين إلى تنظيماتنا، لتوزيعه على زملائهم الطلبة في الجامعات والمدارس الثانوية. واجتمع في تلك الزيارة، وبحضوري، مع ثلاثة من الطلبة الجامعيين لهذا الغرض.

إضافة إلى كل ما ذكر، فإنّه كان يحضر بين حين وآخر إلى بغداد سرًّا، رغم كونه هدفًا للأجهزة القمعية للنظام، لحضور اجتماع لجان التنظيم، ومن بينها اللجنة التي كنت أتحمّل مسؤوليتها، فيبعث هذا نشاطًا وقوّة فيها.

بعد الإعلان عن قيام الثورة الجديدة المندلعة من جبال كوردستان في الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٦ وتشكيل الكثير من المفارز المسلّحة التي انتشرت في أنحاء مختلفة من كوردستان، ونظرًا لأهمية تنظيمات الداخل والمفارز المسلّحة للتنظيم في السليمانية وبغداد، ظلّ الأخ حكمت إلى نهاية عام ١٩٧٦، وبالتحديد حتى العملية العسكرية ضدّ قافلة محافظ السليمانية في صباح يوم الحادي والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٧٦، مختفيًا داخل السليمانية، ليشرف على التنظيمات، وينسّق مع القيادة في الجبال. وبعدها التحق بصفوف الثورة المسلّحة، ليمارس دوره من هناك، وقد جابهته مشاكل وعقبات أثناء مسيرة النضال المسلّحة الطويلة نتيجة للنهج السياسي والفكري الذي كان يؤمن به.

ويلمس القارئ هذا بكل سهولة في ثنايا وصفحات هذا الكتاب، والكتب الأخرى والمقالات التي ألّفها ونشرها، أو المناظرات والندوات العديدة التي اشترك فيها.

ظلّ في صفوف الثورة الجديدة التي توّجت فعالياتها ونضالها بالانتفاضة الجماهيرية في ربيع عام ١٩٩١، والتي كان من المساهمين فيها، بل كان في الصفوف الأولى فيها، ومن المنادين والمطالبين بمحاربة الممارسات المنحرفة والخاطئة لبعض المحسوبين عليها. وآراؤه وتوجّهاته هذه ظهرت واضحة وجليّة في الفصل المخصّص للانتفاضة في هذا الكتاب.

بعد نجاح الانتفاضة الجماهيرية، انتخب عضوًا في البرلمان الأول لشعب كوردستان العراق عام١٩٩٢. كما تقلّد مناصب حزبية قيادية وجماهيرية عديدة، منها: عضو قيادة الاتحاد الوطني الكوردستاني، وعضو احتياط في المكتب السياسي، ومسؤول مكتب المنظّمات الديمقراطية فيه، ومن ثم عضو الهيئة العاملة في المكتب السياسي.

أتحف المكتبة الكوردية بمجموعة قيّمة من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات التي نشرت في مختلف المجلات والصحف والدوريات التي تصدر داخل إقليم كوردستان العراق وخارجه. ومن كتبه المنشورة:

١- هذا الكتاب الذي ترجمناه «ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر» (شؤرشي كوردستان وطؤرِانكارية كاني سةردةم)، وقد طبع في السويد عام ١٩٩٢، وطبع بالرونيو قبله عام ١٩٩٠.

٢-«التمرّد على التاريخ» طبع في السليمانية في كوردستان العراق عام ١٩٩٨، في ٢٩٨ صفحة من القطع المتوسط.

٣- «حزمة مواضيع مختارة» طبع في السليمانية في كوردستان العراق عام ١٩٩٩ في ٣٧٢ صفحة من القطع المتوسط.

٤- «الديمقراطية بين الحداثة وما بعد الحداثة» طبع في السليمانية في كوردستان العراق عام ٢٠٠٠ في ٤٣٠ صفحة من القطع المتوسط.

٥- «الديمقراطية بعد الحرب الباردة» طبع في السليمانية في كوردستان العراق عام ١٩٩٩ في ٣٣٥ صفحة من القطع المتوسط، وهناك كتب أخرى للمؤلّف لم يسعفني الحظّ في الاطلاع عليها منها: «في خدمة الأدب»، «الحرّية والمجتمع المدني»، «روسيا والكورد». كما أنّه رئيس تحرير مجلة «المدنية» الفصلية منذ عام ١٩٩٩ ورئيس تحرير الصحيفة الأسبوعية «جاودير- المراقب» منذ عام ٢٠٠٥.

إنّ ما دفعني إلى ترجمة هذا الكتاب جملة من الأسباب، لكنّ أهمّها تزويد المكتبة العربية، ومن خلالها، المثقّفين العرب، والذين يجيدون اللغة العربية من مثقّفي الشعوب الأخرى وخاصّة في دول الجوار، بمصدر مهمّ عن الكورد وتاريخهم ووطنهم وثوراتهم وانتفاضاتهم وآرائهم حول مستقبل علاقاتهم بالآخرين، ورؤيتهم للأحداث المتسارعة على المستوى الوطني والإقليمي والعالمي، وتحليلهم لها، ونظرتهم ورؤيتهم لما سبق من الأحداث والثورات في عالمنا المعاصر. ولا يسعني إلا أن أناشد الأخوة الآخرين، ممّن يجدون في أنفسهم القدرة والقابلية والرغبة في الترجمة، من الكوردية إلى اللغات الأخرى الحيّة، أن يبادروا إلى نقل التراث الفكري والأدبي والتاريخي والسياسي الكوردي إلى اللغات التي يجيدونها، ليطّلع الآخرون عليها. وبذلك يقدّمون خدمة كبرى لشعبهم التوّاق إلى الحرّية والحياة الكريمة، ولقضيته العادلة المشروعة.

بقي أن أقول: إنّي جابهت مصاعب جمّة أثناء ترجمتي لهذا الكتاب، لعلّ بعضها يرجع إلى تجربتي الأولى في هذا المجال، وبعضها إلى عدم إتقاني قواعد

اللغة الكوردية بصورة أكاديمية صرفة، بسبب حرماننا من التعليم باللغة الأم الكوردية، فالتعليم بها كان من المحرّمات في زمننا. وبعض المصاعب يعود أحيانًا إلى الصياغة البلاغية والجمل المركّبة المتداخلة التي لجأ إليها المؤلّف، للتعبير عن بعض الأفكار التي أراد إيصالها إلى القارئ بدقة، ممّا اضطرني إلى الوقوف طويلًا إزاءها، والتصرّف بها عند الضرورة القصوى. لذلك أستميح المؤلّف والقارئ النبيل عذرًا عن كل هفوة أو خطأ أو سهو، قد يجده في عملي المتواضع هذا، وأكون شاكرًا لكل استدراك أو ملاحظة أو نقد بنّاء.

شكري وتقديري البالغين إلى كل من ساهم أو ساعد على إخراج هذا الجهد المتواضع إلى النور.

المترجم
الدكتور بندر علي
(أنور مندلاي)

تقديم

أتحف حكمت محمد كريم (ملّا بختيار) المكتبة السياسية الكوردية بكتاب له أهميّته النوعية والتحليلية في طرح آراء تمسّ في الصميم الآفاق المستقبلية للانتفاضات وحروب التحرير. وقد ألمّ حاذقًا بالتجارب الثورية للأمم والشعوب في شتّى المحاور، ممهّدًا الطريق أمام المتلقّي كي يطلّ من هذه النافذة على التجارب الثرية للانتفاضات وحروب التحرير التي خاضتها الأمم والشعوب قبل الحربين العالميين وبعدهما. لقد سلّط المؤلّف أضواء مشعّة على العوامل والنتائج التي آلت إليها هذه الحركات، وبمقدور المهتمين بشؤون الانتفاضات والثورات أن يغنوا تجاربهم من خلال العبر والدروس المستخلصة المطروحة في الكتاب.

وزّع المؤلّف الفصول على محاور ومباحث متشعّبة ضمن إطار الكتاب، موصلًا المقدّمات بالنتائج عبر مناقشة وتحليل معتمدًا في ذلك على لغة الأرقام والحقائق متى اقتضت الحاجة. إنّ تأكيد المؤلّف على عرض ومناقشة العناوين والمواضيع لم يكن بصورة متماثلة من حيث الكم، بقدر ما كان من حيث أهميّة الموضوع، وعلاقته بالهدف الأساس من تأليف الكتاب.

أسهب المؤلّف في عوامل فشل التجربة الستالينية التي أعادت الاتحاد السوفييتي إلى عهود التخلّف، وعبادة الفرد والجمود العقائدي الذي طغى على جلّ ميادين الحياة. وإنّ ذريعة الدفاع المستميت على تخوم الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، وتعبئة الملايين للدفاع عنها من قبل ستالين وأجهزته، لا يبرّر في أيّ حال ديكتاتوريته، ولا مظالمه المشينة بحقّ شعوب السوفييت ومفكّريها ومبدعيها، علمًا أنّ هذه السياسة اللامتوازنة انعكست على الانتفاضات ومصائر شعوب المنطقة باتجاه إخلاء الساحة والتقهقر. أمّا الحكم بعد ستالين، فكان امتدادًا لمسيرته، ولكن بطريقة مغايرة، وهي سيطرة النزعة التحريفية على التفكير الفلسفي لقادة السوفييت، في حين أنّ ديكتاتورية ستالين وتحريفية خروتشوف وجهان لعملة

رديئة واحدة، وهي المروق عن المسار الطبيعي لمهام ثورة أكتوبر.

إنّ فترة الحرب الباردة بين المعسكرَين حالت دون وصول حركات تحرّرية كثيرة إلى مطافها الآخير، وأضحى بعضها ضحية مساومات رخيصة بين مصالح الدول العظمى. وأول من اكتوى بنار هذه المقايضات اللعينة هو الشعب الكوردي، حيث سقطت جمهوريتا كوردستان وأذربيجان في إيران إثر مساومة رخيصة بين ستالين وقوام السلطنة، بعد أن هدّد ترومان جيش ستالين بوجوب مغادرة كوردستان إيران وأذربيجان خلال إثنتين وسبعين ساعة وإلا يتعرّض للضرب بالسلاح النووي، المكتشف حديثًا آنذاك. وأذعن ستالين لهذا المطلب، وخابت آمال الكورد، وانطفأت شعلة الجمهورية الكوردية الفتيّة، فأعدم رئيسها الشهيد قاضي محمد ورفاقه، وعاث الجيش الإيراني في كوردستان فسادًا ودمارًا.

كما وتناول الكتاب الثورة الصينية والظروف الذاتية والموضوعية المؤاتية التي ساعدت حرب التحرير الصينية، ثم انحرافها عن مسارها الطبيعي، وتنامي النزعة الديكتاتورية لدى قادتها وسقطات الثورة الثقافية التي بشّرت بحرق المراحل والقفز فوق الواقع.

أهميّة الكتاب لا تكمن في تناوله قضايا الثورة وحروب التحرير فقط، بل محاولة استخلاص العبر والدروس وتوظيفها في التحوّلات الجارية على طبيعة الحركات التحرّرية في سياق وإطار جديدين.

إنّ الثورة ظاهرة تاريخية لها كيانها الخاصّ والمتأثّرة بجملة عوامل ذاتية وموضوعية، وقوانينها الخاصّة نابعة من مكوّناتها، فلا يمكن اجتياز أو خرق هذه القوانين والضوابط عنوة، بغية الإسراع والإنضاج المكرهين، لأنّها تنحرف عن مهامها التي اندلعت من أجلها، إنّها تستجيب أبدًا للمتغيّرات السريعة والتحوّلات الجارية في المجتمع وما حوله. ومن هذا المنطلق سلّط المؤلّف أضواء كاشفة على الانتفاضات الكوردية المسلّحة في القرن المنصرم، كما وتناول جمهورية مهاباد الكوردية وثورة أيلول وانتفاضة عام ١٩٧٦ التي فجّرها الاتحاد الوطني الكوردستاني في كوردستان العراق، والمهام الخطيرة التي ينبغي أن تقع على عاتق مفكّري الانتفاضة لتحقيق أهدافها وإيصالها إلى شاطىء الأمان.

أفاض المؤلّف في مناقشة العوامل الذاتية والموضوعية لانتكاسة ثورة أيلول عام ١٩٦١ وتدشين اتفاقية الجزائر الخيانيّة التي لعبت أطراف عديدة في نسج خيوطها اللعينة، وبالأخص أميركا، وفي ظلّ الحرب الباردة، حيث اعترف كيسنجر ومعه منظّمة إيباك صاحبة القرار في أميركا بأنّ سياستها تجاه الكورد كانت لا أخلاقية. أمّا مصير أطراف الخيانة، فأصبح في وضع يرثى له، حيث لم يحصل محمد رضا شاه صاحب خامس جيش في العالم على حفرة أو شبر من أرض إيران الواسعة بطولها وعرضها، فحينما خصّص له حاكم مصر أنور السادات قبرًا في أرض الكنانة، تظاهر الغيارى من مصريين شرفاء وطالبوا بعدم تدنيس أرضهم، ونقل جثّته إلى أرض أخرى. وشهد العالم نهاية ديكتاتور العراق صدام حسين المخزية، ولم تكن نهاية نيكسون الرئيس الأميركي الأسبق والمشرف على اتفاقية الجزائر نهاية مشرّفة، وكذلك الرئيس الجزائري بومدين!

في حين ظلّت ثورة أيلول المغدورة والانتفاضات الكوردية الأخرى، بمآثرها وأبطالها وشهدائها تعلو بقامتها فوق بطاح التاريخ، حيث الكورد في أرض أجدادهم يتمسّحون بأضرحة الشهداء، وهم في أعلى العليين. هذا هو منطق التاريخ تجاه من يضحّي لأجل الوطن، ومن يرتكس في الخيانة، حيث تلفّه عجلة التاريخ وتجعله غبارًا تذروه رياح العار والنسيان.

إنّ الايمان بالبؤرة الثورية مكانيًا في حرب التحرير والتركيز على الريف وإبعاد المدن الكوردية عن مهامها الثورية، واللجوء المستمر إلى البندقية والجبال كلّما ضاق الخناق على الكورد، مباحث خطيرة وحسّاسة أشبعها المؤلّف تمحيصًا وتحليلًا. ووقف إزاءها موقفًا نقديًا متسمًا بالموضوعية، حيث مستجدات الحياة تفرض وسائل ومواجهات جديدة لا يمكن التغاضي عنها. فالحرب الباردة انتهت، وأضحت أميركا وحلفاؤها المحور الأساس في التخطيط للسياسة العالمية. وانهار السوفييت وحلفاؤهم كلعب دومينو دون أيّ مقاومة، ورياح العولمة عمّت معظم زوايا العالم، ناهيك عن تطوّر الأسلحة الفتاكة التي تستعملها الدول ضدّ الحركات التحرّرية، وتنامي فلسفة الاقتصاد الحرّ لمصلحة الشركات المتعدّدة الجنسيات. إنّ هذه العوامل والمتغيّرات ينبغي أن تؤثّر على طبيعة الانتفاضات والحروب، وتغنيها بعوامل الديمومة، بل وتغيّر مسارها باتجاه جديد يؤمن لها الفوز. إنّ تطوّر التكنولوجيا العسكري المتمثّل بالطائرات العسكرية العمودية

والدبابات وأجهزة الاستمكان المتطوّر، واستعمال الليزر في التصويب والأقمار الصناعية التجسّسية وأجهزة الاتصالات المتطوّرة والمتنوّعة، تلعب دورًا خطيرًا، لا يستهان به، في إجهاض الانتفاضات المسلّحة، وينبغي ألا يغفل تأثير العوامل الخارجية المتمثّلة بالتحالفات الدولية والإقليمية في إضعاف أو إفشال الانتفاضات والحروب الطويلة الأمد.

يؤكد المؤلّف في أكثر من موقع على عدم التشبّث بآلية نضالية واحدة في جلّ المراحل النضالية المتشعبة، وأنّ انتقال الانتفاضة من الريف إلى المدن والقصبات، وتعميمها على فضاءات أوسع بما فيها تعبئة المنظّمات الجماهيرية، والمطالبات المستمرة بتطوير النصوص القانونية، لمصلحة الجماهير العريضة، وتدشين آليّات المجتمع المدني الذي يرفض مسوّغات المظالم، استجابة منطقية لمتغيّرات الواقع. ذلك أنّ الإصرار على نهج نضالي واحد، والتشبّث بآليّاته وخبراته، تكريس ميكانيكي للنظرة الأحادية التي تعرقل مسيرة الحياة وحركة التاريخ، لأنّ كل لحظة من عمر الانتفاضة والثورة وحركتها المتنامية تقتضي إبداعًا وتجديدًا، لا في التطبيق وحده، بل وعلى صعيد التنظير أيضًا.

إنّ الاستجابة الواعية والسريعة للمتغيّرات العالمية والمحلية الجديدة رفض للدوغما، وانفتاح موضوعي على القوانين العالمية الجديدة، وبالأخص بعد انتهاء الحرب الباردة، وعدم اتضاح أسس النظام العالمي الجديد ومنطلقه، حيث يجد القارىء تنبؤًا لبعض المتغيّرات المرتقبة في ثنايا الكتاب التي طرحها المؤلّف وناقشها بدقّة وموضوعية، تؤكّد على أهميّة الكتاب الحالية والمستقبلية. إذ إنّها بمثابة مشروع أو تصوّر لمشروع ثوري لمستقبل الحركة الكوردية، وأنّ كشف المعادل الموضوعي لاستثمار رفض الجماهير للأنظمة وتوظيفه وتعميقه بغية الوصول به إلى نتائج ملموسة، يزيل ذلك الحيف والقهر. فالحروب العادلة التي خاضتها الأمّة الكوردية عبر آماد وقرون موجّهة بالأساس إلى محتلّي أرض كوردستان الذين نهبوا وسوف ينهبون خيراتها، ويستعبدون شعبها تحت مسمّيات باطلة ظنًّا منهم أنّ التقسيم والضمّ القسريين، لأرض كوردستان، حالة توفيقية لا يجوز انتهاكها!

وممّا يزيد الكتاب أهميّة، أنّه أُلّف من قبل مناضل أفنى زهرة شبابه في حرب التحرير، وخاض أوار الانتفاضة في أشدّ لحظات التاريخ الكوردي حراجة. هذه الحالة النضالية لأكثر من عقدين، مع تراكم الخبرات على الصعيدين النظري

والعملي، منحت المؤلّف قابليّة فذّة في تحليل طبيعة الانتفاضات، والخروج منها بنتائج مرضية. لقد ركّز الكاتب على أهميّة الانتفاضة المستمرّة التي تلعب دورًا فعّالًا في استنهاض الهمم الشعبية واكتشاف كل الطاقات الكامنة التي بمقدورها أن تغيّر مجرى الأحداث، وتعمّق أزمات العدو، وتحدث في صفوفه شروخًا عميقة.

واستشهد بالثورة الفلسطينية التي أصيبت بأكثر من نكسة عسكرية في لبنان والأردن وفلسطين، من جراء اعتمادها الوحيد على الكفاح المسلّح، واعتبرها النموذج الأمثل. وتنبّأ الكاتب بأهميّة الانتفاضة الطويلة الأمد للفلسطينيين التي تستنزف طاقات إسرائيل، وبأنّها تؤثّر على تطوّر هذه القضية باتجاه فرض الأمر الواقع على إسرائيل، ولكن ضمن اشتراطات وضوابط. منها إنضاج الوضع الثوري ومساهمة كل المنظّمات الفلسطينية والفئات الاجتماعية والسياسية والمذهبية المختلفة، والاعتماد على حركة الجماهير المنتفضة التي تجد مسارها النموذجي الأمثل مع وتائر النضال وصيرورته المستمرّة. مع مرّ الأيام تحقّق بعض من تنبؤات المؤلّف إزاء الانتفاضة المستمرّة لشعب فلسطين، حيث ركع النظام الإسرائيلي أمام عنفوان الانتفاضة وتضحياتها الجسام، فأنشأ الفلسطينيون حكومتهم.

عرّج المؤلف على نضال الشعب الأريتيري الدامي لأكثر من عقدين، والذي لم يتمكّن من أن ينقل الثورة الأريتيرية من المقاومة السلبية المسلّحة إلى مباغتة العدوّ والتخطيط لاستراتيجية التحرّر النهائي من ربقة الاحتلال. هذه الحالة تجسّد حقيقة دامغة، وهي أنّ الثورة الطويلة الأمد لا تكفي وحدها لتحقيق النصر، إذا لم تستجب للمتغيّرات الجديدة، ولم توظّف الواقع المتحرّك باتجاه النصر النهائي. والجدير ذكره أنّ الشعب الأريتيري غدا، لا ضحية نتائج الحرب الباردة فقط، بل وتحريفيّة السوفييت التي ساندت مانغستو ماريام تحت الذرائع الواهية، لنظرية العالم الثالث التي نسج خيوطها منظّر التحريفيّة ميخائيل سوسلوف، حيث تساند الأنظمة البرجوازية الوطنية ضدّ الشعوب المناضلة! ومن الطريف أن برز عامل فعّال لانتصار الثورة الأريتيرية هو وقوع الانقلاب في أثيوبيا من قبل مانغستو، وانتفاضة الجماهير الأثيوبية مع الإسناد الخارجي الذي لعب دورًا خطيرًا، ناهيك عن تردّي الوضع السياسي والاقتصادي في أثيوبيا وإذعانها في النهاية للأمر الواقع.

وأخيرًا، حيثما هناك ظلم واضطهاد وقهر الأمم المغلوبة على أمرها، هناك ثورة ورفض ومطاولة بشتّى الأساليب، ولا يمكن للمسيرة البشرية أن تتوقّف لحظة. وكما ورد في ملاحق الكتاب أنّ بعضًا من الانتفاضات لا تزال في طريقها مع ضحاياها الكثر، وأخرى تحوّلت إلى ثورة المدن، وبعض منها انتصر في ظلّ ظروف استثنائية بالغة التعقيد، تظلّ مقاومة الظلم والاحتلال نارًا تحت رماد السنين، ستذروها — لا محالة — رياح الفرص التاريخية المؤاتية دون أدنى ريب.

الدكتور رؤوف عثمان

تقديم الطبعة الخامسة

لا يختلف اثنان على أنّ نظرة واحدة بالعين المجرّدة، وبتجرّد، إلى المحطّات التاريخيّة التي مرّت بها القضيّة الكورديّة على مرّ الزمن، تكفي لإقناع الرائي بأنّ المسيرة النضاليّة التي خفقت لها قلوب أبناء هذا الشعب على طريق تحقيق حلم بناء وطنهم القوميّ، لم تكن أكثر أو أقلّ من جلجلة حقيقيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى، سالت على درب آلامها دماء كثيرة ودموع أكثر، دون أن تحبط أكاليل الشوك آمال التوّاقين إلى غاية الحلم ومشتهاه، أو تحدّ من عزيمتهم على المضيّ قُدمًا إلى الأمام، فظلّوا بذلك يُسكِنون جموحهم في جروحهم، ويسيرون.. ويسيلون.

لا أحد يمكن أن يدرك سرّ هذا «الوجع المقدّس» أكثر من أمّة شاءت لها أقدارها أن يتحوّل أبناؤها إلى شعوب تتوزّع على امتداد المساحات الجغرافيّة لهذا البلد أو ذاك، سواء كان «صديقًا» أو «شقيقًا»، وفقًا للمفهوم العروبيّ المستحدث للصداقة والأخوّة في تاريخنا المعاصر، وخصوصًا إذا كان جهاز التحكّم عن بعد مرهونًا لمشيئة نزوات الدول الكبرى ونهم مصالحها، حيث غالبًا ما تكون حال تلك الشعوب في هذه الحالة مثل حال سلّة من البيض بين حجرين كبيرين.. يتحرّك الكبار، وينكسر البيض، ويدفع الناس ضريبة تلك النزوات والمصالح غاليًا جدًا من حياتهم وأمنهم وديارهم ورزقهم، ويكتوون بنار الفتن والمؤامرات. فإذا ما استثنينا القضيّة الفلسطينيّة والاعتداءات الإسرائيليّة المتكرّرة على أبناء الشعب الفلسطينيّ، بمختلف أبعادها الإنسانيّة والسياسيّة، وبالأخصّ فيما يتعلّق بقضيّة اللاجئين، فلربّما كانت القضيّة الكورديّة من القضايا ذات البعد الإنسانيّ والسياسيّ الأكثر سخونة والتهابًا بعد القضيّة الفلسطينيّة، ليس على الساحة العراقيّة وحسب، حيث كان الوجع الكورديّ قد بلغ ذروته على مرّ السنوات الطويلة الماضية على طول خارطة بلاد الرافدين وعرضها، بل على صعيد حلم

بناء الأمّة الكورديّة التي ظلّت تعاني مثل الأمّة العربيّة من التجزئة والتقسيم.

وإذا كان منطق التاريخ يحتّم على كافّة الحركات والتيّارات النضاليّة في مختلف أنحاء العالم السير على دروب شاقّة ووعرة ومضنية، سعيًا إلى تحقيق أهدافها في مجالات التنعّم بالحرّية ونيل الاستقلال والمحافظة على الهويّات الوطنيّة والقوميّة للشعوب والأمم، فإنّ التجربة الكورديّة في هذا المضمار كانت رائدة بكلّ ما في الكلمة من معنى، ولا تزال.

من هنا، يأتي كتاب «ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر» في إطار محاولة جادّة لتوثيق هذه التجربة الملحميّة بحلوها ومرّها، وانتصاراتها وانكساراتها، ونجاحاتها وإخفاقاتها.. والأهمّ من ذلك، لمقارنتها مع تجارب تحرّرية أخرى، وعلى رأسها الثورة الصينيّة والثورة الكوبيّة وغيرها من التجارب التي خاضتها شعوب أفريقيّة وأميركيّة لاتينيّة مختلفة، وذلك بغية تأمّل ما أسفرت عنه من نتائج، واستخلاص العبر المفيدة منها. وممّا لا شكّ فيه أنّ مؤلّف الكتاب حكمت محمد كريم (ملا بختيار) أظهر قدرًا راقيًا من الشفافيّة والموضوعيّة أثناء سرده ومعالجته لكافّة مفاصل بحثه المميّز الذي يشكّل قيمة إضافيّة هامّة لما هو متاح أمام الباحثين من منشورات ومراجع تتعلّق بالقضيّة الكورديّة، وهذا ليس بالأمر الغريب، وخصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه ليس مجرّد واحدٍ من المناضلين والمثقّفين الكورد وحسب، بل هو من أنشط الكتّاب في حقل السياسة والكفاح المسلّح والنشاط الجماهيري، وأغزرهم نتاجًا، رغم انضمامه المبكّر إلى صفوف الحركة الكورديّة، وانشغاله التامّ بالعمل السرّي، ثمّ العمل الكفاحيّ المسلّح، منذ اندلاع الشرارة الأولى للثورة الجديدة في مطلع شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٧٦ ولغاية انتصارها في انتفاضة ربيع عام ١٩٩١.

وفي سياق الحديث في هذه العجالة عن القضيّة الكورديّة وكفاحاتها المتوارثة أبًا عن جدّ، لا بدّ من الإشارة هنا إلى ذلك اليوم الذي عادت بي ذاكرتي إليه فور قيامي بقراءة المادّة الشيّقة لهذا الكتاب، وذلك عندما وردتني الأنباء الأوليّة عن تمكّن عملاء وكالة المخابرات المركزية الأميركية بالتعاون مع عملاء وكالة المخابرات الوطنيّة التركيّة من إلقاء القبض على زعيم حزب العمّال الكوردستاني

عبد الله أوجلان في العاصمة الكينيّة نيروبي بينما كان يحمل جواز سفر يونانيًّا باسم لازاروس مافروس.

حدث ذلك في الخامس عشر من شباط (فبراير) عام ١٩٩٩، بينما كنت منهمكًا بإعداد تقرير إخباري داخل غرفة أخبار قناة الجزيرة الفضائيّة في الدوحة، فما كان منّي إلا أن وضعت عملي جانبًا، وسارعت إلى الاتصال مع صديقي الصحافيّ اليونانيّ لازاروس مافروس المقيم في العاصمة القبرصيّة نيقوسيا لأستفسر عن سرّ تشابه الأسماء، فأبلغتني زوجته ماريا بكلّ فخر واعتزاز بأنّ لازاروس كان قد أهدى، بفخر واعتزاز أيضًا، جواز سفره إلى عبد الله أوجلان، وذلك في إطار بادرة تضامنيّة مع الشعب الكورديّ وقضيّته العادلة. وعندما التقيت مع لازاروس وماريا في الشهر التالي في نيقوسيا قبيل توجّهي لتغطية وقائع الحملة العسكريّة الأميركيّة — الأطلسيّة على يوغسلافيا، كانت سمات الفخر والاعتزاز ما زالت مرسومة على وجهيهما، وهي نفس السمات التي ترتسم على وجهي الآن بينما أكتب هذه السطور.

لقد عانى الكورد كثيرًا خلال تاريخهم الحديث من مؤامرات وفتن غالبًا ما كانت تطبخ على نار المشاريع التقسيميّة التي ما زالت تستهدف المنطقة إلى يومنا الراهن تحت شعارات ومسمّيات مختلفة، آخرها «الشرق الأوسط الجديد»، أو «الشرق الأوسط المختلف». وربّما كان في ذلك قيمة إضافيّة أخرى لهذا الكتاب، سيّما وأنّ جميع المؤشّرات المتوفّرة في الوقت الحاليّ على ايقاع ممارسات «دواعش» الدين والسياسة، إنّما تنذر بالمزيد من حالات الانقسام والتشرذم، وبظهور أقلّيات ضمن أقلّيات، وطوائف ضمن طوائف، ومذاهب ضمن مذاهب، وملاقط نار ومخالب قطط لكلّ من يبحث عنها من الخارج في الداخل، الأمر الذي سيجعل «ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر» شعلة نور يمكن أن تهتدي بها قوى وتيّارات وحركات تحرّرية قادمة لا محالة إلى هذا الجزء من خارطة العالم، ولكن حينما يخرج هذا الجزء من الظلام.

جمال دملج

الفصل الأول

١ - كوردو - الشجاع

«كوردو» لفظة عريقة في اللغة الكوردية التي هي لغة الأمّة التي سمّيت بالـ «كورد»، منذ بداية نشوء المجتمع الكوردي. وتعني هذه اللفظة المشتقّة لدى علماء علم الأجناس واللغات «البطل»، أو «الشجاع»، أو «الباسل» وهي ألقاب لا تطلق إلا على المحارب والإنسان الجريء الذي لا يخاف من الموت في سبيل تحقيق أهدافه النبيلة المشروعة. وليس بعيدًا أن يكون مصدر هذه اللفظة، أو نفس تسمية الـ «كورد» بلفظة «كوردو»، جاء نتيجة لحالة الحرب والقتال التي سادت كوردستان، في تلك الفترة التي تعرّضت فيها، باستمرار لهجمات المحتلّين. وكان أبناؤها الـ «أبطال» يتصدّون للأعداء بكل جراءة وإقدام وثبات،[1] حتّى أنّهم تمكّنوا من تضييق الخناق على جيش زينفون المتكوّن من عشرة آلاف مقاتل، قبل الميلاد.[(٢)] فمن لا يقول إنّ هذه المعارك والحروب المليئة بالشجاعة والبطولة هي نفسها التي أنتجت في ذلك الوقت، كلمة «كوردو»، وإنّه حينما يقال «كوردو» كان يقصد به فقط ذلك الشعب الشجاع الباسل الذي أصبح مصدر الحديث للأخبار البطولية في ذلك العصر.

في لغات العالم الحيّة، تشتقّ كل لفظة، لتدلّ على حدث أو ضرورة أو رغبة: فهناك حالات استدعت، وتستدعي اشتقاق ألفاظ لأصغر الحاجات الضرورية للإنسان، لذلك كان اختيار لفظة «كوردو» التي تعني «البطولة» للدلالة على شجاعة نادرة أو رغبة في الحرّية، لدى الكورد، قلّ نظيرها في ذلك العهد، اختيارًا

١ الأكراد، شاكر خصباك، ص٥٠٣ – ٥٠٦.

٢ زينفون مؤرخ يوناني كبير، جاء مع المرتزقة الإغريق اليونانيين الذين جندهم كورش ابن الملك دارا لانتزاع العرش من أخيه (ارتحشتا الثاني)، وقاد جموع اليونانيين بعد فشل المحاولة ومقتل كورش عام (٤٠١) قبل الميلاد، وأثناء انسحابه وجيشه إلى بلاده عن طريق (كوردستان) تعرض لهجمات مباغتة من المحاربين (الكورد) الشجعان، وقد دوّن زينفون أحداث هذه الحملة وظروفها وطريق عودتها والمناطق التي مرت بها، مع وصف واسع لسكانها وميزاتهم وبعض عاداتهم، فوفّر بذلك مادة جغرافية تاريخية مهمة جدًا في دراسة أحوال الشرق القديم ومنها التاريخ القديم للكورد ووطنهم كوردستان ـ المترجم).

موفقًا.

إنّ هذه الشجاعة ليست من النوع الذي حفر على الصخور الأثرية التي تعبّر عن عنصرية هذا الشعب، أبدًا. إنّ هذا الشعب وأرضه كانا دائمًا، يشكوان في محكمة التاريخ من غزو المهاجمين الغرباء، وقليلًا ما شكا منهما الآخرون. كانا قتيلين، وقليلًا ما كانا قاتلين،[٣] لذلك: من الخطأ القاتل أن توضع المفاخرة بـ «كوردو» في خانة التقليل من شأن الشعوب الأخرى.

إن علماء التاريخ متفقون كثيرًا على أنّ الهجرة الكبرى للأقوام الآرية، انطلقت من أوروبا نحو الأراضي الواقعة في أحضان جبال زاطروس. ويبدو أنّ الأقوام الآرية الأصل تلك، كانت أكثر غنى وقوّة وقدرة من السكّان الأصليين لهذه المناطق. لذلك تمكّنت من صهر السكّان الأصليين في بوتقة مشروع الصهر القومي، من غير أن يفقدوا هم السمات والصفات «الهندو- أوروبية»، حيث تفرّعت منهم شعوب عديدة مختلفة، والشعب الكوردي واحد من هذه الشعوب.

لقد جلب الآريون مع قوافلهم التي حملت مستلزمات مشروع الهجرة صناعة الفلزات وصناعة المستلزمات الحربية البدائية، والحاجات الضرورية لتلك الفترة الزمنية، لأنّ الآريين، وقبل النزوح عن شمال أوروبا، كانوا يعرفون الحديد والحدادة. ولذلك فإنّ لفظة «ئاسن» التي تعني «الحديد» جاءت متشابهة في عدد من اللغات «الهندو- أوربية». فمثلًا تنطق باللغة الكوردية «ئاسن» وباللغة الفارسية «آهين»، وبالألمانية «ايزن» وباللغة الإنكليزية «آيرن». كما كان لاستخراج الحديد والإلمام بالحدادة وصنع الأسلحة المختلفة منه، دور مؤثّر في سيطرتهم على المنطقة وما جاورها، وفي وانتصاراتهم.

إنّ الهجرة القومية للآريين، حصلت في عصر كانت للحياة الرعوية أهميّة كبيرة، إذ حصلت مجابهات دمويّة بسبب احتكار المراعي في مراكز سكن المهاجرين. ويعني هذا أنّ المهاجرين طردوا من ديارهم بالحرب والقتال، وفي نفس الوقت

٣ إنّ مهاجمة وقتل غير المسلمين لعدم دفعهم الجزية في عصر إمارة بوتان في كوردستان الشمالية، واشتراك كامران بدرخان الثائر الكوردستاني المنفي إلى بلاد الإغريق مع العثمانيين في قمع انتفاضة اليونانيين، وقتل سمكو لمار شمعون في كوردستان الشرقية - هي من الذنوب الخفية في تاريخ الشعب الكوردي في القرن الثامن عشر.

سكنوا في مراكزهم الجديدة بالحرب والقتال أيضًا. وفي تلك الفترة بالذات، وصل قسم من الأقوام الآرية إلى كوردستان، وسكنوا فيها بصورة دائمة.

يبدو أنّ الظروف المناسبة التي سنحت لهؤلاء، كالطبيعة الجغرافية والمناخية والرعوية، وطرق المواصلات، والينابيع والأنهار والمياه الوفيرة في كوردستان، كان لها دور مهمّ جدًا في توطين هذه الأقوام المهاجرة، ومن ثم اندماج السكان الأصليين مع الضيوف المهاجرين.

إنّ الهجرة والانتقال من مكان إلى مكان، والحياة المبنيّة على تربية المواشي، لا يمكن أن ينظر إليها من الجانب الاقتصادي فقط، بل هناك جانب مهمّ آخر لها، يحتاج إلى بحث ودراسة معمّقة، وهذا ملخّصه:

إنّ قلع قوم من الأقوام من الجذور عن طريق الحرب، وتوطينهم في أرض جديدة بالحرب أيضًا، من أجل تأمين الحياة الاقتصادية، ليس مشروعًا تاريخيًا سهلًا، إنّما هو بداية لمأساة ترسيخ أقدام هذا القوم على تلك الأرض الجديدة.

كانت تربية المواشي-بحكم مقايضة سلعة بسلعة في ذلك العصر، قبل سك النقود-مقياسًا لمستوى المعيشة، حيث تمكّنت القبائل الرحّل، عن طريق بيع منتوجاتها الحيوانية، من الحصول على المستلزمات الضرورية لحياتها المتنقّلة، بسهولة ويسر أكثر، لو قورنت بالقبائل المستقرّة. علمًا أنّ أصحاب المواشي الرحّل لا يحتاجون إلى الجهد وقوّة العمل بقدر حاجات المستوطنين المستقرين في أماكنهم، وهي كذلك إلى يومنا هذا. فالقبائل المستقرّة كانت بحاجة أكثر، إلى المحاربين والفرسان والسلاح، لأنّهم كانوا يخافون من قطّاع الطرق والغزو والنهب.

إنّ هذه الحالة الاجتماعية القديمة المناسبة للرحيل والانتقال، كانت دومًا عاملًا مهمًا جدًا في حياتهم، حيث استغلّوا العدد الكبير من القوّة البشرية، ممّن ليس لهم أيّ عمل، أو لهم عمل غير مهمّ، ليسلّحوهم، من أجل حماية مراعيهم، والمحافظة على حيواناتهم وممتلكاتهم ويشجّعونهم على إنتاج الحاجات الضرورية، كالأسلحة البدائية والملابس وغيرها. ومن الطبيعي أن يدفع التوسّع في تربية الماشية تلك الشعوب للبحث عن مراعي جديدة، أي إلى التنقّل. وهكذا دخلت هذه الشعوب في صراع مع الشعوب المستوطنة لإقصائها. ولذا نلاحظ

أنّ الشعوب الرعوية البدوية كانت دائمًا شعوبًا محاربة.[4]

هذه الحالة الاجتماعية الكوردية القديمة في كوردستان، كانت -بلا شك- عاملًا مساعدًا ومشجّعًا على المحافظة على الأمّة الكوردية ووطنها وتقرير مصيرها أمام المحتلّين الأجانب كافّة. وإذا جرى استبيان هذه الحقيقة بالأدلّة والبراهين العلمية الدقيقة من قبل الباحثين، نعتقد أنّ هذه الحقيقة العلمية التاريخية غير المبرهنة حول: كيف تمكّن الكورد، على الرغم من عدم وجود كيان سياسي خاصّ بهم، من أن يحافظوا على أنفسهم وأرضهم ولغتهم وتقاليدهم وتراثهم، أمام كل هذه المعاناة والتعاسة والفناء والقحط والخراب والقتل والنهب والسلب، وألا يفقدوا هويّتهم الوطنية أمام هجمات الجيوش، والدول، وأصحاب الشأن، والأديان، والمذاهب، نعتقد أنّها الحقيقة العلمية التاريخية التي ستتضح أكثر فأكثر.

إنّ عملية المحافظة على هذه المقوّمات، لم تكن عملًا ارتجاليًا أو محض الصدفة. كما أنّها لم تتمّ بمعزل عن الأسس الاقتصادية والاجتماعية، وإنّما – وبلا شك – كان تأثير الوضع الجغرافي والتكوين الاجتماعي للشعب الكوردي آنذاك، في حصولها بمستوى تأثير الوضع الاقتصادي المذكور. فالعوامل هذه جميعها كان لها دور مهم في المحافظة على الأمّة الكوردية واستمرارية وجودها.

ليس سهلًا أن يحافظ الشعب الكوردي على هويّته القومية، ووجوده طوال هذا التاريخ المديد، في ظلّ الهجمات الشرسة المستمرّة التي تعرّض لها من قبل أعداء كثر ومختلفين، في الوقت الذي لم تتمكّن شعوب أخرى من أصحاب الكيانات المستقلّة والحضارات الكبيرة والجيوش الجرّارة المقتدرة كالسومريين، والأكديين، والبابليين، والفراعنة، والآراميين، والفينيقيين والأشوريين من الصمود، بل انصهر بعضهم وذابوا، ولم يبقَ منهم شيء سوى الآثار التي وضعت في المتاحف التاريخية. بينما الشعب الكوردي الذي تعرّض إلى الهجوم والاضطهاد والقتل والنهب والحرق والاحتلال، أكثر ممّا تعرّضت له تلك الشعوب، بقي حيًّا مع كل ذلك، ولا يزال راسخًا في أرضه. وإنّ عوامل بقائه طبعًا تعود إلى العوامل التي ذكرتها، إضافة إلى المساحة الشاسعة لموطنه ووعورته، وكثافة غاباته، وآلاف

---

٤ جان بابي، القوانين الأساسية للاقتصاد الرأسمالي، ترجمة لجنة مؤلفة من: شريف حتاته، محمد خليل قاسم، سعد كامل، حليم طوسون، ص ١٤.

الجداول والينابيع المتدفّقة فيه. هنا نصل إلى الإمساك برأس الخيط في العقدة التاريخية المستعصية، لنقول بكل مرارة وأسف:

شعب ووطن أصبحت الحرب والدفاع عن النفس جزءًا مهمًّا من بقائه، ككيان واحد. ولم يمرّ ربع قرن من عمره الطويل المديد بلا حروب كبيرة ومعارك مأساوية، فكم يبعث على الأسى والحزن أن تذهب سدى كل هذه التجارب المليئة بالحروب والمقاومة، بسبب عدم ظهور مؤرّخين، وباحثين، وسياسيين، وعسكريين، ومحلّلين، ومثقّفين، إلى الآن، ليكتبوا، ولو كتابًا عسكريًا واحدًا خاصًا، حول ذلك الماضي الذي سجّل بالدم والدموع، من تاريخ هذا الشعب، بل لم تكتب مذكّرة واحدة حول تلك الأحداث الدامية والمستمرّة على مدى التاريخ!

لقد أهملت كل هذه التجارب، وآلاف من الحروب، والانتفاضات والثورات، وعمليات المقاومة التي خاضها الشعب الكوردي، من قبل العجزة والكسالى من أبنائه. وأصيب بداء الإهمال وعدم الاكتراث بالأحداث موكلًا كل ذلك إلى ذاكرة الأجيال ومذكّرات المحتلّين والغاصبين.

لو نظرنا إلى الكتب التاريخية التي كتبت عن الكورد، وقارنّاها ببقية أقسام جوانب حياة الشعوب، لوجدنا أنّه نال حظًا أكبر عمّا كتب عن الجوانب الأخرى، ومع ذلك لم يكتب عن تاريخه العسكري إلا قليلًا. وما كتب عنه، فإنّ معظمه كان ممّا لا قيمة له، إلى درجة، لو قارنّاه مع ما كتب عن الحروب والمعارك يجب أن نقول: إنّ ما يبعث على الدهشة والاستغراب في التاريخ الكوردي أن يعثر على مخطوطات الملالي والشيوخ القدامى في زوايا المساجد وأركان الجوامع، وعلى مخطوطات المتصوّفة في التكايا، وعلى رفوف «الخانقاهات». وقد طبع قسم كبير منها على نفقة كتّاب ومؤرّخين معروفين، مع كتابة مقدّمة لها من قبلهم، بينما لا ترى شيئًا يذكر أو يسجّل بطولات أبنائه، وتضحياتهم الجسام.

من الواضح أنّ هذا العمل فيه خدمة، لا يمكن إنكارها، لكنّ المرارة والحسرة تكمنان في عدم التفات أحد من هؤلاء من الناحية العسكرية، إلى الدم المراق لآلاف الألوف من الذين ضحّوا بأنفسهم، أو الذين دفعوا دفعًا إلى التضحية بأنفسهم في ساحات الحرب والقتال، رغم أنّ الكورد اعتادوا على العيش مع

الأحداث العسكرية والسلاح والبندقية والمقاومة المستمرّة.

لهذا، فمن حقّ كل كوردي أن يوجّه عتابًا إلى أولئك العلماء والفقهاء الكورد الذين خدموا الدين الإسلامي، منذ بداية فرض الإسلام بالحرب والقتال على الكورد، واحتلال كوردستان، إلى حين قيام بدايات حركة التنوير الكوردستانية، لأنّهم ظلّوا يؤمنون بالمثل القائل «ما دامت المساجد موجودة، فإنّ البيوت حرام عليهم»! ولأنّهم كانوا في خدمة الإسلام والإسلاميين، إلى الحدّ الذي دفعهم إلى «تكفير» الآلاف من المخلصين لأرض كوردستان وشعبها تكفيرًا مطلقًا في بدايات احتلال كوردستان باسم الفتوحات الإسلامية. وكان تكفيرهم ليس لشيء إلا لإيمانهم بعقيدة الوجود القومي للكورد، والتضحية بأنفسهم في سبيل ذلك.

لقد آن الأوان لرجم الشواهد العالية العريضة لقبور أولئك المكفّرين بالحجارة، أينما وجدت، سواء في وديان كوردستان أم في سهولها، وربط خرقة خضراء على أشجار وشواهد قبور أولئك القادة الذين نسب إليهم إصدار أوامر احتلال كوردستان. فإذا كانت آراء أولئك وتصرّفاتهم بهذه الصورة، إذن، لا يمكن أن نلوم: «الدينوري، والآمدي، والشهرزوري، وابن خلكان، وابن سيرين،» و...إلخ، على كتابتهم مؤلّفاتهم باللغة العربية، ككتب الأحلام والتفاسير الدينية والمذهبية المختلفة. لقد عرف حاجي قادر كويي الذي كان من الشخصيات الإسلامية الكبار هؤلاء حقّ المعرفة حين وصفهم بـ «الدجاجة التي احتضنت بيضة البطّ حتى فقست عن فرخ لا يشبه أفراخها.»[٥]

فبعد ظهور حركة التنوير الكوردستانية، لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال أن يتخلّص الكتّاب ولاسيّما المشهورين منهم، في الأقلّ بعضهم، من هذا العتاب، بل اللوم، لأنّ أكثر أولئك، وإن تحدّثوا في ثنايا كتبهم عن قصص الحرب والمعارك الدموية، إلا أنّهم لم يدرسوها كموضوع خاصّ. ولم يشرحوا أنواعها وصنوفها ويستخلصوا عبرها.

إنّ قسمًا من أولئك المتنوّرين، إضافة إلى أنّهم كانت لهم اليد العليا في كتابة التاريخ، كانوا أيضًا من العسكريين، ومن ذوي المكانة العالية في الإمبراطورية

---

٥ حاجي قادر كويي (١٨١٥-١٨٩٢م) من الشعراء الكورد البارزين الذين عرفوا بشعرهم القومي والوطني - المترجم.

العثمانية، وفي الأجهزة العسكرية للدول المحتلّة. كما شاركوا في حروب ومعارك كبرى، وقاد عدد آخر منهم الحركات المسلّحة، أو عاصروا الأحداث الدموية، أو عاشوا معها، حاربوا، فتأذّوا. انهزموا. فمثلًا، كان الجنرال شريف ثاشا قائدًا شجاعًا لانتفاضة عام ١٩٢٠ المهمّة في كوردستان/القسم التركي. صحيح أنّه كتب مذكّراته التي وصلت إلى أيدي القرّاء أخيرًا، لكنّه لم يكتب بحثًا أو موضوعًا عسكريًا، بل حتى مقالة عسكرية خاصّة بتلك الأحداث العسكرية التي عاشها مباشرة.

أمّا أمين زكي، وتوفيق وهبي بط، اللذان كان لهما باع طويل في خدمة التاريخ واللغة الكورديين، إلا أنّهما- وعلى الرغم من كونهما من رجالات الجيش العراقي، ولهما دور كبير في الحروب والمعارك، بل وفي تأسيس الجيش العراقي- لم يكتبا أيّ كتابات عسكرية حول الوضع العسكري في كوردستان، سواء عن أعداء الشعب الكوردي، أم عن الشعب الكوردي نفسه. فمشاركتهما في تأسيس الجيش العراقي كانت شيئًا طبيعيًا عندهما، هذا الجيش الذي تصدّى للانتفاضات المسلّحة الكوردستانية المشروعة بدون تحفّظ، لكنّهما لم يقتربا من شرح الأوضاع العسكرية لأحداث كوردستان. فهؤلاء هم الذين أسّسوا للعدو جيشه القمعي، ونظّموا صفوفه، في الوقت الذي لم يكتبوا صفحة واحدة عن الانتفاضات المسلّحة لشعبهم، كموضوع عسكري خاصّ، ناهيك عن التحاقهم بصفوف الانتفاضات.

لا نستطيع أن نقول: كان هؤلاء غير كفوئين، وغير مطّلعين على العلوم العسكرية. فهذا محال، لأنّه ليس من المعقول أن توكل دولة إمبريالية تأسيس جيش لدولة محتلة كالعراق، إلى أناس غير كفوئين.

إنّ أيّ تفسير لعدم كتابة المواضيع العسكرية حول الانتفاضات والحركات المسلّحة في كوردستان، وما تعرّض له شعبها من قمع من قبل أعدائه غير صحيح، سوى أنّ هؤلاء كانوا أناسًا يسيرون مع السياسة البريطانية، ويؤيّدون وجهة نظرها تأييدًا مطلقًا. وكان عملهم هذا، من الناحية السياسية والعسكرية، في خدمة الإمبريالية والرجعية مباشرة.

لم ينتهِ الوضع بهذا، بل استمر نحو الأخطر. ففي فترات انتفاضات مناطق بارزان المسلّحة، وجمهورية مهاباد، نجد نفس الظاهرة العسكرية غير الموضوعية،

إذ قاتل الكورد فيها أعداءهم بصورة عفويّة أيضًا. وكان للعقلية العشائرية الدور الأول في وضع الخطط العسكرية في المعارك التي شهدتها هذه المناطق. ولم يسمح للضباط العسكريين أن يقوموا بدور فعّال فيها إلا في ما ندر. وممّا يؤسف له، في هذا المجال، أنّ الضباط الأربعة الأبطال الذين شاركوا في هاتين الحركتين المسلّحتين، أُعدموا من قبل الحكومة العراقية آنذاك، ولم يفسح لهم المجال كي يخدموا تاريخهم العسكري وتاريخ كوردستان في تلك الفترة. لقد بقي من أولئك الضباط ضابط واحد فقط هو ميرحاج أحمد الذي ما زال حيًّا، وواضعًا يده على «طاقية رأسه»(٦*) خوفًا من أن تسقطها الرياح العاتية! ولا يعرف مصيره، كيف يكون؟! هذا في الوقت الذي يحمل في مخيّلته كنزًا من المعلومات والحقائق التاريخية!

لنترك هؤلاء، ولنقترب أكثر من تاريخنا الجديد، حيث ثورة أيلول التي لم تدوّن وقائعها. فثورة أيلول وفي مراحلها الأولى، كان يقودها حزب مقتدر فيه المئات من الأشخاص والشخصيات السياسية والعسكرية المقتدرة، منهم عشرات الضباط، والقادة المتمرّسين الذين اكتسبوا الخبرات، لطول مشاركتهم في الثورة التي دامت أربع عشرة سنة. وفي خضمّ أحداثها، عاشوا، ناضلوا، قاتلوا، تجوّلوا، دخلوا وشاهدوا معارك مختلفة ضدّ أعداء مختلفين. وكانت في متناول أيديهم أدوات وآلات طباعة، وكان بمقدورهم توظيف المطابع التابعة للدولة في نفس الوقت، ناهيك عن المطابع الأخرى في خارجكوردستان.

الثورة اندلعت، ثم أخمدت بالشكل المأساوي المعروف لدى الجميع، لكنّنا لم نجد لا في الماضي، ولا في الحاضر، واحدًا من الكوادر العسكرية والسياسية- العسكرية، لثورة أيلول، من المشهورين ومعظمهم أحياء «لم يصبهم أيّ أذىً»، قد ألّف كتيبًا عسكريًا عن تلك الأحداث العسكرية، وعن نمط المعارك التي خاضها مناضلو تلك الثورة. فبعضهم صاروا تجّارًا كبارًا، وبعضهم التجأوا إلى دول متقدّمة، ويعيشون فيها برفاه وسعادة، وعدد غير قليل منهم يقضون أيامهم في ظلّ نظام البعث أذلاء وأشباه أذلاء، وقسم منهم ظلّوا في خندق الدفاع، لكنّ واحدًا منهم لم تهزّ أو تحرّك وجدانه نكبات وكوارث ثورة أيلول وتجاربها الغنية، لكي ينيروا، من خلال كتابات كهذه، طريق الأجيال القادمة.

---

٦ هذه العبارة في اللغة الكردية كناية عن السكوت والميل الى السلامة.

الأغرب من كل ما ذكر هو، أن يؤلّف أحدهم، وهو مسؤول معروف ومن القادة العسكريين في ثورة أيلول، وهي في أوج قوّتها- كتابًا حول «تعلّم اللغة الكوردية بالأحرف اللاتينية» في العاشر من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٣[٧] في وضع من أشدّ الأوضاع دمويّة في كوردستان، متناسيًا واجبه الحقيقي وعمله العسكري. إذ كانت الثورة -بلا ريب- في تلك الفترة، في أمسّ الحاجة إلى مواضيع عسكرية، لا إلى «تعلّم اللاتينية» الذي لم يثمرعن شيء حتى بعد بيان آذار.[٨]

إنّ أناسًا من هذا النمط، وبهذا السلوك، كانوا يقبلون تحمّل مسؤوليات عسكرية لآلاف من البيشمركة[٩]*، ويأخذونهم إلى ساحات القتال والحرب، ويرسمون لهم خطط الهجوم، ويدفعونهم إلى الموت، أو القتل، ويتسبّبون في حصول الدمار والخراب والحرائق والكوارث لشعبهم، أو لغيره من الشعوب، أو ربّما ينتصرون ويغنمون، لكنّهم لا يستطيعون كتابة صفحة واحدة عن علم الحرب والمعلومات الحربية، وليست لديهم القدرة على التحدّث عن المواضيع العسكرية، ولو لساعة، في الندوات والاجتماعات الجماهيرية. أليس هذا مضحكًا ومبكيًا في آن واحد؟!

---

٧ مؤلف هذا الكتاب هو السيد عزيز عقراوي الذي كان قائدًا عسكريًا مشهورًا في ثورة أيلول.

٨ بيان الحادي عشر من آذار، أو اتفاقية (١١) آذار: هي الاتفاقية التي وقعتها الحكومة العراقية وقيادة الحركة الكوردية في ١١/آذار / ١٩٧٠، واعترفت الحكومة العراقية بموجبها بالحقوق القومية للكورد، بما فيها الحكم الذاتي لكوردستان العراق، الا أنها سرعان ما تراجعت عن التزاماتها التي وردت في هذه الاتفاقية مما أدى إلى استئناف القتال بينها وبين الحركة الكوردية في ١٩٧٤/٣/١١. المترجم.

٩ البيشمركة: اصطلاح متكون من مقطعين؛ بيش: أمام، مركة: الموت. والمصطلح بمقطعيه يعني: الإنسان الشجاع الذي لا يهاب الموت، ويسير أمامه، وبمعنى آخر أدق يعني: الفدائي -المترجم.

١/١- هذه الثورة

إنّ تجربة هذه الثورة تتوطّن في عين التاريخ، لأنّ إشعال فتيل الثورة من جديد، وعلى نهج جديد وبأخذ العبر والدروس من الماضي، لاسيّما من ثورة أيلول، كان يقصد من ورائه أن تكون أحسن من سابقاتها وألا تكرّر فيها الأخطاء الماضية، وأن تكون الثورة جديدة من كل النواحي. ولهذا، كان من المفروض أن تكون جديدة حقًّا من الناحية العسكرية، وفي كتابة المواضيع والتربية والتدريب العسكري الثوري، لكنّها، أي الثورة الجديدة، قصّرت هي أيضًا في هذا المجال.

الظروف فرضت موضوعيًا الكثير من الأحداث العسكرية على سير المعارك، وكيفية مجرياتها، وشكل تركيبة الثورة، لكنّها هي نفسها التي خلقت العديد من المسؤولين العسكريين المعروفين من الذين برزوا، وأُبرِزوا بسبب تأثير مجموعة من العوامل الجغرافية والاجتماعية والقومية والشخصية. وقد أثبتوا استعدادًا عسكريًا جيدًا، خاصّة في ساحات المعارك، ولكن هذا لا يعني أنّهم استطاعوا حقًّا إعداد المواضيع الخاصّة المتعلّقة بالنضال المسلّح لثورة كوردستان، كالثورات الطويلة الأمد ذات التراث العسكري الكبير في العالم، والتي لم تكن أيّ منها أطول مدّة من الثورة الكوردية، فبينما تحرّروا هم، فشلنا نحن من جديد، وفي الثورة الجديدة أيضًا.

إنّ ظاهرة عدم الالتزام بهذه الحقيقة ناتجة عن قلّة الاهتمام بالبحوث العسكرية، والتربية العسكرية، وكتابة المواضيع العسكرية، وتربية القادة العسكريين المهرة. فحتى الآن لا تعرف إلا نادرًا جدًّا، ولا تتّبع إلا قليلًا أسس الحرب الجبهوية، وحرب العصابات والحرب المتحرّكة، والحرب الهجومية، والدفاعية الاستراتيجية، وحفر الخنادق، وإنشاء الربايا المستحكمة، والملاجئ الحصينة... إلخ. ليس القصد من هذا أنّ العقلية السياسية هي التي سيطرت، وأهملت الاهتمام بالتربية العسكرية، أو أنّنا لا نريد أخذ كل هذه البطولة، والانتصارات العسكرية، والعمليات الفدائية، وتوجيه الضربات العسكرية المؤثّرة للعدوبنظر الاعتبار. لا، ليس ذاك، ولا هذا، إنّما القصد فقط، هو سيطرة العسكرتاريا المتخلّفة التي لم

تنتهج فيها أبسط العلوم العسكرية.

ففي جميع أرجاء كوردستان، وبعد كل هذه الحروب الجبهوية الدموية غير المعهودة، كالأنفالات، التي فرضت على كوردستان، والقصف المدفعي الثقيل الذي لم يحصل مثله في الماضي، لم يتم -مع الأسف- حتى الآن، إنشاء ربايا وملاجئ حصينة، تقاوم المدافع ذات العيار الثقيل، فوق الجبال العالية والأماكن المهمة إلا نادرًا، بل حتى حول المقرّات. وهذا يظهر -على الأقل- العقلية العسكرية المتخلّفة للقوى الكوردية التي كانت تمسك بزمام الأمور، إذ أصبحت أكثر تخلّفًا من عقلية الذين عاشوا في بداية القرن التاسع عشر.

ففي عصر الانتفاضات الكوردية المسلّحة، أنشأ ثاشا كوره، وبدرخان، والقادة الذين جاءوا بعدهم، وحسب خبرتهم في المدافع والسلاح الثقيل للعدو، قلاعًا عالية حصينة صمدت أمام قصف الأعداء لعشرات الأيام، بل الشهور. وما زالت آثار هذه القلاع التي بناها الأمراء، المعتبرة حصينة في زمنها، باقية إلى يومنا هذا. لكنّنا لا نجد أن القادة العسكريين في هذه الثورة، قد أعطوا أيّ اهتمام بمثل هذه المسائل. ولم يحسبوا أيّ حساب للمدفعية الثقيلة والطائرات الحربية الحديثة المدمّرة، بل أصبح الذين حاولوا الاحتماء بالملاجئ مصدرًا للسخرية والاستهزاء من قبل زملائهم الآخرين، ويرجع كل هذا إلى غياب التربية العسكرية والسياسية الصحيحة.

يبدو أنّه من الصعب، وإلى الآن، أن تعرف أكثرية الكوادر العسكرية الكوردية عيار هذه المدافع، ووزن القنابل، ونوع الصواريخ التي تستعمل ضدّ كوردستان، وكم مرّة تتضاعف قوّتها وقدرتها أثناء الانفجار، وكم يجب أن يكون حجم وكتلة وسمك الربايا والمقرات، لتتمكّن من مقاومة الهجمات التي تشنّ عليها بهذه الأسلحة. هذه المعلومات مهمّة جدًا، للصمود أمام هجمات العدو المقتدر، سواء من أجل المحافظة على حياة البيشمركة والمواطنين، أم الحفاظ على المعنويات العالية من أجل الصمود. فلو توفّرت تربية عسكرية، وتمّت تربية الناس بها على أسس علمية ومعلوماتية عسكرية، لكانت أعمال وتصرّفات وأقوال الناس وفق هذه التربية. ولعرفوا، ماذا يستعمل العدو، وكيف يتصرّفون إزاء ذلك، ولماذا لا يعابون عندما يتخفّون أثناء الغارات والقصف المدفعي. فكل من ليس لديه معلومات عسكرية حول أسلحة العدو، لا يعرف كيف يتصرّف داخل الربيئة

والمقرّ والبيت، وفي العراء أثناء الغارات الجوية والقصف المدفعي، لكنّه عندما يعرف، فمن المؤكّد أنّه سيتصرّف التصرّف الصحيح. فمثلًا:

قنبلة زنة ٥٠ كيلوغرام من الديناميت تتمكّن من نسف ما سمكه قدم واحد من الكونكريت المسلّح، وكلّما زاد وزن مثل هذه القنابل، تمكّنت من قطع، ونسف ما سمكه أكثر وأصلب من الربايا والتحصينات. فنوعية صناعة القنابل وتقنيتها في هذا العصر أكثر فعاليّة واختراقًا وتدميرًا، إذ تتمكّن اليوم قنبلة حديثة ذات إطلاقة طويلة من وزن ٨٠٠ كيلوغرام، وعيار ٨٩، وطول متر واحد، مصنوعة من الفولاذ، من اختراق ما سمكه عشرة أمتار من الكونكريت ونسفه.

إنّ طائرات الباجر والميغ والميراج الحديثة المتطوّرة، ويملك العراق جميع هذه الطائرات، لها القدرة على الطيران لفترة طويلة، وبحكم صغر مساحة حدود المناطق التي يسيطر عليها البيشمركة، من جهة، وسيطرة الحكومة المركزية الكاملة على أكثريّة المدن والمناطق المهمّة من جهة أخرى، لا تحتاج هذه الطائرات إلى مدّة طويلة في الطيران للوصول إلى أهدافها. فمن أبعد مطار في كوردستان تستطيع الوصول إلى ساحات معارك الثورة وأحصن مقرّ واقع على الحدود بساعة واحدة، لذلك تتمكّن هذه الطائرات، وبسهولة، من حمل القنابل الثقيلة ذات وزن ٦ أو ٧ آلاف كيلوغرام، في الوقت الذي لا يمكنها حمل مثل هذه القنابل الثقيلة لمسافات طويلة. هذا، إضافة إلى قلّة وضعف ما لدى البيشمركة من المضادات الجويّة ممّا يساعد هذه الطائرات على التحليق المنخفض والتهديف الناجح والإصابة المباشرة.

فكل طائرة تستطيع حمل ١٦ إلى ٢٠ قنبلة مدمّرة، بمقدورها تدمير أيّ مقرّ أو ملجأ أو ربيئة، حتى لو بلغ سمك سقفها عشرة أمتار من الكونكريت. ونستطيع أن نقول، وبكل ثقة: لم ينشئ أيّ طرف من الأطراف المسلّحة الكوردستانية في هذه الحركة التي يملك عدوّها أكثر من ٥٠٠ طائرة حربية، و٧ آلاف مدفع ثقيل وخفيف، مقرًّا وربيئة وملجًا ونفقًا له، تحت الأرض، يكون سمك بنائه خمسة، أو أربعة، أو ثلاثة أمتار من الكونكريت. ومع ذلك كان يراد عن طريق الثورة الطويلة الأمد وسط شعب، هزم من الناحية العسكرية عشرات المرّات على يد قياداته، أن ينتصر هذا الشعب وبهذه الاستراتيجية المتخلّفة عن العصر.

عندما يقرأ أيّ شخص ما كتب عن كيفية بناء الربايا، وحفر الخنادق والأنفاق العميقة والكبيرة أثناء ثورات الصين، وفيتنام، وكوريا...إلخ، يعرف حينذاك، كيف بقي هؤلاء على قيد الحياة، في خضمّ ملايين الأطنان من المدافع والقنابل، ليس هذا فقط، بل، وانتصروا في النهاية على أعدائهم.

فلو كان حسم الأمور يتمّ عن طريق عدد طلقات المدافع والقنابل والقذائف والصواريخ التي دكّت، بل حرثت أرض هذه الشعوب، لكان من غير المعقول مطلقًا، أن يبقى أحدهم على قيد الحياة، لا أن ينتصروا. إنّ هذا الوعي العسكري من لُدَن هذه الشعوب، قبل نصف قرن بل وأكثر، يدلّ على مدى تخلّف القيادات العسكرية للأحزاب الكوردستانية عن تطوّرات العلوم العسكرية وتكنولوجيا الحروب.

إنّ عدم الاهتمام بالكتابات العسكرية والتربية العلمية الثورية العسكرية، في هذه الثورة، انعكس سلبًا عليها، وخلق المتاعب لها. فها هو عمر هذه الثورة يقترب من عمر ثورة أيلول، وليس بعيدًا أن يكمل ذاك العمر ١٤ عامًا، دون أن تعرف نتائجها، بينما لم يكتب إلا عدد قليل من الكرّاسات العسكرية الصغيرة حول الحرب وساحات معارك البيشمركة. لربّما لا يتعدّى مجموع صفحات هذه الكرّاسات مئة صفحة من القطع المتوسّط، إضافة إلى ترجمة عدد قليل من الكتب والمقالات والبحوث الأخرى. أمّا تكتيك واستراتيجية الثورة ومعاركها، ومعارك العدو، والانتصارات والهزائم، ومراحل الشروع والانتعاش، والغليان والنكوص، فلم تدرس ولم تبحث. ولم تحلّل أيّ واحدة منها، وما زال الناس يفكّرون، بعقلية رومانسية ونظرية بحتة، إلى يومنا هذا، في السلاح والقتال والثورة الطويلة الأمد، لاسيّما الشباب اليساريون المتحمّسون.

حصلت تلك الحقائق في هذه الثورة، وألحقت أضرارًا قاتلة بالبيشمركة والمواطنين، في وقت، كانت هناك أربعة أطراف رئيسية في الثورة، بخلاف ثورة أيلول، وهي: الاتحاد الوطني الكوردستاني، والحزب الديمقراطي الكوردستاني، والحزب الاشتراكي الكوردستاني، والحزب الشيوعي العراقي، ولكل منها مؤسّسات عسكرية وقوى تنظيمية. فهؤلاء، وخاصّة «الاتحاد» و»الديمقراطي»، يملكون مكاتب عسكرية خاصّة، يضمّ العديد من الأعضاء، وقادة قوّات، وفرق، وألوية، وأفواج، وسرايا، وفصائل، وفي صفوفهم العديد من الضبّاط القدامى والجدد،

الذين خاضوا آلافًا من المعارك الكبيرة والمتوسّطة والصغيرة، ومرّوا بأصعب مراحل الثيشمرطايتي–العمل الفدائي. ومع هذا يجب أن نقول بكل أسف، لم يستطع هؤلاء جميعًا تحقيق، ولو أقلّ ما يمكن، من المسؤوليات التي يتحمّلونها، وهي الكتابة عن الشؤون العسكرية، والتربية العسكرية، ووضع الخطط اللازمة للمقاومة وحماية المقاتلين، والجماهير في الأراضي المحرّرة.

هناك الكثير من الجوانب العسكرية في كوردستان، حيث تقترب الثورة من هذا الجانب من مراحلها الأخيرة، لكنّ قادتها وكوادرها لا يعرفون، إلى الآن، بكم مرحلة تمرّ حرب الأنصار، وما مسؤوليات كل مرحلة، وما هو السبيل إلى النصر في الحرب الطويلة الأمد، وما هي الشروط العسكرية والسياسية للانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى! هنا، لا نوجّه نقدنا إلى الذين لا يزالون، وهم في نهاية القرن العشرين، زمن أقصى درجات التقدّم لأشكال الثورة والثورة المضادة –لا نوجّه النقد إلى الأميّين منهم، أو أشباه الأميّين، على الرغم من أنّهم، ومع الأسف، رضيت ضمائرهم بأن يصبحوا قادة، مع أميّتهم، لعشرات الألوف من الأبناء الشجعان المثقّفين، ليقفوا أمام عدو شرس، متمرّس بالسلاح. إنّ نقدنا غير موجّه إلى هؤلاء لأنّهم أميّون، كذلك حديثنا لا يوجّه إلى أكثرية المثقّفين الذين لا يطيقون قراءة الكتاب من الغلاف إلى الغلاف، أو قادة الأحزاب، فيكفي أن نبقيهم فيما هم عليه من التخلّف وبالطريقة التي يفرضون آراءهم المتخلّفة على الجماهير والأنصار، نتركهم يتمتّعون بتخلّفهم الفكري حتى يأتي اليوم الذي نراهم مخذولين. إنّ حديثنا هو مع الضبّاط، والخبراء، والكوادر القدامى الشجعان، والذين تعب وناضل قسم منهم حقًا، ولهم معرفة بشؤون الحرب، واكتسبوا خبرات في ساحات المعارك، لكنّهم لم يقوموا بأداء واجبهم الحقيقي أيضًا، في موضوع الكتابة عن الشؤون العسكرية، ولم يكتبوا أيّ شيء عنها، لكن، وبلا شك، هناك أسباب عديدة لعدم كتابة هؤلاء المقتدرين عن هذه الشؤون، من أهمها:

١– انخفاض المستوى العلمي، والنظري العسكري، والحزبي لديهم.

٢– الهزيمة العسكرية العامّة لحركة الشعب المسلّحة.

٣– عدم توفّر الكليّات والمؤسّسات العسكرية الخاصّة بالثورة، وعدم المشاركة في الدورات والكليّات العسكرية في الخارج أيضًا.

٤- سيطرة الفردية، وعدم اتباع سياسة حرّية التعبير عن الرأي.

وبلا مؤاربة نقول، إذا لم يثبت المسؤولون المشهورون لهذا القسم العسكري والسياسي لحركة الشعب -مع اعترافنا بجهودهم وشجاعتهم ونضالهم الطويل- في المستقبل حقيقة أفضل لمدى إمكاناتهم وقابليّاتهم العسكرية، ولم يكشفوها للناس، ولم يكتبوا كل التجارب العسكرية للحركة، بصورة موضوعية، للجيل الحالي وللأجيال القادمة، ومن كل النواحي، فإنّهم يجب أن يعرفوا، منذ الآن، أنّه سيسجّل عليهم في المستقبل القريب ما يفيد بأنّ مستواهم العسكري كان أوطأ وأضعف ممّا تحقّقت في ظلّه الانتصارات، وأنّهم مدحوا، وجعلوا قادة عظامًا، بقوّة السجون وتأثير الزمن، وسلطان التحزّب الضيّق، وسحر الانتهازية. وعندما يبدو للعيان بصورة جليّة، كم كان مستواهم واطئًا، فعليهم حينذاك أن يعدّوا أنفسهم للوقوف أمام محكمة التاريخ، ليحاكموا، وسينكشف كيف كانوا مسؤولين عن الهزيمة، كما كانوا مسؤولين عن دماء آلاف البيشمركة والجماهير الكادحة.

إنّ هذا الجهد الذي بين أيديكم هو بحث تاريخي لحرب الأنصار التي نمت وتطوّرت إلى ثورة طويلة الأمد، ومن ثم تحوّلت إلى ثورة الانتفاضة، وقد كتب الجانب النظري للبحث من أجل فهم الماضي والحاضر والمستقبل بصورة أوضح. نأمل ألا يكون آخر محاولة من هذا النوع، في ظلّ هذه الأوضاع العالمية، وفي ظلّ هذه الظروف غير المواتية، وأن تبذل جهود علمية أكثر، وحسب المستطاع، في هذا المجال، وأن لا يترك المجال للكتّاب الأجانب أبدًا، لاسيّما المسيئون، أن يقيّموا الحركة العسكرية في كوردستان حسب رغبتهم، وأن يجعلوا الانتصار والهزيمة بالمقياس الذي يرتأونه مقياسًا للشرعية وعدم شرعية الحركة الكوردية المسلّحة، وكان هذا نصيبنا على مرّ الزمان! إنّه لمن دواعي السرور أن يتحمّل مهمّة إنجاز ما لم يتمّ إنجازه في هذا المجال، وبصورة أفضل، أناس أكثر اقتدارًا، وخبرة وعسكرية، وبلا تقصير. فعدم التقصير مساعدة ثمينة للنضال المستقبلي لشعبنا الذي ما زال مضطهدًا إلى اليوم، حتى لو كان فقط من أجل أن يعرف جيل المستقبل حقائق هذه المرحلة، والمراحل السابقة بشكل جيّد، ويستفيدوا منها، في الوقت المناسب.

إنّ التاريخ يثبت أنّ ثمة ارتباطًا عضويًا بين الماضي والحاضر والمستقبل ، كما يؤكّد على أنّ عجلة التحرّر لم، ولن تتوقّف أبدًا.

١/٢- جوهر البحث

إنّ جوهر هذا الموضوع يهدف إلى فتح ثغرة في جدار الحلقة المفرغة التي تدار فيها الحركة الكوردية المسلّحة من غير الوصول إلى النصر، آملين ألا يسمح الذين يبحثون عن النهج الحقيقي للنصر، للفاشيين أن يصبحوا هم من يحكم ويقرّر مصير النضال المسلّح في كوردستان، ويكتب تاريخه لعشرات أخرى من السنين. ويتطلّب هذا، قبل كل شيء، القدرة على مراجعة النفس، وهدوءًا أكثر، وشموليّة أكثر، والابتعاد عن المصالح الحزبية الضيّقة، والعاطفة المجرّدة للتيّار القومي، وتقييمًا موضوعيًا للماضي كما هو، لا كما نشتهيه، ومعرفة حاضرنا، وقياس مستقبلنا بالمعايير النظرية المستقبلية، لا بمقياس الفخر والاعتزاز بالنفس أو الانكسار والإذلال والشعور بالمهانة.

لاشك، أنّ المشاكل العديدة للسنوات الطويلة من النضال: حروبها وضحاياها، ومفاخرها ووقائعها المخجلة، وأخطاؤها وخطاياها، ودفع المناضلين إلى الوقوع في ارتكاب الأخطاء، والتسبّب في القتل غير المجدي عبر الحروب الداخلية، والاتهامات الموجّهة إليها، والذنوب التي ارتكبتها. إنّ كل هذه الأعمال، سواء شئنا أم أبينا، أثّرت قليلًا أو كثيرًا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في كل الذين شاركوا في الأحداث الماضية، حتى اضطروا إلى اتخاذ القرارات والمواقف، والقيام بالأعمال، واحتلال الربايا، كذلك أن يَقتلوا، ويُقتلوا، وأن يتخذوا قرارات غير مناسبة في أكثر الأحيان... إلى آخره.

هذه الحقائق جميعها، وكيفما كان التفكير فيها، تنغرس كشوكة في عيون كل المشاركين في الأحداث، وفي كل الأحوال، سواء الجيّدون منهم أم السيّئون. فأيّ طرف سياسي حمل بندقية، وأطلق رصاصة، أو كانت له مفرزة أو قوّة مسلّحة، تقع على عاتقه مسؤولية الكوارث، قليلًا أو كثيرًا حسب وزنه، إلى حدّ اليوم الذي كان له وجود في ساحة النضال، ويصدر القرارات أو ينفّذها. ولكن، كما

يقول السلف «يعلّق الغنم من رجله والمعزة من رجلها»[10]، أو بعبارة موجزة أخرى كما ورد في الأمثال الكوردية «حجارة كل طرف تحرّك ماء البركة بقدر ثقلها.»[11]

إنّ تقييم نهج الثورة الطويلة الأمد في كوردستان من الواجبات الضرورية الملحّة للنضال التحرّري في هذا الوقت، لأنّ أكثر مثقّفي شعبنا المخلصين وضعوا مسؤولية الهزائم على الثورة المسلّحة ونتائجها في الماضي. وهذا، وإن كان مهمًا فقط بالنسبة إلى المنظّرين والكتّاب السياسيين والعسكريين في الشعوب ذات السيادة والكيان السياسي، لإغناء مسيرة ثقافتها، فهو عمل مصيري للكورد والشعوب المضطهدة المغلوبة على أمرها. ففي كوردستان يوجد قليل من الناس ممّن لم يفكّروا قليلًا أو كثيرًا، وبشكل من الأشكال، في مصير الحركة الكوردية المسلّحة، خاصّة بعد الهزيمة التي أعقبت عمليات الأنفال عام ١٩٨٨. والتفكير أخذ أبعادًا مختلفة: اليأس والسوداوية، والاستسلام، واللجوء إلى الخارج، وقضاء الوقت في إيران، والعيش في المخيّمات، والفوضى والتسيّب في الحياة، كذلك الإصرار على النضال المسلّح من دون دراسة واستقصاء. هذه كلّها أفكار سياسية وأمراض نفسية حصلت نتيجة للهزيمة والكارثة الجديدة، للثورة الجديدة!

إنّ الحديث الذي يجلب الانتباه الآن هو أنّ هناك أشخاصًا ما زالوا يعتقدون، لأسباب سياسية وتنظيمية وقومية وشخصية عديدة، أنّ مواصلة الثورة المسلّحة الحالية، هي التي تقود إلى النصر والنجاح. لكنّهم على ما يظهر لديهم انتقادات ومآخذ على هذا الطرف، أو ذاك القائد، أو الآمر الفلاني، ومن وجهة نظر هؤلاء، لو تمّ تصحيح المسار والأخطاء التكتيكية، وسدّت نواقص الكفاح المسلّح، ولبّيت احتياجاته، فإنّ البيشمركة كانوا سيزدادون عددًا وعدّة، وينتصرون في المستقبل.

هذه الأقوال كلّها موجودة ومطروحة على البساط، ويجري الحديث عنها الآن في اللقاءات والاجتماعات، وتلتقي حولها الآراء حسب المستوى الطبقي للناس من دون بحث المسائل الاستراتيجية للثورة المسلّحة.

---

١٠ (هذا القول مأخوذ من المثل الكوردي: مةرِ بةثيَى خوي وبزنيش بةثيَى خوي هةلَدةواسرىــ المترجم).

١١ (لا أبرئ نفسي من مسؤولية هذه الحوادث بل وكنت أحد المسؤولين البارزين في الأحداث منذ بداية الثورة وإلى الانتفاضة.

من المعروف أنّ نقد الآخرين أسهل، وأحلى من نقد الذات، لذلك، أُلقيت مسؤولية الهزيمة على عاتق أطراف وأشخاص معيّنين، وتمّت تبرئة أطراف وأشخاص آخرين. وهذه ظاهرة اعتيادية وسهلة، في خضمّ هزائم الشعوب. فأحداث التاريخ في بقاع العالم تثبت أنّ الانتصارات دائمًا لها أصحاب كثيرون، بينما الهزائم لم يتحمّل أحد وزرها، وأنّ الآراء الاجتماعية والسياسية المختلفة تبقى ما دامت العدالة الاجتماعية غائبة واحتلال الأوطان مستمرًا والاستغلال الطبقي موجودًا، لكنّ المقاييس الموضوعية لتقييم الظواهر ثابتة وباقية.

سنحاول، من الآن فصاعدًا، أن نتحدّث عن كل شيء له علاقة بالحالة الاقتصادية العالمية المتغيّرة، ومدى تأثيرها في الأحداث: تكنولوجيا الحرب، وتغيّر الحالات الاجتماعية، ومواقف الطبقات منها.

إنّ هذه المواضيع، بلا ريب، محاولة لإظهار وصول الثورة الطويلة الأمد، كنهج رئيس لتحرير الشعوب المضطهدة، إلى طريق مسدود، إلا في بعض المناطق الخاصّة، أو اتخاذها كشكل من أشكال النضال التكتيكية التي توضع في خدمة انتفاضات المدن، وإلا فإنّ الثورة الطويلة الأمد التي يتحدّث عنها القادة والمنظّرون، كقانون ثابت لتحريرالشعوب، قد انتهت مرحلتها. وآن الأوان لتحديد البديل الثوري الجديد المعاصر للعمّال والكادحين والشعوب لاستمرارية الثورة وفق الشروط السائدة لهذه المرحلة.

إنّ هذا البحث له صلة وثيقة، بصورة أكبر، بنظرية الثورة الطويلة الأمد في العالم، كنهج نضالي صعب، انتهج أكثر من خمسة عشر عامًا في الكفاح المسلّح في كوردستان من أجل التحرير، لكن دون تحقيق هذا الهدف. بل وأكثر من ذلك، فبعد كل انتفاضة مسلّحة بقيادة الزعماء والأحزاب القومية الديمقراطية في كوردستان، كانت ثورة الشعب الكوردي تنتكس وتفشل، عدا وقوع الآلاف من الأشخاص ضحايا، وتدمير آلاف المدن والقصبات والقرى في كوردستان. وما عدا كل ذلك، نرى على الخارطة التاريخية لكوردستان، المئات من المحافظات والأقضية والنواحي والمراكز الجغرافية المهمة التي خسرتها الأمة الكوردية.

كل هذا حدث تحت ظلّ النهج المهزوم لقيادة الأشخاص والأحزاب الانهزامية، ومن دون إجراء أيّ تحقيق أو بذل جهود لكتابة بحث علمي حوله

وحول كل الهزائم والخسائر الناتجة عنها. لذلك، فإن كان هذا البحث حول نظرية الثورة المسلّحة، لكنّه في الوقت نفسه يخدم البحث والمناقشة العلميين للكفاح المسلّح القومي الكوردي الذي يراه أناس إلى يومنا هذا، على أنّه النهج الوحيد للخلاص والتحرّر من الظلم الاجتماعي والقهر القومي، من غير أن ينظروا، ولو نظرة خاطفة، إلى التغيّرات الشاملة الأساسية الحاصلة في هذا العالم الواسع الكبير. فمن الواضح أنّه ليس باستطاعة كل شخص أن يخوض غمار الكتابة والتأليف، كذلك لا يمكن أن يتعمّق كل واحد بدقة، ويفكر مليًّا في مشروع النجاة، والنفاذ من ثقب الباب، لكنّ الذين جنّدوا أنفسهم للنضال بشكل مباشر، من واجبهم، كلّهم، أن يبحثوا الآن هذا المأزق العسكري أكثر ممّا سبق، في ضوء التجارب، والظواهر والمرئيات، والنكبات والهزائم، وعليهم أن يصفّوا أفكارهم وأفكار الناس، وينقّوها بمصفاة العلم والمعرفة السياسية والعقلية، وفي ضوء المتغيّرات الهائلة والحاصلة، في نهاية الحرب الباردة وختام الألفية الثانية.

إنّ القضية ليست سطحية وبسيطة، ليست قضية ثانوية ودخيلة، بل مصيرية، يرتبط بها مستقبل حياة شعبنا ووطننا. فإن لم ندرس قضية كهذه، ولم نبذل الجهود المضنية من أجلها، فهذا يعني أنّنا نستحق أن يتعرّض وطننا وحركتنا القومية للمساءلة. لذلك أقول وبإيجاز:

لكي نحقّق الحرّية، يجب علينا قبل كل شيء، أن نحرّر أنفسنا من كابوس الفكر القديم المتحجّر، وبدون التحرّر من هذا الكابوس، لا يمكن أن نُسعد ونُسَرّ بالحرّية الحقيقية. إذ كيف تتحقّق حريّتك، إن لم يتحرّر فكرك؟! ولا يتحرّر فكرك، إن لم يتحرّر من رقابة الأنانية الضيّقة، ومن حبّ الذات والأخطاء المرتكبة، وخاصّة الأخطاء الكبيرة والمؤثّرة على المصير.

٣/١- نشأة نهج حرب الأنصار [١٣]

ترجع بدايات نشوء حرب الأنصار إلى الحياة البدائية الأولية في المجتمع الإنساني بل الحيواني أيضًا. وكلّما تقدّم الزمن، تقدّمت هي أيضًا، وثبّتت أسسها، وترسّخت أركانها، لكنّ المحافظة على المجتمعات والدول، في تلك العصور، كانت تتمّ بالأسلحة البدائية التي كان الحدّادون يصنعونها، كالسيوف والرماح والدروع، ليحملها الفرسان المهرة المقتدرون، وقد أثّرت هذه الأسلحة، في بعض الأحيان في تهوّر وطيش مجموعة صغيرة جدًا من المتمردين، ليقفوا أمام أعداد كبيرة من المحاربين، ولينتصروا عليهم أحيانًا.

هكذا، وبعد التقدّم الصناعي، ولاسيّما في مرحلة الرأسمالية، تقدّمت صناعة الأسلحة ومستلزماتها وأدواتها العلمية، كالسلاح الذي يصيب الهدف من بعيد، والسلاح الأتوماتيكي، والهاونات والمدافع، والرمّانات اليدوية والألغام، وأدوات التفجير والانفجار المدمّرة، ثم ظهور الدبابات والمدرّعات، والطائرات والهليكوبترات، والغازات السامّة، والقنابل الذرّية، والصواريخ العابرة للقارات، والصواريخ الموجّهة إلكترونيًا، ومختلف أنواع الأسلحة المدمّرة، التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية خاصّة في الربع الأخير من القرن العشرين.

هذه الأسلحة أثّرت، في كل الأزمنة والعصور، والمراحل والظروف، وبصورة مباشرة، على علم الحرب وكيفية إدامة الحروب، وسيكولوجية المقاتلين، وتقوية الأنظمة والمؤسّسات القمعية، لاسيّما الجيوش. ولهذا تخلّت روح المخاطرة والمجازفة والفروسية، وكذلك السيوف البتّارة والدروع المتينة، عن مواقعها القتالية للتكنولوجيا العسكرية الحديثة. وأمام هذه الأسلحة المتقدّمة، ابتُكِرَت مناهج عسكرية جديدة، لمواجهة هذه الأسلحة المستجدّة الفتّاكة.

---

١٢ (حرب الانصار او حرب العصابات او حرب الشعب بكلمة اشمل، تعبير ارتبط في العصر الحديث بالحروب الثورية وحروب التحرير الوطني للدلالة على تعبئة طاقات الشعب كافة ضد المستعمر او المستغل -المترجم-).

إنّ الظاهرة الجلية الواضحة التي طرحت نفسها في الساحة نتيجة لهذه التغيّرات والأحداث هي ظاهرة سيادة نهج حرب الأنصار، كنهج عسكري قائم ومؤثّر، يمارس ضدّ جيش متمرّس في إطار قوانين الحرب المستمرّة لا الموقّتة.

إن لم يقم نهج حرب الأنصار على أرضية اجتماعية، ووفق الضرورات الاجتماعية والوطنية، فلا يستطيع أعظم الفلاسفة والمفكّرين جعلها نهجًا، يقرّر مصير مرحلة من مراحل حياة الشعوب. ولأنّه نبع من أعماق الحالة الاجتماعية والوطنية، لذلك اكتشف له القالب النظري بصورة طبيعية، وفي عشرات التجارب الصعبة. فأمام عشرات الدول الإمبريالية والرجعية المختلّفة المتمرّسة، تمكّن العمال والشعوب من تحقيق الانتصار من خلال اتخاذهم النهج الثوري المسلّح لانتصارهم.

فقديمًا انتهج الأميركيون حرب الأنصار إلى جانب الحرب الجبهوية ضدّ البرتغاليين (١٧٧٥-١٧٨١)، وحصلوا على نتائج مشجّعة عن طريقها. كذلك انتهج في حروب أميركا الوسطى وأوروبا الغربية القديمة شكل من أشكال حرب الأنصار، وجنيت منها فوائد جمّة. لكنّها، كشكل رئيسي للحرب، جرّبت في إسبانيا، كتجربة كاملة، وانتصرت في النهاية. وعندما احتلت فرنسا إسبانيا، لم يستطع الجيش الإسباني المهزوم، أن ينزل إلى ميدان الحرب الجبهوية مرّة أخرى، وبأيّ صورة من الصور، وخاصّة بعد هزيمة «أوكانا» الجبهوية في التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٠٩. لذلك انسحب جيش إسبانيا الضعيف المهزوم إلى الجبال والغابات، ليستأنف بمجموعات مسلّحة صغيرة الهجوم والانقضاض على المحتلّين انطلاقًا من قواعدها في هذه الجبال والغابات. ونتيجة لعشرات المعارك الكبيرة والصغيرة البطولية، تمكّن من إزعاج وإقلاق جيش نابليون الكبير المحتلّ المنتصر المتمرّس في القتال، وتحرير إسبانيا منه.

يعدّ هذا النصر، في تاريخ الحرب، لاسيّما حرب الأنصار، انعطافة كبيرة في تاريخ المقاومة أمام الجيوش الجبّارة. وأصبح بذلك الشعب الإسباني قدوة لنضال الشعوب المضطهدة الصامدة أمام العدو الأقوى.

إنّ انتصار حرب الأنصار كان بداية لتاريخ طويل، خطا الإسبان أولى خطواته الأساسية. وبعده، لجأ كل شعب، لم يوفّق في حرب المواجهة مع محتليه أو

مضطهديه، إلى إشعال حرب عصابات بكل حنكة وشجاعة، كانت تنتهي بالنصر في النهاية، ومهما طال زمنها. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، مثل انتصار الأميركان على الإنكليز، وهزيمة النمسا في إيطاليا وهنغاريا. وعلى نقيض ذلك، فكل شعب، وإن لم يصمد في حروب المواجهة، ومن ثم اختار حرب الأنصار، ومع هذا لم ينل النصر، فإنّ الأخطاء الاستراتيجية والتكتيكية لقادته كانت سببًا في إذلاله وهزيمته. مثال ذلك بقاء شعوب آسيا وأفريقيا تحت سيطرة العثمانيين، وبعدهم تحت سيطرة الإمبرياليين، وأفضل مثال على ذلك، شعب كوردستان الذي قسّمت أرضه بين دول عدّة، ولم يكن نضاله، في أيّ وقت من أجل التحرّر، بأقل من بقية الشعوب المجاورة، إن لم نقل أكثر.

لكنّ الشعوب الأضعف قوّة والأقل عددًا من الكورد، كذلك أصحاب الأوطان الأقل مساحة من كوردستان، استغلوا الفرص التي سنحها التاريخ لهم أحسن استغلال، وتمكّنوا من الوصول إلى الخلاص من العثمانيين المحتلّين. فبالرغم من أنّ الكورد حملوا السلاح، وحاربوا في نفس الفترة، وأحيانًا قبل العديد من هذه الشعوب، إلا أنّهم هزموا دائمًا، لأنّ معظم انتفاضاتهم المسلّحة اتخذت شكل الحروب الجبهوية الواسعة. فبدلًا من اتباع شكل جديد مناسب للنضال، اعتبروا إنشاء القلاع والحصون القويّة عملًا مهمًا. لذلك انتصر العدو عليهم، في كل الفرص الذهبية التي سنحتْ لهم، لأنّ عدوّهم كان الأكثر عددًا وعدّة، والأقوى سلاحًا، واستطاع احتلال كل القلاع العالية الحصينة وإخماد كل الانتفاضات التي قادها الأمراء والشيوخ والزعماء.

ليس هذا فقط، بل تمكّن من إلقاء القبض على قادتهم، كأمير رواندوزعام ١٨٣٦، وبدرخان عام ١٨٣٩، ويزدان شير عام ١٨٤٥، وشيخ عبيد الله النهريعام ١٨٨٠، وشيخ محمود (١٩١٤-١٩٣١)، والانتفاضات البارزانية المسلّحة. إنّ أيًّا من أولئك القادة، مع تسجيلهم لمفاخر كبيرة في التاريخ أثناء انتفاضاتهم المسلّحة، لم يكن لديه خطّ عسكري واضح واستراتيجية عسكرية صحيحة. فهم خلطوا ما بين الحرب الجبهوية وحرب الأنصار، بل كانوا يحاربون حربًا جبهويّة على وجه عام، ولم يعرفوا مميّزات كل منهما.

كان المفروض أن يتخذ قادة الانتفاضات المتعاقبة دروسًا وعبرًا ممّا سبق. لكنّنا نجد العكس، إذ نرى بعد كل انتفاضة وقائد مهزوم، يأتي بعده من ينشئ

قلاعًا أشدّ قوّة وعلوًّا، ويخطّط لحرب جبهوية أكبر. ربّما ظهر أحيانًا، وبعد فشل انتفاضة مسلّحة، زعيم أو رئيس أو «بيك»[١٣] شجاع غير مكترث بالنتائج، قام بصورة عفويّة بإشعال حرب عصابات، وتمكّن من إزعاج العدو وإقلاقه لفترة جيدة، ولم تتمكّن منه الحروب الجبهوية، لولا اللجوء إلى الحيل واليمين الكاذبة، منهم: خان محمود، ونورالله بط (بعد انتفاضة بدرخان)، وكذلك ابراهيم خان (كفري) ومحمود خان دزليفي زمن شيخ محمود، وبارزاني والبارزانيون منذ الحرب العالمية الأولى وإلى زمن جمهورية مهاباد.

ثبت منذ زمن طويل أنّ الحروب الجبهويّة الكلاسيكية التي ظلّت لآلاف السنين نهجًا عسكريًا للإمبراطوريات الرجعية الكبرى، لا تحالفها الانتصارات إلى النهاية، وأنّ رياح التغيير قد شملت هذه أيضًا كباقي الظواهر الحياتية الأخرى. فقد كانت الإمبراطوريات الأحسن تسليحًا وتدريبًا وتخطيطًا تنتصر على الأعرق منها.

قبل أن تصبح الثورة المسلّحة الطويلة الأمد نهجًا عسكريًا معروفًا للشعوب المضطهدة والمحتلّة أرضها، انتُهجت حرب العصابات إلى جانب الحرب الجبهوية التقليدية، لاسيّما عند الشعوب الضعيفة المهزومة، وبصورة متفرّقة وذاتية في أكثر الأحيان. فالشعوب تكره محتلّيها إلى الحدّ الذي كانت الهزائم تزيد من معنويّاتها ومن إصرارها على تحرير أوطانها. وكان الكادحون من أبناء الشعب الكوردي، يسمعون أقوال حكّامهم القساة السابقين، ويُدفعَون إلى الانتفاضات دفعًا، فخرّبت بيوتهم، ونُهبت ممتلكاتهم، وقُتِلوا، وهُجّروا وشُرّدوا. قُتلوا من غير تأمين أقل حقّ من حقوقهم الاجتماعية في برنامج القادة الإقطاعيين والشيوخ المتسلّطين، وحتى في برنامج المنظّمات السياسية التي قامت في بداية الحرب العالمية الثانية أو خلالها، لكن رغم كل تلك الحقائق الاجتماعية المرّة، فإنّ الكادحين تصدّوا للمحتلّين حبًا بأوطانهم.

في زمن الإمبريالية، حيث أصبحت الحرب علمًا، واتسعت مديات الحروب، بدأت الدول الإمبريالية ذات التجارب الحربية المتنوّعة الكبيرة والصغيرة، بموجب

---

١٣ (بيك) لقب من الألقاب التركية التي كانت تمنح لأصحاب النفوذ والسلطة – المترجم.

سعة حجم المصالح الاقتصادية والسياسية لها بزيادة اهتماماتها الحربية، في كل النواحي التكنولوجية والعلمية والسيكولوجية. كما أصبح الهجوم على الشعوب عندها ضرورة حيويّة، لضمان وجودها واستمراريتها، ولم يكن بمقدور الشعوب الدفاع عن نفسها ضدّ هذا العدو المسلّح تسليحًا كاملًا، بالأسلوب الدفاعي القديم الذي يعتمد على السلاح الخفيف المصنوع يدويًا كبنادق الصيد القديمة، والأسلحة التي يستعملها المهرّبون وقطّاع الطرق مثل بنادق ماهوزر، ومانهير، وإنكليزي، وبرنو. فلم تتمكّن من مقاومة المدافع والدبابات، ثم الطائرات، وقدّمت تضحيات كبيرة في أكثر الحركات المسلّحة التي قامت ضدّ الإمبريالية، في بداية القرن العشرين دون الوصول إلى النصر. فحتى انتفاضات المدن، بما فيها إقامة المتاريس، وإن كانت مؤثّرة، لكنّها قمعت بسرعة.

وجد في المجتمع الرأسمالي، وما زال، الآراء الطبقية المختلفة كالفلسفية، والإيديولوجية، والسياسية، والأدبية، والتاريخية. كذلك وجد وما زال يوجد رأيان عسكريان مختلفان، إذ برز مقابل رأي الرأسماليين، رأي العمّال كضرورة موضوعية للنضال الطبقي. لقد أثبت قادة العمّال بشكل واضح وجلي أنّ الحرب استمرار للتناقضات السياسية من أجل انتصار السلطة السياسية الطبقية، لواحدة من طبقات المجتمع والحياة الاجتماعية، ولتحقيق هذا، بدأوا يبحثون عن شكل جديد للحرب، تدور كل مواضيعه حول مسألة مفادها أنّ الحرب أداة من أدوات تحقيق الأهداف السياسية، ولا يمكن فصلها عن هذه الأهداف بأيّة حال من الأحوال.

في كل الأزمنة التاريخية، كان المستغلّون والتحريفيّون يحاولون قطع صلة الحرب والمحاربين بالسياسة والنهج الإيديولوجي، إلا أنّ الثوريين كانوا يرون العكس، لأنّ الحرب والسياسة في نظرهم، تكمل إحداهما الأخرى، ومتفاعلان مع بعضهما. لذلك قاموا بتقييم السياسة على أسس علمية، وبمراقبة تكنولوجيا الحرب والخطط والبرامج الحربية بدقّة، وربطها بالنهج الثوري وتطهيرها من الأعمال الوحشية، وجعلها في خدمة العمّال والجماهير الكادحة. كما اتخذوا من شراسة الحكّام الرأسماليين في الحرب أساسًا لعدائهم والوقوف ضدّهم. وفي خضمّ هذه الأحداث ابتكروا الحرب الثورية مقابل الحرب الرجعية، ودرّبوا المحاربين وغذّوهم بالوعي الثوري النضالي، من أجل تحقيق الأهداف المشروعة للعمّال والشعوب. وكان تأثير

الفكر والرأي الثوريين يأتي عندهم قبل تأثير الحرب والأسلحة المستعملة آنذاك.

لقد أصاب أنجلز هذا الهدف منذ زمن بعيد، إذ قال إنّ للمتاريس أثرًا معنويًا أو سلوكيًا أكثر فعالية من تأثير المثل والروح العسكرية. فحتى في أقصى درجات حرب الشوارع شدّة وضراوة عندما تكون للمتراس قابلية الصمود والمقاومة إلى حين حلول أوان التأثير في المعنويّات ينجح المتراس وينتصر. لكنّه، إن لم يصمد حتى ذلك الوقت، كان يفشل وينهزم، وهذه نقطة رئيسية ومهمّة، من الضروري أن يدركها كل من ينوي ممارسة حرب الشوارع في المستقبل، إدراكًا تامًا، ويتذكّرها على الدوام.[١٤]

بهذه الصورة، لم تكن أنواع الحروب: الحرب الجبهوية، وحرب المتاريس، كذلك حرب الأنصار، شكلًا عسكريًا منقطعًا عن الفكر، بل كان دائمًا حسب الرؤية الأممية للعمّال مرتبطًا بالنضال الطبقي للعمّال والشعوب. فحتى بعد الحرب العالمية الأولى، سواء أكانت الحروب نظامية ساخنة، أم حرب متاريس في الشوارع، أم حرب الأنصار، فهي جميعها نوع من النضال الثانوي، ينصبّ في خدمة النضال الرئيسي للعمال والكادحين، المتجسّد في الانتفاضات داخل المدن.

١٤ ينظر: الماركسية وحرب العصابات، ترجمة ابراهيم العابد، وماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٨.

١ / ٤- بعد ثورة أكتوبر

لم تتخذ حرب الأنصار، أو أيّ حرب مسلّحة أخرى، في بداية النضال التحرّري، كشكل رئيسي للنضال الثوري. فلربّما، وإلى ذلك الحين، لم تكن صورة حرب الأنصار ونظريتها مصوغة بصورة جليّة وواضحة، لأنّ الشكل الآخر للنضال كان لا يزال قائمًا وله وزنه وتأثيره في انتصار الشعوب، لاسيّما في الدول الرأسمالية التي كانت مراكز للنضال الثوري. لم يكن قد حان أوان إعلان بدء نضال الشعوب المتخلّفة والمحتلّة، ولا فُتحت أبواب الثورة الطويلة الأمد على مصراعيها بعد، بالرغم من أنّ حرب العصابات كانت تطبّق، قليلًا أو كثيرًا، ضمن كفاح تلك الأمم والشعوب، قبل هذا بكثير. فهذا لينين يقول: «لا يجوز لحزب الكادحين أن يعتبر حرب الأنصار أداة وحيدة للنضال أو حتى كأداة رئيسية للنضال. يجب أن تكون هذه الأداة خاضعة للأدوات الأخرى، كما يجب أن تتعايش مع أدوات الحرب الرئيسية.»[١٥]

من الجدير بالتحليل أن نقول: لماذا كان للينين هذا الرأي في ذلك الوقت؟ أو لماذا، لم يجعل لينين الثورة الطويلة الأمد وحرب الأنصار معها نهجًا ثوريًا رئيسيًا، لاسيّما في روسيا في ذلك الوقت، بالرغم من أنّها كانت دولة رأسمالية كبرى، وتُنعت بـ «الإمبريالية»، رغم تخلّفها وصراعات فلاحيها الكثيرة، ودولة مترامية الأطراف، ومناسبة من حيث طبيعة أرضها الجغرافية للثورة الطويلة الأمد، ونظامها في خندق الثورة المضادّة لأوروبا، وأعداؤه كثيرون؟!

رغم كل هذه الحقائق ومعرفة لينين العميقة بالحرب والعمل العسكري، ومعرفته بحرب الأنصار وقيادته ومهارته، إلا أنّه لم يجعل من حرب العصابات منهجًا، ولم يعتمدها طريقًا رئيسيًا للانتصار الطبقي للعمال، بل عرّف حرب الأنصار كجدول ماء صغير يتفرّع من نهر النضال والكفاح المسلّح الكبير. باختصار يرتكز رأي لينين على هذه النقاط:

---

١٥ أنظر لينين، استيقاظ آسيا، مجموعة مقالات، دار التقدم، موسكو، ص١٢.

١- أصبحت روسيا في ذلك الوقت مركزًا مهمًا لنضال العمّال الثوريين في العالم، بعد أن كان هذا المركز في الماضي مستقرًا في دول أخرى، كألمانيا، بريطانيا، فرنسا، وأميركا. وأدرك لينين مستقبل انتصار هذا النضال بأخذ العبر من فشل المراكز الأخرى. لذلك لم يغيّر نهجه حتى بعد هزيمة انتفاضة وثورة عام ١٩٠٥ وعام ١٩٠٧ وفشلهما الموقّت، وأصرّ على قيام الانتفاضة في المصانع والمدن.

٢- إلى جانب روسيا، في ذلك الوقت، كان هناك أمل كبير في النضال العالمي الذي سيشعل فتيل الثورة العمّالية، في كل أوروبا في وقت واحد، أو في دول عدة، من ضمنها روسيا، وأنّها ستنتصر. لذلك كان تجريد روسيا من هذا التيّار العامّ بالالتجاء إلى نهج الثورة الطويلة الأمد، سيكون خطأً جسيمًا.

٣- كان بإمكان الدول الإمبريالية والرجعية التعاون مع روسيا القيصرية عن طريق الحرب ومدّها بالسلاح والقضاء على الثورة الطويلة الأمد، خاصّة وهي تندلع لأول مرّة.

لكل ما مرّ، لم تتخذ، في تلك الفترة، الثورة الطويلة الأمد نهجًا رئيسيًا لتحرير العمّال والشعوب، بالرغم من وضوح فوائد حرب الأنصار منذ زمن بعيد، ومعرفة تأثيرها، لأنّ الماركسيين آنذاك كانوا يقيّمون الأحداث والظواهر ومسيرة النضال بموضوعية ودقّة.

فالاشتراكية العلمية فلسفة واقعية، وليست فلسفة خيالية، فهي تنقل الحقيقة من الواقع إلى الواقع، وليس من الخيال إلى الخيال. وبعد ثورة أكتوبر قام العديد من التجارب الثورية الأخرى للعمّال والشعوب، ووصلت إلى درجة الغليان، لكنّها وللأسف، فشلت لأسباب موضوعية وذاتية وعسكرية عديدة. وفي خضمّ مأساة هذه الهزيمة تحقّقت نبوءة «يقظة آسيا» غير المنتظرة.

هكذا، كان عند لينين وثورة أكتوبر أمل كبير في ثورات الهند وتركيا وإيران ومصر والعراق(عدا كوردستان) —للأسف— التي لم تدخل ضمن هذه الثورات. ليس هذا فقط، بل ساند لينين وثورة أكتوبر نظام أتاتورك وشاه إيران لقمع الثورات عندها. كان لدى لينين وثورة أكتوبر أمل كبير في هذه الثورات، لكنّ أكثرها فشل. أمّا في تركيا، وإن نجحت من حيث بقاؤها سياسيًا، لكنّها، ورغم مساندة لينين ودولة أكتوبر المستمرّة لها، إلا أنّ الثورة فيها ارتدّت بعد وقت

قصير إلى أشرس ثورة مضادّة في المنطقة. وبدأت بمحاربة العمّال والكادحين، واضطهادهم وقمع الشعوب التي بقيت تعيش ضمن حدود تركيا الجديدة مكرهة كالكورد والأرمن والشركس. وكان أقلّ الأنظمة قدرة على إخفاء المضمون القومي الضيّق، والاستغلال الطبقي له. وظهر بجلاء، حينذاك، إلى أيّ حدّ تلتزم البرجوازية المتخلّفة في الشعوب المضطهدة بشعار الحرّية والديمقراطية.

إنّ ضعف سلطة ثورة أكتوبر، وعدم انتصار الحركة العمّالية العالمية أجبرا لينين وقيادة ثورة أكتوبر على القبول بعروض سياسية مع الإمبريالية، إضافة إلى معاهدة «بريست-ليتوفيسك»[١٦]. وأدّى ذلك إلى أن يغضّوا الطرف عن جملة من الحقائق الوطنية في العالم، منها جوهر البرجوازية-الوطنية في تلك الفترة، وعنصريّتهم ورجعيّتهم، سواء ضدّ العمال في بلدانهم، أم ضدّ الشعوب المضطهدة التي سيطروا عليها، كالكورد والأرمن في كوردستان، وأرمنستان الخاضعتين لتركيا.

إنّ سياسة الكماليّين العنصريّين في مؤتمر باريس، وعداءهم ووقوفهم ضدّ معاهدة «سيفر- ١٩٢٠»[١٧] أدلّة حيّة على سياسة لينين وثورة أكتوبر التي أجبرت روسيا على إغماض عينيها عن جوهر الأنظمة البرجوازية المنتصرة. حقًّا، لقد أظهر التاريخ أنّ تلك السياسة انطوت على أخطاء كبيرة.

---

١٦ معاهدة صلح وقعت بين روسيا وألمانيا والنمسا وهنغاريا وبلغاريا وتركيا، في ٣ آذار١٩١٨، وبموجبها أوقفت الحرب بين روسيا من جهة، وبقية الأطراف من جهة أخرى، وانسحبت روسيا من الحرب العالمية الأولى، بعد أن استولى البلاشفة على الحكم فيها. واضطروا إلى التخلي عن مساحات كبيرة وفق هذه المعاهدة، لذلك اعتبر خصوم البلاشفة قبول المعاهدة تفريطًا بحقوق روسيا إلا أنّ اللينينيين اعتبروها تراجعًا تكتيكيًا ضروريًا لحماية الثورة الروسية، لكنهم عادوا وألغوا المعاهدة في تشرين الثاني/١٩١٨ بقرار من الحزب الشيوعي السوفييتي (المترجم).

١٧ (معاهدة سيفر- Severres Treaty) هي معاهدة الصلح التي قبلت بها تركيا العثمانية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في ١٠ / آب / ١٩٢٠، وقد نصت على استقلال أرمينيا وشبه جزيرة العرب، ووضع العراق وسوريا تحت الانتداب، وإعطاء قسم من الأراضي والمياه التركية إلى اليونان، كما تضمنت موادها (٦٢، ٦٣، ٦٤) في الفصل الثالث الذي ورد تحت اسم (كوردستان) على إعطاء حق تقرير المصير لشعب كوردستان، بما في ذلك حق إنشاء دولة مستقلة له، الا أنّ استيلاء كمال أتاتورك على السلطة في تركيا، واكتشاف النفط في الموصل وكركوك بكميات هائلة أجهضت هذه المعاهدة، وتم استبدالها بمعاهدة (لوزان) التي وقعت في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٢، والتي بموجبها حرم الشعب الكوردي من نيل حقوقه المشروعة - التمرجم.

لقد تحرّك النظام التركي بذكاء، وجدّد باستمرار عهوده لروسيا، لاسيّما أثناء مؤتمر باريس في الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٩،[١٨] حيث كان قادة البرجوازية يصرّحون برياء: «نحن معكم على نفس طريق الصراع مع الإمبريالية، وساحة نضالنا ضدّها، هي خط دفاعكم في الوقت نفسه أيضًا. لذلك ننتظر منكم أن تساندونا، وتمدّونا بالمال والسلاح».[١٩] هذه هي برقية نظام تركيا إلى الاتحاد السوفييتي.

في النهاية عادت السياسة اللينية بفوائد الجمّة على النظام البرجوازي القومي التركي، إذ منح السوفييت في أول إعلان للمساعدات مليونًا من الروبلات الذهبية إلى الكماليّين الأتاتورك، ناهيك عن المستلزمات الحربية الكبيرة الأخرى. كما وقّع العديد من المعاهدات السياسية-العسكرية الثنائية المهمّة مع تركيا، وكانت جميعها في مصلحة تركيا. وقد وقّعت هذه المعاهدات، في وقت لم يكن النظام البرجوازي الأتاتوركي المنتصر حديثًا مستعدًا للاعتراف بالحقوق الديمقراطية للشعوب حتى للشعب التركي. ليس هذا فقط، بل قام في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢١ بإعدام سبعة عشر شخصًا من قادة الحزب الشيوعي التركي، ونفّذ سياسة متشدّدة لاضطهاد العمّال والمناضلين الثوريين من أبناء الشعب التركي والقوميّات الأخرى.

ما من شك، أنّ روسيا استفادت من هذه السياسة، من الناحية التكتيكية، لكنّ هذه الفائدة التكتيكية كانت على حساب الأهداف الاستراتيجية للنضال التحرّري للشعوب المضطهدة كالكورد والأرمن، حيث رفعت يدها عن أرمنستان الكبرى وفق معاهدة السادس عشر من آذار (مارس) عام ١٩٢١، واعترفت بالحدود الشمالية الشرقية لتركيا، ورفعت يدها عن ولايتي أردهان وقارس.

بعد مؤتمر الصلح في باريس، وقّعت روسيا وتركيا مباشرة، وفي باريس أيضًا، معاهدة للصداقة والحياد بينهما، أي بعد حسم موضوع قضية الموصل. وجدّدت هذه المعاهدة عام ١٩٣٥، وممّا ورد فيها:

---

١٨ خدع الكورد والأرمن تمامًا في مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩، وجعلا كبشي فداء للمصالح الإمبريالية.

١٩ النعيمي، د. أحمد نوري، تركيا وحلف شمالي الاطلسي، المطبعة الوطنية، عمان-الأردن، ١٩٨١، ص٥٣.

يتعهّد الطرفان بعدم المشاركة في أيّ معاهدة أو أيّ نوع من الأعمال العدائية التي تستهدف أحدهما.

أعطت روسيا عام ١٩٣٢ ثمانية ملايين دولار كمساعدة لتركيا من أجل تطوير صناعاتها، واعتبر المبلغ دينًا بدون فائدة. حدث هذا في وقت كان قادة الحركة في كوردستان -القسم التركي- يائسين من الاعتراف بحقوق شعبهم الكوردي، ولاسيّما بعد انتصار الكماليّين، لذلك طلبوا المساندة من روسيا، لكنّ رأي مخطّطي سياسة الخارجية الروسية، حسب رأي د. عزيز شمزيني كان كالآتي:

بعد دراسة المسألة، ومناقشة الظروف والأوضاع، في تلك الفترة، قرّروا عدم مساندة الكورد والترك، لكنّهم أظهروا بكل وضوح أنّ الاتحاد السوفييتي يعبّر عن تعاطفه مع نضال الكورد ضدّ بريطانيا.[٢٠]

عجبًا لهذا الاستنتاج! إذ لا نعرف كيف يكون شكل مساندة الأنظمة أكثر ممّا قدّمه الاتحاد السوفييتي في زمن لينين وستالين إلى تركيا الكماليّة، إن لم تكن هذه مساندة، فكيف يكون شكل المساندة؟! لقد وقّعوا معه الاتفاقيات! وتنازلوا له عن الأرض! ومنحوه المال والسلاح! وساندوه وقدّموا له الدعم في المحافل الدولية! لماذا، إذن، يقدّم د. عزيز شمزيني تبريرات لهذه الأعمال، وعلى أيّ مصدر اعتمد في رأيه الذي يفيد أنّ الاتحاد السوفييتي وقف على الحياد بين الترك والكورد؟! والأغرب من هذا هو أنّ د. عزيز، ومن أجل أن يرسّخ تبريره في ذهن القارئ، يعمد إلى إغماض عينيه عن الموضوع الحقيقي، وطمس الحقائق التاريخية، في الأسطر الثلاثة التي يتحدث فيها عن موقف روسيا تجاه الكماليّين والكورد، ويجرّ القارئ جرًّا إلى مسألة أخرى، وهي إثبات «تعاطف» روسيا مع الكورد في نضالهم ضدّ بريطانيا، بينما الموضوع الأساسي هو الحديث عن الكماليّين الذين يهدّدون بصورة مباشرة مصير الكورد.

الجميع يعرف أنّ روسيا لم تساند الكورد ضدّ بريطانيا، بل لم تجب حتى على رسالة الشيخ محمود في الثاني من كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٣، في حين كانت بريطانيا العظمى تستخدم كل الوسائل والأدوات الحربية، بما فيها الطائرات

---

٢٠ (شمزيني، د. عزيز، الحركة التحررية الوطنية الكردستانية، ترجمة فريد اسسرد، الطبعة الثانية، مطبعة الشهيد ابراهيم عزو، ١٩٨٥، ص٧٩).

لقصف القرى والمدن الكوردستانية الآمنة المسالمة، لقمع انتفاضة الشيخ محمود، وكانت الصحف البريطانية تنشر على الملأ أخبار المعارك والقصف العنيف على صفحاتها الأولى. ترى، هل تكون المساندة هكذا؟!

لربّما كتبت الصحف والمجلات الروسية، أو كتب العديد من الكتّاب والباحثين الروس، مقالات وبحوثًا سياسية جيّدة عن الكورد، وأصبحت هذه المقالات والبحوث عند د. عزيز مصدرًا وأساسًا لتلك التبريرات والأعذار، لكنّ هذا الشكل من الكتابات الروسية والتعليقات المكتوبة عليها من لُدن أصدقاء الروس من الكتّاب، لا يخفي هذه الحقيقة التاريخية التي تؤكّد على أنّ السياسة الروسية الرسمية، في الوقت الذي كانت لا تساند الحركة التحرّرية في جميع أجزاء كوردستان، كانت تساند بعضًا من أعدائها.

لذلك كان القضاء على جمهورية مهاباد شيئًا اعتياديًا، عند الروس، ناهيك عن انتفاضات كوردستان تركيا، وانتفاضة سمكو، وشيخ محمود، والبارزانيين. وما دامت الأمور، كانت تدار على هذه الشاكلة من قبل السياسة السوفييتية، فإنّه من الطبيعي أن لا تلقى الثورة التحرّرية في كوردستان، إضافة إلى أرمنستان، أيّ دعم أو مساندة من السوفييت. ليس هذا فحسب، بل اعتبرت ثورة رجعية قامت ضدّ النظام «التقدمي» في تركيا، لذلك لم يحسب أيّ حساب لثورة كوردستان كبقيّة الثورات التي قامت، وارتفع لهيبها، في تلك الفترة، تحت تأثير ثورة أكتوبر في العالم، ولاسيّما في الشرق. ولم توضع الثورات الكوردستانية الأخرى في صفّ الثورات المسلّحة للشعوب المضطهدة مثل الصين، والهند، وإيران...إلخ.

إنّ تأثيرات ثورة أكتوبر في ثورات شعوب آسيا كانت مختلفة. ففي إيران، وفي تركيا، ارتدّت بشراسة، وفي الهند أخمدت، وفي كوردستان قمعت، وفي العراق ومصر أفشلت. وما بقي منها الثورة الصينية. وعلى نقيض تلك الثورات، فهي جاءت، فضلًا عن التحوّلات السياسية، بـ«مفهوم عسكري» جديد، إلى الوجود.

نعم، من هنا، يجب أن نبحث عن رأس الخيط في عقدة الحرب الطويلة الأمد، ونظرية حرب الأنصار.

الفصل الثاني

٢- الشروط الموضوعية والذاتية

الشروط الموضوعية هي تلك الشروط السياسية التي تنشأ لوحدها بعيدًا عن تدخّل الإنسان ورغباته وأهوائه، وبلا قرار من أحد، وإنّما هي ناتجة عن تفاقم التناقض بين العمل ورأس المال، وعلاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، واستفحال الأزمات بين السلطات وبين الشعوب. وعلامات توفّرها هي عدم استطاعة الرأسماليين والمتربّعين على الحكم، وأصحاب السلطة ووسائل الإنتاج الذين يؤجّرون العمّال عن طريق الرأسمال الضخم والنظام الرأسمالي، من مواجهة الحالة التي وصلت إليها الأزمات والوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المتدهور، نتيجة تراكم وتفاقم الصراعات التي تصبح عقبة في طريق تقدّم قوى الإنتاج. وبهذا تنفجر الأزمات والمشاكل الطبقية والاجتماعية والسياسية، ويفلت الزمام من أيديهم، وتخرج الأمور من دائرة قانون المؤسّسات القمعية وضبطها، وتستمرّ في الغليان. ولا يستطيعون بعد هذا، أو ليس بمقدورهم الصمود أمام زخم المشاكل وأزمات الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتزلزلة. هذا بالنسبة إلى أصحاب السلطة والنفوذ من جهة.

أمّا من الجهة الأخرى، فإنّ الجماهير الكادحة تصل إلى الحدّ الذي لا ترضى فيه بعد ذلك بالنظام القائم والحياة الذليلة التي تعيش في ظلّها، وبهذا ينفجر الغضب المحبوس في أعماقها، وتنتفض ضدّ الوضع القائم. فحينما لا يرضى المرؤوس برئيسه، ولا يستطيع الرئيس تأمين جانب المرؤوس، تكون العلامات البارزة الواضحة الكبيرة للشروط الموضوعية لإشعال الثورة قد توفّرت واكتملت. بذلك يكون قد حان وقت التغيير الجذري للمجتمع وللحياة الاجتماعية، من أجل إبعاد الطبقة القديمة، وتفعيل الطبقة الجديدة وإحداث التغييرات الاجتماعية والوطنية والديمقراطية الجذرية.

كلّما تمّ صقل الشروط الذاتية بالشروط الموضوعية للثورة، فإنّها ستكون أكثر نجاحًا في المستقبل. أمّا في حالة فصل الشروط الذاتية عن الشروط الموضوعية،

فإنّ اندلاع أيّ ثورة مسلّحة وانتفاضة، سيعطي نتيجة كارثية. وقد يصادف أحيانًا اكتمال الشرط الموضوعي دون الذاتي، لكن وبالرغم من ذلك، تبادر منظّمة سياسية، أو حركة سياسية ما، وتستغلّ الشروط الموضوعية بشجاعة وبذكاء. وتتمكّن من الناحية السياسية، من إسقاط نظام ديكتاتوري أو طرد المحتل، والإتيان ببديل أفضل إلى الحكم، على غرار كوبا، والجزائر، واليمن، والعراق، ومصر. لكنّ هذه الانتصارات السياسية والعسكرية، قد تصاب، بعد فترة قصيرة، بأزمات اقتصادية واجتماعية عميقة، لافتقارها إلى الحزب المجرّب والحنكة السياسية القيادية. إلا أنّ كوبا التي تختلف عن هذه الدول لم تدخل ضمن هذا الإطار ، وسوف يأتي الحديث عنها لاحقًا.

لا يمكن ولادة حزب طليعي، بإغناء الشرط الذاتي فقط، ومن غير خلق الشرط الموضوعي، كذلك لا يمكن قيام انتفاضات المدن أو اندلاع الثورة الطويلة الأمد وإيصالها إلى النجاح والانتصار، بدونهما معًا. فهذا محال كمشروع ثوري، لأنّه، وفي كل الأوقات، كانت الأنظمة بمقدورها القضاء على الانتفاضات غير الشاملة في المدن، أو على إضرابات العمال هنا وهناك، أو على الحركات المسلّحة الطويلة الأمد صاحبة المئات وأكثر من المسلّحين، بل القيام بالهجوم الشرس على أقوى الأحزاب السياسية وإلحاق الأضرار القاتلة بقيادتهم وقواعدهم.

لكنّ هذه الأنظمة نفسها، وإن امتلكت سلطات قويّة ومؤسّسات قمعيّة متينة، مع خلوّ الساحة من الحزب الطليعي العمالي، لن تستطيع بسهولة الإفلات من تأثير ضغط الأزمات العميقة للشرط الموضوعي، شريطة وجود محرّك مؤثّر فيها، كانتفاضة شعوب إيران الشجاعة، وانتفاضة شعب فلسطين، لأنّ غليان الشرط الموضوعي ثم انفجاره سيهزّ أركان النظام ومؤسّساته الاقتصادية، وينسفها في النهاية. لكنّه في نفس الوقت، يعطّل النشاط الحزبي أو حركة العشرات من مفارز الأنصار. فبدون الشرط الموضوعي لا يستطيعون إلا فرض ضغط على قسم أو مؤسّسة أو مدينة أو مصنع أومنطقة، وحلّ مثل هذه الأمور لم ولن يكون صعبًا، في أيّ وقت من الأوقات، على الأنظمة الحاكمة.

كثيرًا ما تجسّدت الشروط الموضوعية والشروط الذاتية بين الدول والشعوب على شاكلة صنع التماثيل، إلا أنّ القيادة اليمينية للأحزاب، وعن طريق السياسة التوفيقية التي اتبعتها، أجهضت العشرات من الفرص التاريخية التي سنحت للعمال

والشعوب. وتسبّبت في تقوية أعدائهم أكثر فأكثر، على غرار الانتفاضات في العراق في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، التي لم يحسن استغلالها الحزب الشيوعي العراقي. كذلك بالنسبة إلى انتفاضات مصر وسوريا والسودان وتركيا وإيران في الشرق، وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا وإسبانيا في أوروبا الغربية.

بعد هذا العرض النظري القصير للشروط الموضوعية والذاتية، نعود إلى الحديث عن أسس ثورة الصين وكيفيّة اندلاعها وانتصارها، لكي نشخّص نظرية حرب الأنصار في الثورة الطويلة الأمد للشعوب المضطهدة المستضعفة ضدّ الأعداء الأقوياء، حيث أعادت ثورة الصين النشاط إلى الأرواح المنهكة في أجسام أكثر هذه الشعوب.

خرجت الدول الاستعمارية من الحرب العالمية الأولى منتصرة، لذلك، ولبعد نظرها السياسي، لاسيّما بريطانيا وفرنسا، قامت تلك الدول بزرع وقياس مساحات الأراضي التي احتلتها، ثم اقتسمتها. لقد حقّقت ونفّذت هذه الدول عن طريق مؤتمراتها واجتماعاتها العلنيّة والسرّية كل ما كانت تريد. ولم يحصل شيء إلا وفق رغباتها وتطلّعاتها. وكان أقواها ينهب ما هو أكثر وأهمّ، وأضعفها ما هو أقلّ قدرًا وأبخس ثمنًا. ووصل بها غرورها بعد الحرب، إلى الحدّ الذي أرادت كل دولة من هذه الدول أن تؤسّس «عصبة الأمم- ١٩١٩»، وتديرها وفق المقياس الذي ترتأيه. فبلغت مساحة الأراضي المحتلّة من الإنكليز أكثر من خمسة وثلاثين مليون كيلومتر مربّع وعدد سكّانها ٤٥٠ مليون شخص.

وقعت تحت سيطرة فرنسا، أراضٍ واسعة، لكنّ أميركا التي كانت أغنى هذه الدول ظلّت تمنح قروضًا لإنكلترا وفرنسا والدول الرأسمالية الأخرى. فمثلًا، كانت أميركا، قبل الحرب، تمنح هذه الدول، قروضًا بلغت ٢٠٠ مليون دولار، وارتفع المبلغ إلى ١٤ مليار دولار. يعني أنّ هذه الدول حاربت بأموال أميركا، وحلّت مشاكلها بعد الحرب، بهذه الأموال أيضًا. علمًا أنّ أميركا حصلت على أراضي أقلّ من ١٣٥ إلى ١٤٠ مرّة من بريطانيا، و٤٥ مرّة من فرنسا.

فما دام العالم وقع تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا المنتصرتين على ألمانيا، وابتعدت أميركا التي حصلت على أقلّ مساحة من الأراضي المحتلة، فإنّ المصير

السياسي للكرة الأرضية وقع حتمًا بين يدي هاتين الدولتين المسيطرتين، لفترة طويلة من الزمن.

إنّ الإمبريالية، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتأسيس «عصبة الأمم»، قد شرعت تحكم العالم، وتطبّق بدايات التجربة السياسية–العسكرية–الاقتصادية العالمية وفق الانطلاقة الجديدة. لكنّها إذا ما قورنت بما هو حاصل الآن، فإنّها كانت تطبّق سياسة متخلّفة، غارقة في الرجعيّة، والوحشيّة، وضدّ الإنسان والإنسانية. وقد عملت من أجل تأمين مستلزمات الإسراع في نهب أجرة العمل الرخيص للملايين من مواطني عشرات الدول المستعمرة الذين كانوا يُقتلون بالمئات ويُسجنون بالآلاف لأقلّ المطالب الوطنية والديمقراطية. كما كانوا ينصبون المذابح للعمال بسبب مطالبتهم بزيادة خمسين فلسًا على الأجرة اليومية، أو بتقليل ساعات العمل نصف ساعة. لقد كان تأميم النفط والمواد الأوليّة العائدة للشعوب، من أجل تحقيق الإصلاح الزراعي أكبر جريمة سياسية، لا يمكن غضّ النظر عنها أبدًا، وكانت الشيوعية والحركة الشيوعية تتعرّض بسببها لأقصى العقوبات.

كانت الإمبريالية تنظر إلى حقّ تقرير مصير الشعوب من زاوية النظرة السائدة آنذاك، ولم تكن لترضى بغير العبودية لهذه الشعوب. وإذا التفتت التفاتة «إنسانية» إلى بعض الشعوب وأوطانها في يوم ما، فليس على حساب مصالحها الإمبريالية ومن غير أن تهتمّ بردود فعلها، السياسية أم العسكرية. وقد تمكّنت من القضاء على العديد من الانتفاضات العمّالية، وثورات الشعوب.

كانت الصين في تلك الفترة أهمّ دولة في آسيا، وكان لها تأثير فعّال مباشر في مصير الهند الصينية، وشبه القارة الهندية، والعديد من الدول في آسيا، إضافة إلى دول أخرى في العالم، ناهيك عن أراضيها الخصبة الواسعة، وحدودها ونضالها المشترك مع روسيا. كل هذه المميّزات جعلت منها أولوية وهدفًا هامًا من أهداف الإمبريالية، لا تحتمل خسارتها أبدًا، وصاغت ووضعت أنواعًا من الخطط والبرامج والدسائس لجعلها مركزًا كبيرًا من مراكز الثورة المضادة. واتّخذ حكّام أوروبا الغربية على مرّ التاريخ شعبًا من الشعوب كأداة لتنفيذ دسائسهم، واستعملوا على الدوام الشعوب السلافية لهذا الغرض، وخاصّة الروس والشعوب السائرة في ركاب روسيا القيصرية. لكنّ الحال تغيّرت بعد الفترة التي خسروا فيها روسيا، وأفزعوا شعوبًا

سلافية أخرى، إذ بدأت هذه الشعوب تمارس النضال الثوري التحرّري، لاسيّما بعد أن يئست من الإمبريالية.

كان الصينيون والهنود أفضل شعوب الأرض عند الإمبريالية في اختيارهم كأدوات وجعلهم رأس رمح في الثورة المضادة، قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، خاصّة الصين، حيث اندلع لهيب حركة وطنية وديمقراطية مؤثّرة بقيادة صن يان صن وحزب الكومينتاك. وقد انتصرت عام ١٩٣٤، وجعل هذا الانتصار الحركات الوطنية للشعوب المضطهدة، والحركات الأمميّة أكثر تفاؤلًا وأملًا. لكن إن كان الأمر هكذا، كيف تسمح الإمبريالية، بعد ثورة أكتوبر، أن تنتصر ثورة كهذه لتصبح «أكتوبرًا» جديدًا للشعوب المضطهدة؟! لذلك، وبعد مرور ثلاث سنوات من نجاح الثورة البرجوازية الصينية، قامت الثورة المضادة بانقلاب «كانتون ١٩٣٧»، وسيطرت على كل أرجاء الصين. وأطلقت يد شان كاي شيك، أو بالأحرى يد حزب الكومينتانك، لتختطف وتزهق أرواح آلاف الألوف من الثوريين، ولتجعل قتل الشيوعيين وحبسهم هدفًا مقدسًا له.

إنّ الانقلاب طبّق سياسة استعمارية تقليدية تميّزت بأقصى درجات التشدّد، على نقيض سياسة انتصار الثورة البرجوازية في الدول الرأسمالية ضدّ الإقطاع، إذ عملت على ترسيخ دعائم الطبقة الإقطاعية في الصين، لأنّ الدول التي أصبحت بمرور الزمن إمبريالية، وهيّأت العالم المستعمر لسيطرتها، تطلّبت مصالحها آنذاك، سواء من الناحية الاقتصادية، أم من ناحية قلّة التجربة لديها، مساندة الإقطاعيّة الرجعيّة ضدّ البرجوازيّة التقدميّة. فهذه الطبقة كانت ضدّ حرّية الفلاحين، وضدّ التقدّم الصناعي في الدول المحتلّة، كذلك كانت مع خرق حقوق الحرّيات السياسية والقومية.

تعرّض الفلاحون في الصين لمضايقة اجتماعية قلّ نظيرها، وطويت شعارات الحرّية والديمقراطية، وفرضت الروح العسكرية والديكتاتورية بدون أقنعة. والتقت الثورة والثورة المضادّة وجهًا لوجه. وفي مفترق الطرق هذا وقعت قيادة الحزب الشيوعي في امتحان تاريخي صعب وجديد.

ترى، هل تقبل هذه القيادة بالأمر الواقع، وبتبرير الستالينية وستالين للبقاء داخل الكومينتانك من أجل قطع مرحلة البرجوازية بقيادة الطبقة البرجوازية،

على أنّه أمر واقعي وصحيح؟! أم تتحمّل واجب إكمال أعباء الثورة الديمقراطية على عاتقها، وتتصدّى للثورة المضادّة؟ وإذا أرادت مواصلة الثورة لإتمام أعباء الثورة الديمقراطية، فأيّ طريق يجب أن تسلك؟ أتكرّر تجربة ثورة أكتوبر، وتنشغل بالعمّال وإحياء المجالس وانتفاضات المدن، أم تفكّر في طريق جديد للنضال؟

إنّ أغلب قيادات الشعوب تقع حسب ظروف بلدانهم المختلفة في أوضاع كهذه، حيث تتطلّب دهاءً وعبقرية لإصابة الهدف المستقبلي اللازم، لكنّ التاريخ يقول، إنّ قليلًا من أولئك القادة أوصلوا القافلة إلى نهاية المطاف، والهدف المطلوب، وأحد أولئك القلائل المتميّزين القيادة الصينية. ولا نجانب الموضوعية إن قلنا إنّ قيادة الثورة الصينية هي طليعة تلك القلّة بين الشعوب المتخلّفة المحتلّة. ولم يحصل هذا بتقليد الآخرين، بل بصياغة نهج جديد لثورة جديدة خاصّة بوطنهم، وهي الثورة الطويلة الأمد.

٣/١- الثورة الصينية

رغم هزيمة ثورة الشعوب، والثورة التحرّرية الوطنية الصينية الأولى (١٩٢٤-١٩٢٧) والانقلاب الرجعي لشاي كان شيك أيضًا، تمكّن الحزب الشيوعي الصيني من إدامة الثورة لأجل تحقيق بقيّة مهمّات الثورة الديمقراطية، عن طريق الثورة الطويلة الأمد، وإزالة الغيوم السود عن سماء مقاومة نضال قارة آسيا. وقد أظهر صمود وانتصارات الثورة المتكرّرة أنّ النهج العسكري الثوري الجديد، لتقرير مصير بعض الشعوب في طريقه إلى التبلور. ويتجسّد هذا النهج في الثورة الطويلة الأمد. الثورة التي تتلاءم مع الظروف العامّة، والخاصّة، والاجتماعية والسياسية والجغرافية والعسكرية.

لكي نربط أساس البحث بصورة مبدئية بمضمونه، من الضروري أن نجري دراسة حول الصين كمركز رئيسي لقيام الثورة الطويلة الأمد، فنقارنها بعدد من الأمثلة لمعرفة مدى استعداد تلك التجارب الضرورية مع حركة شعبنا. ثم نجيب عن السؤال: هل الثورة الطويلة الأمد تتغيّر أم ثابتة على نهجها العقائدي المسلّح؟

بعد ثورة أكتوبر، أصبحت الثورة الصينية الطويلة الأمد أكثر الثورات العالمية تأثيرًا، وانتهاجًا. وقد تناولتها الأقلام بالكتابة، والخطباء بالحديث أكثر من غيرها، على الأقلّ من الناحية العسكرية والنظرية الثورية. وقد أفادت الشعوب منها كثيرًا، وألحقت ضربة قاصمة بالأعداء. وعندما نقول هذا، لا نقصد غضّ النظر عن الأخطاء النظرية والسياسية والإيديولوجية للحزب الشيوعي الصيني، هذه الأخطاء التي توضّحت أكثر فأكثر، لاسيّما بعد انتصاره، وبمرور الزمن. إنّ الذي نقصده هو: لا يجوز أن نهمل الجوانب المشرقة لهذه الفرص المؤاتية، كما لا يجوز خلط المراحل، ومزج الجيّد بالرديء حسب الأهواء. كلا، لأنّ الخطأ هو خطأ، والصحيح هو صحيح. وهذان القطبان المتناقضان كبقيّة الظواهر الاجتماعية والطبيعية المتناقضة، يكمل أحدهما الآخر. إنّ الهدف من البحث هو الجانب العسكري للثورة، وفرضه كقانون ثابت، مثلما هو، من غير أيّ

تغيير، وتطبيقه كقانون لتحرير الشعوب، لا محالة، إلى أن يتحرّر آخر شعب من الشعوب المضطهدة في العالم.

فهل تتمكن، هذه الثورات في جميع الدول والشعوب المستعمرة والمضطهدة، والإقطاعية وشبه الإقطاعية، أن تنتصر، بسهولة وأن تحقّق النجاح؟

لنجب إجابة قصيرة عن الأسئلة، ولنسبقها بمقدّمة تتضمّن إيضاحًا نظريًا، كي نحلّل الأسئلة في ضوئها.

الثورة الوطنية-الديمقراطية، بشكل عامّ وموضوعي مثله كمثل الثورة الاجتماعية للعمّال، لا يمكن أن تنتصر بدون توفّر الشروط الموضوعية والذاتية، فحتى إذا اندلعت، ليس مرّة، بل عشرات المرّات، وتهيّأت لها أفضل أنواع الأسلحة، وحصلت على نجاحات كبيرة، فإنّها لن تحقّق الانتصار النهائي أبدًا.

٢/٢- نوعية الثورة الصينية وكيفية قيامها

تتصدّر الصين دول العالم من حيث عدد سكّانها، وتتبوّأ المرتبة الثالثة من حيث مساحتها.

تحت ظلّ هذه الظروف اندلعت الثورة فيها، إذ بلغ عدد سكّانها وقتذاك أكثر من ٤٠٠ مليون نسمة، ورغم أنّ البلاد كانت مهدًا لحضارة قديمة وأراضيها من أخصب الأراضي وذات إنتاج وفير، إلا أنّ النظام الإقطاعي والفكر المذهبي الكونفوشي الرجعي، والبطالة، والإدمان على المخدّرات، وتفشّي الدعارة، وتجارة الرقيق، وعشرات العادات والتقاليد المضرّة الأخرى فيها، أدّت إلى إفلاسها وإضعافها لمئات من السنين.

ففي الوقت الذي كانت الإمبريالية العالمية، وخاصّة اليابان وأميركا وبريطانيا، تعدّ خططها وبرامجها للسيطرة على العالم، كانت الصين تئنّ تحت وطأة استغلال سياسة الاستعمار القديم إلى درجة أحنت ظهرها ومنعتها من التقدّم والتطوّر. ففي بلد كبير ومهمّ بهذا الشكل، لا يمكن مطلقًا استمرار الوضع حسب رغبات المستغلّين، إلى ما لا نهاية، لذلك انفجرت الثورة التحرّرية الصينية، ونجحت، ولذلك أيضًا رأت الإمبريالية نجاح هذه الثورة التحرّرية، وقطعها لمراحلها والوصول إلى النهاية-أمرًا صعبًا، لا يمكن قبوله.

إنّ نجاح الثورة التحرّرية الوطنية الصينية عام ١٩٢٤، غيّر مسار الأحداث الاجتماعية والسياسية في الصين، بشكل نشر الوعي الاجتماعي والسياسي والطبقي والثقافي بين أوساط المجتمع، ودفع الجماهير إلى تحطيم طوق الرجعيّة والتخلّف.

وباختصار شديد يمكن أن نقول إنّ الثورة الصينية تمكّنت من تغيير ما غُرس في العقول والنفوس لمئات السنين، وتبديله في غضون مدّة قصيرة. وبهذا تظهر عظمة الثورة. فالثورة في الحقيقة هي تغيير المجتمع من الجذور، ومن ثم تكوين

المجتمع على قاعدة اقتصادية واجتماعية تقدّمية. وقد قيل منذ وقت طويل إنّ الثورة تعلّم بسرعة عجيبة، ليس فقط القيادة، بل الجماهير أيضًا وتحرّكهم نحو التغييرات.

كانت ثورة الصين ضمن ثورات الشعوب المضطهدة الأكثر جلبًا للاهتمام. فقد اهتم الكومنترن(الأمميّة الثالثة)، بعد لينين، اهتمامًا ملحوظًا بها، وما لفت انتباههم أكثر من أيّ شيء آخر مشكلة الفلاحين، هذه المشكلة التي كانت لبّ سياسة الشيوعيين في ذلك العصر، وليس هذا العصر.

فنتيجة لسيطرة النظام الإقطاعي، وعدم امتلاك مئات الملايين من الفلاحين للأراضي والمزارع، أصبحت مشكلة الفلاحين جوهر الثورة الديمقراطية القديمة، لأنّه لم يكن قد تمّ حينذاك تنظيم العالم وفق النظام الرأسمالي، ولم يظهر إلى الوجود السوق المشتركة، ولم تتمّ السيطرة على البرجوازية الوطنية...إلخ. وبسبب كل ذلك كانت مشكلة الفلاحين، وانتفاضتهم ضدّ الإقطاع خطرًا كبيرًا على الإمبريالية. فإذا دقّقنا في كيفيّة تمكّن الأمميّة الثالثة (الكومنترن)، في مؤتمر أيار (مايو) عام ١٩٢٣ من جلب انتباه الحزب الشيوعي الصيني، نعرف أهميّة دور الفلاحين. إنّ مشكلة الفلاحين، هي مشكلة رئيسية في السياسة كلّها.

هذا هو رأي المراكز القيادية العمّالية العالمية بالنسبة إلى ثورة شعب متخلّف ومضطهد. إذن لنقم بغربلة الموضوع وتنقيته، لنعرف، أهو كذلك؟

في تلك الفترة كانت نسبة ٨٠٪ من الصين والصينيين فلاحين، وكانوا يعانون من ظلم الإقطاع، كما ارتدّت الثورة البرجوازية بقيادة البرجوازية الوطنية، وتراجعت عن تحقيق مطالب الفلاحين. وانهار التحالف بين الحزب الشيوعي والكومينتاك، وتعطّل قانون الإصلاح الزراعي، وتحرّكت مشاعر السخط وعدم الرضا التي لا حدود لها بين الفلاحين.

صحيح أنّ الحزب الشيوعي تمكّن، في إحدى الإضرابات، من تحريض ٦٠٠ ألف عامل، والحصول على انتصار كبير للأحزاب الشيوعية في البلدان المتخلّفة في ذلك الوقت، لكنّ هذا النصر الطبقي-السياسي لم يغيّر سير الأحداث في الصين. ولم يضع قانون التطوّر الاجتماعي في الاتجاه الرأسمالي الكامل، ولم

يغيّر مواقع الطبقات والمواقف الطبقية. فعلى سبيل المثال، لم يكن عدد أفراد العصابات المسلّحة التابعة للإقطاعيين، «المنتوشان» والتي كانت تمارس النهب والسلب وتظلم الفلاحين، بأقل من ثلاثة ملايين مسلّح، بينما كان عدد الجيش الرسمي الصيني مليونان فقط. أي كان جيش الإقطاع المستغلّ أقوى من جيش الدولة.

كانت عصابات «منتوشان» غولًا يمتصّ دماء الفلاحين، والنظام الانقلابي الرجعي سندًا لها. فإذا كانت الحال على هذا النمط وجوهر الثورة الديمقراطية قد شوّه، فإنّ هذا يعني أنّ مشكلة الفلاحين أصبحت المشكلة الرئيسية للثورة الصينية ضدّ الثورة المضادة المنتصرة، من أجل إنجاز مهمات الثورة الديمقراطية.

٣/٢- الثورة في أيّ مكان؟

في المدينة أم في الجبل؟ لقد نجح الانقلاب، وهزم إضراب العمّال، وتعرّض الثوّار للمطاردة، وكانت ثورة الانتفاضة في المدينة التي جاءت على شاكلة ثورة أكتوبر، تقليدًا فاشلًا.

لقد رأى ستالين أيضًا أنّه من الأفضل للحزب الشيوعي الصيني الاستمرار في تحالفه داخل الكومينتاك، حتى بعد الانقلاب، وأن يستمر في ذلك، كما قبلت أكثرية قيادة الحزب الشيوعي الصيني، في تلك الظروف، بهذه السياسة أيضًا. لكنّ الجناح اليساري في الحزب لم يقبل بهذه السياسة، وقدّم بدلًا عنها نهجًا يساريًا شعبيًا مسلّحًا من داخل المدن، بل من الأرياف بين الفلاحين. رُفض هذا التوجّه في بادئ الأمر، بقوّة، لأنّ زعيم الجناح اليميني للحزب حينذاك ليتشن تومو كان يميل إلى المحافظة على صداقة الكومينتانك بالمعيار الذي تبنّاه ستالين، حتى أنّه خفّف من قوّة العداء للإقطاع، كيلا يغضب النظام منه.

عندما قامت انتفاضة الفلاحين، ثم أخمدت، طردت اللجنة المركزية، على أثرها ماو تسي تونغ وأسقطت عضويّته من المكتب السياسي. كما أصدرت بيانًا ضدّه، وسمّت الحركة الفلاحية التي قادها ماو ب»حركة البندقية» لكي يظهروا القائمين بها على أنّهم يساريون بعيدون عن النضال الحقيقي للعمّال. إلا أنّ ماو ورفاقه اليساريين، شكّلوا من جديد جيشهم، ونظّموه، وقادوه إلى الجبال، وسط الفلاحين، ووقفوا ضدّ الإقطاع، وسلّحوا الآلاف في الحزب والجمعيّات التعاونية والجيش الأحمر، متخذين حرب العصابات نهجًا عسكريًا استراتيجيًا لهم.

بهذا الشكل اندلعت الثورة الطويلة الأمد، رغم المعارضة الشديدة لأكثرية قيادة الحزب، وعداء ستالين لها، وعزل ماو من قيادة الحزب. وقد أصبحت القرى والفلاحون والجبال، القاعدة والبودقة للثورة، لا المصانع والمدن، رغم تمتّع حركة العمّال والحزب الشيوعي، بمساندة الأممية العالمية والعديد من وسائل الدعم

الأخرى. لماذا حصل هذا؟ لأنّ:

- للصين ظروفها الخاصّة بها، ولا يمكن أن تصبح أسيرة للقوانين العامّة والجامدة.
- الحركة الفلاحية كانت قويّة وتحرّكت ضدّ الإقطاعيين.
- الثورة المضادّة والإمكانيات العسكرية والأمنية للحكومة الرجعية، كان باستطاعتها إلحاق الهزيمة بانتفاضات المدن.
- الثورة الزراعية عطّلت.
- الحزب الشيوعي كان بمقدوره قيادة الجماهير.
- الصين بلاد واسعة مترامية الأطراف، ولم تتطوّر بشكل متجانس.
- الإمبريالية، علاوة على هزيمتها في روسيا، أصيبت بضائقة اقتصادية وسياسية عميقة أيضًا.
- الصين أصبحت صاحبة تجربة تاريخية نضالية مسلّحة كبيرة خارج المدن.
- وأخيرًا كان لها عدو قوي، وفيها إقطاع مقتدر، وفلاحون ضعفاء مضطهدون.

تلك هي مميّزات الثورة الصينية الطويلة الأمد وخصوصيّتها، التي جعلوا منها قوّة، تستطيع انتهاز فرصة تاريخية، ليقود الحزب الشيوعي أكثر الثورات الطويلة الأمد نجاحًا، كشكل من أشكال نضال الشعوب المستضعفة المضطهدة ضدّ أعداء أقوياء مستغلّين، ويحقّق لها النصر والنجاح. فكل واحدة من هذه النقاط ضلع مهم من الأضلاع المكوّنة لإطار الثورة، وهي فيما بينها بصورة عامّة على وئام وخصام، واتفاق وعداء، كما فيها الجيّد والرديء. نصفها يستفيد منه العدو، والنصف الآخر يفيد الثورة، وبها جميعًا تكوّنت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والعسكرية والملامح الإقليمية الصينية.

نظّرت القيادة الشجاعة للثورة الصينية بدقّة وعلى مهل في أسس كيفيّة قيام الثورة، ولم تكن منعزلة أو سريعة الاعتقاد والتصديق. ولم تقلّد أيّ طرف، ولم ترَ فقط الجانب الجيّد أو الجانب الرديء، كما حدّدت معالم المستقبل، وقيّمت بشكل منظّم كل النواحي الاجتماعية والسياسية والعسكرية. وبعد دراسة كل هذه الحقائق أصدرت قرار قيام الثورة الطويلة الأمد كأول تجربة ثورية جديدة. ولم تبادر إلى إشعالها كيفما اتفق، بدون تخطيط، وباستعجال، اعتمادًا على الحظّ

والرغبة، من أجل الشهرة، أو إخفاءً لعقد الذنب القديمة، أو إفراغًا لكراهية قديمة، أو تعويضًا عن انحراف وتراجع في الماضي، أو طمعًا في اتفاق سياسي وانقلاب عسكري.

قاموا بالثورة، لأنّهم كانوا ضدّ الإقطاع، ومؤيّدين للفلاحين الفقراء، فأعطوهم الأرض، وساعدوهم، وأسّسوا لهم جمعيات تعاونية، وبنوا لهم مئات المستشفيات والمدارس والأنفاق، وآلاف الملاجئ والأعمال الاجتماعية الجيّدة. كما منعوا تدخين الأفيون، ومنعوا الضرب والظلم والاضطهاد، واعتبروا السلوك السيّء جرمًا، وقضوا على عمليات السلب والنهب وقطّاع الطرق، ونزعوا السلاح من الإقطاعيين ومسلّحيهم، ونظّفوهم، وبذلوا جهودًا لتغييرهم وتربيتهم من جديد. ولم يقتلوا الأسرى، بل ربّوهم تربية جديدة صحيحة، وأحيانًا جنّدوا الآلاف منهم كفدائيين. واعتبروا السرقة جريمة كبيرة، وطهّروا مناطق الفلاحين من مئات اللصوص وقطّاع الطرق الكبار والمشهورين الذين كانوا أصحاب الآلاف من المسلّحين. وأخضعوا بعضهم لتربية جديدة، وتمكّنوا من تغيير أفكارهم، وأصبح قائدًا عسكريًا مشهورًا في الثورة، ومحبوبًا من قبل الجماهير وقوّات الأنصار.

٤/٣- أسير.. جبهة

وضعت القيادة مصير الثورة والصين فوق كل مصلحة أخرى، لذلك، ورغم أكثر من عشر سنوات من الحرب الداخلية، ومقتل الآلاف من الشيوعيين ونكبات لا حدود لها، إلا أنّها كانت سبّاقة في اقتناص الفرص لقيام»جبهة وطنية متحدة» ضدّ العدو الرئيسي، اليابان. إذ سارع الحزب الشيوعي إلى رفع شعار الاتحاد مع الكومينتانك للوقوف معًا ضدّ المحتلّين الأجانب، ولم يستغلّ الحزب الشيوعي عداء اليابان للكومينتانك، من أجل تعميق الحرب الداخلية، والثأر ومن الكومينتانك العدو اللدود للشيوعية والشيوعيين.

على العكس من ذلك، منذ دخول اليابان الأراضي الصينية، بادر الحزب الشيوعي إلى رفع شعار الاتحاد مع الكومينتانك على الفور، رغم القوّة التي كان الحزب الشيوعي الصيني يتمتّع بها ومكانته، وتمرّسه على التجارب، إلا أنّ ذلك لم يحرفه عن النهج الوطني الرئيسي الذي يتطلّب هذا الموقف. فحينما عبّأت اليابان جيشها للهجوم على الصين، تفجّر صراع عميق داخل الجيش الصيني الرسمي، حول اتخاذ موقف صحيح ضدّ اليابان. فكل مؤيّدي شان كاي شك، كانوا يرون أنّ هزيمة الثورة الداخلية، من الناحية العسكرية أهمّ من أيّ شيء آخر. وأرادوا حلّ الموضوع ورفع شكوى إلى عصبة الأمم عن طريق الديبلوماسية ضدّ الهجوم الياباني على الصين. وفي النهاية، انفجر الصراع، وتمكّنت فرقة وطنية من أسر شان كاي شك، وكانت لهذه الفرقة علاقة سرّية مع الثورة المسلّحة. تمّ إلقاء القبض على ألدّ أعداء الثورة، وبهذا سنحت فرصة كبيرة للشيوعيين للانتقام والثأر، ووقعت قيادة الحزب الشيوعي أمام امتحان تاريخي: فإمّا الدفاع عن الوطن، أو الانتقام من انقلابي رجعي؟ إنّ الفرصة التاريخية هذه نادرة في التاريخ، تقرّر مدى قدرة القادة على تأمين تقرير مصير الشعوب.

إنّ طرد اليابان وتحرير الوطن، والقضاء على عدو عنيد، يضع الموقف الثوري، والشعور الانتقامي والحقد والكراهية على المحك. يقينًا، إنّ الناس الحقودين والميّالين

إلى الانتقام وغير المروّضين بالفكر المدني، وهي جميعها سلوك الطبقات المستغلّة، يضعون حقدهم وانتقامهم فوق مصالح الوطن والشعب والأفكار. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الثوريين، لا يجعلون صومعة الانتقام من أجل النصر، مكانًا لعبادة الذات وصبّ الأحقاد.

من أجل هذا، لم يعتبر الحزب الشيوعي الصيني إلقاء القبض على شان كاي شك فرصة للانتقام من قاتل الآلاف من الشيوعيين، بل اعتبره فرصة نادرة للمصالحة العامّة للقوى الثورية والوطنية ضدّ اليابان، كعدو رئيسي. ففي هذه الأوضاع المصيرية، ومن أجل القضاء على الحرب الداخلية، لم يلقِ الحزب الشيوعي الصيني القبض على شان كاي شك ليعذّبه ويحطّم نفسيته، ويشهّر به، بل احترمه، وبذل جهودًا للاتفاق معه بسرعة.

لنلاحظ، كيف ذهب الزعيم الثاني للحزب الشيوعي وللثورة شوان لاي إلى ملاقاة عدوّهم العنيد السجين. بعد فترة قصيرة من وصول الوفد الشيوعي، ذهب رئيسه شوان لاي للقاء شان كاي شك الذي ارتبك كليًا لهذه المقابلة، خصوصًا أنّه كان يعاني قليلًا من اعتلال صحّته، وسوء حالته النفسية نتيجة للحدث، حيث تغيّرت ملامح وجهه أثناء المقابلة، واصفر لونه، لأنّ شوان لاي كان مبعوثًا سياسيًا سابقًا عنده. كما أنّ شان كاي شك كان قد خصّص عام ١٩٢٧ جائزة مالية مقدارها ٨٠ ألف دولار لمن يقتل شوان لاي، لكنّ شوان لاي دخل إلى الغرفة التي كان شان كاي شك معتقلًا فيها، وحيّاه تحية أخوية.[٢١] ترى ما هو السرّ في هذا السلوك وهذا النوع من المواقف؟ أو مثل هذا الحدث التاريخي هل يحصل، من تلقاء نفسه، ومن غير أسس طبقية وثورية وأخلاقية عالية، أم لا؟

الجواب هو أنّه في ذلك العصر، حيث الثوريون متأكّدون من مستقبل سياساتهم، وتقييمهم الأحداث بموضوعية، كانوا، عندما يلقون القبض على عدوّ برجوازي من ألدّ أعدائهم، يتصرّفون معه بهذه الصورة الأخلاقية الرائعة، من أجل المصلحة العليا للوطن. أمّا البرجوازيون الحاقدون المتذبذبون فهم على النقيض من هذا بالضبط، لأنّهم بلا مستقبل سياسي واجتماعي. لهذا، عندما يلقون القبض على أحد الثوّار، حتى وإن لم يقتل أحدًا منهم، وسعى يومًا إلى كسب صداقتهم،

٢١ انظر: إدغار سنو، النجم الأحمر فوق الصين، الراحل الأول في تاريخ الثورة الصينية ترجمة كمال أبو الحسن، وكمال أبو العز، ص٤٦٧.

فإنّهم يعذّبونه، ويتصرّفون معه تصرّفات جبانة ليخفوا جبنهم الحقيقي، ويحاولون التخلّص من خطره تمامًا. واستنادًا إلى هذه الحقائق السياسية والإيديولوجية:

– فلو لم يقد ذلك الحزب الثورة الصينية الطويلة الأمد، ولم يتصرّف قائده وقيادته بهذا الشكل، لم يكن بالمستطاع نجاح التجربة الأولى للثورة الطويلة الأمد.

وفي الحقيقة، لو لم تكن قيادة الثورة ضدّ الإقطاع، وإلى جانب الفلاحين، ولم تمنحهم الأرض، وتؤسّس لهم ١٤٣٣ جمعية تعاونية، لما وصل عدد الأنصار المنتمين إلى هذه الثورة من المئات إلى عدّة ملايين.

– ولو لم تكن البلاد مترامية الأطراف، رحبة واسعة متعدّدة الألوان والأجناس، وطبيعة أرضها ملائمة للثورة الطويلة الأمد، لكانت الثورة غير قادرة على الصمود أمام الهجمات التي كانت تشنّ عليها بأكبر القوّات، ومن ثم مقاومتها والانتصار عليها. فمثلًا، بعد أربع حملات ذات التعداد المليوني، لم تصمد الثورة أمام الحملة الخامسة، وقرّرت القيام بـ «المسيرة الكبرى»، وتمكّنت بنجاح من قطع ستّة آلاف ميل في أصعب عملية انسحابية في تاريخ الثورات قاطبة، استغرقت ٢٣٨ يومًا، كانوا يواجهون فيها المعارك يوميًا. إذ وقعت خلال خمسة عشر يومًا منها معارك عنيفة جدًا، ولم يتح في هذه الأيام وقت للاستراحة إلا قليلًا. وقد تسلّقوا أثناءها ثمانٍ وعشرين سلسلة جبلية صعبة، خمسٌ منها تغطيها الثلوج في الفصول الأربعة. واعترض مسيرتهم العديد من الأنهار، واجتازوا حدود ثلاث عشرة ولاية، ومع هذا تمكّنوا من تحرير اثنتين وستّين مدينة، واخترقوا صفوف عشرة أفواج كبيرة للمرتزقة.

إنّ هذا العمل التاريخي لهذه الثورة التي كانت تملك في بداية انسحابها مئات الآلاف من قوّات الأنصار المحمّلين بأنواع مختلفة من الأعتدة والأسلحة والمؤن الثقيلة، لو شوهد في فيلم سينمائي، من الممكن أن يعتبر فيلمًا سينمائيًا ليس إلا. لكنّ الأعمال البطولية الملحمية في ظلّ قيادة ثورية، وداخل حركة ثورية كبيرة، وعلى أرض فسيحة واسعة كالصين ليس غريبًا، بل لا شك أنّه يحقّق النصر حتمًا. فمثلًا، لو لم تكن مساحة الصين تسعة ملايين وسبعمئة وثمانين ألف كيلومتر مربع، لكان نجاح الانسحاب حلمًا مستحيلًا، ولو لم يصل الانسحاب إلى نهايته المطلوبة، لتعرّضت الثورة إلى الهزيمة قطعًا.

إنّ جميع تلك الحقائق، ركائز أساسية للثورة الصينية الطويلة الأمد المنتصرة التي أصبحت مكانًا وملهمًا للشعوب التوّاقة إلى الحرّية والاستقلال. ويبدو أنّه، إضافة إلى هذه الأسس التي حدّدتها علميًا قيادتهم، وصاغت النظرية الثورية على أساسها، من غير الجائز تناسي العامل الخارجي الذي كان له دور مؤثّر في النصر، لاسيّما وقبل كل شيء مساعدة السوفييت. فبالرغم من اختلاف موقف ستالين حول الثورة والمواقف الستالينية التي كانت تطبّق آنذاك بصورة عشوائية، استمرّت تلك المساعدة. فبحكم النجاح والتقدّم الموضوعيين للثورة التي فرضت نفسها على الرأي العامّ العالمي، نالت المساندة الأمميّة أيضًا، كما ساعدت الظروف أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية، لاسيّما تحالف اليابان مع النازية والفاشية في تلك الفترة، الثورة الصينية سياسيًا وعسكريًا بشكل واسع، حيث كانت تستطيع تلقّي المساعدة من كل الأطراف والجبهات، وحتى من الدول الإمبريالية، من غير تردّد أو خوف من لصق تهمة الارتباط بها.

٣/٥- العودة إلى الماضي

في صياغته لنظرية الثورة الطويلة الأمد، وحرب العصابات استفاد ماو تسي تونغ استفادة كبيرة من المصادر الحربية الكلاسيكية، خاصّة من تراث الصين نفسها التي كانت بلادًا زاخرة بالتجارب العسكرية القديمة. إذ كُتب لأول مرّة في التاريخ أقدم مصدر للحرب والنزال من قبل المفكر العسكري الصيني المعروف سن تزو باسم «فن الحرب».

إنّ أهميّة هذا الكتاب، إضافة إلى كونه أول كتاب عن الحرب، تكمن في أنّه بحث في علم الحرب، وصاغ برنامجًا عسكريًا لها*، كما أنّه من ناحية النهج الاجتماعي، كان كتابًا ساميًا ومباركًا عند الناس في حينه. لقد ألّف سن تزو هذا الكتاب في عصر الشقاء والعبودية ذاك، عصر امتصاص دماء العبيد والفلاحين، في عصر القتل، لكنّه لم يؤلّفه وفق هوى النهج العسكري السائد آنذاك. كما لم يجعل من تصرّفات القادة العسكريين في تلك الفترة أساسًا لنظريته، بل أرشد المقاتل والقائد العسكري إلى عدم الفصل بين الحرب والقتال، والهجوم والضرب، وبين حبّ الإنسان والإنسانية والعدالة والمطالب الشرعية. شجّعهم على ألا يكونوا شرسين، وألا يقتلوا الأبرياء، وأن يتصرّفوا مع الأسرى بشجاعة وخلق.

قبل أربعة وعشرين قرنًا، أي ٢٤٠٠ سنة، صاغ مفكّرعظيم هذه المعاني السامية، فكم هذا رائع وعظيم! وكم هو سام وشريف! لقد أفاد ماو، بالإضافة إلى تلك الحقائق والمثل السامية، من آلاف الحوادث، والوقائع القديمة والمنصرمة، ومزجها مع مقالاته وأقواله. وربطها مع بعضها البعض، وصقلها في بوتقة ضرورات العصر. ونتيجة لحاصل ضرب كل تلك الحقائق التاريخية والحكم والوقائع الماضية الثمينة، أعطى ماو بمهارة المجال لنموّ حرب الأنصار ونشرها، وجعلها نظرية مستقلّة للثورة الطويلة الأمد، وأداة فعّالة بيد الشعوب المضطهدة المنهوكة الضعيفة لتستعملها ضدّ أعداء منتخبين أقوياء، بشرط أن تنسجم النظرية مع الشروط العامّة والخاصّة.

إنّ نهج الثورة الطويلة الأمد هذا، وإن لم يصبح قانونًا عامًا لنضال الشعوب، طبّق كالقانون، كما التزم به العديد من الشعوب المضطهدة الأخرى في العالم، وقد انتصر بعضها، وانحرف معظمها.[٢٢] إنّ الشعوب التي استطاعت أن تصل إلى اكتشاف القوانين العامّة والخاصّة للتطوّر الاجتماعي وللحرّية والتحرّر، ومزجت فرصة توفّر الشرط الموضوعي مع الشرط الذاتي والخاصّ هي التي انتصرت، منها شعب فيتنام، والجزائر، وكوبا، ولاوس، وكمبوديا، وأوغندا. كما سار العديد من الشعوب الأخرى على طريق الثورة الطويلة الأمد، وقدّمت ضحايا كثيرة، وأبدت شجاعة جيّدة أيضًا، لكنّها هُزمت، مثل اليونان، وإسبانيا، وماليزيا، وبوليفيا، والأرجنتين، وكولومبيا، وبيرو، والبرازيل... إلخ.

هناك العديد من الشعوب تنتهج طريق الثورة الطويلة الأمد أيضًا، مثل شعب كوردستان، وفلسطين، والتاميل، وبورما، وبيرو، والسلفادور. وفي هذه السنة، بالتحديد، انتهت الحرب الداخلية الأوغندية، التي تمكّن شعبها من دحر العدوّ، وكان انتصار جبهة ساندينيستا مدويًّا. فبلا شك، إن كان النهج الثوري للثورة الطويلة الأمد نجح في أول هجمة له، وبعدها وصل إلى أهدافه في العديد من الدول الأخرى، فسوف ينتظر منه بالتحديد أن يستمرّ تأثيره، قليلًا أو كثيرًا، إلى اليوم، وأن يكون له تابعون وفدائيون، وأن تجرى حوله مناقشات ومجادلات، ويدخل ضمن الأحاديث والمواضيع الخطيرة.

ليست هذه الحالة ظاهرة شاذّة، فإلى الآن تناقش بحرارة الظواهر الثانوية والفلسفية غير الأصيلة التي تزيد أضرار بعضها عن فوائدها، إذن كيف لا تناقش هذه النظرية العسكرية الثورية، في الوقت الذي ما زالت تنتهج كطريق للخلاص والحرّية، في الوقت الذي ما زالت عشرات الشعوب مضطهدة إلى الآن، تجبر من قبل قادة وأحزاب على انتهاجها والسير على هديها؟ لكن، ترى إلى أين وصلت نتائجها؟!

إنّ معرفة هذا مهمّ جدًا، نأمل أن نكون قد سلّطنا الضوء في هذا البحث، على جواب هذا السؤال.

٢٢ من الشائع إلى الآن، أن معظم الثورات المسلّحة قد انتصرت، لكن العكس هو الصحيح، فمعظمها هزمت. في نهاية الكتاب سنثبت هذه الحقيقة في الملاحق السبعة.

الفصل الثالث

٣- المناهج المختلفة في حرب الأنصار

ما أوضحناه فيما سبق، كان ملخّصًا لمفهوم حرب الأنصار والثورة الطويلة الأمد لبلاد الصين، التي تمّ تقليدها، بشكل عامّ، في بلدان أخرى. واعتمد نهجها العسكري كطريق للنصر والخلاص، وطوّر، لاسيّما في كوريا وفيتنام. ففي فيتنام دامت الثورة أكثر من ثلاثين عامًا، وفي كوريا أكثر من عشرين عامًا.

هذه البلدان بدأت بحرب عصابات في حدود معيّنة باديء الأمر، ثم طوّرتها إلى حرب أنصار، ولكن على مساحة أوسع. وتحوّلت إلى حرب متحرّكة، فحرب دفاعية استراتيجية، ومن ثم إلى حرب متكافئة استراتيجية، وفي المرحلة الأخيرة إلى الحرب الهجومية الاستراتيجية التي حوصرت فيها المدن والعواصم، وحطّمت آخر مقاومة للعدوّ، ورفعت عن طريقها رايات النصر في ربوع تلك البلدان.

يتضّح ممّا سبق أنّ الشروط الموضوعية والشروط الذاتية، في تلك البلدان كانت مهيّئة لإشعال فتيل الثورة، وكلّما كان الأمر يتطلّب تشكيل جبهة وطنية، وأشكالًا مختلفة أخرى من النضال، كانوا يبادرون إلى إنجاز العمل المطلوب. فهذه الأعمال الضرورية داخل الحركة الفلاحية والجماهيرية الواسعة ضدّ المستبدين الجائرين، تمّ العمل من أجلها وإنجازها حتى نجحت وانتصرت. ولم يتحقّق هذا النصر إلا بالمساندة الاستراتيجية والعالمية غير المحدودة والظروف الدولية المواتية. ومع جميع تلك الحقائق المصيرية، فإنّ زمن انتصار ثورة أيّ بلد من تلك البلدان أصحاب تجربة الثورة الطويلة الأمد، لم يقل عن عشرين عامًا إضافة إلى التضحية بمئات الألوف من الشهداء، وتدمير الآلاف من المدن والقصبات والقرى والمؤسّسات الاقتصادية. (سنأتي بعد ذلك إلى مدى الدعم، وقوّة الأعداء).

هكذا إذن كانت حال هؤلاء، لكنّ تجربتهم لم تكن هي الوحيدة في الساحة آنذاك، بل كانت هناك ثورات أخرى اندلعت في بلدان عديدة غيرها وبطرق مختلفة أخرى، وانتصرت. لذلك فهي تشكّل لذاتها أساسًا لبحث ساخن آخر،

إذ هناك رأي يفيد بأنّ هذه الثورات قد خرجت من إطار قانون ثورات الصين وفيتنام ومثيلاتهما، وأصبحت تعرف في العالم، على أنّها ثورات مناهج مستقلة، وسمات خاصّة.

أمّا كيف يكون هذا، وكيف لا يكون؟ فمن الضروري أن نقيم لهذه الأمور مرصدًا.

٣/١- أولاً: كوبا

قبل خمسمئة وسبع سنوات، وبالتحديد في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٤٩٢، اصطدم مجذاف سفينة كريستوف كولومبوس بجرف جزيرة كوبا، وبذلك أصبحت كوبا اسمًا لإحدى دول أميركا الوسطى.

ومنذ اكتشافها، ولغاية عام ١٨٩٩، بقيت محتلّة من قبل الإسبان، وخاضعة لهم، باستثناء عام واحد بين (١٧٦٢-١٧٦٣) خضعت فيه لحكم الإنكليز. وبعدها أنزلت الولايات المتحدة الأميركية قوّاتها فيها، وأبقتها تحت سيطرتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق مرتزقتها.

إنّ الاحتلال والاضطهاد القومي الطويل الأمد دفع الكوبيين إلى النضال منذ عام ١٨٦٨ ولمدّة عشر سنوات، قُتل فيها ثمانون ألف إسباني، وأربعمئة ألف كوبي. وفي عام ١٨٩٥، انتفض الكوبيون من جديد، لكنّهم هزموا أيضًا. وبعد ثلاثين سنة من هذه الانتفاضة الفاشلة، تمكّنوا بمساعدة مباشرة من أميركا من طرد الإسبان، لكنّهم ظلّوا في خصام وعدم وفاق مع الأميركان وباستمرار، لأنّ الاحتلال الأميركي كان أكثر وطأة وشدّة. وفي النهاية، وقعت كوبا منذ سنة ١٩٣٣ تحت هيمنة الديكتاتور فولغينسيو باتيستا طيلة سنوات شهدت اضرابات وانتفاضات. وكان أهمّ الأحداث السياسية التي وضعت ديكتاتورية باتيستا على المحك، عملية انتخابات عام ١٩٥٢، التي رشّح فيها ثلاثة أشخاص أنفسهم لرئاسة البلاد، وحاز باتيستا المرتبة الثالثة من حيث عدد الأصوات التي حصل عليها. ولكنّه، كعادة الديكتاتوريين في هذه المسائل، لم يعترف بخسارته، واستولى على أكبر قاعدة عسكرية في هافانا العاصمة، وأبطل عبر انقلاب عسكري نتائج الانتخابات، وفرض نفسه رئيسًا للبلاد.

كان فيدل كاسترو في ذلك الوقت محاميًا، يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا. وطالب في أحد ملتقيات هافانا الاعتيادية، بإنزال العقوبة المناسبة بباتيستا، لأنّه

خرق الفقرة السادسة من قانون الحماية الاجتماعية لبلاده، بقيامه بالانقلاب. وقال في جانب من حديثه: «منطق الأحداث يقول، لو كانت في كوبا محاكم ومحبّون للعدالة، لعاقبت باتيستا. وإن لم يعاقب باتيستا، وبقي مستمرًا في عمله حيث هو الآمر والناهي في البلاد، ورئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، وقائد القوّات، ورئيس الأركان للقوّات المسلّحة، ورئيس المؤسّسات المهمّة الأخرى في الدولة، وصاحب السلطات التنفيذية والتشريعية، ومالك أرواح وممتلكات شعب كوبا، أي صاحب كل شيء. في حالة كهذه لا يبقى أيّ وجود للمحاكم ولا للعدالة في كوبا، بل ستزول هذه المحاكم، ولا يظلّ للعدل والإنصاف أيّ أثر.»[٢٣]

لا شك، أنّ أقوالًا ناريّة كهذه، وفي أشدّ ظروف كوبا تعقيدًا وتشابكًا، ستجعل صاحبها في المستقبل صاحب ثورة، وكان كذلك فعلًا. بعد ذلك الملتقى الشهير، تألّق نجم كاسترو، وتعرّضت كوبا باستمرار لأزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية أكثر. وبدأت الأحزاب السياسية تخوض النضال، كل حسب منظوره الطبقي. وكان الحزب الشيوعي الكوبي أكثر الأحزاب الشيوعية في أميركا اللاتينية قوّة وتأثيرًا، إذ كان أول حزب تمكّن من المشاركة في مجلس وزراء وطني، تشكّل في عام ١٩٢٥، لكنّ هذا الحزب أيضًا مثل الأحزاب الـ «ريفيذنيزمية- التعديلية»[٢٤]* الأخرى في العالم، أصيب بداء الخوف من الثورة!

في عام ١٩٣٤، أسقط نظام ماكادو الديكتاتوري عن طريق انتفاضة مسلّحة شاملة، لكنّ الحزب الشيوعي الكوبي تهرّب من تحمّل أيّ مسؤولية، بدعوى الخوف من تدخّل الإمبريالية في الشؤون الداخلية لكوبا. لا بل طالب العمّال

٢٣ انظر: مسائل نيمكر غربي، كوبا: كاسترو وانقلاب منوجهر كمالي طه - مؤسسة انتشارات أميركبير، تهران ١٣٦٦.، ص٣٢٨-٣٢٩.

٢٤ (التعديلية والتعديليون- Revisionism and Revisioniss)
الريفيذنيزمية: أي التعديلية، مصطلح سياسي يطلق على عملية إعادة النظر في مقولات واستنتاجات كارل ماركس وأفكاره. وإدخال بعض التعديلات عليها دون الخروج عن الإطار العام للنظرية الماركسية.
الريفيذنيزميون: هم المفكرون والسياسيون الاشتراكيون ومؤيدوهم الذين قاموا بعملية إعادة النظر في التراث الفكري السياسي والاقتصادي الذي خلفه ماركس، وإدخال التعديلات عليه دون التمرد على الخط الاشتراكي العام أو الإطار الماركسي في النظرية والتطبيق، وقد يطلق عليهم (التحريفيون) ولاسيما من قبل المتمسكين بالأصول، أي (التقليديون) ومن التعديليين: برنشتاين، كاوتسكي، روزالوكسمبورغ، بوخارين.. (المترجم).

بالتخلّي عن الانتفاضة أيضًا. وحاول عن طريق الإصلاح والبرلمان تطوير البلاد والتقليل من آلام الشعب السياسية، وممّا لم يفكر فيه قط كان الواجب الأساسي الملقى على كاهله، وهو: إسقاط الحكومة المستبدّة وإزالتها عن طريق الثورة.

وجد الشعب في هذا البلد أنّ طريقه الثوري هي في عكس اتجاه طريق «الريفيذنيزمية»، ولم يكن باستطاعة شعب، كان مجموع دخل الفرد السنوي فيه ٣١٢ دولارًا، في الوقت الذي كان دخل الفرد في الدولة التي احتلّت أرضه، والتي تبعد عنه ١١٢ ميلًا يبلغ ٢٢٢٩ دولارًا سنويًا، أي ما يقارب سبعة أضعاف، وأمام محتلّ مصّاص للدماء كهذا، ألا يفكّر في الثورة، وألا يُضرب عن العمل، وألا ينتفض، ويثور، أملًا في البرلمان، والشعارات الـ»ريفيذنيزمية» الخدّاعة، وإبعاد التدخّل الأميركي في شؤون وطنهم.

٣/٣-ثورة بلا طليعة

قيل: إنّ الحزب الشيوعي كان أقوى حزب في كوبا، وما الفائدة إذا كان هذا الحزب يهاب الثورة! فبدلًا من تشجيع الجماهير وتهيئة الأرضية المناسبة لها، فعل العكس. فحينما بدأت الجماهير باتخاذ مواقف ثورية، سارع إلى تهدئة الوضع وتثبيت همم الجماهير. لقد تهيّأ الشرط الموضوعي للثورة والتغيير في كوبا، ولكنّ عدم توفر الشرط الذاتي أجهضه. فلو كانت الأمور تجري وفق القانون العامّ والموضوعي، لكان من المحتّم ألا تقوم الثورة أبدًا في كوبا، لكن، ظهر أنّ الواقع ليس كذلك!

صحيح أنّه لم يكن في كوبا حزب طليعي، وأنّه لم تكن قيادة النضال بيد الحزب، كذلك لم تكن كوبا بلادًا واسعة كبيرة وصاحبة شعب كثير العدد كالصين، وأنّ لها حدودًا بحرية مع أميركا، زعيمة الإمبريالية. لكن، كانت لكوبا ظروفها الثورية المحرّكة الخاصّة بها، والتي تختلف عن الظروف الثورية المحرّكة في الصين وفيتنام وكوريا، والتي تتجسّد في:

- غليان وغضب جماهير المدن ضدّ نظام باتيستا المكروه.
- معاناة الفلاحين تحت وطأة أشدّ أنواع الاستغلال في المزارع الكبيرة للنظام، حيث كانت حقول قصب السكّر تشكّل الجزء المهمّ الأكبر من اقتصاد كوبا.
- معارضة جميع الأحزاب والأطراف السياسية والمهنية، والنقابات والجمعيات الثقافية للنظام.
- ضعف النظام من الناحية العسكرية، بالرغم من أنّه كان نظامًا ديكتاتوريًا.
- شعب كوبا كان صاحب تجربة نضالية تاريخية، تميّزت بالروح الثورية الحيّة النشيطة.

هذه العناصر، وغيرها أدارت عجلة الحركة الثورية وجعلت كوبا قاعدة الثورة في أميركا الوسطى. لذلك، من الخطأ القاتل أن يُظنّ أنّ نظام باتيستا المدعوم من

أميركا سقط من تلقاء نفسه، أو تمّ ذلك فقط من جرّاء تشكيل قوّات الأنصار. إنّ تحليلًا كهذا خاطئ، ويوقع الناس في خطأ نظري كبير، لأنّ ليس له أساس علمي، وكثيرًا ما أصبح سببًا لهزيمة الكثير من الأطراف اليسارية والحركات المسلّحة في العديد من المناطق.

إنّ الثورة المسلّحة، ليست مشروعًا منفصلًا عن بقية الظواهر والوقائع الأخرى، بل إنّها مشدودة شدًّا محكمًا بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والنابعة من هذه الظواهر وبسببها، تنجح أو تفشل.

هناك من يظنّ أنّ «النصير» و»حرب الأنصار» هما «كالسوبرمان والسوبرمانية»، كما يظنّون أيضًا أنّ البندقية والراية الحمراء والنجمة، هي التي تحقّق النصر والنجاح في نهاية الأمر. ومثل هذه الآراء تنشر من قبل المنظّرين والكتّاب، من ذوي الميول اليسارية، بين الشباب اليساريين وذوي الاتجاهات اليسارية، ولاسيّما مقولات روجيه دوبرييه غير المثمرة، وإلى حدّ ما إرنستو تشي جيفارا أيضًا، والتي عرفت باسم «البؤرة الثورية» في العالم.

كما كتب الكاتب الفلسطيني منير شفيق المعروف في أوساط الدول العربية والثورة الفلسطينية، بحوثًا ودراسات كثيرة عن حرب الأنصار، كقانون ثابت ومنهج دائم لتحرير الشعوب المضطهدة. واختار العديد من الكتب والكرّاسات حول هذا الموضوع، وهي في معظمها نتاج أفكار قادة حرب الأنصار العالميين، ولاقت في كوردستان العراق رواجًا كبيرًا. إلا أنّنا نجد روجيه دوبرييه مشغولًا منذ فترة طويلة بـ «بؤرة» السوق المشتركة، من أجل الحصول على درجة حزبية في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الفرنسي الذي يتزعّمه فرانسوا ميتران، كما نجد منير شفيق الذي أضاع اسمه وشهرته السابقة، يعمل من أجل «الماركسية — الإسلامية» انحرافًا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.

في كوبا، لم يكن كاسترو، بعد أن أصبح وجهًا معروفًا للمعارضة اليسارية، ماركسيًا، ولم يكن في الحزب الشيوعي، أو أيّ حزب آخر. إنّما بدأ شخصيًا، بعد أن تعب ويئس من الوصول إلى أهدافه عن طريق المحاكم، والبرلمان، والتظاهرات والإضرابات، بتنظيم حركة مسلّحة في سنة ١٩٥٣. وانتهج طريق الكفاح المسلّح كشكل آخر للنضال. وهاجم مع ١٣٨ مقاتلًا معسكر «مونكادا» الذي كان

فيه ألف جندي، حيث هزم هو ورفاقه. وبعد هزيمتهم، انسحبوا إلى جبال «سيراماسترا» التي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١٣٩٦ قدمًا. وبعد أيام من البقاء في سفح الجبل، وأثناء نوم عميق، وبعد تعب شديد، ألقي القبض على كاسترو واثنين من رفاقه. وبعده يسلّم أخوه راؤول وعدد من رفاقه الذين كانوا متخفّين في نفس الجبل أنفسهم، إثر إلقاء القبض على كاسترو.

كان يقود تلك المجموعة من الجنود الذين ساروا مباشرة باتجاه المكان الذي يتواجد فيه كاسترو، صديق قديم له اسمه بيدرو ساريا. وكان من المقرّر أن يُقتل كاسترو فورًا، في أيّ مكان يشاهد فيه، لكنّ صديقه القديم هذا، وبالرغم من أنّه كان عسكريًا، ولديه أوامر بقتله، وفي حالة قيامه بذلك، سيكرّم من قبل الدولة، امتنع عن تنفيذ هذه الأوامر بسبب مشاعر الصداقة والإنسانية المجرّدة من أيّ هدف شخصي. وبحجّة تفتيش جيوب كاسترو، يقترب منه، ويهمس في أذنه قائلًا: «عليك ألا تكشف عن اسمك الحقيقي في الوقت الحاضر». فهم كاسترو مغزى ذلك، ولدى وصوله إلى هافانا، كانت وكالات الأنباء والصحف والأحزاب، قد أخذت علمًا بذلك، وبهذه الطريقة تمكّن من إنقاذ حياته. ومن المناسب هنا أن نعرض حقيقتين:

– كان الوضع في كوبا يغلي غليانًا ثوريًا، وبشكل لم يتمكّنوا فيه من قتل حتى قائد الحركة المسلّحة، على الرغم من إلقاء القبض عليه، وهذا لم يكن قليلًا بالنسبة إلى قائد مثل كاسترو، كي يعرف ماذا يفعل، وكيف يحرّر شعبه.

– إنّ بيدرو ساريا هذا، وبالعمل الذي قام به تجاه كاسترو، كتب اسمه بماء الذهب في صفحات تاريخ كوبا، لأنّ المال والمكافآت، والمكانة والدرجات، لم تؤثّر في شعوره الوطني والإنساني. حقًا إنّ بطلًا كهذا، يتألّق نجمه باستمرار في سماء الوطن.

بعد فشل هذه الحملة، يخرج كاسترو من السجن، ويصبح، أكثر من ذي قبل، ثوري كوبا المشهور. ثم يترك المدينة ويلتحق بالجبل، ويؤسّس حركة ثورية باسم يوم الهجوم. وبعد إعداد وتنظيم ذاتي دقيق وحيوي، تمكّن في عام ١٩٥٨ من إعادة تنظيم الحركة المسلّحة من جديد. وكان برنامجها السياسي يهدف إلى تنظيم كل المعارضة الكوبية التي تؤيّد النضال الثوري من أجل إقامة جمهورية

ديمقراطية. وأثمرت جهوده في تنظيم هذه الأطراف:

١- حركة ٢٦ حزيران.
٢- حزب «أتن-تبكوس».
٣- اللجنة القيادية الثورية.
٤- حزب العمّال.
٥- حزب ثورة كوبا.
٦- الحزب الديمقراطي.
٧- اتحاد الطلاب.
٨- منظّمة الضباط.
٩- انتفاضة المقاومة.

هذه الأطراف، أسّست فيما بينها اتحادًا قويًا، لكنّهم أهملوا الحزب الشيوعي، لأنّه كان ضدّ الحركة المسلّحة، وينشر بين الجماهير أقوالًا مثل: «كاسترو بعمله هذا يخلق كارثة، ويجهض نضال العمّال». لكنّ الحزب الشيوعي بدأ، مع مرّ الأيام، يغيّر موقفه، لذلك عومل كطرف ثانوي في المعادلة أثناء فترات النجاح والانتصار. وعلى الرغم من موقفه، لم يسمح كاسترو باتخاذ موقف شديد ضدّه، كي لا تحصل مشكلة عميقة في جبهة الشعب المتحدة.

هذه الحقائق التي عرضت باختصار، تظهر أنّ ثورة كوبا لم تكن مغامرة قام بها أشخاص متهوّرون دون تفكير في النتائج أو العواقب، أو أنّهم كانوا يفكّرون فقط بطريقة «البؤرة» في النجاح والنصر، بل كان قادة الثورة يأخذون بالاعتبار الخطّ السياسي والوحدة السياسية وانتفاضة الجماهير، وبعد ذلك قاموا بالكفاح المسلّح.

صحيح أنّ الثورة المسلّحة كان لها ضغط مؤثّر على النظام، لكنّ وضع تاج النصر على الرؤوس، وصل إلى غايته، في المدينة، عن طريق انتفاضة شرائح المجتمع المختلفة، وليس فقط عن طريق فوهة البندقية. حتى أنّ كاسترو لم يصدّق، عندما علم أنّ باتيستا هرب لدى انتفاضة الجماهير، واعتبر ذلك من قبيل المزاح والدعابة، وقال: «ما زلنا في بداية الطريق». ولم يكن كاسترو على خطأ في هذا القول، لأنّ الثورة، في تلك الفترة التي سقط فيها النظام، لم تكن تملك إلا ألفي نصير. بمعنى لو كان كاسترو وثوّار كوبا قد انخدعوا بمظهر ديكتاتورية باتيستا،

لامتنعوا عن إشعال الثورة بتلك السرعة، وعندها، حرموا من استغلال تلك الفرصة التاريخية.

إذن، في هذه البلاد، كان الشرط الموضوعي لقيام الثورة ملائمًا تمامًا. وبالرغم من عدم وجود حزب طليعي، تصرّف قادة الثورة بذكاء وبراعة شديدين، ولذلك نجحوا وانتصروا.

٣/٣- أميركا اللاتينية

بعد انتصار ثورة الجبال المسلّحة، أثّرت انتفاضة جماهير المدن الكوبية إلى جانب حرب الأنصار، كتجربة جديدة الشكل والمحتوى، في الفكر السياسي اليساري، ووضعته على طريق إعادة النظر في نهجه القديم، وظهر إلى الوجود العديد من الآراء والتحليلات السياسية-العسكرية عن انتصار ثورة كوبا. وعندما حسمت كل الآراء النظرية المختلفة داخل تلك الجماعات اليسارية، وتبلورت في «البؤرة الثورية»، وكانت نتيجة المعادلة في جمع تلك الآراء وصياغتها في تلك النظرية هي، في الواقع، نقيض للرأي اليساري الكلاسيكي في تلك الفترة المتمثّل في:

- ترى، هل يستطيع الحزب القيام بالثورة؟!
- أو هل تستطيع الثورة تأسيس الحزب؟!

لقد أصرّ أصحاب الرأي القديم جميعهم على أنّه بدون الحزب الطليعي، ينبغي أن يكونوا هم الطليعة، لا يمكن، ولا يجوز التفكير في الثورة حتى وإن أمكن ذلك. وعلى النقيض من هذا الرأي، كان أصحاب نظرية «البؤروية» ضدّ تلك الأحزاب، وكانوا يعتبرونهم جبناء، وآراؤهم مستهلكة لا قيمة لها. وكان إنشاء «البؤرة» عندهم عملًا ثوريًا مصيريًا، وكان انتصار ثورة كوبا خير مثال لديهم، يستعملونها كورقة «جوكر» في أيديهم ضدّ خصومهم. فهذا روجيه دوبرييه يسخر من «البؤروية»[٢٥] ويقول: «في بعض البلدان، تجد الجماعات الثورية التي تنتفض وتستعدّ، بشكل جدّي للكفاح المسلّح، نفسها مراقبة ومطاردة من قبل هذه

٢٥ البؤرة الثورية: هي النظرية التي صاغها (جيفارا) وهي تؤكد على أولوية الكفاح المسلح، ومهاجمة انتهازية وجمود الأحزاب الشيوعية و(انتظاريتها) التي تقضي باجماع كل الشروط الموضوعية والذاتية للثورة بصورة ميكانيكية بدون أن تهتم بتسريع هذه الشروط. أما البؤرة الثورية الجيفارية التي تتكون من أقلية من الرجال المناضلين المسلحين، فتسهم في خلق هذه الشروط، وتعتبر الأرياف المكان الملائم لهذه البؤرة- المترجم

الأحزاب الماركسية – اللينينية التي تخلّى الكثيرون عنها، أكثر ممّا هي مراقبة ومطاردة من قبل منظّمات القمع المتنامية للدولة.»[٢٦]

هذه الرؤية والنظرة ضدّ الأحزاب القديمة لقيت مساندة، وغدت زاوية رؤية لسياسة جديدة، في أميركا اللاتينية، وبهذا أصبح النضال ضدّ الأحزاب المسماة بـ «الشيوعية» من الواجبات الكبرى للنصير. ولهذا لم يستمعوا إلى المقولات القديمة أمثال القول الشائع: «ما يقوله الحزب صحيح، وما لا يفعله غير صحيح، ولو لم يكن الحزب الطليعي موجودًا، فلا يمكن عمل أيّ شيء.» هذه الكلمات كثيرًا ما تقال، ونادرًا ما كان يعمل بها. وفي أميركا اللاتينية، ولاسيّما بين اليساريين، لم تبقَ لها أيّ قيمة، وكان ينظر إليها كمجموعة من الآراء الملفّقة الزائفة.

حاصرت في النهاية حرارة النضال المسلّح وقوّتها أميركا اللاتينية، وانفجرت مشاعر المقاومة المسلّحة. إنّ البؤرة الثورية عندما قامت بانتفاضاتها المسلّحة عام ١٩٥٩، بعد انتصار ثورة كوبا، في سانتو دومينغو، باراغواي، كولومبيا، أميركا الوسطى، شرق البرازيل، بيرو، وكوزوكو. . .إلخ، تحرّكت في القرى، وبين الفلاحين، وشكّلت في الجبال والغابات مجموعات مسلّحة من الأنصار، وأربكت المنطقة لسنوات عديدة. انتشر بين أعضائها أيضًا سوء التفاهم والخصومات والصراعات الداخلية (التي تزامنت مع الحرب الداخلية في كوردستان)، انتشارًا مهلكًا، وانتهز أعداؤهم وبمساندة الإمبريالية، فرصة الحرب الداخلية، ليستعدّوا، وينقضّوا على الأنصار.

بذلك هبّت عواصف الهزيمة في كولومبيا، وإكوادور، وبيرو، وباراغواي، وتحطّمت حركة الفلاحين في البرازيل بقيادة زعيمهم البارز خوليو. وفي الأرجنتين، وبعد أن أبطل النظام نتائج انتخابات حرّة، انفجرت انتفاضة شعبية كبيرة، لكنّها سرعان ما أخمدت. ونتيجة لذلك، أصيب العديد من الجماعات والمنظّمات البرجوازية الصغيرة اليسارية، بالدوّار والتشنج والتقلّص، وتراجعت وعادت إلى داخل قوقعتها الضيّقة، منها:

- حركة العمّال والطلبة والفلاحين الكولومبيين.
- اتحاد الشبيبة الثورية الإكوادورية.

---

٢٦ روجيه دوبريه، ثورة في الثورة، ترجمة الياس سحاب، الطبعة الأولى، ١٩٦٩-ص١٤٥.

- حركة اليسار الثوري، وجبهة اليسار الثوري.
- طلائع اشتراكيي الأرجنتين.
- حركة مساندة الفلاحين، وجناح يسار الحزب الاشتراكي لأوروغواي.

يبدو من هذه الأسماء أنّ الانتفاضات المسلّحة كانت حصلت للغليان الذي أصاب اليسار، بعد انتصار كوبا، ولذلك، أخمدت أيضًا وانتكست بسرعة. إنّ جيفارا الذي كان مهندس هذا المنهج الثوري وثاني قائد مبدع لثورة كوبا المنتصرة، وتدرّس كتبه التي تتحدّث عن نهج حرب الأنصار، ويستفاد منها، إلى اليوم. إن غضّ النظر عن أخطائه سيلحق ضررًا، ومع ذلك يبقى، بحدّ ذاته، بطلًا ثوريًا، مبعث فخر تاريخي، إلا أنّه مع كل هذا، نجده بعد تجربة عميقة، ومستوى سياسي وعسكري عاليين، وشهرة أكثر، يترك منصب الوزارة في كوبا، ليتوجّه إلى غابات بوليفيا وجبالها، كي يحرّر بلدًا آخر من بلدان أميركا اللاتينية.

جيفارا كان يعتقد أنّ إنشاء «البؤرة» مقدّمة لانتصار الثورة، لذلك يصل هو وعدد من رفاقه إلى بوليفيا، ويكوّنون هناك عددًا من المفارز المسلّحة، ويؤسّسون نواة جيش لإضرام نار الثورة. ويخوضون عددًا من المعارك الناجحة، لكنّ البؤرة بقيادة قائد مثل جيفارا، لم تتمكّن، ليس فقط، من تحرير بوليفيا، وإنّما عجزت حتى عن إنقاذ حياة جيفارا ورفاقه، وكان السبب في ذلك كما نرى هو اختلاف ظروف بوليفيا وكوبا اختلافًا كبيرًا. لم تكن في بوليفيا حركة ثورية، كما لم تكن الأحزاب والجماعات اليسارية على وئام فيما بينها، ليس هذا فقط، بل لم تكن على استعداد أيضًا لتقديم العون لجيفارا.

فمن الناحية الاجتماعية، قدّم النظام البوليفي، بعد مئتي عام من الاستغلال الإقطاعي، بعض المكاسب الطبقية المادية للفلاحين. وقد قلّلت هذه المكاسب التناقضات الطبقية، كما أنعشت السوق والتعاملات الرأسمالية، وهدّأت إلى حدّ كبير، غضب الفلاحين وكراهيتهم. فكل هذه الحقائق خفّفت من وطأة الوضع السياسي البوليفي، لذلك لم تتمكّن البؤرة وجيفارا من تحريك الناس، خاصّة الفلاحين منهم. وبهذا ظهر أنّ:

١- انتصار ثورة كوبا له علاقة بمجموعة من الشروط العامّة والخاصّة، ولا يشترط أن تتكرّر الصورة طبق الأصل، في مكان آخر.

٢- لم تكن البؤرة تجسّد القانون العام لتحرير شعوب أميركا اللاتينية والشعوب المضطهدة الأخرى، كما يراد لها أن تكون، أوتُتبع.

٣- إذاكانت الإمبريالية قد فوجئت بالثورة الكوبية، ولم تدرك في البداية مخاطرها، لكنّها، بلاشك، أخذت عبرًا ودروسًا كبيرة منها، بعد انتصارها، وأنقذت نفسها والأنظمة المرتبطة بها، لذلك من الخطأ القاتل أن ينظر إلى وضع بوليفيا من منظور الثورة الكوبية.

وهكذا كان. فبدلًا من أن تنجح وتنتصر تلك الدول التي كانت قواعد للنضال المسلّح في أميركا اللاتينية، وأن تكون تكرارًا لكوبا عديدة أخرى، جُعلت مختبرات لتجارب نجاح الثورة المضادّة وعشرات الانقلابات الفاشية والديكتاتورية، بل الأخطر من ذلك كلّه قلب الصراع ما بين نضال اليساريين والحكومات المستبدّة، إلى صراع قاتل بين شعوب المنطقة، وبكل عنف: الأكوادور ضدّ بيرو، وبيرو ضدّ بوليفيا وشيلي، وبوليفيا ضدّ باراغواي، وشيلي ضدّ الأرجنتين...إلخ.

لقد انفجرت كل هذه الصراعات بدسيسة الإمبريالية. والسبب الأساسي الطبقي لتلك الهزائم والأوضاع يعود إلى الدور الضعيف للبرجوازية الصغيرة. فأفراد هذه الطبقة، بحكم موقعهم الاقتصادي المهزوز، يمكنهم أن يصبحوا ممثّلين لموجة إيديولوجية يسارية، حيث يتحرّكون بفعل خيانة البرجوازية الوطنية وضعف العمّال في البداية ويثورون بقوّة. لكن، حينما تصبح المهمّات صعبة وتعترض قافلة النضال عقبات ومشاكل معقّدة، لا تستطيع هذه الطبقة الضعيفة اعتماد مقاومة النفس الطويل الأمد للإمبريالية والرأسماليين المرتبطين بها، لأنّ البرجوازيين الصغار ضعفاء من الناحية الاقتصادية وخاصّة في الدول التابعة. وهم أقوياء من هذه الناحية، لذلك إن لم تحدّ الشروط الموضوعية من حركة الإمبريالية كما حصل في كوبا، فإنّ البرجوازية الصغيرة، لا تتمكّن من الصمود أمام الإمبريالية، عن طريق رفع الشعارات اليسارية، والسير في طريق حرب الأنصار. كما لا تتمكّن من تفعيل أسلوب حرب الأنصار وتطويرها إلى انتفاضة لإسقاط حكم الدائرين في فلك الإمبريالية في المدن.

إنّ الضعف الاقتصادي للبرجوازية الصغيرة بصورة عامّة، في منافسة الأنظمة الخاضعة للإمبريالية، باسم الماركسية-اللينينية، بأشكال مختلفة، قد أثّر سلبًا، بلا

شك، في ثورة بلدان أميركا اللاتينية، وبعض بلدان آسيا، وعرّضها لهزائم كبيرة.

إن كان بقاء البرجوازية الصغيرة، في فترة قيام الرأسمالية، إلى جانب دورها المفيد في نظر الطبقات الرجعية، قد تسبّب، وباستمرار، في حدوث الكثير من المشاكل للعمّال، وإن بقي للبرجوازية الوطنية شيء من ضغط وطنيتهم، إلى تلك الفترة، وإن تخندقت البرجوازية الصغيرة، ولو من وجهة نظرهم ضدّ الطبقة الأعلى والأقوى منها، فينبغي مع كل ذلك أن يعرف، هكذا أيضًا، ولاسيّما بعد انتشار نفوذ الإمبريالية وتوسّع دورها، وإنهاء دور البرجوازية الوطنية، في النضال الوطني- أنّ البرجوازية الصغيرة لا تزال تشكّل خطرًا أشدّ وأقوى من السابق على العدالة الاجتماعية والاشتراكية الحقيقية، لأنّ الطبقة السابقة، أي البرجوازية الوطنية، التي كانت تدافع وتنحاز إلى جانبهم خوفًا من البرجوازية الصغيرة، لم يبقَ لها وجود كطبقة لذاتها.

بذلك خلا الميدان للبرجوازية الصغيرة، لكي تثبّت أقدامها فيه، حيث لا يعيرون أيّ اهتمام للعمّال ولأفكارهم بعد الآن، وخاصّة في الدول المغلوبة على أمرها. ولذلك أيضًا نجدهم يناهضون بشدّة العدالة الاجتماعية والأفكار الديمقراطية اليسارية، في إطار النضال التحرّري للشعوب، لأنّهم يريدون أن يسيطروا على زمام الحكم، بعد أن تيقّنوا من إخلاء الساحة السياسية والسلطة لهم، من قبل البرجوازية الوطنية.

٤\٣ – مميّزات كل نهج من النهجين

كانت للثورة المسلّحة في كوبا، وفي تلك الدول، إضافة إلى الفرق الأساسي الواضح الموجود بينها وبين الثورة الصينية الطويلة الأمد، فروقات أخرى بينهما. فهذا كاسترو نفسه يقول: «لم أقرأ، لحين قيامنا بالثورة، أيّ كتاب لماوتسي تونغ»، ويعني هذا أنّ قيادتيْ البلدين، صاغتا نهج التحرّر والحرّية من منظورين مختلفين.

فظروف الصين تطلّبت نمطًا معيّنًا من أنماط النضال، وظروف كوبا تطلّبت نمطًا آخر. فالحركة الفلاحية تلك، وذاك الاستغلال الإقطاعي اللذان كانا موجودين في الصين، كانا في كوبا أيضًا، لكن بنمط آخر، وبشكل مختلف.

في الصين التي كان عدد سكّانها أكثر من سكّان كوبا، بمئات المرّات، لم يكن فيها إلا حزبان كبيران هما: كوميتانك، والحزب الشيوعي. أحدهما صاحب السلطة، والآخر معارض ثوري، بينما كان في كوبا العديد من الأحزاب والأطراف المعارضة، والحكم كان بيد ديكتاتور. كما كان وضع مدنهما مختلفًا، وقامت الثورة في كل منهما، في ظروف مختلفة، ناهيك عن الوضع الجغرافي للبلدين. فكما كانت الفروقات واضحة بين الصين وكوبا، هكذا أيضًا قامت الثورة المسلّحة في البلدين بأسلوبين مختلفين، ولكن في كليهما بدأت بحرب الأنصار. وهذا يوصلنا إلى أنّ الثوّار، بالرغم من اختلاف أوضاع بلدانهم من حيث الظروف الموضوعية، وهم أمام الأنظمة الديكتاتورية القوية، كانت فكرة حرب الأنصار تسيطر عليهم. لذلك، في كوبا أيضًا، تمّ التفكير في هذا النمط من الحرب، وانتهاجه. إنّ خصوصية كوبا تكمن في أنّ الحزب الطليعي لم يقد الثورة، كما حصل في الصين، ولم ينتظر ولادته كشرط لقيام الثورة. كذلك في كوبا، وإن بدأت الثورة بحرب الأنصار، لكن لم تحرّر القرى والمدن الصغيرة واحدة تلو الأخرى، ثم العاصمة (كما حصل في الصين)، بل كانت ثورة الأنصار شكلًا من أشكال النضال التحرّري تلاحم مع النضال داخل المدن الذي قرّر، في النهاية، مصير الثورة ونظام الحكم. أي

حينما تعمّقت الأزمات في مدن وقرى كوبا، ولم يُجدِ النضالُ البرلماني والإصلاحي والإضرابي والجماهيري نفعًا، ولم يستسلم نظام باتيستا الديكتاتوري، آمن كاسترو ورفاقه حينذاك بضرورة انتهاج طريق حرب الأنصار، كشكل مؤثّر ضاغط على النظام، وكدافع قويّ للإسراع في تفجير التناقضات، من أجل تهيئة أرضية مناسبة لاندلاع انتفاضة جماهير المدن والقصبات، وقد حصل هذا فعلًا وبالضبط.

إذن، ثورة كوبا المنتصرة هذه، وكل المحاولات التي تلتها في تاريخ أميركا اللاتينية، ضدّ الإمبريالية الأميركية، والأنظمة الشرسة المرتبطة بها، وعلى الرغم من تقليدها لنهج ثورة كوبا، وبإخلاص، لم تصبح قانونًا ثابتًا لنضال الشعوب الشبيهة لكوبا. فلو لم تكن الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية الثورية، لاسيّما في المدن، وبعدها في القرى مهيّأة، لم يكن بالإمكان تحرير أيّ بلد من تلك البلدان. إنّ الثورة، لا تقام بالتقليد الأعمى، لذلك، وحتى لا تقع الشعوب في فخّ التقليد المفزع، فمن الضروري أن يحذر قادة الشعوب من التعرّض لتأثير رومانسية نجاح ثورة الشعوب، وأن يبتعدوا عن العاطفة الخالية من أساس علمي، لإشعال فتيل الثورة. كذلك، يجب أن ينظر الأبناء الثوريون الأعزّاء والواعون بدقّة إلى مواقف القادة، وينتبهوا لنتائج قراراتهم وسياساتهم، ولا يتحقّق كل هذا، إلا بمستوى عالٍ من الالتزام بالنظرية الإيديولوجية، والخبرة المكتسبة من التجارب، وبممارسة السياسة في ميادين النضال الفعلية.

في كثير من الأوقات، يدفع النظام القومي والاستغلال الطبقي والوضع السياسي الصعب والكوارث والحوادث الشعوب، والطبقات التقدّمية، والأحزاب السياسية، ذات النفوذ، إلى أن يتخذوا مواقف ناقصة، ويردّوا على الضرورات الآنية بمشاريع سياسية صعبة. وما دامت الأرضية لهذا المشروع، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، غير مواتية، فلا شك أنّه حتى لو استمر نضال الأحزاب والثورة وقادة العمل السياسي والعسكري الكبار، لفترة طويلة من الزمن، إلا أنّه لن يحقّق نصرًا استراتيجيًا، لأنّ أساس المشروع مبني على الرمال. فإن قيل إنّ ثورة نيكاراغوا، بعد انتصار ثورة كوبا، قد نجحت إلى حدّ كبير، بسلوكها نفس الطريق، فلماذا، إذن لا يؤدّي انتهاج نفس الطريق إلى النصر، عند شعوب العالم الأخرى؟ إنّ جواب هذا السؤال يكمن في ثنايا هذا الحديث القصير الآتي عن ثورة نيكاراغوا.

٣/ ٥- ثانيًا: نيكاراغوا

نيكاراغوا من بلدان أميركا الوسطى الصغيرة، تبلغ مساحتها ستّة آلاف ميل مربّع، وحينما اندلعت فيها الثورة، كان عدد نفوسها أكثر من مليونين ونصف، ٥١٪ منهم من القرويين، والبقيّة من سكّان المدن.

تعتبر نيكاراغوا وفق السياسة الجيوبوليتكية التوسّعية للولايات المتحدة الأميركية مفتاح أميركا الوسطى. لذلك فمثلما كانت فيتنام الواقعة في جنوب شرق آسيا ذات أهميّة قصوى بالنسبة إلى أميركا، كذلك نيكاراغوا، في أميركا الوسطى، مهمّة جدًا لأميركا.

ما دام الأمر هكذا، فإنّ أميركا ستبذل كل ما في طاقتها من أجل المحافظة على بلاد تتسم بهذه الأهميّة الجغرافية. لكنّ الحياة والأحداث الاجتماعية والسياسية التي تنعش الشروط الثورية للتغيير ستفجّر الأزمات بعكس توقّعات الإمبريالية تمامًا، شرط تطوير تلك الشروط، وأن تستغل من قبل أصحابها الحقيقيين. ففي نيكاراغوا كان الأمر كذلك، لأنّ ٢٥٪ من سكّان المدن، و٢٥٪ من سكّان القرى، كانوا عاطلين عن العمل، وأكثر من نصفهم أمّيين. كما كانت نسبة الأطبّاء والمستلزمات الطبّية منخفضة بشكل كبير، كذلك كانت حال دورهم السكنية. كما كان الموت يخطف الآلاف من أطفالهم، وآلام الجوع والتجويع تفتك بهم، وتنهك قواهم، حتى إنّ ٨١٪ من بيوتهم كانت تخلو من أنابيب المياه الصالحة للاستعمال.

إذن، كيف يرضى شعب مبتلى بكل هذا، بنظام ديكتاتوري مثل سوموزا؟ وبأيّ شكل وبأيّ دعم، يستطيع النظام إقناع الشعب، وحلّ مشاكله ومنعه من السير في طريق الثورة؟! نعم، كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي، والجغرافي والسياسي، لنيكاراغوا وشعبها على تلك الصورة، لكنّ هذا لا يعني أنّ الشعب فيها انتفض، وقام بثورته الناجحة، بصورة عفويّة. فلو قلّدت قيادتها ثورة كوبا أو

أيّ ثورة أخرى في العالم، وقام النيكاراغويون بثورتهم، من غير حساب للظروف الذاتية لبلدهم، لذهب هؤلاء أيضًا بالداء الذي أصاب بلدان أميركا اللاتينية وثوراتها الفاشلة.

لقد تهيّأت كل الشروط الموضوعية للقيام بالثورة في البلاد. فلا النظام كانت لديه القدرة على حلّ مشاكله، ولا الشعب كان يرضى بعد الآن بالنظام. فالأداة الوحيدة لإبقاء النظام، والتي ظلّ محتفظًا بها، كانت القتل والسجن والإرعاب، ولم يبقَ له سند إلا حرّاسه، وأميركا.

أمّا الحركة الثورية، فكانت تمتلك وسائل الضغط والقوّة والتأثير، وكانت منظّمة، ومعدّة بشكل مبدع. كما اتحدت كل أطراف المعارضة في جبهة «ساندينيستا» واتحاد القوى الاشتراكية الذي ضم أكثر من عشرين منظّمة للطلاب والعمّال ومن الشرائح الأخرى، وأسّس العديد من اللجان المهمّة العاملة ضدّ النظام، وصاغ برنامجًا ثوريًا مشتركًا، وأعلن عن تشكيل حكومة موقّتة.

في خضمّ تلك الأحداث، اتُخذ النضال المسلّح كوسيلة للوصول إلى الخلاص من الحكم الديكتاتوري، وتمكّن من تأجيج نار الغضب والرفض لجماهير المدن والقرى. ومزج شيئًا فشيئًا بين نضال المدن والجبال، ونضال العمال والكادحين والفلاحين والكسبة والوطنيين، وأعدّهم معًا للانتفاضة. وبالرغم من المقاومة الشديدة للنظام ومساندة أميركا له، توّجت الانتفاضة النضال المسلّح بأكاليل النصر والنجاح.

مع أنّ العديد من محاولات القيام بالثورة في كوبا قد فشلت، إلا أنّ هذا الأمر أثبت للجميع بالتجربة أنّه في حالة التخلّي عن روح التقليد اليساري الأعمى، وتمكّن الشعوب بصورة موضوعية من تحليل القوانين العامّة والخاصّة، والأحوال، والظروف، والأصدقاء والأعداء، والمدن والجبال، وقدرة المعارضة اليسارية للطبقات التقدّمية، بأسلوب ثوري في أوقاتها وأزمانها وبشكل مؤسّساتي، وخلق قوّة إيديولوجية مادية محرّكة للجماهير منها، في هذه الحالة فقط تتمكّن القيادة الحائزة على ثقة الجماهير، والمجرّبة الأمينة الصادقة من أخذ العمّال والشعوب نحو النصر حتمًا.

أمّا بكتابة الجمل الثورية وتعليق الشعارات الانعزالية والتكتيكية والمضلّلة والاستراتيجية المعكوسة أو الإصرار على نهج الثورة الطويلة الأمد، دون أخذ بقيّة المستلزمات الضرورية بالاعتبار، كالتغيير والتطوير، والعلاقات الاقتصادية والظواهر الجديدة، فمن الصعب أن ينتصر العمّال والشعوب. حتى لو قدّمت من أجل انتصارهم تضحيات بلا حدود، فإنّهم سيهزمون حتمًا، كما هزمت عشرات الحركات المسلّحة والانتفاضات والمظاهرات الصاخبة.

الفصل الرابع

٤- النتائج والمستقبل

إنّ المجتمع والتطوّر الاجتماعي للشعوب، تتكوّن بصورة معقّدة ومختلفة وليس باستطاعة أحد التحكم في خطّ سيرهما، وكل محاولة لصنعهما، أو تحريكهما حسب الرغبة والإرادة، أو وفق مقياس واحد ثابت من غير مراعاة الظروف والظواهر الطبيعية، ستنجم عنها نتيجة خطرة. ومن خلال النظر إلى سير أحداث هذه النتائج الخطيرة لتفسير الأخطاء، ينزلق السيئ نحو الأسوأ فالأسوأ، وتحدث، وتتكرّر هذه الحالة في الأشياء الصغيرة والكبيرة على حدّ سواء. لكنّ نتائج هذه الأحداث، مهما تكن غير مريحة، فإنّها، وفق القانون الدياليكتيكي (نفي النفي)، ستهيئ طريق الوصول إلى نتيجة أفضل، وتضع المخلصين على طريق الشعور بالمسؤولية والموقف الصحيح.

هؤلاء المخلصون، إن كان مستواهم الفكري، وإمكانياتهم النظرية وإخلاصهم السياسي بمستوى الطموح، فإنّهم يستطيعون القيام بإنجاز واجب ثوري أمام العمّال والشعب والتاريخ، أو في الأقلّ بناء أسس إنجاز هذا الواجب، وإن كان مستواهم أقلّ من المستوى المصيري المطلوب، فإنّهم سيدورون في حلقة مفرغة، إلى حين سقوطهم بصمت.

أيّ ثورة يا ترى؟ وكم تحتاج الثورة إلى مستلزمات ضرورية أخرى للنضال، لاسيّما في هذا العصر؟

هذان سؤالان، يحدّدان مصير الثورة المسلّحة، ومعرفتهما والعمل بهما، هما مقياس النجاح والنصر، والجهل بهما وخرقهما مصدر للفشل والهزيمة. إنّ النجاح ليس مرهونًا بالمال غير المحدود والسلاح المؤثّر والمساندة المطلقة، بل ضرورة معرفة أنّ مصير الثورة مرتبط بالاستراتيجية، والشعار الصحيح، والتكتيك والسلوك الثوريين. فإذا لم تُصَغ الاستراتيجية والشعارات والتكتيكات بصورة علمية، فإنّ السلاح والمال والمساندة فقط، لا تستطيع إيصال الثورة إلى النصر والنجاح،

بل تفسدها، وتشوّه السلوك الثوري لكوادرها أيضًا. حينما تصاغ الاستراتيجية حسب المبدأ والقاعدة الأساسية للعمل والسلوك، وتستمدّ منها الشعارات الواضحة، ويوضع التكتيك الصحيح والممارسة الصحيحة سورًا للثورة، حينذاك تصبح قرارات قيادة الثورة ملزمة للجماهير ومرشدة لها، ويصبح السلوك أساسًا لتحريك الجماهير الكادحة بشكل أوسع.

٤/١- التغيير والتطوير

في الفصول الماضية، حلّلنا، بشيء من الاختصار، عددًا من أمثلة وأشكال الثورات، وكل ما كتبناه يتعلّق بالماضي، فيما لا تزال ثورة كوردستان أسيرة تلك المنطلقات الثورية القديمة. نستطيع أن نقول إنّنا من حيث إبداء الرأي والتحليل، قيّمنا قليلًا وضعنا الحالي. لكنّنا، مع هذا، قمنا بحركة نحو الأمام أملًا في مستقبل مشرق. لندقّق النظر معًا في هذا النص:

إنّ الثورة الاجتماعية في القرن التاسع عشر بإمكانها أن تأخذ مادّتها، من نصّ المستقبل فقط، لا من الماضي. فهذه الثورة، إن لم تنبذ تمامًا جميع أنواع المعتقدات الخرافية الماضية، فلا تستطيع إنجاز واجباتها الخاصّة بها. أمّا الثورات السابقة، من هذه الناحية، فكانت تحتاج إلى تذكّر الأحداث التاريخية للعصور الماضية، لإخفاء مضامينها حتى على نفسها. أمّا ثورات القرن التاسع عشر، فلكي تتمكّن من كشف مضامينها الحقيقية لنفسها ينبغي أن يفتّشوا عن الموتى، ليدفنهم الموتى. فهناك تركت الجملة المضمون، وهنا يترك المضمون الجملة.[٢٧]

إنّ جوهر هذا القول يملك حيويته إلى يومنا هذا ويبقى حيًّا خالدًا، لو أخذت المتغيّرات بالاعتبار. إنّ الدول الإقطاعية وشبه الإقطاعية المحتلّة (طبعًا السابقة) تمكّنت، بعد ثورة الصين، أن تأخذ الظروف الجديدة بالاعتبار، وترفض ربط نفسها بمجموعة من القوانين الكلاسيكية، وفي كثير من الأماكن، بصورة عامّة، ألزمت نفسها بالسير على نهج جديد، ونبذت القديم، ونجحت في هذا المجال. تغيّر الكثير من الأشياء في العالم، لو قارنّاها بعصر انتصار الثورة الصينية، وبما بعده. ومن الضروري أن يأخذ المفكّرون والثوريون ذلك بالاعتبار، وينظروا إلى المستقبل، ولا يربطون مستقبلهم بالماضي، وألا يكونوا متحجّرين، وأن يهزموا «الدوغماتية»[٢٨] حتى لو كان هذا الماضي مفيدًا ومساره ناجحًا. إذ مع تغيُّر

٢٧ هـەذدەی برؤمـیری لویـس ثوناثـارت، وەرطیّرانی سـیامەندی شاسـوار، ل:٩٩.(الثامـن عـشر مـن بريمـير، لويـس بونابـارت، ص٩٩)

٢٨ (الدوغماتيزميـة: نهـج فكـري يقـوم عـلى التزمـت والايمـان المطلـق بامتـلاك الحقيقـة ويتميـز بالتعصـب والتحجـر الفكـري والاجتماعـي والسـياسي - المترجـم).

الزمن والظروف، يجب تغيير النهج أيضًا، فلا يجوز التمسُّك به، لأنّه أثبت نجاحه في الماضي.فكل شكل من الأشكال الاقتصادية والسياسية، والعسكرية والصناعية، والثقافية والإنسانية أدوات لتحقيق الأهداف البعيدة والقريبة. فبعض هذه الأدوات توارثتها الطبقات، وبعضها الآخر، من صنع الطبقات نفسها. إنّ الأدوات المتوارثة تتطوّر، وتمتزج بتلك المبتكرة، وتستعمل وفق المهمات الرئيسية والثانوية للمراحل التاريخية.

فالأدوات هذه، وفي كل مرحلة من المراحل، ومهما تكن مهمّة ومؤثّرة، قد تتغيّر عندما تتغيّر مرحلة، ويأتي وضع جديد. هذه الحقيقة من القوانين الأولية لـ «الدياليكتيك»[٢٩] وليست أداة من أدوات النضال، حتى لو حقّقت أكبر النجاحات، وفي العديد من البلدان والشعوب، تبقى خالدة وثابتة إلى الأبد.

إنّ تاريخ نضال العمّال والكادحين والشعوب مليء بالعشرات من الأشكال النضالية المتغيّرة: الإضرابات، والتظاهرات، والانتفاضات، وحرب الشوارع، والاحتجاجات، وثورات المدن وحرب الأنصار، والكفاح المسلّح في المدن (الاغتيالات والتخريب)، لكنّ أيّ شكل من تلك الأشكال النضالية لا يصبح صنمًا ليعبد. يجب أن نعرف أنّه سوف لا يبقى في المستقبل البعيد، وحسب المنظور العلمي للأشياء، أيّ أداة من أدوات النضال خالدًا. وحتى طبقات المجتمع، بما فيها طبقة البروليتاريا والطبقات الاجتماعية الأخرى، بل والشعوب أيضًا، سوف تتغيّر رويدًا رويدًا وباستمرار تحت تأثير الأحداث والأفكار والتطوّرات الاقتصادية والصناعية والإعلامية والفكرية والفلسفية، وتتطوّر وترتقي إلى مستويات حضارية وحداثوية عالية.

---

٢٩ (الدياليكتيك تعني الجدلية، وقد نشأت على يد ماركس وأنجلس، وتطورت إلى المادية الجدلية التي هي علم القوانين العامة الأساسية للتطور في الطبيعة والمجتمع والفكر. إنّ لبّ النظرية الجدلية هوالاعتقاد بأنّ التناقض هو نسيج الأشياء، فكل شيء يحتوي في داخله على جانب ايجابي وآخر سلبي، وفي كل شيء جانب ينمو، وآخريموت. هناك مبدأ آخر لهذه النظرية وهو مبدأ نفي النفي الذي يحدّد سير العملية الجدلية. فهناك الموضوع ثم هناك نقيض هذا الموضوع أو نفيه، ثم هناك نقيض النقيض، أي نفي النفي. فالنظام الرأسمالي هو نفي للنظام الإقطاعي والنظام الاشتراكي هونفي للنظام الرأسمالي وهكذا في بقية الأشياء-المترجم).

٣/٤- الثورة تتغير

الثورة المسلّحة هي أيضًا أداة من الأدوات النضالية التي ولدت من رحم الحروب القديمة، وأصبحت تراثًا للطبقات المسحوقة، لأنّ المستغلّين، في كل المراحل، وإلى الآن، فرضوا سلطاتهم القاهرة، وحافظوا عليها، بالحرب، ولم تترك مطلقًا أيّ طبقة حاكمة كرسي السلطة طواعية لطبقة جديدة، طيلة التاريخ.

الثورة المسلّحة، جرت، وتجري عليها تغييرات مختلفة، كذلك الثورة الطويلة الأمد، على الرغم من أنّ هناك شعوبًا ما زالت أراضيها محتلّة إلى الآن، لأنّ العلاقات تغيّرت والظواهر تبدّلت ولم تبقَ كالسابق. كما أنّ تكنولوجيا الحرب ما زالت مسيطرة، وثورة الرأسماليين المضادّة متناغمة وفق مصالح أنظمتها المختلفة.

ترى، أمِن الضروري أن يعتبر الثوّار نهج الثورة الطويلة الأمد، وحرب الأنصار قانونًا وحكمًا قاطعًا، لا رجعة ولا مراجعة فيه، إلى اليوم الذي تبقى فيه أرض شعب من الشعوب في العالم محتلّة، وأنّ هذه الأداة النضالية، لا غيرها، هي الأداة الحقيقية للنصر؟

منذ فترة طويلة، وجواب هذا السؤال، يدور حوله جدل، وفي كل الأوساط إلا داخل الشعوب المضطهدة المقهورة كالشعب الكوردي. هذه الشعوب التي تعيش دائمًا مع الثورة المسلّحة، بالرغم من أنّها لم تحقّق في ظلّها الدامي أيّ شيء، كالشعب الآذري، والبلوشي، والأرمني[٣٠*]، والبشتو، والتاميلي...إلخ. فلا هي تتخلّى عنها، ولا هي مستعدّة لدراستها على ضوء التطوّرات الحديثة، ولذلك لا تستطيع اكتشاف البديل الأفضل للنجاح. إنّ عدم اكتشاف البديل الثوري، سيبقي هذه الشعوب مستغلّة ومضطهدة. فكما تُفسَّر الظواهر والأحداث

٣٠ قسم منالشعب الأرمني حصل على استقلاله بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وأصبح له كيانًا مستقلًا في العقد الأخير من القرن العشرين ولكن القسم الذي يعيش في تركيا ما زال يرضخ تحت نير الاحتلال إلى الآن- المترجم.

في الكون والعالم، هكذا أيضًا تفسّر وتحلّل حرب الأنصار، من وجهات نظر اجتماعية متباينة ومتناقضة. هناك من المنظّرين من يصرّ على اعتبار حرب الأنصار النهج الأسلم للانتصار، وهناك من يعتبرها نوعًا من الجدل العقيم واليسارية المتطرّفة. وأمام هذين الاتجاهين ظهر خطّ جديد، يعتبر أصحابه كلًا من الاتجاهين خاطئين، ويعرضون بديلًا عنهما دراسات ذات طابع جديد، ويؤيّدون صياغة استراتيجية جديدة، تتناسب مع تطوّرات العصر.

فأيّ من هذه الطرق صحيحة وأيّ منها خاطئة؟ وما هو سبب الخطأ والصواب في كل منهما، وما هو نوع مصدر الخطأ؟

هذه الأسئلة يرتبط بها مصير نضال الشعوب، وهي أيضًا مفتاح لإيجاد طريق الخلاص والحرّية، وأيّ طرف يتمكّن من الإجابة عليها بصورة علميّة والبرهنة عليها بشكل موضوعي، سيقدّم مساعدة تاريخية لإعداد برنامج علمي وعملي مستقبلي للكادحين. وعلى العكس من ذلك، فإنّ خطأ اليسار واليمين في الإجابة عنها، سيكون له أضرار مخيفة على الحاضر والمستقبل.

إنّ الإجابة تتحمّل المئات من الدراسات والكتابات، ومن المفروض أن تستحوذ على اهتمام كل المفكّرين والسياسيين والعسكريين المقتدرين، وعليهم أن يدرسوا هذا الموضوع بعناية.

٣/٤- تغيّر المواقع الطبقية

مثلما أثّرت الظواهر الرأسمالية الجديدة، ومنذ القدم قليلًا أو كثيرًا، بصورة عميقة أم سطحية، في الأوضاع الاجتماعية والمواقف السياسية، أثّرت أيضًا هذه التطوّرات الرأسمالية الكبيرة الفعّالة مباشرة في الوضع الاجتماعي، بشكل غيّر هذا التأثير المكانة السياسية للعلاقات الاجتماعية بل وحتى الطبقية.

ففي الماضي كان يجوز، بشكل أو بآخر، وفي دول كالعراق، أن تنافس البرجوازية الوطنية الصناعية الضعيفة بعضًا من الدول الاستعمارية، أو بعضًا من شركاتها الضعيفة، ومن أجل النجاح في هذه المنافسة كانت البرجوازية الوطنية تعتمد على المشاعر القومية والمقاومة الوطنية والمواقف التحرّرية. ويتم هذا في الحالات السياسية الخاصّة، التي لا تحسّ فيها البرجوازية أنّ خطر انتشار النضال الاشتراكي أكثر من خطر الإمبريالية على وجودها، لكنّها تقترب من الإمبريالية حينما تشعر بخطر النضال الديمقراطي والاشتراكي. وسبب ذلك المصالح الاقتصادية المشتركة بينهما، والتي تفرض نفسها موضوعيًا. لذلك ودرءًا لهذا الخطر الذي يهدّد مصالحهما الطبقية المشتركة، اقتربت منذ أمد بعيد من الإمبريالية.

فإذا كانت تلك الحقيقة بالنسبة إلى البرجوازيين الذين كانوا يوصفون بالوطنية في السابق هكذا، ولاسيّما حينما لم تكن الإمبريالية بالشكل الحالي، من حيث رأس المال والصناعة والتكنولوجيا مسيطرة نصف هذا القدر، فمن الواضح أنّها، أي البرجوازية، وفي هذه الظروف التي تمّ انسلاخ البرجوازية عن الفلسفة الوطنية، أمام سيطرة الشركات المتعدّدة الجنسية الحالية التي تحكم اقتصاديًا أغلب دول العالم.

هذه الطبقة حاليًا لا تستطيع بمصانعها الصغيرة ومنتجاتها غير المهمة التي بإمكان الاحتكاريين إغلاقها متى شاؤوا، أن تدخل في منافسة مع الاحتكاريين. لقد تمكّنت الإمبريالية من لجم البرجوازية تمامًا. فهذه الطبقة، بدون الإمبريالية لا

تستطيع حتى إنتاج خيوط قيطان الأحذية لوحدها. بمعنى أنّ البرجوازية الوطنية، كطبقة صاحبة ثقل سياسي-طبقي، تمّ إخراجها من دائرة الحركة التحرّرية-الديمقراطية، وارتبطت بإحكام بالإمبريالية. وأصبحت منذ زمن بعيد جزءًا من النظام الرأسمالي العالمي، وأداة لتحقيق أهدافها السياسية. فالبرجوازية الصناعية في بلد مثل بلدنا، حتى إذا لم تكن السلطة بأيديها، كما كان في الصين، فإنّ مصلحتها الاقتصادية ارتبطت بشكل أساسي باقتصاد الأنظمة الحاكمة في بلدانها، وهي بدورها، أي الأنظمة الحاكمة، خاضعة أو تابعة للإمبريالية.

إنّ البرجوازية الوطنية وباختصار، هي ضمن المعسكر الرأسمالي وضدّ المعسكر الاشتراكي. ولذلك فهي عدوّة طبقية للعمّال ونضال الشعوب، وضدّ الاشتراكية والتحرّر الديمقراطي أيضًا.

كان الفلاحون أيضًا في السابق جوهر النضال الوطني-الديمقراطي، كما كانوا يؤلّفون أكثرية محاربي الثورة الطويلة الأمد. وحصل هذا أيضًا لأنّ الإقطاع الجشع كان مسيطرًا، وكانت له حصّة الأخ الأكبر في محصول الفلاح، من غير أن يبذل أيّ جهد أو مال. لذلك، كان هناك تناقض رئيسي بين مصالح الفلاحين والإقطاعيين، وشكّل الإصلاح الزراعي أهمّ مطلب للفلاحين، ولم يكن ليتحقّق في الماضي بدون الديمقراطية.

لذلك أيضًا عندما بدأت الثورة التحرّرية من القرى، حمل الفلاحون السلاح في تلك المناطق التي نضجت فيها الشروط الموضوعية والذاتية للثورة، وأصبحوا أكثرية في الحركات المسلّحة التحرّرية. ولو لم يكن الثوّار يدركون تلك الحقيقة الاجتماعية لما اقتربوا من الفلاحين، وسلّحوهم. لكن، ومنذ الخمسينيات من القرن العشرين وما بعدها، تغيّر الوضع الاجتماعي والموقع الاقتصادي للفلاحين باستمرار. فمن جانب، اقتضت، إلى حدّ ما، مصالح الثورة شبه الناجحة للبلدان الخاضعة، بقيادة البرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية أن تخطو خطوات اقتصادية كبيرة لمصلحة الفلاحين، وتحريرهم مباشرة، وفق خطّة برجوازية، من الاستغلال الإقطاعي.

من هذه الناحية، خطوا، ويخطون خطوات ملموسة لصالحهم، ومن الناحية الأخرى تطلّبت المصالح المشتركة التي تربط الإمبريالية بالأنظمة البرجوازية الخاضعة

أن تسود العلاقات الرأسمالية في القرى وبين الفلاحين، لأنّه لو لم يكن المستوى المعيشي وقوّة الشراء والبيع عند الفلاحين مرتفعًا، فلن يكون رواج البضائع الرأسمالية وسوقها ناشطين. لذلك تمّت مكننة القرى بصورة أكثر وباستمرار، مقارنة بالماضي، وإيصال الطرق إليها، وأنشئت فيها المراكز البيطرية، والمدارس والمستشفيات، وإلى حدّ ما مراكز لمحو الأمّية بينهم. ونتيجة لهذا العمل ازداد إنتاج هذه القرى، وازدادت عمليات البيع والشراء لهذه المنتجات، وازدهرت أسواقهم، وارتبطت بأسواق المدن.

هذه العوامل جميعها غيّرت الوضع الاجتماعي للفلاحين، وجعلتهم يعيشون في ظلّ مجتمع أكثر أمانًا وسعادة من الحياة التي كانوا يعيشونها في ظلّ الإقطاع.

إنّ هذه التغييرات الاقتصادية، إن لم تكن غيّرت من الأساس الوضع الاجتماعي للفلاحين، فبلا شك، يجب أن نكون مطمئنين من أنّها غيّرت الوضع الطبقي في الدول الغنية الخاضعة التي حصلت فيها تلك التغييرات، بشكل لا يسمح فيها أن يجعل الفلاحين جوهر الثورة الوطنية الديمقراطية، لأيّ سبب آخر، أو تحت تأثير أيّ سياسة قديمة. لذلك، ومنذ تلك الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، سوف لا يصبحون -طبعًا- أكثرية جيش الثورة الطويلة الأمد التي تبدأ من القرى، وتطرد العدوّ، وتنظّف الوطن منه.

من الصعب بعد هذا أن تحرّك شعارات البرجوازية الصغيرة المحكومة، أو البرجوازية الصغيرة المتسلّطة على الشعوب المضطهدة الفلاحين كالسابق، عندما كان الإقطاع متواجدًا على الساحة ولم يؤلّف العمّال طبقتهم بعد، ولم يستطيعوا قيادة أنفسهم وقيادة الكادحين. لقد بات من الصعب دفع الفلاحين إلى الانخراط في الثورة الطويلة الأمد، وتشكيل جيش منهم، ومن ثم تحرير المدن انطلاقًا من الجبل. فالفلاحون في البلاد المتخلّفة المحتلّة شبه الإقطاعية يؤلّفون القسم الأعظم من البرجوازية الصغيرة، لكن بعد الثورة البرجوازية تعطى أهمّية أكثر للمدينة، كواجب من واجبات الديمقراطية (حتى البرجوازية) أيضًا، فيقلّ عدد الفلاحين.

بسبب هذا التناقص في عدد الفلاحين يرتفع مستواهم الحياتي والمعيشي، لاسيّما في البلدان التي تكثر فيها المنابع النفطية ومختلف المواد الخام الأولية في باطن الأرض. فهي منذ فترة طويلة تطبّق استراتيجية مقلّدة لأوروبا على حساب

الزراعة والفلاحين، وتعطي أهميّة أكثر من اللازم بالمدينة. وتريد، بقفزة واحدة، ومن غير الاهتمام بالمستوى الثقافي والمدني والاقتصادي والاجتماعي، إيصال مستوى بلدانهم إلى المستوى الأوروبي المتقدّم، وإدخال الأغنياء، أصحاب رؤوس الأموال من رعايا الدول المحتلّة، صفوف الرأسماليين المتسلّطين. لا شك أنّ هذا خطأ استراتيجي قاتل لرأسماليي البلدان المحتلّة، وقد استفادت منه الإمبريالية من كل النواحي، لكنّ هذا الفشل لا يغيّر شيئًا من حقيقة أنّ الوضع الاجتماعي للفلاحين قد تغيّر، وأنّ حياتهم وعددهم ومحل سكناهم وموقفهم الطبقي لم يبقَ كما كان في السابق.

هذه الطبقة، في بلدان كالعراق الحالي، مشدودة الآن أكثر بالعلاقات الرأسمالية والسوق الرأسمالية، حتى لو كان الشعور القومي لدى هذه الطبقة ما زال قويًا، وبقايا العشائرية والمشكلات الطبقية ما زالت قائمة فيها بحكم السياسة العنصرية للأنظمة التي حكمت وتحكم العراق، كنظام حزب البعث. فبلا شك، هناك فلاحون فقراء، ما زالوا لا يملكون أرضًا. لكن بالرغم من كل هذه الأمور وشدّة قساوة السياسات العنصرية التي مارستها وتمارسها الأنظمة الحاكمة في العراق ضدّ شعب كوردستان، ظلّ الفلاحون غالبًا طبقة مالكة للأرض. والأرض، كما هو معروف، مسألة حيوية وهامّة بالنسبة إليهم. لذلك نرى في هذه الثورة، نتيجة التغييرات الاقتصادية والاجتماعية، أنّ الفلاحين لم يربطوا مصيرهم بالثورة الطويلة الأمد إلا قليلًا، وأنّهم كانوا أقلّ ميلًا وعددًا في حمل السلاح من المثقّفين من أبناء المدن. وقد تسبّب هذا أيضًا في انقسام أحزاب البرجوازية الصغيرة في كوردستان، والتي كانت نظّمت نفسها في ثورة أيلول من الناحية السياسية والعقائدية بصورة أفضل وبأشكال متنوّعة، وحاربت بشجاعة أكثر، ودخلت معارك أوسع وأشمل. فهذه الأحزاب انقسمت إلى أطراف عديدة، وصاغ كل طرف برنامجه الخاصّ، وأراد كل طرف جرّ الفلاحين إلى داخل قوّاته بشكل مختلف أيضًا، لكنّهم فشلوا في تحقيق ما أرادوا.

إذا أخرجنا من المعادلة كل الأعمال السيئة لكل الأطراف التي أدّت إلى إدخال اليأس والبرود إلى قلوب الفلاحين، فإنّ هؤلاء وجمعًا غفيرًا من سكّان المدن، أصابهم اليأس نتيجة لتراكم الهزائم التي منيت بها الحركة التحرّرية الكوردستانية، وفقدوا الأمل في نجاح الثورة المسلّحة والقيادة البرجوازية. ولم يكن التأثير السلبي

للحرب الداخلية بأقلّ من ذلك في خلق هذه الحالة، لكن، ومع أخذ هذه الحقائق بالاعتبار، يجب الوقوف عمليًا عند أساس المشكلة الذي يتمثّل في القضية الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والمصالح الطبقية للفلاحين، لأنّ بقيّة الظواهر التي أشرنا إليها سابقًا، تفرّعت من هذه المكانة الاقتصادية.

قامت في كل من الصين وفيتنام وكوريا وكمبوديا ولاوس والجزائر وكوبا ونيكاراغوا...إلخ، ثورة، وعلى الرغم من اختلاف النهج التحرّري لكل منها، إلا أنّها جميعها ساهمت في حلّ قضية الفلاحين والوقوف معهم ضدّ الإقطاعيين إلى جانب اضطلاعها بالمسؤوليات الوطنية الأخرى. والصين وفيتنام فجّرتا النضال ضدّ النظام الإقطاعي وحررتا الفلاحين قبل النضال الوطني والتحرّري، لأنّ الوضع الاجتماعي فيهما ومرحلة نضالهما تطلّبا ذلك. هذه الحقيقة جعلت أكثرية الفلاحين محاربين في جيش الثورة الطويلة الأمد التي انتصرت في النهاية، بينما هناك من يقول وإلى الآن إنّ العمّال هم الطليعة والفلاحون هم الحلفاء للعمّال!!

كذلك، في كوريا، وطيلة خضوعها لليابان، كان النظام فيها يحافظ على الإقطاع، ولم يحصل أيّ تغيير على العلاقات الإنتاجية للفلاحين فيها. لكن بعد الحرب العالمية الثانية وتدخّل أميركا وفرضها نظامًا رجعيًا مرتبطًا ومسنودًا من قبل الإقطاع، انتفض الفلاحون الكوريون ضدّ الإقطاعيين قبل اندلاع الحرب الوطنية الدفاعية. فاعتمدوا على أنفسهم وتمكّنوا من الحصول على ٧٠٪ من الإنتاج، وكان هذا أيضًا سببًا مهمًا جدًّا لانتصار شعب كوريا. بينما نفس الأداة، أي الفلاحون، أصبحت عاملًا في فشل العديد من الثورات، لأنّ الوضع الطبقي المناهض للإقطاع فات أوانه عندهم.

٤/٤- بوليفيا: ضريح جيفارا

جيفارا، وبعد أن كان القائد الثاني لمسيرة ثورة كوبا، ولعب الدور الثوري الأكبر فيها، تخلّى عام ١٩٦٥، طبقًا للنهج الذي كان يؤمن به، عن منصب الوزارة والحياة المرفّهة التي كان يعيشها بعد انتصار الثورة في كوبا، وسلك طريق الحياة الحرّة الكريمة أو الموت، في سبيل انتصار النهج الذي آمن به، وانتصار الثورة في بلد آخر من بلدان أميركا اللاتينية التي تناضل ضدّ الولايات المتحدة.

كان جيفارا يؤمن بأنّ النهج الذي أوصل ثورة كوبا إلى خاتمة النجاح والانتصار سيحقّق انتصارات أخرى أيضًا في بلدان شبيهة لكوبا. وفي حديث له بعد انتصار ثورة كوبا، عبّر جيفارا في قسم منه عن إيمانه بنهج حرب الأنصار في قارة أميركا بهذا الشكل:

نعتقد أنّ ثورة كوبا منحت ثلاث دعامات مهمّة للحركة الثورية في قارة أميركا، في وضعها الحالي. الأولى، أنّ باستطاعة قوى الشعب الانتصار على الجيش في الحرب. والثانية، أنّه ليس من الضروري دائمًا أن ننتظر استكمال كل الشروط الثورية، لأنّ الانتفاضة نفسها تخلق هذه الشروط. أمّا الثالثة، فهي أنّه يجب أن تكون ساحة عمل النضال المسلّح، في القسم المتخلّف من القارة الأميركية، في القرى، بشكل رئيسي.[٣١]

وفي آخر رسالة تركها لكاسترو قبيل رحيله، قال:

شعوب العالم الأخرى تحتاج إلى جهدي المتواضع. أعرف أنّ هذه الرغبة التي لا تستطيع أنت تحقيقها بسبب مسؤوليّاتك، هي التي أيقظتني، ومنذ ذلك اليوم نضجت لغة مختلفة بيننا.[٣٢]

---

٣١ ارنستو جه كوارا در انقلاب (بادو مقالة جاب نشدة) انتشارات مرواريد، ترجمه: م. أ. رهجو، ص ١٨.

٣٢ روجيه دوبريه، الثورة في الثور، ترجمة: الياس سحاب، الطبعة الأولى، يناير ١٩٦٨،

بمعنى آخر، عندما اطمأنّ جيفارا، وأصبح واثقًا من نفسه ومن نهجه، ومن نظريّة حرب الأنصار، والوضع المتأزّم في قارة أميركا، ومن تجربته القيادية المقتدرة، ترك كوبا متوجّهًا إلى بوليفيا، لإشعال فتيل الثورة وحرب العصابات فيها.

في بوليفيا، أشعل فتيل الثورة، وشكّل العديد من المفارز المسلّحة، وأسّس معسكرًا للأنصار، وقام بتدريبهم. كما خاض معارك ناجحة، لكنّ الحقائق الاجتماعية أثبتت له، شيئًا فشيئًا، أنّ الثورة لا تقوم بالتقليد الأعمى، وأنّ نظريّة حرب الأنصار لا تحقّق هكذا، وبكل سهولة وبصورة اعتيادية، شروط النجاح من الناحية الاجتماعية. إنّ أحد الشروط الضرورية للنجاح في هذا المجال حلّ مشكلة الفلاحين. هذا القائد الواثق من نفسه، وصل إلى النتيجة الآتية:

إلى الآن نعاني من عدم مشاركة الفلاحين. هذه حلقة مفرغة، فمن أجل أن نجعل الفلاح ملتزمًا يجب أن ننجز أعمالنا باستمرار في الأماكن الخالية، لكنّ تنفيذ هذا يحتاج إلى رجال كثيرين.

نشعر دائمًا بعدم انضمام الفلاحين إلى صفوفنا، بالرغم من بعض الدلائل المشجّعة التي تفرض أسلوب استقبالنا من قبل بعض الفلاحين من كبار السنّ المعروفين.[٣٣]

أولئك الفلاحون الكبار المعروفون، حتى لو دخلوا وأبناؤهم وأحفادهم إلى صفوف مفارز جيفارا والجيفاريّين، فإنّ «بؤرة» لهم «لا الثورة» كان مصيرها الفشل المحتّم، لأنّ الثورة تتطلّب حركة ثورية فلاحية واسعة ضدّ الإقطاع، لا استقبال الشيوخ المعروفين! أو حتى عطف العديد من العشائر!

تلك هي بؤرة بوليفيا التي فشلت، مع الأسف، في ظلّ قيادة جيفارا، واستشهد هو أيضًا بسببها، وأظهر الباحثون بعد ذلك، أنّه بالرغم من خضوع بوليفيا للاستبداد والاضطهاد، والقهر السياسي والوطني، من قبل أميركا الإمبريالية، إضافة إلى الاستغلال الطبقي المهين ضدّ العمّال والكادحين، إلا أنّ الحركة الثورية لم تتمكّن من إيجاد الطريق الثوري الصحيح، والسير فيه بثبات نحو تحقيق الهدف.

منشورات دار الآداب، بيروت، ص٢٤.

٣٣ المصدر السابق.

وذلك لعدم نضج الوضع الثوري في المدن البوليفية من الناحية الموضوعية، ولعدم تقييم الشروط الموضوعية والذاتية فيها بصورة دقيقة، إضافة إلى عمليات الإصلاح الزراعي التي نفّذت حديثًا، بعد مئتي عام من التعسّف والاستغلال البشع الذي كان يتعرّض له الفلاحون من قبل الإقطاعيين مصّاصي الدماء. وليس بعيدًا أن يكون الإصلاح الزراعي من خطط الثورة المضادّة لمنع تكرار تجربة كوبا في بوليفيا. ولهذا لم ينتفض الفلاحون، ولم ينضمّوا إلى صفوف البؤرة.

كانت مفارز جيفارا الثورية، بلا شك، بعيدة عن إلحاق الظلم بالناس، والقيام بأعمال لا يرضون بها، إنّما كانت تحترمهم. ومن أجل ألا يتعرّضوا لعقاب الجيش وأذيته، أبعدوا مقرّاتهم عن القرى. لذلك لا يمكن جعل أيّ عمل أو فعل سيّء من هذا القبيل سببًا في فشلهم، عدا تلك الأسباب الاجتماعية والسياسية التي تحدّثنا عنها، والتي كانت لها علاقة بتطوّر نهج الرأسمالية بعد الهزائم التي منيت بها الحركات المسلّحة. وقد شملت هذه التغييرات بصورة خاصة طبقتين اجتماعيتين: البرجوازية الوطنية، والفلاحين. إنّ البرجوازية الصغيرة اتخذت من هذه التغييرات ظهيرًا وسندًا جديدًا لها ضدّ العمّال واليساريين بطريقتين:

١- في ظلّ الأنظمة الرأسمالية الدولية غير المرتدّة إلى الفاشية التي تقبل بحقّ النظام الديمقراطي والحكم بالفوز حسب الأكثرية الانتخابية، تسعى هذه الطبقة إلى جعل الفلاحين حلفاء لها، لثنيهم عن التحالف مع العمّال والحركة السياسية المعارضة في المدن في مرحلة النضال من أجل الديمقراطية. ولا تبخل بأيّ جهد في هذا المجال، وما دام الوضع على هذا المنوال فهي ناجحة في سعيها، لأنّ الفلاحين وبرجوازيي المدن الصغار تجمعهما مصالح مشتركة في هذه المرحلة.

٢- في مقابل الأنظمة الفاشية أمثال النظام العراقي، وبسبب عدم انضمام الفلاحين إلى صفوف الثورة الطويلة الأمد إلا قليلًا، تسعى البرجوازية الصغيرة بشكل أكثر من الزمن السابق للبرجوازية لتبوّء مكان الطليعة في الثورة الشعبية، أو في مرحلة إتمام وتحقيق واجبات الثورة الديمقراطية. ولا يهمّها حتى لو تمّ ذلك عن طريق السلطة الفاشية. وعندما تشعر بخطر العمّال الثوريين، فإنّها تقاومهم بشدّة، ويكون قمع الديمقراطية عندهم حينئذ مثل ذبح الدجاجة!

في كل الأحوال، إنّ دراسة الوضع الاجتماعي للفلاحين وتقييم موقفهم الطبقي، ومستوى تقدّمهم، وأديانهم ومذاهبهم المختلفة، وعاداتهم وتقاليدهم، وعلاقاتهم العشائرية، وأراضيهم ومياههم، ومنتوجاتهم وكيفيّة تسويقها، لاسيّما في هذا العصر الذي تقدّمت فيه الصناعة، مسألة مهمّة وينبغي إيلاءها الاهتمام الشديد من أجل معرفة مدى تطوّر الوضع الاقتصادي والاجتماعي للفلاحين ومدى استعداداتهم للانخراط في صفوف الحركات المسلّحة، أو في انتفاضات المدن. فمن دون هذا المسح الشامل في القرى وبين الفلاحين، فإنّ القيام بحرب العصابات والثورة الطويلة الأمد داخل الأرياف، مغامرة خطيرة.

الفصل الخامس

٥- تشويه صورة الثورة

تعود أرضية نموّ وانتشار الإيديولوجية «الريفيذنيزمية»، أي إعادة النظر في الشيوعية إلى الوضع الاقتصادي الذي ساد بعد فشل كومونة باريس التي دامت من الثامن عشر من آذار (مارس) إلى الثامن والعشرين من أيار (مايو) العام ١٨٧١، كأول تجربة فاشلة للثورة الاشتراكية، والتي يتحمّل مسؤولية فشلها على الوجه الأكثر الفوضويّون، لأنّهم لم يثوروا في الوقت المناسب. وعندما هاجموا، مزجوا بين مرحلتي الديمقراطية والاشتراكية. وعندما فعلوا هذا، لم يهاجموا، بعد انتصارهم الأوّلي، أعداء العمّال في باريس الذين لجأوا إلى فرساي، بانتظار الفرصة المناسبة، وحينما سنحت تلك الفرصة، انقضوا على عمّال الـ»كومونة» وأغرقوهم في دماء الآلاف من رفاقهم.

هذه الهزيمة، ألحقت بالعمّال ضررًا كبيرًا، ودرّت على البرجوازيين ربحًا أكبر، وكان ضررها للعمّال يكمن في اليأس الذي أصاب نفوس البعض من أنصارهم. ويكمن ربحها للبرجوازيين في النظرة المتفائلة إلى المستقبل التي تولّدت لديهم نتيجة لهزيمة الكومونة.

أدّى انتصار البرجوازيين وهزيمة العمّال إلى ظهور النهج الإصلاحي داخل الحركة العمّالية الفرنسية والألمانية والإنكليزية، كما أدّى إلى انطفاء جذوة الشعور الثوري وتناسي الموقف الطبقي لدى العمّال. وتهيّأت الأرضية الاقتصادية والاجتماعية المناسبة لهذه الفكرة التي نمت وترسّخت على الأساس الأوروبي، حيث وجدت أوروبا نفسها، بعد الحرب الروسية-الألمانية ما بين ١٨٧٠-١٨٧١ التي انتهت بانتفاضة باريس الشاملة الكبرى، في استراحة طويلة دامت عشرين سنة. وتمكّنت الدول الاستعمارية في غضون ذلك من كسب فوائد وأرباح كثيرة من المستعمرات، وأثّر هذا في المسار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي أيضًا.

من هنا بدأت محاولات صياغة الاتجاه الإصلاحي نحو الاشتراكية. فبعد

جورج فالمر الذي كشف منذ عام ١٨٩١ بدايات هذا الاتجاه، نزل إلى ميدان المناقشة والكتابة عن الماركسية والثورة والاشتراكية العلمية، في تلك الفترة إدوارد برنشتاين كأشهر الكتّاب والمنظّرين «الريفيذنزميين». وبهذا وضع نفسه في الخندق المناقض للمبادئ الثورية الماركسية وحاول إثبات:

١- عدم صحّة نظرية حتمية انحلال المجتمع الرأسمالي من جرّاء تناقضاته الداخلية، وبهذا رفض المادية التاريخية، وأبطل النضال الطبقي.

٢- دحض وفنّد مقولة: «الثورة الاجتماعية العمّالية هي السبيل الوحيد إلى الانتصار على الرأسمالية.»

٣- تحقيق الاشتراكية عن طريق الإصلاح الاجتماعي، المتمثل في انتشار الجمعيات التعاونية والنقابات، وتنامي الديمقراطية بهدوء...إلخ!

باختصار، إنّ برنشتاين غيّر اتجاه الحزب الثوري العمّالي، من اتجاه حزب ثوري اجتماعي، إلى حزب إصلاحي اجتماعي، وغيّر مسار الماركسية من النهج الثوري إلى نهج إصلاحي. ووضع الثورة في متحف التاريخ، وجعل الرأسمالية نموذج الحياة الأبدية، وطوى صفحات الاشتراكية العلمية. وتلقى كاوتسكي هذه الآراء والأفكار وحافظ عليها، وفرضها شيئًا فشيئًا، حتى أصبح، بعد برنشتاين وريثه بلا قناع ولا خوف. وبهذا انتشر هذا الاتجاه تمامًا داخل «الأممية الثانية»، وبعد موت أنجلز، قبل الحرب العالمية الأولى، أصبح هذا الاتجاه سائدًا. وفي هذه الأثناء، ظهر الخوف من قيام حرب إمبريالية، وكانت فرصة للعمّال لكي يستغلّوا مشكلات الرأسمالية من أجل القيام بالثورة. وسنحت أفضل الفرص لكي تتمكّن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية من إبطال مفعول قرارات مؤتمر شتوتغارت-١٩٠٧ الأممية ضدّ إشعال الحرب غير المشروعة، وتهيئة الأرضية المناسبة لاندلاع الثورة الاجتماعية.[٣٤]*

في الرابع من آب (أغسطس) عام ١٩١٤، وبناءً على قرار للحزب الاشتراكي

٣٤ علينا أن نعترف بأنّ الأحداث، بعد انتهاء الحرب الباردة، أثبتت صحة أكثرية الآراء الديمقراطية والإصلاحية لهؤلاء المنظرين الكبار، وأنّ أكثرية الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي واندحاره يتخذون هذا النهج السياسي والفكري استراتيجية جديدة لأحزابهم.

الديمقراطي الألماني صوّت أكثر من مئة عضو من أعضاء البرلمان (الرايشتاخ) لمصلحة ميزانية الحرب. إنّ الحزب المذكور بتصرّفه هذا أثّر أكثر من غيره من الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية، في الاشتراكيين والعمّال، لأنّه كان يعتبر القلب الكبير النابض للأممية. كما كانت الأحزاب الاشتراكية الأوروبية تنظر إليه كنموذج مثالي لنضالهم. ولهذا اتخذ الاشتراكيون الديمقراطيون في فرنسا وإنكلترا، من بعده، نفس الموقف. في البداية، عندما وصل الخبر إلى لينين، ظنّه من دعايات الشرطة الألمانية، لكنّه تأكّد بعد ذلك من صحته. لذلك تصدّى لموقفهم، كذلك فعلت روزا لوكسمبورك وليبيكنيختيش اللذان اتخذا موقفًا ثوريًا من النهج «الريفيذنيزمي»، ولكن، لم يتمكّنوا من إيصال أهمّ انتفاضات عمّال ألمانيا، إلى النصر والنجاح. كانت ثورة أكتوبر بحاجة ماسّة إلى تلك المساندة حتى تخرج من حصار كيان الدولة الوحيدة، وتجد الثورة الاشتراكية عمقًا دوليًا، وتسير، كثورة أكتوبر، نحو النصر[35]*.

ظهر خطر «الريفيذنيزمية» على مستقبل ثورة العمّال والشعوب، وأصبح «الريفيذنيزميون» سببًا لإجهاض أفضل الفرص الثورية بعدما غرسوا في جسد حركة المضطهدين حراب البرجوازية المسمومة. ومنذ ذلك الوقت خرج التاريخ عن مساره الصحيح، ولم يعد إلى وضعه الطبيعي.

بهذا الشكل، استطاع «الريفيذنيزميون»، أي الإصلاحيون أو التحريفيون بمعنى آخر، استغلال آراء الشيوعيين الطوبائيين، وتشدّد «البلانكيين»[36] في خلط المهام الديمقراطية بالثورة الاشتراكية. فلو ناضل العمّال بحماسة من أجل تحقيق مطالبهم الديمقراطية لتهيئة أرضية أفضل للاشتراكية، لكان مسار العالم تغيّر وآلت الأمور إلى واقع مختلف عن وضعنا الحالي. مع الأسف لم يؤخذ من هذه التجربة الدرس الوافي للثورات المقبلة، فارتكبت الأخطاء مرّة أخرى. ففي ثورة شباط (فبراير) عام ١٩١٧ الروسية، استطاع العمّال والكادحون إثبات دورهم التاريخي في نجاح الثورة الديمقراطية، في زمن ضعف البرجوازية.

---

٣٥ تنبأ ماركس وأنجلز في حينه باندلاع الثورة الاشتراكية في ألمانيا أولًا، لكنّ النازية انتصرت فيها على النقيض من تنبؤهم

٣٦ (اوغيست بلانكي (١٨٠٥-١٨٨١) من الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين، قضى معظم حياته في السجون أو في المنفى أو وراء المتاريس، أصبح ممثلًا شهيرا للشيوعية الطوباوية -المترجم-)

وعندما انتصرت ثورة أكتوبر، كان ينبغي أن تنفّذ المهمّات الديمقراطية أيضًا، بأخذ العبر والدروس من كومونة باريس، ولكنّ العكس هو الذي حدث، إذ بدأت مباشرة عملية فرض الاشتراكية. إنّ الفارق بين ثورة أكتوبر وكومونة باريس، يكمن في أنّ الكومونة لم تقترب من المهمّات الديمقراطية، بل حتى من الدولة، لكنّ البلشفيين نزلوا إلى الميدان باسم الجمهورية الديمقراطية، وبعد ذلك تسرّعوا في فرض الاشتراكية. حقًا، إنّ حضور لينين والبلشفيين والمستوى العالي للوعي الطبقي والسياسي، في تلك الفترة، هو الذي حافظ على تجربة أكتوبر ورسّخها، لكنّ التاريخ استرد، في نهاية الأمر، ضريبة تشويه الحقائق. فتعمّقت المعضلات التي أخفيت تحت ظلّ سلطة العمّال، حتى انفجرت أخيرًا بشكل مأساوي. فمع أنّ لينين أدرك خطر فرض الاشتراكية بالقوّة، في سنوات حياته الأخيرة، وبدأ بمحاولة جادّة لإعادة التوازن، وذلك بإعادة إعطاء الأهميّة للديمقراطية، إلا أنّ الموت عاجله قبل تنفيذ ما قرّره. إنّ ذلك الموت الذي حلّ في غير أوانه، هيّأ الساحة لرجل عنيف شرس مثل جوزيف ستالين ليخلف لينين، ويحلّ محلّه. ومنذ ذلك الوقت، وقبل أن يُفضّ التشابك بين خلط مهمّات الديمقراطية والاشتراكية، ويتوضح خطأه، خرج التاريخ عن مساره الصحيح، والتاريخ في النتيجة النهائية لا يرحم الذين يخطئون، لا سيّما أصحاب الأخطاء الكبيرة.

١/٥- الديكتاتورية الستالينية

ظلّ ستالين(١٨٧٩-١٩٥٣) زعيمًا للحزب الشيوعي السوفييتي طيلة ثلاثين عامًا. وكان معروفًا في أوساط الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وأثناء تحوّله إلى الحزب الشيوعي، بأنّه من المناضلين الأقوياء الصامدين والعاملين لإسقاط النظام القيصري. وكان قبل انتصار ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية، وخلال تطوير ثورة شباط البرجوازية إلى ثورة اشتراكية حقيقية، كادرًا مؤثرًا وقائدًا مشهورًا للنضال السرّي. وتمكّن بشجاعته ومقدرته ضمان كسب ثقة قيادة الحزب، ليصبح عضوًا بارزًا في قيادته في فترة النضال السرّي الصعب.

لم تأتِ هذه الثقة إلا نتيجة لمقدرة تنظيمية وسياسية وتطبيقية، لكن من الضروري أن نعرف هذه الحقيقة أيضًا، وهي أنّ السياسيين والمناضلين لا تظهر حقيقة قدراتهم، ومستواهم، وسلوكهم، ونفسياتهم، وعلاقاتهم ومرونتهم في فترة النضال السرّي، كما تظهر على حقيقتها المجرّدة في فترة النضال العلني والمكشوف. بل هناك، وفي أوقات كثيرة، أشخاص عديدون يظهرون عكس ماهيّتهم وجوهرهم الحقيقي، في أوقات النضال السرّي الحزبي والأعمال الحزبية وأثناء المناقشات وإبداء الرأي في الندوات والاجتماعات، لاسيّما أولئك الذين هم في جوهر تكوينهم انتهازيون وأنانيون ومتلهّفون لتولّي المناصب. وكثيرًا ما يحتاج اتضاح ماهيّة الإنسان وخاصّة الإنسان البارع، والكاتب، والذكي، والمقتدر، إلى وقت أطول من الأشخاص الضعفاء والأقل مستوى، لأنّه يخفي، تلك القدرة والذكاء، من أجل تحقيق أهدافه، وأغراضه، ورغباته، ويستطيع أن يمثّل بالضبط شخصية مناقضة لشخصيته. نعتقد أنّ أخذ هذه الحقائق، بالاعتبار عند تقييم ستالين وأقرانه في التاريخ القديم والحديث، وفي كل الأمم، عمل ضروري لتقيمهم تقييمًا عادلًا ودقيقًا.

لو أراد أيّ شخص أن يعرف نقطة الانقلاب في حياة ستالين وظهور معدنه الحقيقي، عليه أن يرجع إلى أيام ما قبل موت لينين وما بعده. من هناك يمكن أن

توضع أصبع على حقيقة السنوات الطويلة لتاريخ ستالين.

من الواضح أنّ لينين قبل وفاته كان يوجّه انتقادات كثيرة لستالين بسبب صفاته وتصرّفاته داخل الحزب. كما أنّه قبل وفاته، طلب في وصيّته عدم انتخابه لقيادة الحزب. حتى أنّه لم يسمع نصيحة أطبّائه حين منعوه من الكتابة والقراءة، وهو على فراش الموت، وكتب ما أراد، لاسيّما عن تروتسكي وستالين. لكنّ الأخير وضع مباشرة بعد موت لينين وصيّته تحت قدمي أنانيته وذاتيته، واستعمل سلطاته لتأمين وصوله إلى قيادة الحزب، ووراثة لينين، بأيّ ثمن.

من الممكن أنّه، قبل هذا، على مدى سنوات، واجه ستالين أحداثًا كثيرة، صغيرة أو كبيرة، لم تكن متلائمة مع رغباته ومراميه، لكنّه تحمّلها بصبر. وعند موت لينين المفاجئ، والصراع من أجل السلطة في مفترق الطريق التاريخي ذاك، تأكد لستالين الذي كان يتمتّع بمقدرة أقلّ من مرشحي القيادة الآخرين أمثال تروتسكي وبوخارين أنّه لو ضاعت منه هذه الفرصة، فلا يمكن أن تتاح له فرصة أخرى. ولم يبقَ أمامه إلا إظهار ماهيّته الحقيقية التي أخفاها طيلة سنوات النضال السرّي. وبدأ بتصفية معارضيه، وتنفيذ خططه، التي نفّذها في ثلاث مراحل:

- قبل الحرب العالمية الثانية
- في زمن الحرب
- بعد الحرب

قبل الحرب، قضى على كل معارضيه اليمينيين واليساريين، بحجّة المحافظة على أول دولة اشتراكية، وتطبيق الاشتراكية في دولة واحدة. واستنادًا إلى إحصاء ثبت مضمونه، قتل ستالين أكثر من نصف مليون كادر وعضو من أعضاء الحزب، وستّة عشر عضوًا من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية، وما بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين فرد، لاسيّما من الفلاحين.

ففي المؤتمر السابع عشر للحزب، بلغ عدد أعضاء الحزب مليونين وثمانمئة وتسعة آلاف وسبعمئة وستة وثمانين عضوًا، أمّا في المؤتمر الثامن عشر ورغم قبول ٤٠٠ ألف عضو جديد، مليونين وأربعمئة وسبعين ألف وستمئة وستة وستين

عضوًا[٣٧]*، أي تمّ قتل أكثر من ٧٥٠ ألف عضو من أعضاء الحزب.[٣٨]

بعد أن طهّر حسب اعتقاده المعارضين داخل صفوف الحزب، ومن أجل أن يستمرّ في عدائه للديمقراطية، ويظهر نفسه على أنّه ثابت على النهج الشيوعي، اقترح ستالين في خطاب ألقاه أمام المؤتمر الخامس عشر عام ١٩٢٧ الإسراع في قيادة الحركة الشيوعية السوفييتية نحو انتصار الشيوعية. ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف، أعطى أهمّية كبيرة للصناعات الثقيلة ومكننة البلاد من غير دراسة، وفرض الاشتراكية في المجال الزراعي. ولكي يتمكّن من تنفيذ أهدافه المنحرفة كافّة، يقول في المؤتمر هذا عن المعارضة: «إنّهم أعداء للّينينية ومتعاونون مع الإمبريالية.»

وبعد أن تحقّق له ما أراد في هذا المؤتمر، بدأ بفرض الاشتراكية الستالينية في القرى وبين الفلاحين، وكبس بالقوّة خمسة وعشرين مليون عائلة فلاحية في ٢٥٠ ألف جمعية زراعية. ومن عارض هذا الإجراء القسري من الفلاحين صفّي بتهمة الخيانة. ووصل عدد الضحايا حسب آخر الاحصاءات المعلنة في روسيا إلى ما بين ٢٥ و٣٠ مليون ضحيّة، أي أربعة أضعاف نفوس الكورد في تلك الفترة! صحيح أنّ ستالين لم يفرض الأممية والنضال المشترك في تلك الظروف، لكن في الواقع كانت أهمّ سياسة لستالين تطوير الستالينية في الاتحاد السوفيتي وخارجه، سواء من الناحية الاقتصادية والصناعية، أم من الناحية السياسية والإيديولوجية. وهذه السياسة هي التي أخمدت، في البداية، الروح الثورية داخل البلاد السوفييتية، ومن ثمّ خارجها. ويبدو أنّ الحرّية في الداخل كانت مؤمّنة، إلى حدّ ما، قبل ستالين[٣٩]*، لكنّه قتل وحبس وغيّب معارضيه. إنّ هذه الأعمال سواء كانت مقصودة أم غير مقصودة، قضت على الماركسية إلى حين ظهور حقيقة الستالينية، على رغم محاولة إخفاء آثارها من قبل الحزب وكتّاب ذاك العصر.

---

٣٧ از لينين تا طورباتشف، ترجمة: نطارش محمود طلوعي، سازمان انتشارات هفته، ضاث أول ١٣٦٧، ص٢٢٢.

٣٨ (كثير من المغيبين في زمن ستالين أعيد إليهم الاعتبار السياسي والنضالي في زمن خروتشوف، وأعيد كذلك الأهمية الحقيقية لـ(كامينيف، زينوييف، بوخارين) وهناك آخرون سيأتي دورهم.)

٣٩ ظهرحديثًا أنه حتى في زمن لينين كان هناك بعض من الضغط على الديمقراطية، شمل العمال ايضًا.

ما كتبه بوخارين[٤٠] في رسالته إلى زوجته قبل أيام من إعدامه شهادة صادقة ووثيقة دامغة على تلك الحقبة السوداء المظلمة:

حياتي تنتهي وها أنا أحني رأسي تحت مقصلة الجلاد، وهي ليست مقصلة البروليتاريا التي يجب أن تكون بلا رحمة في مثل هذه المواقف. وأمام هذه الآلة الجهنّمية أشعر بضعف مطلق، لأنّها اكتسبت سلطة كبيرة بطرق كثيرة، فهي تعلّق الأكاذيب المخجلة بحبل الايمان والعقيدة. فإن كنت قد أخطأت في أشكال بناء الاشتراكية، أتمنّى ألا يكون الحكم عليّ أقوى من الحكم الذي أصدره فيلادمير ئيلج. لقد سرنا نحو هدف واحد، ولم يكن النهج مرسومًا بعد، ولكل زمن طبيعته وظروفه. كانت برافدا في ذلك الوقت خصّصت صفحة كاملة للمناقشة والحوار، وسار الجميع على أفضل السبل في ذلك، إذ كانوا يختلفون أحيانًا ويتفقون أحيانًا أخرى، ويسيرون معًا. أناديكم أيّها الأحفاد الجدد لقيادة الحزب أن تبحثوا بدقّة، وتدرسوا بإمعان واجباتكم التاريخية في خضمّ هذه الأمواج المخيفة للجرائم التي تشوّه الوجه الناصع للحزب وتخنقه. إنّني أنادي أعضاء الحزب كافّة.[٤١]

يا ليت بوخارين والأشخاص الآخرين مثله حافظوا على أنفسهم وعقولهم وأقلامهم بأيّ ثمن، وسجّلوا بكل هدوء الجرائم والانحرافات والتراجعات والنفاق والخيانات التي ارتكبت في تلك الفترة. عندها، كانت كل الحقائق عرفت كما هي، لا كما أريد لها أن تكون، حيث يُقيّم الآن الأشخاص الأحياء الأحداث الماضية بدلًا ممّن عاشوا أحداثها من الأموات[٤٢]*.

قضى ستالين، إضافة إلى بوخارين والعديد من القادة المشهورين السوفييت الآخرين، بسبب اختلاف الرأي والفكر، على غيرهم خارج روسيا وداخل

٤٠ بوخارين نيكولاى ايفانوفيتش (١٨٨٨-١٩٣٨) ثوري ومنظر شيوعي روسي وصفه لينين في رسائله الاخيرة بأنه (أعظم المنظرين وأكثرهم قيمة في الاشتراكية) كان عضوًا في اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، ورئيسًا لتحرير صحيفة اسفيستيا الناطقة بلسان الحزب، اختلف مع ستالين عام ١٩٢٩، اتهم بالخيانة والتآمر، وأُعدم عام ١٩٣٨ (المترجم).

٤١ جان لنشتين، تأريخ الظاهرة الستالينية، ترجمة جوزيف سماحة، ص١٢٠-١٢١.

٤٢ هذه الجرائم ارتكبت في خضم أحداث أكثرية الثورات إلا أن الحقائق التاريخية عنها ما زالت مخفية، ومنها الجرائم التي ارتكبت أثناء قيام الثورة التحررية الكوردستانية.

الكومنترن،[٤٣] منهم بلاتن الزعيم السويسري المشهور، وكانتكي زعيم بولونيا، وزعيم أوكرانيا الغربية وبيلاروسيا وإستونيا وليتوانيا وعدد آخر من قادة اليوغسلاف والبلغار والهنود والإيرانيين...إلخ.

عندما طفا على السطح خطر الحرب النازية، تهيّأ لستالين أفضل الفرص، ليقوم تحت ستار المحافظة على الدولة الاشتراكية باستعراضات غربية ومساومات سياسية، على حساب الأممية. فمن جانب، اعتبر كل أنواع إبداء الرأي المخالف جريمة كبيرة، ومن جانب آخر، كان يحتقر أيّ شكل من أشكال الاستقلال الإيديولوجي، بحجّة تخريب جبهة الشعوب. إنّ ما جرى في هذا الوقت، كان صحيحًا لو جرت ضدّ النازية وحوفظ على الاستقلال التنظيمي، ورفضت التبعية، لاسيّما التبعية لديكتاتور، رفعه زمن الشمولية، إلى المنزلة التي أصرّ على البقاء فيها.

في المؤتمرات التي عقدت زمن الحرب، طهران ويالطا وبوتسدام كما أشرنا إليها سابقًا، اتفق ستالين مع رؤساء الدول الرأسمالية، وعلى حساب العمّال والشعوب وحسب رغبته، على رسم خريطة جديدة للعالم. وأصرّ فقط على عدم الانسحاب من المناطق التي تشكّل خطرًا على السياسية الستالينية، ومن الدول الدائرة في فلك الاتحاد السوفيتي، مثل بولونيا، ألمانيا، والدول الأوروبية الشرقية الأخرى. أمّا في المناطق التي لم تكن تأتي منها تلك المخاطر، أو كانت تأتي، لكنّه لا يستطيع فرض رأيه، كان يستسلم بهدوء، لكي لا تثار ضدّه المخاطر الأخرى. فحينما ضمن بولونيا وألمانيا، كما أراد، تخلّى بسهولة عن إيطاليا واليونان والنمسا.

في إيران، وبعد معارضة استمرت إلى حين الحصول على عهد أعطاه «قوام السلطنة» رئيس وزراء إيران آنذاك لستالين، يمنح بموجبه روسيا امتياز استخراج النفط الإيراني، سحب ستالين فورًا الجيش الأحمر من إيران، بحجّة الاستماع إلى نصائح أميركا. وأدار ظهره لآذربيجان وجمهورية كوردستان الوحيدة. فبالإضافة إلى عدم مساعدته للانتفاضة المسلّحة في كوردستان تركيا قبل الحرب ضدّ الكماليين الطورانيين الذين كانوا يخرقون علنًا حقوق الإنسان الكوردي، ويخرّبون كوردستان،

٤٣ الكومنترن: أو الأممية الثالثة، أو الأممية الشيوعية، اسم مركز إدارة الحركة الشيوعية الدولية، تم إنشاؤها عام ١٩١٩، الغيت عام ١٩٤٣. (المترجم)

ويبيدون الآلاف من سكّانها، بل قدّم للكماليين المال والسلاح والدعم السياسي. ولم يساند الثورة الصينية أيضًا، ولم يهتمّ إلا قليلًا بمصير الحزب الشيوعي الصيني الذي كان في حينه يضم مئات الآلاف من الأنصار المسلّحين، ويدير ربع الصين، ورضي بسهولة أن يشغل نظام شانكاي شك مقعد الصين الدائم في مجلس الأمن الدولي إلى جانب أميركا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي. لقد ألحق بعمله هذا من الناحية السياسية والديبلوماسية ضررًا كبيرًا بالثورة الصينية.

أمّا في كوريا، فقامت الثورة فيها بقيادة كيم إيل سونغ ضدّ اليابان. وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بخمس عشرة سنة، تهيّأت، بوقوف اليابان إلى جانب النازيين والفاشيين في ألمانيا وإيطاليا، فرصة كبيرة لشعب كوريا الذي كان إلى ذلك الوقت موحّدًا، لينجح وينتصر على محتلّيه اليابانيين، لكنّ هدفًا كهذا، بلا شك، لم يكن يوافق رغبات الإمبرياليين، حيث سبق وقرّر كل من روزفلت، تشرشل، وشانكاي شك في مؤتمر القاهرة عام ١٩٤٣، وحسب رغباتهم مصير كوريا. كذلك في مؤتمر بوتسدام، بحثت أميركا وروسيا وبريطانيا والصين، قبل انتصار ثورتها، مصير كوريا بعد الحرب. ولأول مرّة في التاريخ بحثت مسألة تقسيمها، ووافقت روسيا، بدون التشاور مع ممثل الشعب الكوري. وعلى ما يبدو، كان الهدف من ذلك تنظيم كوريا بشكل يؤدّي إلى خلع سلاح اليابانيين من قبل أميركا وروسيا بأقلّ المشاكل والخسائر، وبهذا برزت كوريا الشمالية ذات التسعة ملايين نسمة، المتخلّفة من كل النواحي، وكوريا الجنوبية ذات الواحد والعشرين مليون نسمة صاحبة الصناعات الثقيلة.

من الواضح أنّ ثوّار كوريا لم يرضوا بهذا التقسيم، ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهرت حقيقة سياسة الأميركان في هذا المجال، حيث قتلوا خلال أربع سنوات فقط (١٩٤٦-١٩٥٠)، وبصورة مباشرة مئتين وخمسين ألفًا من ثوّار شعب كوريا. وجعلوا الحياة فيها كجهنّم، ولهذا لم يرضَ شعب كوريا بهذا الوضع، واستمرّ في ثورته. وسارعت الصين لنجدته بكل طاقاتها، وقدّم ستالين مجبرًا مساعدات سخيّة له من السلاح والمستلزمات الحربية. بمعنى آخر، لو رضي الشعب الكوري بالسياسة التي رسمها السوفييت، والدول الأخرى لتقرير مصيره، لكان عليه اختيار الخضوع لأميركا والرجعيين، كما هي عليه الآن في اليونان، وكوردستان، وآذربيجان، والدول الخليجية.

لم تمرّ الأحداث، إضافة إلى ما ذكر، في مناطق العالم الأخرى كما تشتهي القوى الكبرى، ولم يتمكّن ستالين أيضًا من صناعة أو عرقلة نضال العمّال والشعوب، ضدّ مضطهديها ومحتلّيها، كنضال:

١- الشعب الفلسطيني والعربي ضدّ إسرائيل وبريطانيا (١٩٤٨-١٩٤٩).

٢- غواتيمالا ضدّ هندوراس (١٩٥٤).

٣- فيتنام ضدّ فرنسا (١٩٤٦-١٩٥٤).

٤- لاوس ضدّ فرنسا (١٩٤٦-١٩٥٤).

٥- إندونيسيا ضدّ هولندا (١٩٤٦-١٩٤٩).

٦- ماليزيا ضدّ الإنكليز (١٩٤٨-١٩٥٧).

٧- كينيا ضدّ الإنكليز (١٩٥٢-١٩٥٣).

٨- الجزائر ضدّ فرنسا (١٩٥٤-١٩٦٢).

٩- الفيليبين (١٩٤٩-١٩٥٤).

١٠- كولومبيا (١٩٥٣).

١١- كوردستان ضدّ النظام العراقي الديكتاتوري (١٩٥٨-١٩٦١).

لم يقم الاتحاد السوفييتي، في عهد ستالين وبعده، بدور فعّال في تلك الأحداث، ومن المفيد أن يقال هنا إنّه في تلك الفترة الحرجة والدقيقة من نضال شعوب الصين، وكوريا، والشعوب الأخرى، كان ماوتسي تونغ وكيم إيل سونغ يعرفان ستالين بصورة جيّدة، لكنّهما أغمضا عينيهما عن سياساته التوفيقية والديكتاتورية خوفًا من أن يهاجمهما بصورة أسوأ، أو كانا لا يعرفانه جيدًا. ماذا يقال بعد تحرير كوريا والصين وظهور الحقائق؟ لا تستطيع أيّ حجة أو ذريعة تبرير سكوتهما، إلا بالقول إنّهما إمّا براغماتيان أو مثل ستالين في السلوك والتصرّف! إنّ طبيعة بناء الاشتراكية، في الصين وكوريا، مثال مشوّه لهذه المرحلة التاريخية.

في كوريا، وبالإضافة إلى انخفاض مستوى معيشة الناس انخفاضًا شديدًا مقارنة بكوريا الرأسمالية، فإنّ الاشتراكية لا أساس لها أبدًا، والعمّال ليسوا قادة كما يتظاهرون، والديمقراطية ليست لها حتى رائحة. ماعدا ذلك، فإنّ كيم إيل

سونغ الذي يعرّف نفسه على أنّه «شيوعي»! نصّب نفسه، بقرار ثبّته في دستور بلاده، قائدًا للحزب ورئيسًا لكوريا إلى آخر يوم في حياته. والأسوأ من ذلك أنّه بمفرده له الحقّ في حلّ مجلس الوزراء وإلغاء قرارات المجلس التشريعي الأعلى والمجلس التنفيذي! فلا يوجد شخص على وجه الأرض بهذه الصلاحيات إلا صدام حسين... فحتى الدول الملكية لا يملك ملوكها صلاحيات كيم إيل سونغ.

بهذا الشكل عرفت الستالينية في غضون أكثر من ربع قرن، كنهج متسم بالقمع والعنف، وحرّفت وشوّهت جوهر الاشتراكية والروح الثورية، في الاتحاد السوفييتي وخارجه. هذا النهج الديكتاتوري لم يقلّ ضرره عن الضرر الذي ألحقه أعداء الديمقراطية والاشتراكية بنضال العمّال والشعوب، لأنّه ما عدا:

- تشويهه للاشتراكية.
- خرقه للديمقراطية.
- قتله الملايين.
- تخريبه للحزب البلشفي.
- زرع العراقيل في طريق نضال العمّال والشعوب.

ماعدا ذلك كلّه، كان لخطر هذا النهج ضرران مؤثّران آخران أيضًا، ظلّا مصدرًا للأخطاء والذنوب الكبيرة للثوريين:

١- على المستوى العالمي، أطفأ شرارة الاشتراكيين الحقيقيين على المدى البعيد، ومهّد للرأسماليين والرجعيين كي يتخذوا من الستالينية رأسًا لرمحهم المسموم وأن يستعملوه ضدّ الاشتراكية. كما قلّلت جرائم ستالين من شأن اليسارية الديمقراطية بين شعوب أوروبا وأميركا والمناطق الأخرى في العالم، إلى حدّ كبير.

٢- بسبب تطبيق الديكتاتورية الستالينية باسم الاشتراكية العالمية وتركيز الاشتراكية في دولة واحدة للوقوف أمام الإمبريالية، انخدع الملايين من الناس الجهلة، واحتسبوا قمع المعارضة الثورية حلالًا. ودفع هذا الأمر أيضًا العمّال والمثقفين الثوريين في روسيا والعالم إلى عدم الاستمرار في المعارضة الإيديولوجية والطبقية ضدّ الستالينية. بكلام آخر، كان خطر اليمينية من الناحية العقائدية أقلّ من خطر الستالينية ومتتبعي هذا النهج داخل حركة العمّال والشعوب، لأنّه

عند الوقوف ضدّ اليمينيين ستُعرف مخاطر العداء للعقيدة الطبقية والاشتراكية بسرعة. في حين إزاء الستالينية، فإنّها لا تُعرف بسرعة، بل يشتدّ العداء للاشتراكية أكثر بسبب إخفاء الستالينية نفسها تحت ستار الاشتراكية، لاسيّما من قبل تلك الأحزاب التي استمتعت بسماع صوت طبول ستالين من الخارج، وعاشت تحت تأثير نجاح ثورة أكتوبر ولينين.

هذا السبب أثّر تأثيرًا سلبيًا في نضال عمّال العالم وكفاح الشعوب المحبّة للحرّية من جهة العامل الذاتي للنضال الطبقي، لهذا نرى، في تلك الفترات التاريخية، أنّ تيّار الحركة الطبقية العمّالية خفّ جريانه وهدأ اندفاعه السابق. ولم يشهد قيام انتفاضة كبيرة واحدة بعد الحرب في جميع أنحاء العالم، تصبح مركزًا جديدًا للنضال الديمقراطي والاشتراكي. ويرجع السبب الذاتي الأكبر والأهم لذلك، إلى أنّ ستالين تعاون مع الدول الرأسمالية، للمحافظة على توازن التناقضات الأساسية والرئيسية العالمية والإقليمية والأممية. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، رضي بالمكاسب في أوروبا الشرقية بعد الحرب.

في ظروف العالم والاتحاد السوفيتي هذه التي لم تحدث أيّ تطوّرات كبيرة، مات ستالين، وتولّى الحكم وقيادة الحزب بعده وريث يميني آخر.

٣/٥- خروتشوف: الانقلاب على ستالين

نيكيتا سرغييفيتش خروتشوف (١٨٩٤-١٩٧١) انتسب إلى الحزب الشيوعي البلشفي عام ١٩١٨، بعد الثورة البرجوازية الروسية. وبدأت تجربته السياسية بعد ذلك، وهذا يعني أنّه لم يتقولب داخل بوتقة القضايا الإيديولوجية والنظرية السياسية، وإنّما انخرط في الحركة السياسية تحت تأثير انتصار الثورة، بدون تجارب ومقدّمات نظرية وعملية.

من الواضح أنّ انتصار ثورة أكتوبر كان حدثًا تاريخيًا، لكنّه لم يمضِ وقت طويل حتى تعرّضت للأخطاء والمشاكل العميقة، وواجهت أعداء ألدّاء متنوّعين. وأصبح أولئك الأعداء وتلك المشاكل والأزمات عقبات كبرى أمام تحقيق مهمّات الثورة الديمقراطية والاشتراكية. فزمام الأمور وقع بين يدي ديكتاتور شرس، وحينما ينتصر الديكتاتور يتضح أنّ الديمقراطية لا يبقى لها وجود. ولا يتمكّن بقيّة قادة الثورة وكوادرها وشخصياتها المقتدرين، أن يفكّروا، بحرّية، في مصير الثورة، وحلّ مشاكلها، أو حينما كانوا يفكّرون فيها، كانوا لا يستطيعون طرح أفكارهم ومقترحاتهم، ناهيك عن تطبيق قراراتهم واقتراحاتهم، لأنّهم كانوا يعرفون مسبقًا أنّ الرفيق ستالين لا يسمح لهم بذلك.

إنّ عدم تأمين الحرّية، وفرض الديكتاتورية، هو أحد الأضرار الكبيرة الناتجة عن سحق إمكانيّات الناس المقتدرين في المجتمع وداخل الأحزاب والحركات السياسية، وفي كل النواحي، لاسيّما من الناحية الاقتصادية والنظرية والإيديولوجية والسياسية والعسكرية. ولهذا السبب، كانت تربية الكوادر في تلك الفترة في داخل الأحداث المضطربة القاسية، وخاصّة بعد موت لينين، تختلف عمّا سبق من تربية ديمقراطية إلى حدّ معقول كانت سائدة زمن لينين، إذ تغيّرت نحو الأسوأ، وبخاصّة في المراكز القيادية. فإذا كان ستالين أول من خرق الديمقراطية وحاد عن مبادئها الأساسية، فلا يسمح إذن أن يُربى كوادره ورفاقه عكس تربيته هو.

كان خروتشوف من أولئك الكوادر الذين تربّوا في زمن ستالين، وداخل المدرسة الستالينية، ولذلك تقدّم على الآخرين، ووصل إلى قيادة الحزب والدولة. فمنذ أن اشترك في المؤتمر الرابع عشر للحزب عام ١٩٢٥، أصبح أحد المخلصين للستالينية، وعمل بحماسة ضدّ مناوئيها ومعارضيها، وحصل على ثقة ستالين، عن طريق أصدقائه المقرّبين. وتقدّم درجة فدرجة، إلى أن أصبح، في المؤتمر السابع عشر الذي انعقد عام ١٩٣٤ عضوًا في اللجنة المركزية. وفي عام ١٩٣٨، عام القضاء على معارضي ستالين، أصبح خروتشوف السكرتير الأول للّجنة المركزية في أوكرانيا، وبعد سنة أصبح عضوًا في المكتب السياسي.

بهذا الشكل، كان خروتشوف يمارس عمله الحزبي إلى اليوم الأخير من حياة ستالين. وظلّ مقابل كل الجرائم التي ارتكبها، مثل القتل والتغييب وتصفية أشهر قادة الحزب وغياب أقلّ قدر من الحرّية والديمقراطية، صامتًا ولا يحرّك ساكنًا. وقبع في فجوة من فجوات الزمن بانتظار اليوم الموعود.[44] وكان أحد القلائل الذين وثق بهم ستالين، واعتمد عليهم عن قرب. وفي اليوم الذي مات فيه ستالين، كتب خروتشوف في مذكراته: «لم أستطع أن أتمالك نفسي، فبكيت، ينبغي أن أقول: لدى موت ستالين بكيت بصدق!» وفي بيان اللجنة المركزية في هذه المناسبة الذي كتب بإشرافه، قال: «كان ستالين رفيق لينين، والمديم المكمّل لنهجه، والقائد والمعلّم الملهم للحزب الشيوعي والشعب السوفييتي.»[45]

حينما وقع زمام القيادة في الاتحاد السوفييتي بيد خروتشوف، تقاذفته أمواج أمرين خطيرين متلازمين، فمن ناحية كان من خرّيجي مدرسة ستالين، ما يعني الاستمرار على نفس النهج الدموي العنيف. ومن الناحية الأخرى، كان يعرف، تحت ثقل أيّ وضع قاسٍ، يئنّ الاتحاد السوفييتي ويتألّم. كان الحزب يعيش في مأزق انعدام الديمقراطية والحرّية، وتصفية مئات الألوف من الكوادر، وإبعاد الألوف من المناضلين إلى المنافي البعيدة. والدولة على مستوى منخفض من الحداثة: صناعة متأخّرة، زراعة قليلة الإنتاج، مستوى الحياة المعيشية متدنٍ، تطوّر اجتماعي مشوّه. أمّا على المستوى العالمي، فإنّ العمّال والشعوب المضطهدة والأحزاب

٤٤ إن هذه الأنانية وحب الذات وانتظار الفرصة المناسبة، تكررت داخل أكثر ثورات العالم، وارتكبت جرائم كبيرة في هذا المجال.

٤٥ أز لينين تا طورباتشف، ترجمة: نطارش محمود طلوعي، سازمان انتشارات هفته، ضات أول ١٣٦٧، ص٢٦٨.

المعروفة اسمًا بـ«الشيوعية» والشيوعيون أيضًا، كانوا ينظرون إلى السوفييت بعين ملؤها الأمل بالمستقبل، لاسيّما بعد الحرب العالمية الثانية. إذ أصبح الاتحاد السوفييتي المالك للسلاح النووي، مطالبًا أكثر بمساعدتهم ضدّ الدول الإمبريالية. فيما انتصار الصين وكوريا الشمالية زاد من أمل السوفييت، وبثّ فيهم روح النشوة والانتعاش.

اتخذت الرأسمالية العالمية الولايات المتحدة زعيمة جديدة لها. ونزلت الأخيرة كدولة صاحبة قوّة اقتصادية غير محدودة، إلى الميدان بسياسة عصرية، آخذة العبر والدروس، على ما ظهر، من بريطانيا الزعيمة السابقة للإمبريالية. وكانت، إلى حدّ ما، تعد بالديمقراطية، وتتعهد بتنفيذ المعاهدة الأطلسية لمصلحة الشعوب، لكنّها قرّرت في داخلها أن تكون مهمّتها الأولى التصدّي الحازم للشيوعية والشيوعيين، واحتلال الشعوب وقمع اليساريين والانتصار في الحرب الباردة. ففي تلك الفترة التاريخية الحرجة، كانت هذه المشاكل مطروحة على الساحة السياسية الدولية:

- الحرب في الهند الصينية ضدّ فرنسا.
- الحرب في لاوس (بانت-لاثو) ضدّ فرنسا (١٩٤٦-١٩٥٤).
- الحرب في ماليزيا ضدّ الإنكليز (١٩٤٨-١٩٥٧).
- الحرب في كينيا (ماثوماثو) ضدّ الإنكليز (١٩٥٢-١٩٥٤).
- انتفاضات تونس ضدّ فرنسا (١٩٥٢-١٩٥٦).
- ثورة الجزائر ضدّ فرنسا (١٩٥٤-١٩٦٢).
- ثورة قبرص ضدّ الإنكليز (١٩٥٥-١٩٥٩).
- ثورة الكاميرون ضدّ الإنكليز (١٩٥٧-١٩٦٠).
- التدخّل العسكري في السويس (١٩٥٦).
- التدخّل الأميركي في لبنان (١٩٥٨).
- تدخّل المخابرات الأميركية (CIA) في غواتيمالا-هندوراس (١٩٥٤).
- التدخّل الفرنسي في موريتانيا (١٩٦١).
- ثورة كوردستان (١٩٦١-ايلول).

كذلك:

- ثورة مصر المنتصرة (١٩٥٢).
- الإضراب الشعبي الجماهيري لفقراء ألمانيا الشرقية (١٩٥٣).
- إضراب عمّال بولونيا (١٩٥٦).
- ثورة ١٤ تموز العراقية.
- انتفاضة هنغاريا والتدخّل العسكري السوفييتي(١٩٥٦).

حصلت كل هذه الأحداث واحدة بعد الأخرى في زمن خروتشوف الذي كان يعاني من تلك الأوضاع الصعبة داخل الاتحاد السوفييتي التي أشرنا. لقد كان خروتشوف صاحب إمكانيّة قياديّة محدودة، وظهر بعد ذلك أنّها كانت غير كافية لذاك المنصب الكبير، في زمن الصراعات المتشعّبة والمتعدّدة الجبهات، السياسية والعسكرية والتكنولوجية والثقافية والصراع النووي والسيكولوجي.

يقول خروتشوف في مذكراته:

ما زلنا إلى الآن أسرى نشاطات عهد قيادة ستالين، ولم نتمكّن من التخلّص من سيطرته، حتى بعد موته. لقد تمكّنا التخلص عام ١٩٥٦ فقط، من بقايا السيكولوجية المجنونة التي أخذت بتلابيبنا في فترة مطاردة أعداء الشعب. فحتى ذلك الوقت كنّا، على هذا النمط، أسرى خيال كهذا، وشكّ الستالينية الدائم، وفي حصار فرضه الأعداء علينا، أجبرنا على معاداتهم بالمثل.

لم يكن قابلًا للتصوّر عندنا أن يعدّ كل هذه الإعدامات وحلقات الإبادة التي حدثت جرائم من الناحية القانونية، لكنّها في الحقيقة هي نوع من الجريمة! لقد ارتكب ستالين جريمة (طبق قوانين) جميع دول العالم، حاله كحال الدول الفاشية نظيرة ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الموسولينية، فهو يستحق العقاب عليها.»[٤٦]

بقي خروتشوف يؤمن بالستالينية مدة ثلاثين عامًا، وحتى بعد موت ستالين. وعندما مات، بكى عليه، لكنّه بعد ثلاثين عامًا من الدراسة والتحليل والمناقشة، ظهر له ولرفاقه أنّ ستالين، ليس فقط لم يكن رفيق لينين والسائر على نهجه والمعلّم الملهم للحزب الشيوعي السوفييتي، بل واحدًا من أكبر المجرمين في التاريخ

٤٦ إدوارد كرانشكاو، خاطرات سياسي خروتشوف، ترجمة: محمد رفيعي مهرآبادي ص٨٠.

المعاصر.

إذا كان طابع الأحداث يسير هكذا، ويصبح خروتشوف زعيمًا في خضمّ تلك الأحداث، أفلا يثبت هذا أنّ «طاحونة الجاهل يديرها الله»![47]

كان يرى العالم وفق منطقه ورغباته، ومنطق ورغبات المحيطين به، ويخطّط من هذا المنطلق، وحاول تخفيف عبء الستالينية من زاوية رؤية تلك الظروف والأحداث، وكان هذا عملًا حسنًا والحقّ يقال.

من الواضح أنّه كان باستطاعته مثل معلّمه، ووريثًا لديكتاتوريته. لكنه اختار إزالة الستار عن وجه الجريمة والممارسات الخفيّة لستالين، والاعتراف بالأخطاء الكبرى، على رغم أنّ اقتراف الأخطاء أو إخفائها هو شيمة سياسية وثقافية، لا يتجرّأ عليها كل السياسيين وكل القادة.

في زمن خروتشوف تمّ إنتاج الصواريخ العابرة للقارات، وإرسال أول قمر صناعي روسي إلى الفضاء الخارجي عام ١٩٥٧، عن طريق قوّة الدفع الصاروخي. وبعد مرور أشهر من السنة عينها، أرسل إلى الفضاء القمر الصناعي الثاني الذي كان أكبر من سابقه بستّ مرّات، وعلى متنه كلب، وقد أذهل هذا العمل الجبّار العالم كلّه. لقد كانت هذه الاختراعات الكبيرة محلّ فخر العمّال والشعوب المكافحة لنيل حريّتها، ومصدرًا لسرورهم منقطع النظير. وسبّبت للرأسماليين وبخاصّة زعيمتهم أميركا التي كانت مسيطرة من الناحية التكنولوجية، همًّا وإحراجًا سياسيًا وصناعيًا وعسكريًا كبيرًا، لأنّ أميركا البعيدة عن متناول اليد، بعد إنتاج هذه الصواريخ البعيدة المدى والعابرة للقارات التي من الممكن تزويدها برؤوس نووية، أصبحت غير محميّة.

بهذا أصيب ميزان القوى العسكرية في العالم بخلل، لمصلحة السوفييت لفترة من الزمن. والدول الغربية التي لعبت دورًا مهمًّا للغاية في عمليات الانتصار على النازية، في الحرب العالمية الثانية، وجدت نفسها في وضع حرج، بخلاف مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. حتى إنّ زعيمتها الجديدة التي كانت تتباهى بأعظم

---

٤٧ مأخوذ من المثل الكوردي (ئاشي نەزان خوا دەيطێرێ) والذي يقال عندما ينجح بعض الجهلاء ويتفوقون على غيرهم رغم جهلهم -المترجم.

اختراعات العصر التكنولوجية، فوجئت بالإبداعات السوفييتية.

كانت الحال إجمالًا ملائمة لتعميق النهج الثوري، والوضع مهيّأ لانتصار العمّال والشعوب. وكان من الممكن، بعد كشف الستالينية على حقيقتها، تطوير النضال الأممي وتعميقه، وتحقيق التحرّر والديمقراطية بصورة أفضل بين التيّارات الديمقراطية والاشتراكية واليسارية كافّة، وحلحلة الخلافات الجانبية المضرّة، لكنّ قيادة لا تؤمن بالديمقراطية، كيف يمكن أن تكون سندًا لديمقراطية الشعوب؟!

بعد الحرب العالمية الثانية، برزت إلى الوجود أربعة أشكال من التناقضات الحادّة في العالم التي سمّيت بالحرب الباردة، ووصلت في زمن خروتشوف إلى قمّة الغليان والانفجار:

١- استمرار الحروب الكلاسيكية (القديمة).
٢- الحروب التحرّرية ضدّ الاستعمار.
٣- الحروب الداخلية: الطبقية، والقومية، والمذهبية.
٤- الحروب السيكولوجية (النفسية).

وصلت ضحايا تلك الحروب خلال الأعوام ما بين ١٩٤٥ و١٩٨٢ إلى اثني عشر مليونًا ونصف المليون شخص، أي بلغ سنويًا حوالي ثلاثمئة وخمسين ألف ضحية.[٤٨] وبلغ عدد ضحايا الحروب التي نشبت بسبب مشاكل الحدود الدولية عشرة ملايين شخص، وهي عبارة عن:

- الحرب بين الهند والصين (١٩٤٦-١٩٧٥).
- الحرب بين الهند وباكستان (١٩٤٧-١٩٤٩-١٩٧٩)[٤٩]
- حرب السويس (١٩٥٦) بين العرب وإسرائيل.

معظم تلك الحروب الكبيرة والمعارك الداخلية كانت إمّا ضدّ الإمبريالية، أو أُشعلت بدسائس من الإمبريالية. وبوجه عامّ، كانت حروب من أجل الحرّية وضدّ الإمبريالية مباشرة كما في كوبا، ولاوس، والهند الصينية، وماليزيا، وكينيا، وتونس، والجزائر، وقبرص، والكاميرون، والكونغو، وأنغولا، واليمن الجنوبي، وغينيا بيساو،

٤٨ اطلس استراتيذيك ص٤٧.جهان, ذار رشاليتم و ذان ثيراذو ص٤٧.

٤٩ نفس المصدر السابق ونفس الصفحة

وفلسطين، وموزنبيق، وكاتانكا، وكوردستان، وأريتريا... إلخ.

في هذه الظروف العالمية، أصبح الاتحاد السوفييتي فيها مالكًا لأكبر سلاح فعّال مؤثّر، والعمّال والشعوب المناضلة واقفة أمامه كالسور الفولاذي ضدّ الإمبريالية. وكان يُنظر إليه، في ذلك الحين، على أنّه قلعة الاشتراكية وملاذ الأحرار، ولم يكن لدى جميع الأحرار أقلّ المعلومات عن جرائم ستالين. وكانوا يعتبرون ما يسمعونه من أخبار وانتقادات موجّهة له، هنا أو هناك، تمامًا واختراعات الإمبريالية إلى أن أعلن خروتشوف عن الجرائم الخفيّة لستالين. في ظروف كهذه، كانت شعوب العالم أكثر تلهفًا وشوقًا لسماع ورؤية ابتكارات واختراعات السوفييت وحلفائهم. وكان أمل خلاص الشعوب المضطهدة يمتدّ ويتّسع بقدر تأثير السوفييت في العالم، لكنّ خروتشوف، بعد أن فرض نفسه، وقتل قسمًا من معارضيه، أو أزاحهم عن طريقه، وأمسك بزمام السلطة في الاتحاد السوفييتي، بدأ بتطبيق سياسته الخاصّة المنطلقة من رؤيته الذاتيّة إلى العالم، بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٦. وما يتعلّق ببحثنا من هذه السياسة من الناحية النظرية التنظيمية، حقيقتان:

١- سياسة التعايش السلمي بين الاشتراكية والرأسمالية.

٢- بناء الاشتراكية بطريقة التطوّر اللارأسمالي بقيادة البرجوازية الصغيرة.[٥٠]

هاتان الأطروحتان مرتبطتان بمرحلة مصيرية، مرحلة ظهور الحقائق الاقتصادية، والاجتماعية، والنظرية، والسياسية للاتحاد السوفييتي التي تراكمت، لفترة طويلة، في عهد ستالين، لكنّها أخفيت عن طريق النهج الخاطئ للاشتراكية. وهكذا صاغ الأخير، منذ الحرب العالمية الثانية، استراتيجية التعايش السلمي مع الرأسماليين، وعلى هذا الأساس الذي عرضه في اجتماع السادس من شباط (فبراير) عام ١٩٤٤، للمجلس الأعلى للاتحاد السوفييتي:

لكي تتاح فرصة ضرورية ومتّسع من الوقت للاتحاد السوفييتي، لإعمار ما خرّبته الحرب وبناء البنية التحتية، نحن محتاجون إلى زمن طويل من الصلح، ومن مصلحتنا أن يعيش العالم الرأسمالي، لفترة طويلة وإلى حدّ ما، وليس إلى الأبد،

---

٥٠ عندما نقول بناء الاشتراكية، بلا شك قصدنا هو نفس البرنامج السياسي الذي كان الاتحاد السوفييتي يتبعه، وليس الاعتراف باشتراكية السوفييت.

في صلح واستقرار.[51]

في هذا الحديث، تأكّد بوضوح أنّ السوفييت مهتمّون بالمحافظة على الكيان الرأسمالي، سواء بقصد إعادة إعمار البلاد أم تحت أيّ ذريعة أخرى. إنّ إعادة بناء البلاد، بعد حرب تدميرية، هي-بلا شك-من الواجبات المهمّة لقيادات الدول. كذلك إبرام اتفاقيات سياسية وتكتيكية أخرى، لكنّ هذا لا يمكن أن يتمّ على حساب المبادئ الأساسية. وكان هدف ستالين بالأساس من هذه السياسة طمأنة بريطانيا وأميركا، في المؤتمرات الدولية وفي إبداء الرأي وإصدار القرارات، بشكل أصبح الرئيس روزفلت واثقًا من نفسه ليقول: «أنا لا أتحدّث عن أفكاركم وآرائكم. فكلامكم قول مأثور، لكن بالنسبة إليّ أشعر بأنّ ستالين ليس ذاك الرجل الذي تتصورون.» وكان لهاري هايكنز التصوّر عينه:

ليس لدى ستالين إصرار على رأيه، فهو لا يريد شيئًا سوى أمن بلاده. حتى إنّي أرى أن أضع بين يديه كل ما أستطيع، ولا أطلب منه بدل ذلك أيّ شيء، وهو كذلك أيضًا يترك هذه الأعمال بدون تصفية، ويتعاون معي من أجل إنشاء عالم يعيش فيه الجميع في وئام وحرّية.

هذا دليل اطمئنان أميركا من سياسة ستالين والتي تمّ تقسيم العالم بموجبها، بعد الحرب، وهي التي أدّت إلى تقسيم ممتلكات ألمانيا وفق أهوائهم ورغباتهم. يبدو أنّ الهدف الرئيسي للإمبريالية، كان قطع المساندة والتأييد عن النضال الثوري لعمّال العالم، وكفاح أحرار الشعوب المحتلّة.

ففي البند التاسع من البيان الختامي لمؤتمر يالطا الذي جاء تحت عنوان «الاتحاد في زمن السلم، هو نفسه في زمن الحرب»، أكّد المؤتمرون على أنّ قرار المحافظة على الصداقة والتعاون العالميين يعتبر «واجبًا مقدّسًا تمّ التأكيد عليه وربطه بميثاق الأطلسي.»[52]

تلك القرارات صدرت في زمن ستالين، بعد الحرب العالمية الثانية، لذلك

---

٥١ (ارتوركند - يالتا يا تقسيم جهان, ترجمة: محمد طلوعي, ضاث أول ١٣٦٥ ص١٨١.

٥٢ ميثاق الأطلسي ميثاق مشترك صدر في ١٤آب١٩٤١ عن كل من: فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة حينذاك، وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، بعد اجتماع في (نيو فاوندلاند)، ينص على (٨) بنود، انضمت إليه ٢٥ دولة أخرى- المترجم .

ليست صحيحة الأفكار والآراء التي قالت إنّ خروتشوف هو مؤسّس السلام الدائم في الاتحاد السوفييتي. بل إنّ هذه الآراء كانت تنشر في الأكثر من قبل الماويين. إنّ ما فعله خروتشوف في الحقيقة الاستمرار بهذه السياسة، لكن مع خصوصيتين:

الأولى: إزالة ديكتاتورية ستالين.

والثانية: فضح تلك السياسة علنًا، والقضاء عليها، ومحو آثارها داخل ضباب التبجّح والتباهي بالاشتراكية.

قبل بروز المبادئ الجديدة، حاول خروتشوف بكل الوسائل، أن لا تظلّ جرائم ستالين في زوايا التاريخ المخفية. فرغم معارضة شديدة، تمكّن شيئًا فشيئًا، من تنفيذ قراراته حول تعرية الستالينية، والإعلان عن تلك الحقائق التي كانت تعتبر افتراءات إمبريالية، في الماضي.

إنّ مبدأ التعايش السلمي الدائم، والتطوّر اللارأسمالي كانا مسألتين اقتصاديتين، فكريتين، سياسيتين شاملتين أثّرت كل واحدة منهما بصورة معيّنة، بشكل منفرد أم معًا، في سير الأحداث، والسياسة الدولية، ونضال العمال والشعوب. إنّ مضمون ونتائج تحقيق المبدأين مرتبطان مباشرة بنهج الثورة والنضال الثوري، أو بإيجاد نهج «تحريفي». وإن هذا النهج المبتدع وضع على النقيض من سابقه، في قالب مصلحة تحرير العمّال والشعوب، وبدعوى أنّه اشتراكي أيضًا.

إنّ مصدر هذه المبادئ، إضافة إلى تلك الظروف الصعبة داخل الاتحاد السوفييتي، ومستوى فهم خروتشوف ورفاقه، كان الشرط الموضوعي السياسي والعسكري الذي تهيّأ في العالم. لقد اعتقدوا وفق حساباتهم أنّهم سيتمكّنون، بعد نزع طوق الستالينية عن السوفييت وحلفائهم، من توظيف الظروف السياسية والعسكرية العالمية تلك، والسير بها نحو الهدف الذي يريدون تحقيقه، طبقًا لمنظورهم العالمي البديل عن النهج الثوري والمضادّ لاتجاه حركة سير عجلة الثورة. وبالتالي قيادة النضال السياسي العسكري للبرجوازية الصغيرة داخل الشعوب المضطهدة والدول المطالبة بالاستقلال عن طريق التطوّر اللارأسمالي الهادئ، والعون الاقتصادي، نحو الاشتراكية.

إنّ مبدأ التطوّر اللارأسمالي يناقض المبادئ الطبقية للاشتراكية العلمية التي نادى بها مؤسّسوها، لأنّ رسالة بناء الاشتراكية، بموجب هذا المبدأ، انتزعت من العمّال، ووضعت على عاتق البرجوازية الصغيرة التي هي أساسًا عدوّة الاشتراكية والعمّال. كما أنّها، على المستوى العالمي، قاعدة واسعة للرأسمالية التي تكمل عن طريق صناعاتها الصغيرة، الإطار الاقتصادي للنظام الرأسمالي. ومن ناحية أخرى، هي عامل سياسي مؤثّر يحدّ من تنامي النضال الطبقي والاجتماعي التحرّري، مع أنّها، وبسبب الظروف الخاصّة، والشعور القومي، وفي مرحلة محدودة، متمتعة بشعور وطاقات وطنية، ولكنها ليست اشتراكية أبدًا.

منذ ظهور الاشتراكية، بل ومنذ ظهور النضال الثوري، لم يُلحِق أيّ مبدأ ونظرية نفعًا للبرجوازية الصغيرة، وضررًا بالعمال، بقدر مبدأ التطوّر اللارأسمالي. فكل من برنشتاين، وكاوتسكي ومقلّديهما، كانوا مباشرة في خدمة الرأسمالية، لكنّ هذا المبدأ حافظ، وبشكل مستقيم ومباشر، على حكم البرجوازية الصغيرة، وأزال خطر القضاء عليها. وفي المحصّلة النهائية اقتنصت الإمبريالية هذه الفرصة التي سنحها لها هذا الطرح، واستغلّته لصالحها. فيما أنه كان يراد بهذا الأسلوب الملتوي جرّ البرجوازية الصغيرة نحو الاشتراكية:

في أطروحات البرجوازية الصغيرة التي لا تغيب، كما يظهر، عن المسرح السياسي في الدول الأفرو– آسيوية، لفترة طويلة من الزمن، يجد الماركسيون براعم مزروعة بصورة صحيحة، يرعونها ويعتنون بها. ونحن على يقين من أنّ هذا المسار صحيح. وينبع إيماننا هذا من أنّ الأحزاب الديمقراطية الوطنية، لاسيّما التيارات اليسارية المنبثقة من الاشتراكية الوطنية غير الماركسية، تستطيع أن تسير نحو الاشتراكية العلمية، إذ يتربّون عليها، وتصقل أذهانهم بها في المحصّلة النهائية أثناء مسيرة النضال والانتصار على التناقضات والخلافات الفكرية.[٥٣]

هكذا، في جميع تلك البلدان التي حقّقت فيها البرجوازية الصغيرة نوعًا من الحكم السياسي المستقل عن طريق الانقلابات العسكرية أو الانتفاضات الوطنية الشعبية، خاصّة في آسيا وأفريقيا، بذلت محاولات لتطبيق هذه الأطروحة غير المرنة. وبإمكاننا، بالأدلّة، التأكّد من أنّ نتائج هذه المحاولات كانت مخيّبة لآمال

---

٥٣ أولياتوفسكي بافلوف، آسيا تختار، دار التقدم، موسكو، ص٢٦١.

الاشتراكية، وآمال الديمقراطيين أيضًا، بشكل كبير. ومنذ بداية الستينيات، تقهقرت الأحزاب الشيوعية، والأكثر من ذلك إنّ هذا النهج الخاطئ المتسلّل إلى أعماق حركة العمّال والكادحين، أضعف الحركة بشكل خطير.

لقد استغلّت البرجوازية، طوال ربع القرن الذي أضعف فيه نضال العمّال، وقلّ فيه خطر الثورة والانتفاضة وأبعد فيه خطر انتصار الاشتراكية، الوضع الاقتصادي والسياسي العالمي المتقدّم، والمستوى العالي لمداخيله وثرواته، لتثبيت دعائم وجودها، والقضاء على مناوئيها. وفي العراق، مصر، إندونيسيا، الصومال، الهند، الجزائر،...إلخ، تستمر الأنظمة الفاشية لعدم وجود النضال الثوري والديمقراطي للعمّال والكادحين. وهي مدينة وخاضعة للاقتصاد الرأسمالي.

كان ضرر سياسة التطوّر اللارأسمالي داخل حركة العمّال وفي أعماق نفوس الأحزاب اليسارية في البلدان التي كانت تُحكم سياسيًا من قبل البرجوازية الصغيرة، لكنّ هذه السياسة كمثيلاتها، لم ترسّخ وجودها في صفوف الأحرار وعشّاق الحرّية إلا قليلًا.

إنّ الغريب في هذا الأمر أنّ البرجوازية الصغيرة الحاكمة استعملت هذه السياسة، لضمان تأييد ومساندة السوفييت وحلفائهم لها، ولتخفيف خطر العمّال ومعارضة خطط الأحزاب اليسارية. فحتى لو طُبّق نهج التطوّر اللارأسمالي بين الشعوب المحتلّة من قبل الإمبريالية، عن طريق الأحزاب التابعة للسوفييت، فإنّ البرجوازية الصغيرة في الشعوب المضطهدة، وبسبب مواقفها القومية التحرّرية قد تمكّنت من أن تضع الأحزاب اليسارية، في هامش الحركة التحرّرية، وأن تحتلّ هي الموقع الطليعي داخل هذه الحركة.

في جميع الدول التي تمكّنت البرجوازية الصغيرة من طرد المحتلّين منها والانتصار عليهم، بالنضال المسلّح أو بالانتفاضة أو الانقلاب، أصبحت الأحزاب العمّالية تابعة ومؤيّدة ومصفّقة للقوى البرجوازية وسائرة خلف الأحداث. والعراق، والجزائر، ومصر، والصومال، وأنغولا واليمن وسوريا...إلخ، أمثلة صارخة على هذه الحال. وفي هذا أفضل دليل على أنّ البرجوازية الصغيرة تطبّق هذا النهج حينما تكون ممسكة بزمام السلطة، ولا تطبّقه حينما تفقدها. ولم يكن الأمر هذا من أجل تحقيق الاشتراكية.

ومن أجل تبيان هذه الحقيقة أكثر، نرى أنّ قوى البرجوازية الصغيرة للشعوب المحتلّة، والتي لا تطبّق أبدًا مذهب التطوّر اللارأسمالي في مرحلة الاحتلال، تطبّق هذا المبدأ بكل سهولة، عندما تتولّى مقاليد السلطة. إنّ خطر التطوّر اللارأسمالي يكمن في هذا. لذلك نحن نرى، وإلى اليوم، أنّ كل الدول التي تمّت مساعدتها بصورة المنظومة المسماة بالاشتراكية، كانت حليفة للرأسمالية من الناحية السياسية والاقتصادية، بل كانت أكثرها ضدّ العمّال والاشتراكية بكل قوّة. وأصيبت الثورة والثورية بين عمّال تلك الشعوب بتشويه عميق.[٥٤]

النتيجة أنّ الاتحاد السوفييتي، والدول الأوروبية الشرقية، ووراءهم عمّال وشعوب البلدان الساعية إلى الحرّية، التي وجدت أنّ التطوّر اللارأسمالي حقّ مشروع، أصيبت جميعها بأضرار بالغة جرّاء هزيمة تلك السياسة. وفي المقابل، تمكّنت الرأسمالية من تحويل التطوّر اللارأسمالي، إلى تطوّر رأسمالي، بشكل حقيقي. ولم تتمكّن دول الغرب الرأسمالي أبدًا طيلة تاريخها من تأمين أسواقها بهذا الشكل المتين، والحصول على الأرباح والفوائد الضخمة. وأكثر من ذلك قلّت مشاكلها الاقتصادية والسياسية.

وبسبب هذا أيضًا، نرى أنّها بدأت بالهجوم على الفلسفة العمّالية، وبالعمل على كمّ أفواه الطبقة العمّالية، وعلاوة على ذلك، أصبحت حاملة للواء الديمقراطية والحرّية، وساعية إلى كسب التأييد والمساندة لتوجّهاتها وآرائها، جاعلة من ديكتاتورية ستالين وغياب الديمقراطية في الاتحاد السوفييتي والدول المشابهة لها أمثلة وبراهين على صواب سياساتها وتوجّهاتها، وهي ليست على خطأ في هذا. فبعد أربع وأربعين سنة من بناء الاشتراكية في رومانيا، انتفض شعبها ضدّ القادة الشيوعيين لدرجة وصلت إلى حدّ قتل زعيمهم نيكولاي شاوشيسكو وعدم السماح بدفنه مع زوجته في بلدهم. وأثبتت الأحداث في بولونيا، في الوقت نفسه، على مدى الفرق الشاسع بين الوضع السياسي والاجتماعي للعمّال، وبين نظامه الذي كان يدّعي الاشتراكية.

مقابل هذا، وجدنا كيف جعل الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأميركية

---

٥٤ بعد الطبعة الأولى لهذا الكتاب، هزمت اليمن الديمقراطية التي جعلت مثالًا للديمقراطية الثورية والتطور اللارأسمالي، واتحدت مع اليمن البرجوازية، وقبله تكشف بطلان تطبيق نظرية التطور اللارأسمالي في العراق وسوريا ومصر والجزائر.

جيمي كارتر منتجعه الصيفي مركزًا للحوار بين الحركة التحرّرية الأريتيرية والنظام الإثيوبي، من أجل الحصول على حقّ تقرير المصير للشعب الأريتيري! وقد حصل ذلك في الوقت الذي كانت الطائرات والدبّابات والمدافع الثقيلة السوفييتية تقصف بكثافة شعب أريتريا وثوّارها، لكي يتمكّنوا، عن طريق مساعدة منغستو ماريام، من إقامة الاشتراكية دون المرور بمرحلة الرأسمالية!

إنّ طروحات خروتشوف هذه، ألحقت -عدا الأضرار الإيديولوجية والسياسية- أضرارًا نظرية بالغة بالحركة الأممية. ومنذ تلك الفترة، أصيبت الأممية بأزمة عميقة، ولا نعتقد أنّها ستتعافى من هذه الأزمة المستفحلة، لأنّ أحداث التاريخ لن تتكرّر أبدًا.

هكذا إذن، وبعد انكشاف حقيقة هذه الطروحات، اتخذت الصين وألبانيا مواقف متشدّدة حيالها، وانفجر عداء شديد بينهما وبين معتنقيها. هذا على الصعيد العالمي، أمّا على الصعيد العمّالي والأحزاب العمّالية، فقد انعكس الصراع بشكل نظري، ولم يمض وقت طويل حتى انقسمت الأحزاب التي كانت محسوبة على الأممية إلى مجموعتين. وكان الاتحاد السوفييتي والصين قطبي المجموعتين المتصارعتين. فالصين ظلّت معروفة لفترة طويلة كطليعة للنهج الثوري للشعوب بين أكثرية اليساريين في العالم، لاسيّما بين الشعوب المحتلّة التوّاقة للحرّية:

- في الفترة التي اختار فيها السوفييت التعايش السلمي الدائم مع الرأسمالية، رفعت الصين شعار القضاء على الإمبريالية عن طريق إدامة الحرب الثورية.

- حينما جعل السوفييت التطوّر اللارأسمالي نهجًا للبلدان المضطهدة النامية، رفعت الصين لواء الثورة الطويلة الأمد من المنظور الماوي للعالم، ومن ثم تبنّت الصين نظرية العوالم الثلاثة.

بلا شك، كان هذان المنظوران العالميان مختلفين كليًا. وفي ذلك الحين أيضًا لم يكن المستوى النظري والفكري للناس عاليًا، ولا الحقائق السياسية معروفة بالشكل الحالي. وكانت للصين منزلة كبيرة ومؤثّرة في العالم بسبب ذلك الانتصار الكبير الذي حقّقته. وإذا كانت المشاكل في الصين حينها لم تكن قد وصلت إلى درجة الانفجار بعد، والحقائق لم تعرف، والمستوى النظري متدنّيًا، ولم تعطَ

للمناظرة الفكرية أهميّة، فمن الطبيعي أن تستطيع الصين الوقوف أمام الاتحاد السوفييتي، وأن تصبح قطبًا مؤثرًا بين اليساريين. لقد وقف التاريخ وقفة طويلة أمام تلك المشاكل، حين شوّهت الصراعات والآراء الطبقية المختلفة التي جرى التعامل معها بصورة غير منطقية سير الأحداث، وحرّفت الحقائق الموضوعية، وذهب هباء نضال عشرات الملايين من العمّال واليساريين في العالم.

٣/٥- ماو: الثورة المرتدّة

أوضحنا سابقًا أنّ ماو تسي تونغ كان يمثّل الجناح اليساري في الثورة الطويلة الأمد داخل الحزب الشيوعي الصيني، وأنّه أوصل، وبنجاح، نظرية الثورة إلى النصر. كما أثّر في الحركة التحرّرية للشعوب المضطهدة والحركات اليسارية أيضًا. وممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك النجاح الذي تحقّق في الصين، ألحق ضررًا تاريخيًا، في الأقل من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية، بالرجعية في كل من الصين واليابان، وبالإمبريالية أيضًا، ولذلك قاموا بمعاداة الثورة بكل ما يملكون من قوّة وإمكانية.

إنّ الشعوب دائمًا تكره المحتلّين كرهًا بلا حدود، وتوّاقة إلى الحرّية والاستقلال إلى الحدّ الذي، حتى لو لم تكن لها قيادة طليعية، فهي مستعدّة للقبول بالقيادة البرجوازية، لطرد المحتلّين، ولتقديم قرابين لا تحصى، ولا تعدّ، من أجل ذلك. فهذه حالة نفسية، تشترك فيها كل الشعوب المضطهدة، وتمتزج مع المشاعر الوطنية والقومية بشكل، تستطيع كل قيادة، حتى القيادة العشائرية المتخلّفة، في فرصتها السياسية المتاحة لها، أن تستفيد منها، وتستغلّها لصالح طبقتها.. والأمثلة الصارخة على هذه الحقيقة كثيرة. ولكي لا نذهب بعيدًا، فهذه كوردستان دليل حيّ أمامنا، لكن، ومع الأسف الشديد، فإنّ أحد مضار «الريفيذنيزمية» في البلدان المتخلّفة هو عدم إدراك هذه الحقائق، وعدم الاهتمام بالنضال القومي، الذى يكون دائمًا في صالح البرجوازية وضدّ مصالح العمّال.

إنّ ماو ورفاقه، لم يتخلّفوا عن عصرهم. فحينما رفعوا لواء التحرير، لم يكونوا «ريفيذنيزميين»، لأنّ ماو أدرك بمهارة المهمّات الوطنية في هذه المرحلة، ورفع لواء الثورة ضدّ المحتلّين والرجعيين وضدّ الجناح اليميني في حزبه، بل وأكثر من ذلك، لم ينل منه التعب، ولم تنهك قواه أيّ تهمة، وبدأ بتنفيذ نهجه عمليًا. جرى هذا في وقت كان لستالين رأي مختلف عن دور الحزب الشيوعي الصيني في تلك المرحلة، وكان يريد أن يبقى الحزب الشيوعي الصيني داخل حزب الكومينتانك،

ويستمرّ معه في النضال المشترك وتحقيق التقدّم الاجتماعي، إلى أن تتحقّق الثورة الاجتماعية.

فإذا كانت الحال على هذه الصورة، وإنّ أكثر من ثلاثمئة مليون نسمة من الشعب الصيني، في ذلك الوقت، كانوا يعيشون في شقاء وفقر وتعاسة، فمن الطبيعي أن يصبح نهج ماو نهجًا لأكثرية الحركات الشعبية الثائرة. هذا النهج الذي لم ينشأ بدون تخطيط، ولم يطبّق بشكل أعمى، كان في حينه، وفي الأرضية الاجتماعية الصينية، نهجًا متقدّمًا إلى أقصى الحدود:عندما تكون لنا ثورة يجب أن يكون لنا حزب ثوري. فبدون مساعدة ثورية، وبدون حزب مؤسّس وفق نظرية ثورية ماركسية لينينية، لا يمكن قيادة الطبقة العمالية وجماهير الشعب الواسعة، إلى النصر على الإمبريالية وخدّامها.[55]

مثّل ماو، بهذا الشكل دور المرشد النظري للنضال التحرّري، وربّى الناس عليه، فكيف إذن لا يكون الناس معه؟ لقد كان الناس معه حتى النصر، وكان الحزب ممسكًا بقيادة النضال، بصدق، واستطاع أيضًا أن يتحمّل أصعب مراحل النضال، ويهزم الأعداء، وينتزع السلطة من أيديهم.

مُنذ أن بدأ الجناح اليساري في الحزب الشيوعي الصيني، بالنضال المسلّح، استطاع في مرحلة المعارضة وفي مسيرة النضال الثوري وإلى يوم النصر أن يكون قوّة ثورية جماهيرية، لكنّه عندما حقّق النصر، وخلا الميدان له لتحقيق البرامج الاجتماعية والسياسية عمليًا، ظهرت شيئًا فشيئًا تلك المشاكل التي لا تعرف، ولا تظهر بوضوح، في مرحلة معارضة السلطة القائمة والنضال من أجل إسقاطها، بسبب سيطرة العدو، واشتياق الناس للحرّية. وبدأت تلك المشاكل والمشاكل الجديدة التي ظهرت بعد الانتصار، تضغط لتكشف الجوهر الإيديولوجي الحقيقي للثورة.

إنّ الضغط وإظهار هذا الجوهر، لم يتمّا بهذه السهولة والسرعة، بل تمّ إخفاؤهما عن الناس. وكان أحد أسباب عدم ظهور الحقائق النظرية والعالمية للحزب الشيوعي الصيني، هو»ريفيذنيزمية» ستالين وخروتشوف، إذ كانت الصين تعتبر ستالين، ولسنوات طويلة، زعيمًا عظيمًا، وكانت «ريفيذنيزمية»

55 ضةثكآ لة قسةكانى سةرؤك ماوتسى تونك - كتيَبخانةى بيرى نوآ - بةغدا ١٩٧٣.

خروتشوف خطيرة إلى الحدّ الذي لو عارضتها الصين، كانت ستترك أثرًا كبيرًا عليها. وبمعنى آخر كان الحزب الشيوعي الصيني، ولفترة طويلة أسير التفاخر الثوري الستاليني، ولكنّهم في نفس الوقت كانوا في نظر خروتشوف الأداة المعرقلة لنجاح الـ «ريفيذنيزمية». وقد رفع هذا من المنزلة السياسية والاجتماعية والنظرية لفكر ماو تسي تونغ، ولكن، في الحياة الاجتماعية وداخل الحركة الثورية، كثيرًا ما يلحق خطأ سياسي وعسكري، سوقي ومالي، نفسي وثقافي، حسب حجمه وقيمته -يلحق ضررًا كبيرًا أو صغيرًا، بالحركة، ويمكن استدراكه بسرعة وتعويضه. لكنّ الخطأ النظري والإيديولوجي لا يظهر بسرعة، بل يصبح ولمدّة طويلة مصدرًا لأخطاء أخرى. أيّ حزب، ودولة، وجماعة، وشخص، إن كان مرنًا قليلًا، وتمكّن من إثبات أخطاء المقابل بالأدلّة والبراهين، يجوز له أن يصحّح الأخطاء غير المباشرة وغير المقصودة بسهولة، لكنّ هذا لا يصحّ بالنسبة إلى المسألة النظرية والإيديولوجية. فحتى لو كان مرنًا كثيرًا، فإنّه لا يستطيع أن يصحّح الأخطاء النظرية والإيديولوجية إلا بصعوبة أكبر، لأنّ الإيديولوجية إيمان، والإيمان لا ينشأ بسرعة، ولا يُتخلى عنه بسرعة أيضًا.

من هذا المنطلق، وبعد انفجار القضايا الإيديولوجية بين الاتحاد السوفييتي والصين، أصيب ثوّار العالم بمشكلة عدم تقييم القضية الإيديولوجية موضوعيًا. وكان هناك القليل من الأطراف والأشخاص ممّن يستطيعون بشكل مستقل، وبعيدًا عن الجانب النظري للقضية صياغة أفكارهم. لكن ومع هذا، وبأسف شديد، لم تقيّم المشاكل موضوعيًا إلى الآن، فعلى الرغم من وضوح أكثرية الحقائق أمام أنظار المناضلين، هناك الألوف منهم حتى الآن، أصيبوا بالدوار داخل دوّامة القضايا القديمة، ولا يستطيعون التفكير بوعي من جديد، بسبب ضوء الحقائق.

تحدّثنا سابقًا عن تبادل الأماكن بين طبقات المجتمع وفق الظواهر الاقتصادية الجديدة، ولاسيّما ظاهرة «الإمبريالية الأعلى-Higher Imperiaism»[٥٦] التي

٥٦ نظرية في الإمبريالية، قال بها كاوتسكي انطلاقًا من أخذه بحرفية المفهوم الجدلي الحتمي عند (ماركس) ومن تصوره المنطقي الشكلي لظاهرة تطور الرأسمالية الاحتكارية التي تؤدي حتمًا -حسب تصوره- في النهاية إلى إقامة احتكار عالمي واحد. وقد تعرضت هذه النظرية إلى الهجوم الشديد من قبل لينين، لأنّها تدعو إلى التوفيق بين الإمبريالية والاشتراكية، وإلى تجميد الصراع ونضال الجماهير بانتظار توحيد العالم تحت الرأسمالية -المترجم.

تتجسّد في الشركات المتعدّدة الجنسية.

قلنا إنّ هذه الظواهر أخرجت الفلاحين من مضمون الثورة التحرّرية، وإنّ الثورة التحرّرية لن تتمكّن، بعد الآن، من أن تجعل الفلاحين أكثرية جيش الثورة الطويلة الأمد كالسابق. كما أنّ البرجوازية الوطنية فقدت فرصة التصدّي لرأسمال الإمبرياليين، ولا تستطيع عن طريق عرض البضائع البسيطة منع بيع البضائع الحديثة الأكثر جودة من بضائع الشركات الاحتكارية، بعدما أصبحوا منذ فترة طويلة تابعًا ضعيفًا للرأسمالية الاحتكارية العالمية.

لو أردنا تقييم أساس فكر ماو تسي تونغ على ضوء تلك الحقائق الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، فسيكون التقييم هكذا.

٤/٥- الجبهة الصينية المتحدة

في ثنايا بحثنا تحدّثنا كثيرًا عن الحرب الطويلة الأمد، وكيف وصلت إلى طريق مسدود، ولا يمكن اتخاذها كنهج رئيسي للنضال مقابل التكنولوجيا المعاصرة، ولا يمكن في هذه الظروف العالمية أن يحقّق النجاح والانتصار، إلا في حالة خاصّة، وأمام نظام ضعيف، ذي اقتصاد متدهور، مجرّد من كل سند وظهير، أو يكون هذا النهج في خدمة نهج ثوري آخر، ويطبّق في ظروف خاصّة.

كانت الجبهة المتحدة في البلدان الإقطاعية وشبه الإقطاعية والمحتلّة سلاحًا فعّالًا لنجاح الثورة الطويلة الأمد وانتصارها. وهي ثمرة من ثمار فكر زعيم الثورة الصينية وانتصار الثورة أيضًا، لكنّ الحديث عن الجبهة المتحدة ورد قبل ذلك في الأدبيات الماركسية، وفي نضال الشعوب. وقد بذلت جهود كبيرة من أجل ولادتها، ويجد الباحث في البيان الشيوعي بذور هذه الأفكار بصورة أوليّة، وبهذا الشكل:

يناضل الشيوعيون من أجل تحقيق المصالح والأهداف المباشرة للطبقة العاملة... كذلك يؤيّدون في كل قطر من الأقطار أيّ حركة ثورية ضدّ النظام الاجتماعي والسياسي القائم... ويعملون من أجل الاتحاد والتفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع الأقطار.[٥٧]

في الفترة التي كتب فيها البيان الشيوعي، كان الحديث يجري عن «الاتحاد والوفاق» بين الشيوعيين وباقي الأحزاب الديمقراطية، وكان هذا في مستهلّ بدايات النضال المشترك والاتحاد بين نضال العمّال والطبقات المعارضة الأخرى. وأكّد لينين، في المؤتمرين الثاني والثالث للحزب، حينما كانت ثورة أكتوبر تتعرّض إلى هجوم إمبريالي ورجعي، بعد نجاحها، على أهميّة التعاون التام بين الأطراف الثورية. فمع أنّ لينين عرض أفكار مجالس الفلاحين والشغيلة، في المؤتمر الثاني

---

٥٧ كارل ماركس وفردريك إنجلس، *البيان الشيوعي*، دار دمشق للطباعة والنشر، ص٩٩.

للأممية الثالثة (الكومنترن) في التاسع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٢٠، وكان يصرّ على نجاحها رغم معرفته بعدم إمكانية جعل هذه المجالس عمّالية في تلك الفترة، كانت مسألة تعاون مجالس الفلاحين والشغّيلة الأخرى وتعايشها، عند لينين، أفضل الأشكال النضالية الطبقية والسياسية للعمّال، لا الجبهة الوطنية.

إلا أنّ أفكارًا كهذه، لم تصمد في ذاك الزمان على رغم حصول ثورة أكتوبر ونشر الوعي السياسي لشعوب الشرق الداعي إلى الحرّية والاستقلال. ففي تلك الفترة، انفجر النضال التحرّري ضدّ الاستعمار في الصين، والهند، وإيران، وتركيا، والعراق، ومصر، وكوردستان...إلخ، وكان لينين والكومنترن فرحين أشدّ الفرح بتلك الحركات (ماعدا كوردستان). وكانوا يأملون في أن تتمكّن تلك الحركات من إضعاف مقوّمات ودعائم الإمبريالية عن طريق قطع ثروات تلك البلدان عن الشركات الاحتكارية. وبذلك تختنق الإمبريالية في خضمّ مشاكلها الداخلية.

بيد أن فشل النضال الثوري في تلك الدول، ماعدا الصين، وظهور ماهيّة الثورة في تركيا بسرعة، وكيف أنّها كانت ثورة برجوازية ناقصة، أي أنّها لم تكن تلك الثورة الديمقراطية الثورية التي جعل منها لينين والكومنترن شرطًا لمساندتها ودعمها، لكن وبالرغم من ذلك، ساندوها وقدّموا لها مساعدات قلّ نظيرها في ذلك الوقت، علمًا أنّها استُعملت ضدّ العمّال وضدّ الشعب الكوردي والشعوب الأخرى، إلا أنّ الفشل في هذه الثورات معناه فشل المجالس الفلاحية والشغّيلة بلا شكّ.

نحن نعتقد أنّه لو نجحت الثورات البرجوازية في البلدان الأخرى كما نجحت في تركيا، فإنّ أحوالها لم تكن أفضل من حال الثورة في تركيا، وأحسن مثال على ذلك نجاح ثورتي مصر والعراق بعد ما يقارب أربعين سنة على قيامهما، واللتين تشكّلان أفضل دليل على تلك الحقيقة. وحصل هذا في وقت كان للعمّال في العراق ومصر، بعد مرور تلك الفترة الطويلة من الزمن، طبقتهم وحركتهم الطبقية وحزبهم الذي كان باسم الحزب الشيوعي، فكيف كانت الحال فيهما لو انتصرت الثورة البرجوازية قبل أربعين سنة!

من الممكن القول إنّه في بلد كالعراق، حينما قامت الثورة البرجوازية، كانت حركة العمّال والكادحين قويّة وملتفّة حول الحزب الشيوعي العراقي، إلى درجة

كانوا يستطيعون تأسيس المجالس بشكل يلائم الوضع الاجتماعي في العراق، وأيّ حزب لو كان ملك تلك الجماهير التي كان يملكها الحزب الشيوعي العراقي، بعد ثورة تموز ١٩٥٨ البرجوازية، لكان يستطيع أن يمنع البرجوازية من التراجع عن الديمقراطية بكل سهولة، وأن يؤمّن أكثرية مهمّات المرحلة، بما فيها حلّ القضية القومية الكوردية.

فالبلاشفة لم يتمكّنوا، في أول انتخابات للمجالس، من الحصول على أكثرية الأصوات، وكان لهم معارضون وأعداء كثيرون، لكنّهم في النهاية تمكّنوا من كسب أكثرية العمّال والكادحين والمجالس ذاتها، وانتصروا، لأنّهم كانوا يملكون قيادة مقتدرة، وبرنامجًا ديمقراطيًا دقيقًا.[٥٨] عندما كان لينين يتحدّث عن تشكيل المجالس في البلدان الخاضعة المضطهدة المتخلّفة، كانت له ثلاثة أهداف:

- جعل نظام المجالس سلاحًا بيد الثوريين، لمنع برجوازية الشعوب المضطهدة، والشرائح الرجعية، من خداع العمّال والكادحين بشعاراتهم القومية والوطنية والتحريفية.

- جعل تلك المجالس أدوات لتطوير النضال الثوري شيئًا فشيئًا لكي يستطيع العمّال السائرون نحو النمو، أن يصبحوا أصحاب سلطة سياسية بدرجة يتمكّنون عن طريقها تحقيق النصر التام في المستقبل.

- كان لينين يتصوّر أنّ ثورة أكتوبر تقود الاشتراكية إلى النجاح والانتصار مئة بالمئة، وأنّ الثورة الاشتراكية ستندلع في كل أنحاء العالم، لا محالة، وبمساندة هذه الثورات تستطيع مجالس الشعوب المضطهدة من تحقيق الأهداف الثورية لمجالسهم.

لكنّه مع الأسف، لم يتحقّق أيّ هدف من تلك الأهداف! بل انتصرت الطبقة البرجوازية في الشرق، وجعلت العمّال خلف الأحداث. فالأحزاب العمّالية اسمًا، والتي كانت في الساحة تتمتّع بالقوّة والنفوذ، لم تتمكّن، وفي أحسن الفرص الجماهيرية التي أتيحت لها، من إنشاء مجالس العمّال ليس لشعوبهم فحسب، بل لم تتمكّن حتى من إنشاء مجالس منظّمة لأحزابهم. فبدلًا من تلك المجالس، اتبعوا طريق الإصلاح، ثم الجبهة الوطنية. إنّ الجبهة الوطنية مع مفهومها العلمي،

---

٥٨ بكل أسف، بعد انتصار لينين والبلاشفة، طووا صفحات برنامجهم الديمقراطي بسرعة، وبهذا وضعوا الحجر الأساس لفشلهم بأيديهم.

ظهرت إلى الوجود من قبل الكومنترن، في ظروف مخاطر قيام الحرب العالمية، لجمع الطبقات المناوئة لخطر النازية في البلدان الخاضعة والمحتلّة. ومع أنّ الأحزاب العمّالية الأخرى كانت تتحدّث عنها قبل هذا، إلا أنّها كنظرية، فإنّ الكومنترن هي التي صاغتها. ففي بلدان كالعراق ومثيلاته التي كان فيها حزب شيوعي، رفع فيها شعار الجبهة الوطنية لاستقطاب الطبقات التي كانت ضدّ النازية، لاسيّما بعد الهجوم على الاتحاد السوفييتي.

هكذا أصبحت الجبهة الوطنية بعد الحرب، بديلًا عن الأحزاب المعارضة، بما فيها الأحزاب الشيوعية أيضًا، ولم يذكر اسم المجالس والديمقراطية الثورية قطعًا فيها.

حقًا كانت المجالس، والديمقراطية الثورية أدوات سياسية ثورية بيد البروليتاريا ضدّ الأدوات البرجوازية، في مرحلة النضال الوطني-الديمقراطي. لقد شعر البرجوازيون بخطر أكبر، لاسيّما بعد انتصار ثورة أكتوبر ورفع شعار الديمقراطية الثورية والمجالس للشعوب المستغلّة المضطهدة. وبدأوا بمناوأة العمّال والشيوعية والوقوف ضدّهما بشكل أشدّ وأعنف.[٥٩] أي كانت لبرجوازية الشعوب المضطهدة والمحتلّة، قبل ثورة أكتوبر وبعدها، وجهتا نظر مختلفتان حول العمّال. فحينما توسّع نضال العمّال، وانتشرت الماركسية في عموم الشرق، أصبح هذا الخطر أكبر وأشدّ. ولم تؤخذ، من أجل البرجوازية، هذه الحقيقة بالاعتبار قطعًا لا كقاعدة اقتصادية، ولا كحقيقة سياسية، لذلك لا يوجد حتى حزب طبقي واحد في الشرق عرف كيف يقيّم البرجوازية الوطنية من الرؤية الطبقية الثورية.

كان ينظر إليها دائمًا على أنّها طبقة ضدّ الإمبريالية، ووفقًا لهذه الحقيقة، كان يطلب منها التعاون، وتشكيل الجبهة الوطنية معها. وعندما كانوا يطلبون تشكيل الجبهة معها، كانوا لا يهتمون بمن سيقود الجبهة، لأنّ الأحزاب الشيوعية لم يكن لديها هدف إسقاط الأنظمة الرجعية، ولا شعار تسلّم السلطة، ولا البرامج الديمقراطية الثورية. وعندما لم يجعلوا تسلّم السلطة هدفًا لهم، فمن الطبيعي ألا يعتبروا قيادة الجبهة أساس سياستهم، لأنّهم لم يتبنّوا الجبهة من أجل الحكم.

في الصين، ومنذ بداية الثورة، بذلت جهود لإنشاء المجالس وفق إرشادات

---

٥٩ لم يبق مبرر لتوأم الديمقراطية الثورية.

الكومنترن (الأممية الثالثة) وعقيدة ذلك العصر، وجنّدت لذلك طاقات كبيرة، وتمّ التخطيط لكيفيّة العمل بها. لكن عندما قامت ثورة البرجوازية الرجعية ضدّها، وحوفظ على استمرارية الثورة بالثورة الطويلة الأمد، لم تستطع المجالس النجاح في عملها، كما نجحت في الاتحاد السوفييتي، وكان السبب هو الاختلاف على كيفيّة إنجاز مهمّات الثورة الديمقراطية في تلك الدولتين: الاتحاد السوفييتي في المدينة، والصين في الجبل.

فعندما نقلت الثورة متاريسها من المدينة إلى الجبل، بذلت جهود من أجل إنشاء نوع من هذه المجالس بين الفلاحين والإبقاء عليها، لكنّ ذاك الاتحاد بين المنظّمات الاجتماعية لم ينجح مثلما نجح في الاتحاد السوفييتي، بل حتى بقدر ربع ما نجح، على الرغم من مساندة قيادة الحزب الشيوعي الصيني له، هذه القيادة التي كانت مخلصة للينينية ومنفّذة لقرارات الكومنترن أيضًا.

إنّ الظروف الموضوعية للصين، والتكوين الطبقي لها، وتلك الثورة الطويلة الأمد، جميعها استوجبت جبهة وطنية متحدة، سواء أكانت للنضال ضدّ اليابان، أم لإبعاد القوى ضدّ الثورة، لأنّ الصين كانت بلدًا محتلًا وشبه إقطاعي. لذلك كانت الطبقات الأربع للمجتمع الصيني، العمال والفلاحون، والبرجوازية والبرجوازية الصغيرة، من الناحية الموضوعية، في جبهة الشعب وضدّ جبهة الأعداء الرجعيين.

لقد حصلت الجبهة الوطنية على نجاحات جيدة، في تلك الأرضية الاجتماعية والظروف السياسية السائدة آنذاك. كذلك، كانت لنفس النهج السياسي، في بلد كالصين، فائدة كبيرة للنضال التحرّري والشكل النضالي الثوري. ففي فترة الحرب العالمية الثانية أيضًا، كانت هذه الأداة السياسية نفسها تتلاءم مع تيّار النضال الوطني في العالم، بصورة جيدة، لاسيّما في أوروبا الشرقية، وبعض من الشعوب المضطهدة كالعراق، ومصر، والجزائر، واليمن، وإيران، وسوريا...إلخ، والتي لم تكن تسير على نهج الحرب الطويلة الأمد.

هل ما زالت الجبهة الوطنية المتحدة حتى الآن، ومثلما كانت سابقًا، السلاح الأساسي بيد الطبقات التقدّمية للشعوب، أو الأداة الرئيسة لإنجاز مهمّات الثورة الديمقراطية رغم التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتبدّلات الأساسية

في المكان الطبقي للفلاحين، وخيانة البرجوازية الوطنية رغم تحقيق مجموعة من الأهداف السياسية والطبقية التي كانت تنجز مهمّاتها الطبقية الجوهرية عن طريق الجبهة؟

الجواب: لا قطعًا.

فأيّ أداة من الأدوات السياسية للعمّال والشعوب، لو زالت أسسها الاقتصادية السابقة، فإنّ مبرّراتها النظرية تزول أيضًا. كذلك فإنّ الشروحات السياسية للظواهر السياسية، إن لم تربط بالأسس الاقتصادية، تكون شبيهة بسحابة الصيف التي إن نزلت منها قطرات من المطر، فهي لا تروي أرض النضال إلى الحدّ الذي تنبت زرعًا وشجرًا وثمرًا. وبناءً على هذه الحقائق، فإنّ إصرار الماويين على الوقوف على شرفة قصر سياسة الجبهة الوطنية باسم الشعوب المحتلّة التي أصبحت العلاقات الرأسمالية مسيطرة الآن فيها، وليست العلاقات الإقطاعية أو شبه الإقطاعية، ما هو إلا نوع من «الدوغماتيزمية-Dogmatisme»[٦٠] السياسية الضارّة التي يجب التصدّي لها بالتوعية النظرية، وتقييمها من منظور تطوّر الأحداث.

ربّما أصيبت المنظّمات الماركسية العاملة في صفوف حركات الشعوب المضطهدة المليئة بالمشاكل السياسية-العسكرية، مثل الكورد، والبلوش، والآذريين، والأرمن، بالأزمات السياسية الصعبة، ووقفت البرجوازية الصغيرة وممثّلو الشرائح الأخرى، إلى جانبها ضدّ العدو المشترك مدفوعة ببعض الأهداف السياسية المشتركة. يجب أن يكون الماركسيون الآن هكذا أيضًا، وكما كانوا دائمًا في السابق، متعاونين معهم في ساحات النضال وبشكل جديد، ويشكّلوا معهم جبهة الشعب ضدّ جبهة العدوّ الأضعف، شريطة أن يجدوا لكل حالة نوعًا ملائمًا من النضال الثوري.

---

٦٠ ((الدوغماتيزمية-Dogmatisme) تعني الجمود والتحجر وعدم التغيير، أي الايمان بعدم تغيير الواقع الذي اكتسب صفة الخلود والأبدية، كما هو في القوانين والدساتير الجامدة والأديان، بدون أخذ الظروف والزمان والمكان بنظر الاعتبار، وهي على طرفي نقيض مع (الدياليكتيكية-الجدلية) التي تؤمن بأن التناقض هو نسيج الأشياء فكل شيء يحتوي في داخله على جانب إيجابي وآخر سلبي وفي كل شيء جانب إيجابي وآخر سلبي وفي كل شيء جانب ينمو، وآخر يموت، وهناك الموضوع، وهناك نقيضه او نفيه، ثم هناك نقيض النقيض، أي نفي النفي-المترجم-)

٥/٥- ديكتاتورية الطبقات الأربع... الصينية

ديكتاتورية طبقات المجتمع الأربع، هي جوهر الديمقراطية الجديدة للثورة الصينية. وكان هذا النهج جديدًا في الأدبيات السياسية، بل نهجًا سياسيًا غريبًا في أدبيات الحركة الماركسية–اللينينية، لاسيّما وأنّ منظّره ماو تسي تونغ كان صاغه من منطق الوضع الاجتماعي الصيني، كبلد خاضع وشبه محتلّ، والفكر الديمقراطي لكل حركات تلك الشعوب التي تشبه الصين من حيث أوضاعها الاجتماعية وأحوالها السياسية وظروفها التاريخية. وصيغت الفكرة أساسًا كنهج ديمقراطي ثالث مقابل النهجين الديمقراطيين السابقين:

- ديكتاتورية الجمهورية الديمقراطية البرجوازية.
- ديكتاتورية الجمهورية البروليتارية.

إنّ النوع الأول، هو بلا شكّ النوع القديم للديمقراطية، والنوع الثاني هو ما كان سائدًا في الاتحاد السوفييتي، والثالث يقول عنه ماو:

أمّا النوع الثالث فهو شكل انتقالي للدولة ينبغي أن تتبنّاه الثورات في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ستتميز ببعض الخصائص، ولكنّ هذه الخصائص لن تكون سوى اختلافات بسيطة في محيط من التماثل. فما دامت الثورات هي ثورات البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، فمن المحتّم أنّ كلًا من تركيب الدولة وتركيب السلطة السياسية في هذه البلدان سيكون متماثلًا بصورة أساسية، أي دولة للديمقراطية الجديدة خاضعة للديكتاتورية المشتركة لعدّة طبقات مناهضة للإمبريالية.[٦١]

إذن، الديمقراطية الجديدة لم تنحصر بالصين فقط، بل أصبحت هدفًا مشتركًا للشعوب المشابهة للصين أيضًا. وإذا تمّ إثبات هذا علميًا من الناحية النظرية،

---

٦١ ماوتسي تونك،المؤلفات المختارة، المجلد الثاني، دار النشر باللغات الاجنبية بكين-١٩٦٩-ص٤٨٩.

وإثبات حقيقته عمليًا في بوتقة العمل داخل العديد من الشعوب، مثلما حصل في الصين، فإنّه يصبح أساسًا لإنجازات ثورية. فالصين كالبلدان الأخرى الخاضعة للإمبريالية، توسّعت دائرة نشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية عن طريق الإمبريالية وعلاقة الرأسمالية بها بصورة مباشرة، وكانت الحركة الرجعية فيها مسيطرة منذ زمن بعيد، بحكم كونها مركزًا جيوبوليتيكيًا[٦٢] مهمًا جدًا من الناحية الطوبوغرافية والديموغرافية.[٦٣] إنّ الصين لها حدود بحريّة وبريّة ذات قيمة عالية، لذلك كانت مركزًا تجاريًا مهمًا. وربط الصينيون الأغنياء مصالحهم المباشرة بالربح والثراء، بغض النظر عن الطرف الذي يأتي منه الربح والثراء. وعندما تدخّلت الإمبريالية في شؤون البلد، نشأت طبقة التجّار والرأسماليين الصينين، والطبقة الرأسمالية التابعة والتجار الوسطاء بين الرأسمال الأجنبي والسوق المحلية. وبهذا تمّ وضع البرجوازية الاقتصادية في إطارها المحدود.

في مقدمة كتابه «الديمقراطية الجديدة»، تحدّث ماو نفسه عن الطبقات الثلاث، لا الطبقات الأربع التي تحدّث ستالين عنها أكثر عند حديثه عن الشعوب المستعمرة، لكن بعد طبع مختارات ماو عام ١٩٥١، ورد الحديث عن أربع طبقات بدلًا من ثلاث. وعندما يتحدّث عن هذه الطبقات، يدعوها إلى المشاركة في الجبهة الوطنية، وبدون تأشير الحدود الطبقية الطبيعية يذكر اسم البرجوازية، لا البرجوازية الوطنية. وكان، في تلك الفترة، يدور جدال حول دور البرجوازية الوطنية داخل الحركة التحرّرية-الديمقراطية ضدّ الإمبريالية والإقطاع، حيث كان ممثّلو الهند وإندونيسيا وجنوب أفريقيا بالأخص ضدّ إعطائها أهمية في النضال الوطني، لأنّها مرتبطة بالإمبريالية وضدّ الثورة، حسب اعتقادهم. إنّ أهمّ مسألة في الثورة هي مسألة السلطة، والسلطة الطبقية يُعبَّر عنها حسب الرؤية الطبقية المختلفة. فسلطة العمّال، والبرجوازية الصغيرة، والبرجوازية الوطنية هي

٦٢ (جيوبولكتيك-Geopolictics) لفظة متكونة من مقطعين: (جيو-geo)وتعني (الارض) و(بولكتيك-polictics) وتعني (السياسة). فهي علم (السياسة الطبيعية) بمعنى آخر علم دراسة تأثير العوامل الجغرافية والاقتصادية والبشرية استغلته الدول الاستعمارية والقومية العنصرية من اجل احتلال اراضي الشعوب الاخرى واستعباد سكانها واضطهادهم- المترجم.

٦٣ طبوغرافي: طبيعة سطح الارض لبلد أو إقليم أو منطقة من حيث (الجبال والسهول والوديان) وأما الآن فهي مصطلح سياسي، تعني علم الاجتماع.
ديموغرافي: الدراسة الاحصائية للسكان وكل ما يتعلق بهم، كانت ضمن الدراسات الاجتماعية. - المترجم.

مختلفة. ومن الصعب جدًا الجمع بين ديكتاتورية أربع طبقات متصارعة في المجتمع داخل سلطة سياسية واحدة، وإيجاد التوافق والتلائم بينها.

في دنيا السياسة يجوز إيجاد نوع من التكتيك السياسي وانتهاجه، لكنّ خلط البرامج الديمقراطية المختلفة للطبقات وصبّها في قالب سياسي واحد، حيث للديمقراطية سمتها الطبقية الخاصّة بها مثل بقيّة الأهداف لهو انحراف عن النهج الديمقراطي الثوري للعمّال. فحتى في البلدان المتخلّفة الخاضعة وشبه المحتلّة، حتى إذا لم يطبّق عمليًا في مرحلة النضال المسلّح، واحتفظ به عن طريق الدعاية والإعلام، فسيظهر بعد انتصار الثورة، وبسرعة، أنّ برنامجًا أعوج كهذا ليس له مكانًا لتنفيذه. فكما تعاني الصين الآن من المشاكل النظرية القديمة، تعاني أوروبا الشرقية أيضًا التي حاولت تطبيق نوع مغاير للديمقراطية الصينية الجديدة. إنّ هذه البلدان تعاني من مثل هذه المشاكل، لأنّها مثل الصين مسحت بديمقراطيتها ذات الطابع البوليسي حدود الطبقات وأخفت صراعها الطبقي. ففي هذه البلدان، نجد أنّ البرنامج الديمقراطي لم ينفّذ، وأنّه بعد أن غيّرت الحياة أدوارها، وحصلت تغييرات عميقة في العالم، ظهر أنّه لا يؤمّن الحاجات المادّية الضرورية والمستلزمات التاريخية للمراحل الاجتماعية، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والثقافية، والتاريخية والحضارية. ولا يمكن أبدًا أن ينقل بلد إلى مرحلة الاشتراكية، من غير تجاوزه لمرحلة الرأسمالية، لا بمساعدة البلدان الاشتراكية، ولا بنظرية خلط الطبقات ومزج مصالحها في قالب الديمقراطية الشعبية. يمكن اختصار مرحلة الديمقراطية، وتحقيق الاشتراكية بشكل أسرع، لكن لا يمكن حرق مرحلة أو حذفها أو تجاوزها.إنّ تلك المشاريع، كانت ضريبتها تاريخيًا الجهد النضالي للعمّال والكادحين والشعوب، لأكثر من أربعين عامًا، وكما يقول الناس البسطاء: «أكل ربحهم رأسمالهم أيضًا»[٦٤] من الواضح أنّ القصد هو الرأسمال النظري الذي خلقت هذه التجارب من أجل تطويره، لكنّها فشلت في تحقيق ذلك. لتكملة هذه الأخطاء النظرية التي كان ينظر إليها، وكأنّها إيديولوجية ثابتة لا تتغيّر، وضعت تلك المشاريع في بوتقة العمل والفعل بصورة «دوغماتيزمية». وبعد انتصار الثورة الصينية، أصيبت هذه الثورة بعراقيل وصعوبات جمّة حتى في زمن ماو تسي تونغ نفسه.

---

٦٤ من الأمثال الكردية، ويقال عندما يخسر المرء ما عنده في سبيل شيء مستحيل التحقيق -المترجم-.

٦/٥- الثورة الثقافية!

هناك القليل من الأحداث، بعد الظاهرة الستالينية، نال اهتمامًا، وجرى الحديث حوله، وكتب عنه، بقدر «الثورة الثقافية»!

عند صدور قرار قيام هذه الثورة عام ١٩٦٦، كانت هناك مشاكل قائمة بين الصين والاتحاد السوفييتي، انعكست تأثيراتها على العمّال والشعوب وعلى الأحزاب التي كانت تمثلانهما حينذاك. فمن جهة كانت دولة الصين تساندها، ومن الجهة الأخرى كان الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه يعادونها بشدّة. وفي مقابل هذا وذاك وجد المعسكر الرأسمالي فيها فرصة سانحة، فبذل جهودًا كبيرة للاستفادة من الثورة الثقافية، كما استفاد من التجربة الديكتاتورية الستالينية لمعاداة الشيوعية من أجل ترسيخ آرائه في ذهن الرأي العامّ العالمي وتثبيت مفاهيم استحالة ولادة الاشتراكية.

إنّ هذه الثورة وكما قيل: ابتكار جديد لعصر الاشتراكية في زمن تفشي»الريفيذنيزمية» وانحراف السوفييت عن الاشتراكية العلمية إلى الاشتراكية الإمبريالية. وبعد نضوج هذا الرأي الطبقي، وصل ماو فورًا إلى تلك القناعة التي دفعته إلى إعلان الثورة الثقافية، قبل إصابة الصين أيضًا بداء الارتداد والانحراف والتراجع، ومن أجل ألا تحوّل البرجوازية أمل العودة إلى الحكم إلى سعي جدّي وحقيقي للوصول إلى السلطة. وكذلك من أجل اقتلاع جذور البيروقراطية التي بدأت تنمو في النظام الاشتراكي.

ناضل القائمون بها من أجل اقتلاع جذور التقاليد والعادات البرجوازية، تراثها وإرثها، آدابها وفنونها، معارفها ومدنيتها، بشكل تام، وإبعاد مخاطرها ومخاوفها إلى الأبد. فإذا نظرنا إلى تلك الآراء والأفكار بصورة منفصلة عن الأحداث السياسية والتاريخية، فسوف تظهر لنا، وكأنّها نابعة من فكر ثوري. لكن إذا درسناها من كل جوانبها، سيظهر لنا أنّ نتائجها التاريخية كانت غير مرغوب فيها.

اتخذت ديكتاتورية البروليتاريا أداة لمنع ارتداد الطبقات الأخرى من الاشتراكية، وأداة لتحقيق الأهداف الطبقية والثقافية للعمال.[٦٥] لنقل: إنّ الماركسية–اللينينية ليست فلسفة «دوغماتيزمية»، فيقال: إذا كان لا يوجد في الأدبيات الكلاسيكية لهذه الفلسفة أيّ ذكر، فليس من الجائز القيام بمثل هذه الثورة. إنّ تطوير الفلسفة على أرضية اقتصادية واجتماعية صائب وصحيح، من الناحية النظرية، لكن، هل تقدّمت هذه الفلسفة أم تأخّرت في ظلّ الثورة الصينية تلك؟

من الناحية النظرية، يساوي المفهوم الثوري العلمي للثورة التغيير الجذري للمجتمع، والمجتمع لا يتغيّر إلى أن تقضي الطبقة الجديدة على الطبقة الرجعية القديمة. وهذا يحصل عندما تصبح الطبقة الرجعية عن طريق العلاقات الإنتاجية القديمة عقبة أمام قوى الإنتاج، ممّا يؤدي إلى انفجار التناقضات، وعندها تصبح الثورة غاية لا مفرّ منها.

لم يحصل مثل هذا في صين الثورة الثقافية، بل على العكس تشكّلت الطبقة الحاكمة من الذين كانوا يملكون زمام الأمور في المؤسّسات الحكومية المهمّة أثناء الثورة، من غير أن يكونوا عقبة في طريقها هذه المرّة. ففي الماضي كان مَنْ في أسفل السلّم يقوم بثورة ضدّ مَنْ في الأعلى، لكن في هذه الحال، قام مَنْ في الأسفل ومَنْ في الأعلى بثورة ضدّ أقليّة ذات أهميّة قليلة.

كان لماو نفوذ قوي في مؤسّسات الدولة والحزب إلى درجة أنه كان يستطيع، وبكل سهولة وبشكل اعتيادي، إبعاد أيّ شخص أو مجموعة كما يشاء ويشتهي. وكانوا يستطيعون أيضًا رسم خارطة الثورة الثقافية وتنفيذها كما يرغبون، إلا أنّ شيئًا من هذا لم يحصل.

عمّت فوضى لا مثيل لها. أبعد عشرات الآلاف من الكوادر والأعضاء مع أفراد أسرهم إلى الجزر النائية. وألقي القبض على عشرات الألوف من الأشخاص. وبات المئات من القادة والمسؤولين الحزبيين والرسميين كالدمى المصنوعة من الخشب والخرق البالية التي تطوف بها الصبية والأطفال في الشوارع والأزقّة في سنوات الجفاف لتبلّل بالماء طلبًا للاستسقاء. فهؤلاء أيضًا جُعلوا سخرية وأضحوكة لمئات

---

٦٥ مجريات الحياة والظواهر الجديدة بعد الحرب الباردة ترفض القبول بصحة ديكتاتورية البروليتاريا.

الألوف من الناس تحت ستار الثورة الثقافية.

حصل هذا مع أشخاص مرّوا بأحلك أيام الثورة، وقطعوا أقسى مراحل النضال، وكانوا دائمًا مبعث فخر واعتزاز الثورة والحزب والدولة. في تلك الثورة! أُريدَ فرض الاشتراكية وترسيخها على أرضية اجتماعية متخلّفة، وفي بلد زراعي لم يقطع مرحلة الديمقراطية، ولم يتعرّف مواطنوه على فكرة الاشتراكية بعد. كما لم تعالج فيه المشكلة القومية، والصناعية، والمرأة، والأمّية، والتمييز بين المدينة والقرية، ومع ذلك أُريدَ تحقيق الاشتراكية بسلطة الثورة الثقافية وقسوتها.

كان الجناح المتطرّف داخل الحزب يعتقد أنّه يمكن عن طريق أخذ القرار، ومثلما نجح في الأمور العسكرية، أن ينجح هكذا في تثبيت شروط تسريع الوصول إلى الاشتراكية بالآمال والتمنّي. صحيح كانت السلطة بأيديهم، كذلك صحيح أنّهم توسّعوا باستمرار، وقاموا بتأمين احتياجاتهم، لكنّ أيّ شيء من تلك الأمور لم يتحقّق بصورة صحيحة. والأكثر من ذلك، لم يكونوا بالمستوى الذي يؤهّلهم لتثبيت نظام اجتماعي جديد حسب المراد، أو كما اقترح ماو عام ١٩٥٨ تسميته بـ«القفزة الكبرى»، إذ لم تهيّأ المقوّمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لذلك النظام الاشتراكي. ولم يصل العمّال والكادحون، من الناحية الطبقية والسياسية والاستعداد السيكولوجي إلى مستوى يؤهّلهم لتحقيقه.

لربّما كان في تلك الدولة الكبيرة المهمة، من يعمل بصدق ضدّ الاشتراكية، ولربّما كان بينهم يمينيون كثيرون أيضًا، وبلا شك كان بينهم أناس بيروقراطيون ومحافظون كثيرون. لكنّ هؤلاء جميعًا، إن كانوا يستحقّون العقاب، فهذا لا يعني أنّ كل الذين كان لهم موقف مختلف من القيادة المتشدّدة، أو اعتبروا فرض الاشتراكية عن طريق «القفزة الكبرى» غير صحيح، أو تحدّثوا ضدّ الثورة الثقافية، خونة وعملاء، أو ضدّ الاشتراكية.

إنّ الثورة على ما يبدو قامت من أجل قمع المحاولات المتجدّدة للبرجوازية، لكنّها طالت جميع عناصر الحزب إلا القليل من الذين عرفوا بالثوريين والمخلصين. أمّا الباقون فعُرفوا بالمرتدّين عن الاشتراكية، وبالعداء للشيوعية. لنقرأ حديثًا لوزير خارجية الصين، آنذاك شان أي، لنعرف أيّ معاناة كانت في أعماقهم، وكيف عبّروا عن مواقفهم بدون تردّد:

الإيمان يجب أن يكون فقط بالرئيس ماو ونائبه لين بياو ورئيس وزرائه وشين بو وتا وكانغ وشيانغ شينغ، أي ستّة أشخاص، ولنضيف إليهم خمسة نوّاب لرئيس الوزراء، إذن كلّهم أحد عشر رجلًا، فهل هذا هو الحزب العظيم! أليس هناك سوى أحد عشر رجلًا ناضجًا عاقلًا في هذا الحزب؟ إنّني لا أريد أن أسير في هذا الطريق خذوني واعرضوني أمام الجماهير.[٦٦]

يبدو أنّ مشعلي الثورة الثقافية الذين سمّوا غيرهم بمثقّفي الإقطاع والرأسماليين والرأسمالية، أرادوا على الفور، وفي غفلة تاريخية، أن يبنوا ثقافة وتراثًا بروليتاريًا، من غير مقدّمة تاريخية، ولا تراث وإرث إنساني، ولا منجزات كلاسيكية، أدبية وفنية وتراثية وفولكلورية وروائية قديمة متقدّمة، ومن غير الاستفادة من الحضارات والثقافات القديمة كافّة. إنّه من الصعب عليهم أن يبنوا ثقافة بروليتارية واشتراكية رصينة وصافية بهذه الطريقة.

٦٦ (جان اسمين-الثورة الثقافية الصينية-ترجمة ذوقان قرقوط ص١٢١ و١٢٢).

٥/٧- طروحات العوالم الثلاثة

لقد خطّط لهذه الأطروحة في المراحل الأخيرة من حياة ماو تسي تونغ ولم يكن التخطيط لها كالتخطيط للديمقراطية الجديدة، أو الجبهة الوطنية وأفكار ماو الأخرى التي كتبت عنها المقالات النظرية والاقتصادية والإيديولوجية. إذ لم يكتب عن هذه الأطروحة أيّ مقال مثل هذا حتى الآن.

في تلك الفترة، كانت الصين تنشر أفكارًا نظرية خاصّة على المستوى العالمي، من الناحية السياسية عن الثورة الطويلة الأمد، وجيش الشعب، والديمقراطية الجديدة، والجبهة الوطنية. وبعد انفجار عداء صيني عنيف ضدّ السوفييت، اعتبرت الصين نفسها مركز الحركة الشيوعية الثورية في العالم. ولكي يتمّ الاعتراف بهذه المركزية لها، احتاجت، إلى جانب مفاهيمها ومبادئها السياسية والعسكرية، إلى منظور عالمي أوسع، حتى تجمع، من جديد، الأممية الجديدة حولها وتجعلها ضدّ السوفييت، و «الريفيذنيزمية» العالمية كما كانوا يقولون. وهذا يحتاج إلى دراسة الوضع الاقتصادي العالمي آنذاك، لكي يكون في مقدورهم إعادة تنظيم تلك الجوانب وفق نهجهم، وقد صاغوا تلك التناقضات بهذه الصور الأربع الآتية:

١- التناقض بين الأمم المضطهدة من جهة، وبين الإمبريالية، والاشتراكية- الإمبريالية، من جهة أخرى.

٢- التناقض بين البروليتاريا، والبرجوازية في البلدان الرأسمالية والتابعة للريفيذنيزمية.

٣- التناقض بين البلدان الاشتراكية من جهة، وبين الإمبريالية، والاشتراكية- الإمبريالية من جهة أخرى.

٤- التناقض بين البلدان الاشتراكية من جهة، وبين الإمبريالية-الاشتراكية، من جهة أخرى.

وفق هذه الصياغة الجديدة لقانون التناقض، أصبح الاتحاد السوفييتي والبلدان السائرة في ركابه أكثر خطرًا من أميركا والدول الإمبريالية والرأسمالية العالمية، على العمّال والشعوب المضطهدة حسب المنظور الصيني.

نحن لا نضع بحثنا هذا في خانة الدفاع عن السوفييت أو أيّ بلد حليف آخر لهم، بل ما نقصده هو أنّ المصدر النظري والاقتصادي والفلسفي لأيّ جهة، دولة كانت أم حزبًا، مجتمعًا صغيرًا أم فردًا، إن لم يكن له أساس علمي، ولم يبنَ بشكل موضوعي، فإنّ أفكاره وتحليلاته ستولد كسيحة وغير صحيحة. كما أنّ موقف أيّ طرف، إذا اتخذ بشكل انتهازي أو براغماتيكي، وتمّ تبريره لفترة بالسلاح والمال، فإنّ ضغط الزمن، سيثبت خطأه وعدم صحّته، عاجلًا أو آجلًا، وسيصبح سببًا لضرر كبير ومؤثّر، يصيب الجهة التي اتخذت هذا الموقف. وبهذا يتعرّض الطرف الأكبر لضرر أكبر، والأصغر لضرر أصغر.

إنّ تحديد التناقضات على أساس علمي، وتصنيفها بشكل موضوعي، وكيفيّة اتخاذ الموقف أمام الأطراف المتناقضة والمتوافقة، لهو واجب سياسي ومنطقي مهمّ جدًا. فالتناقض البسيط لا يصنع حسب الرغبة، ولا يجعل سببًا لاتخاذ قرار قطعي، وإذا حصل هكذا، واتخذ قرار قطعي بصدده، فلا تجنى من ورائه أيّ فائدة سوى الضرر، ناهيك عن التناقضات الأساسية لمجموعة بشرية، ولها علاقة بمصير الإنسانية وتقوم الدول العظمى بتحديدها! فهذه هي الصين، اعتبرت نفسها، ولسنوات، مركز النضال الثوري، والقوّة العظمى الثانية في العالم... فآلاف المقالات ومئات الكتب والدراسات، كتب عن الحزب من قبل مئات الكتّاب والاقتصاديين، وساندتها عشرات المنظّمات وعشرات الجماعات ومئات الألوف من المناضلين في العالم، لكن ماذا ظهر بعد كل هذا؟ ظهر أنّ الأمور ليست كما أُريدَ لها أن تكون، بل هي هكذا:

- مرحلة الديمقراطية لم تنتهِ، والاشتراكية ليست في طريقها إلى الانتصار.
- التناقض بين العمل ورأس المال لم ينتهِ، والعمّال لم يصبحوا أصحاب سلطتهم تمامًا.
- الطبقات الأخرى مازالت قائمة وقوية.
- لم يتمّ تأمين الديمقراطية والحرّية.

- المشكلة القومية مازالت باقية
- الفوارق بين المدينة والقرية كبيرة.
- الأمّية لم تقتلع من الجذور.

هذه التجربة الكبيرة والمؤثّرة، كافية لكي تتعلّم كل الأطراف السياسية، وخاصّة الطبقية، أنّ الاستقلال التنظيمي والإيديولوجي في عالم السياسة، مصيري ومهم. فبدون المحافظة على استقلال اتخاذ القرار، والتقييم، ورسم الاستراتيجية والتكتيك، والبرامج القريبة المدى والبعيدة المدى، لا يستطيع أيّ طرف داخل أيّ شعب وطبقة، حتى تحت تأثير أكبر الدول، أو بتقليد أفضل الأحزاب، صياغة برنامج صائب وصحيح. فضياع الاستقلالية والتقليد النظري وجهان لمضمون واحد مضرّ، وكلّما ابتعد عنه الثوريون، فإنّهم سيصادفون العقبات.

أمّا مسألة عبادة شخص ماو تسي تونغ وانفجار المشاكل الداخلية في الصين، ونتائجها السلبية على الاشتراكية، ففي جانب آخر، رغم أنّها أيضًا ضدّ أصول الماركسية والاشتراكية. لقد نتج عن كل هذه الأمور ظهور «الريفيذنيزمية» اليسارية للبرجوازية الصغيرة التي أخفيت لسنوات طويلة تحت ظلال العلم الأحمر والنجمة الحمراء والبندقية. ولم تستطع الصين في الأعوام الثلاثين الماضية، ومن المنظور اليساري لـ»الماوية» أن توصل عمّال بلد رأسمالي واحد في أرجاء العالم كافّة إلى النجاح والنصر، وإنّ المساعدات التي كانت تقدّمها إلى بعض الشعوب الساعية إلى الحرّية، مثل فيتنام، ولاوس، وكمبوديا...إلخ، لم تدم طويلًا، بل سرعان ما غيّرت موقفها منها، إذ دخلت حربًا شرسة مع فيتنام. وهناك العديد من الشعوب الأخرى أيضًا، حرّرت نفسها بالنضال المسلّح الذي كانت الصين تعتبر نفسها حامل لوائه. الشعوب هذه ليست لها علاقات وطيدة مع الصين، كما أنّ نهجها الإيديولوجي أيضًا مخالف للنهج الماوي كشعوب نيكاراغوا، وسلفادور، وأنغولا.

إذا كانت الأمور تستقيم بالدعاية والمباهاة والشعارات، فيجب أن تكون تلك الحركات المسلّحة خير عون للصينيين ومخلصة لنهجهم.

الفصل السادس

٦- مقدّمة الإصلاح

كان نيكيتا خروتشوف خليفة لجوزيف ستالين، وإن ابتعد عن الديكتاتورية الستالينية، إلا أنّ ابتعاده لم يكن من أجل العودة إلى المسيرة الديمقراطية والسير على هداها، أو تطوير الماركسية لكي تنسجم مع التطوّرات الحاصلة في ذلك العصر، بشكل مبتكر. لم يكن خروتشوف ستالينيًا، ولا لينينيًا، وإنّما اختلق نهجًا سياسيًا- إيديولوجيًا جديدًا، سمّي بنهج خروتشوف-سوسولوف.[٦٧] لكنّ هذا النهج فشل في نهاية الأمر، بالرغم من سعيه الحثيث ومحاولاته المستمرّة، وبشتّى الطرق من أجل ترسيخه وترويجه، تحت ستار إنقاذ الاشتراكية من الستالينية، وإصلاح النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي. إذ تعهّد في الخطّة العشرية التي قدّمها في الأعوام ١٩٥٦-١٩٥٩، بتحقيق «الشيوعية الكاملة»، ودفع الشعب إلى الأمام، من الناحية الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بحيث يتقدّم على الغرب في السباق القائم في هذه المجالات. لكنّه لم ينجح في تحقيق أيّ من تلك التعهّدات، بل وصل الأمر إلى سحب كرسي الزعامة من تحته كأيّ قائد خاسر ومنهزم.

جاء ليونيد بريجنيف بعده، وألصق مجموعة من التهم بكل من ستالين وخروتشوف، وحمّلهما مسؤولية الإخفاقات التي تعرّضت لها البلاد. وتعهّد بإنقاذ الاتحاد السوفييتي من كل الضيقات والأزمات، لاسيّما من الناحية الاقتصادية والسياسية. لكنّ السوفييت أعلنوا رسميًا أنّ الوضع الاقتصادي للبلاد كان يسير نحو الأسوأ في زمنه أيضًا. وقال ميخائيل غورباتشوف في هذا الصدد: «توقّفت ميكانيكية الاقتصاد، وشملت هذه الحالة كل أنحاء البلاد». ولكنّ الأغرب من ذلك هو ما كتبه حول هذا الموضوع المستشار الروسي الرفيع المستوى آبل اكانبغيان في كتابه الذي سمّاه «اقتصاد بيروسترويكا»، ونقتبس منه الآتي:

في السنوات ما بين ١٩٦٦ و١٩٧٠، كانت نسبة زيادة الناتج القومي

٦٧ سوسولوف هو منظر النهج اللارأسمالي.

لخمس سنوات هي ٤١٪، بينما انخفضت هذه النسبة في أوج قوّة سلطة بريجينيف (١٩٨١-١٩٨٥) إلى ١٦,٥٪».

الأغرب من هذا وذاك هو أنّ آبل اكانبغيان نفسه شكّك في صحة هذه النسبة حيث يقول: «الصحيح هو أنّ نسبة الزيادة في الناتج القومي انخفضت إلى الصفر.» وقد أوضح ذلك بالأرقام، بهذه الصورة:

كانت نسبة الناتج القومي تميل إلى الانخفاض منذ بداية السبعينيات، حيث وصلت إلى أدنى نسبة في أواسط الثمانينيات. ففي أربع دورات للخطّة الخمسية للناتج القومي وفق إحصاء دقيق كانت النتيجة كالآتي: ١٩٦٦-١٩٧٠ ما يقارب ٣٢٪، و١٩٧٠-١٩٧٥ ما يقارب ٢٣٪، و١٩٧٦-١٩٨٠ ما يقارب ١٢٪، و١٩٨١-١٩٨٥ وصلت النسبة إلى ١٪.[٦٨]

أي إنّ بريجنيف، بعد أن أزاح خروتشوف، وإلى يوم مماته، كان يدّعي تقويم الانحرافات وإصلاح أوضاع البلاد، إلا أنّه في الحقيقة تسبّب في القضاء تمامًا على الناتج القومي. وبالرغم من الوضع الاقتصادي السيئ هذا، كان يعمل باستمرار سرًا وعلانية من أجل صنع الأسلحة النووية المختلفة المكلفة اقتصاديًا، على حساب الحالة المعيشية للناس، وتكديسها في مخازن سرّية.

في المؤتمر السابع والعشرين، تحدّث غورباتشوف بصراحة ووضوح عن «السياسة غير الصحيحة» و«الأخطاء المختلفة» لبريجنيف، قائلًا: «لقد أوقع اقتصاد روسيا في ورطة كبيرة». كما نعت بريجنيف، في المؤتمر، بالبيروقراطية، من الناحية السياسية. إذن، زعيم أفشل اقتصاد أكبر دولة، وتصرّف هو نفسه تصرّفًا بيروقراطيًا، فمن المحال أن يستطيع، بعد خروتشوف، إقامة الإصلاحات في بلاده، وتأمين الحرّية، ودفع الاشتراكية إلى الأمام.

إنّ الحقيقة هي كما اعترف بها السوفييت أنفسهم. بينما نجد بريجنيف، في مؤتمر الحزب السابع والعشرين، يحرّف الحقيقة، ويخفيها عن مواطني بلده، وعن شعوب العالم، بهذا الشكل: «بصورة عامّة نستطيع أن نقيّم مرحلة السبعينيات

---

٦٨ ادينة- ذمارة ٩ / ١٩٨٧.

بأنّها كانت خطوة كبرى نحو تقدّم البلاد.»[٦٩]

كما أوقع بريجنيف الاتحاد السوفييتي في هذه الضائقة، أوقع أصدقاء الاتحاد السوفييتي أيضًا في أكبر نكسة سياسية- إيديولوجية. ففي بلد كالاتحاد السوفييتي، لا يمكن إخفاء المشاكل والأزمات المتراكمة لعشرات السنين، بضغط السلطة والدعاية الإعلامية، إلى ما لا نهاية، فحتى إن أخفيت من الناحية الديبلوماسية أو الإعلامية، فليس بالإمكان إخفاؤها من الناحية الاجتماعية، لأنّ تراكم المشاكل والأزمات في نفوس الجماهير وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية سيصل إلى درجة الغليان، ثم الانتفاضة. لذلك أصبحت إعادة تنظيم القضايا الاقتصادية والاجتماعية للاتحاد السوفييتي، من أجل إعادة روح النشاط إلى نفوس الناس هدفًا مركزيًا لسياسة يوري أندروبوف خلال الفترة الممتدّة ما بين ١٩٨٢ و١٩٨٤.

حاول أندروبوف، وبهدوء، إدخال الإصلاحات إلى الدولة والحزب والمجتمع في غضون السنتين اللتين بقي خلالهما في سدّة الحكم. وبدون أن يسمّي هذه الإصلاحات «ثورة» أو «بيروسترويكا» أو «غلاسنوست»، بدأ بتطهير ظاهرة البيروقراطية، وبمنع شرب الخمرة والإدمان الذي كان يضعف قوّة العمل والعمّال. وسعى إلى الإكثار من وسائل العمل وتشجيع الإنتاج، فأزيح عدد كبير من أصحاب السلطة الكبار من مناصبهم، ولوحظ نوع من الإصلاح والتغيير. ووصلت نسبة الزيادة في الناتج القومي إلى أكثر من ٣,٥٪، لكنّ المرض قضى على أندروبوف، ولم يمهله الموت لينجز برامجه. وجاء بعده فيكتور شيرنينكو الذي تولّى زعامة البلاد، وهو على فراش المرض، لعدّة أشهر ما بين ١٩٨٤ و١٩٨٥، وفي الأشهر القليلة هذه، لم يواصل سياسة أندروبوف في الإصلاحات وتطوير البلاد، بل سعى إلى تخريب تلك الإصلاحات، وإعادة الأوضاع إلى زمن بيروقراطية بريجنيف، لكنّه مات قبل إتمام ما نوى عليه.

تولى ميخائيل غورباتشوف الذي يبلغ من العمر ٥٩ عامًا مقاليد الحكم في الدولة والحزب، بعد مداولات قصيرة. وكان انضمّ إلى صفوف الحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٥٢، ونجح في كل الأعمال التي أوكلت إليه، وأصبح عام

---

٦٩ المنار - العدد -٤١ - أيار/١٩٨٨.

١٩٧٠ واحدًا من قادة الاتحاد السوفييتي. واختير عضوًا في المجلس الأعلى للدولة، وعضوًا في قيادة الحزب. عيّن وزيرًا للزراعة عام ١٩٧٨، وبعد عام، رفّعت درجته الحزبية إلى عضو في المكتب السياسي (بوليت بيرو).

باختصار، لم يكن غورباتشوف مسؤولًا، بأيّ شكل، عن الجرائم التي ارتكبها ستالين، كما أنّه لم يكن، في زمن خروتشوف اليميني، كادرًا فعّالًا إلى درجة يتمكّن فيها من تغيير التيّار. فهو على الأكثر نتاج لزمن بريجنيف، وفي ظلّ سياساته أيضًا كوّن صلات بأصحاب المسؤوليات الكبرى في روسيا. لذلك هو على دراية تامّة بتلك السياسات التي كان بريجنيف يتّبعها، وكان يعرف أوضاع بلاده وحاجتها إلى تغيير وتحوّلات جذرية.

قبل أن ندخل في صلب موضوع «البيروسترويكا والثورة»، وتوضيح الجوانب الإيجابية والسلبية بين هذين المنهجين الإيديولوجيين، من الأفضل أن نذكر مختصرًا عن الـ «بيروسترويكا» كتعريف ومقدّمة، قبل الإجابة عن السؤال: هل البيروسترويكا مفيدة للثورة والديمقراطية أم مضرّة؟ ولكي نستطيع التحدّث عن هذا بكل موضوعية، فإنّ حديثًا مختصرًا عن الاقتصاد والاجتماع والسياسة السوفييتية، في بداية الفترة التي تولّى فيها غورباتشوف الحكم، ضروري جدًا لرسم الصورة التي نراها داخل إطار تلك المواضيع. فالنظام السياسي في دول العالم، يؤسّس حسب القاعدة الاقتصادية لكل بلد، ويرتكز الاقتصاد على دعامتين مهمتين هما الزراعة والصناعة، وكلتا الدعامتين، لهما علاقة بالأرض والموارد والمناخ والمياه والمساحة وعدد السكّان. ومن الواضح أنّ الاتحاد السوفييتي، سواء من حيث الأرض والمياه والمناخ، أم من حيث عدد السكّان، هو إحدى القوى العظمى في العالم، ولا يعاني من المشاكل من هذه النواحي.

عندما تولّى غورباتشوف زعامة الاتحاد السوفييتي، ورث الوضع الاقتصادي والاجتماعي السيّئين اللذين تركتهما الزعامة السابقة له، فهو، وإن كان واحدًا من العديد من أعضاء اللجنة المركزية، ثم المكتب السياسي للحزب، فبلا شكّ، لم يكن باستطاعته أبدًا التعبير عن موقفه، داخل بحيرة البيروقراطية التي كان يغرق فيها حزبه. وكان هذا الأمر، داخل نظام، كالاتحاد السوفييتي والأنظمة المتحالفة معه في أوروبا الشرقية، حقيقة مرّة صارخة، لم يستطع أحد تجاوزها. بل عندما أرادت تشيكوسلوفاكيا إجراء بعض التغييرات والتطويرات في نظامها السياسي

والاقتصادي عام ١٩٦٧، تدخّل الاتحاد السوفييتي عسكريًا وقمع تلك المحاولات التحرّرية. ومن الواضح أنّ شخصًا مثل غورباتشوف، وقبله أندروبوف، كان يعرف حقيقة سياسة الاتحاد السوفييتي جيّدًا، لاسيّما أندروبوف الذي كان سفيرًا للاتحاد السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا أثناء انفجار أزمة براغ.

حينما وصل غورباتشوف إلى الحكم، وأمسك زمام الأمور بيديه كزعيم الاتحاد السوفييتي الأول، بدأ بتنفيذ خططه التي من الممكن أنّه فكّر فيها منذ أمد طويل، لكنّه لم يكن يستطيع التعبير عنها قبلًا. وكان الوضع الاقتصادي للاتحاد السوفييتي كما يلي:

نسبة زيادة النمو الاقتصادي السنوي في الأعوام ١٩٦٦–١٩٨٥. [٧٠]

	١٩٦٦–١٩٧٠	١٩٧٠–١٩٧٥	١٩٧٦–١٩٨٠	١٩٨٠–١٩٨٥
الناتج القومي	٪٧,١	٪٥,١	٪٣,٨	٪٣,١
الإنتاج الصناعي	٪٨,٥	٪٧,٤	٪٤,٥	٪٣,٧
الإنتاج الزراعي	٪٣,٩	٪٢,٤	٪١,٧	٪١ ,١

كان الاتحاد السوفييتي لا يحتاج إلى شراء الحبوب بدرجة كبيرة فيما مضى، بينما في عام ١٩٨٥، استورد خمسة وخمسين مليون طن من الحبوب. وقد أثّر هذا في الوضع المعيشي للناس، وفي الدخل السنوي، وثرواتهم المادية، ومستويات الحياة الاجتماعية، والمنافسة الحرّة لتطوير البلاد، لاسيّما أنّ الاتحاد السوفييتي، بحكم منزلته الاقتصادية ومنزلته السياسية السابقة ذي ميزانية عسكرية عالية جدًا، بالرغم من وضعه الاقتصادي ذاك.

٧٠ يان دربيشاير- تحولات سياسي در اتحاد شوروي (أز برذنيف تا طورباضف) ترجمة: هرمز همايون ثور، ضاث أول ١٣٦٧، تهران، ص١٣٦.

كانت محصّلة هذه المشاكل والأزمات البيروقراطية، والبطالة، والخمول والكسل، وقلّة الإنتاج، والبضائع غير المفيدة، وشرب الخمر والإدمان عليها، بالإضافة إلى أن استياء الناس من عدم توفّر الديمقراطية والحرّية بلغ حدّ الانفجار. وقد أثّر كل هذا في الطبقات، والشعوب، والزراعة والصناعة، والحضارة والثقافة. وكان غورباتشوف على يقين من أنّه لا يمكن منع انفجار هذه المشاكل إلى الأبد، بل توقّع انفجارًا لا نظير له. وقد اعترف بهذه الحقيقة، كما يأتي:

إنّ تأخير البيروسترويكا يؤدّي في المستقبل القريب إلى إصابة الوضع الداخلي بمشاكل وأزمات غير متوقّعة، ولكي لا أقع في حشو الكلام والإطناب في الحديث، فإنّ تأخيره يتسبّب في أزمة حقيقية، من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.[71] اتخذ غورباتشوف، وبأقصى درجات الوضوح، وبشكل لا نظير له في التاريخ، مبدأين أساسيين سبيلًا لتحقيق أهدافه:

- ال»بيروسترويكا».[72]
- ال»غلاسنوست».[73]

المبدأ الأول هو إعادة بناء الاتحاد السوفييتي من جديد، والثاني للكشف عن كل مستور والانفتاح داخليًا وخارجيًا.

إنّ المعيار الصحيح لقياس الظواهر والأزمات، لا يكمن في رغبة هذا ولا ذكاء ذاك، أو شهرة أيّ شخص أو طرف، بل يكمن في مدى الخدمات والمكتسبات المقدّمة للعمّال، ومدى انتصار الاشتراكية على الرأسماليين المستغلّين. فكل ظاهرة أو حدث أو مشروع، لا يكون سببًا في تقدّم ثورة العمّال وتهيئة ظروف نجاح الاشتراكية في العالم، حتى، وإن كانت له بصورة موقتة فائدة سياسية، ومغانم اجتماعية، وسعادة إنسانية، يجب ألا يعطى قيمة أكثر ممّا يستحقّ. فإذا لم يعامل هكذا، فإنّ هذا يعني وضع الاستراتيجية في خدمة التكتيك، في الوقت الذي ينبغي أن يكون العكس.

---

٧١ ميخائيل طورباضف، ثروسترويكا دومين انقلاب روسية، ترجمة: عبدالرحمن صدرية، ضاث سوم، ١٣٦٦.

٧٢ بيروسترويكا، تعني: إعادة البناء -المترجم -.

٧٣ غلاسنوست، تعني: العلنية او الانفتاح في التعبير- المترجم-.

يجب بحث الـ «بيروسترويكا» داخل دائرة هذه الحقيقة، مع أنّه، بعد ثورة أكتوبر، لم تهزّ العالم أيّ ظاهرة سياسية أخرى بقدر ما هزّته البيروسترويكا، ويمكن أن يرجع سبب ذلك إلى أنّ مشاكل التجربة الاشتراكية لم تجرِ حولها المناقشات، في السابق، بحجم ما جرى حولها فيما بعد.

يمكن القول إنّ أهمّ مكسب للبيروسترويكا فتح الباب أمام الديمقراطية، والديمقراطية، بصورة عامّة، أفضل بكثير من الحياة البيروقراطية والرقابة السياسية وخرق الحرّية، وسبق أن جرى الحديث بإيجاز عن البيروقراطية في زمن بريجنيف، وعن أضرارها المختلفة.[٧٤]

إحدى المشاكل الكبيرة التي اعترضت مسيرة الثورة في الاتحاد السوفييتي والصين والدول الحليفة لهما، ترجع إلى عدم تطبيق السياسة الديمقراطية، وعدم تحقيق جميع مهمّات مرحلة الديمقراطية. واعتمد في هذا على فرضية: «ما دامت السلطة السياسية بأيدينا، إذن، فمن الممكن تحقيق الاشتراكية أيضًا.» إلا أنّ هذه الفرضية لوحدها انحراف خطير عن النهج الديمقراطي، وغضّ النظر عن حاجات الناس الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية والديمقراطية الضرورية، وقد اتضحت نتائجها فيما بعد، حيث أصبح معروفًا إلى أيّ مدى نجح فرض هذا النهج الاشتراكي الخطير!!

فلو نظر كل واحد منّا إلى البيروسترويكا ضمن إطار الديمقراطية العامّة، ووضع نفسه مكان شعوب الاتحاد السوفييتي، لرأى حياته في ظلّ نظام بيروقراطي مُصادِر للحريّات في مرحلة حكم بريجنيف، والزعماء الذين سبقوه، ودخل إلى أعماق شعور أولئك الناس، ووضع أمام عينيه الفقر والعوز الذي كانوا يعيشون فيه، في إحدى أغنى الدول الغنية على وجه المعمورة. عندها يستطيع أن يعرف أنّ ظاهرة كالبيروسترويكا لها فائدة لمئات الملايين من الناس، حيث غيّرت الوضع

٧٤ إلى ما قبل كتابة الجزء الاول من الكتاب كنت أؤمن بالديمقراطية الثورية لا الديمقراطية للتطور اللارأسمالي، أما الآن فأعتقد أن الديمقراطية واحدة، وعلى العمال والكادحين أن يناضلوا من أجل تحقيق جميع مهمات الديمقراطية، لأن برجوازية البلدان المضطهدة، لا تستطيع تحقيق تلك المهمات لوحدها. فتحقيق مهام الديمقراطية بات من مهام الشعوب الشرقية، كما هو الحال عند الشعوب الغربية.

المعيشي والحالة السياسية لهم، في أقل تقدير.

أيّد ماركس وانجلز ولينين سياسة العلاقات الرأسمالية الديمقراطية وانتقال الحضارة الرأسمالية إلى البلدان المتخلّفة حتى يتحرّر الناس من حياة القرون الوسطى، وكانوا يعتبرون العلاقات الرأسمالية، من أجل القضاء على الإقطاع، مشروعًا ثوريًا. فلنفرض أنّ البيروسترويكا، وفي زمن مغاير، حيث الصناعة سائدة، ولكن البيروقراطية ونوعية النظام الشمولي هما عائقان أمام التطوّر، أنجزت نفس التغيير السياسي المضاد للبيروقراطية والاستبداد، لصالح عمّال وشعوب الاتحاد السوفييتي، كذلك البلدان الشبيهة بالاتحاد السوفييتي، إذن من الضروري أن تكون البيروسترويكا والغلاسنوست لديهم أفضل من البيروقراطية والاستبداد.

لقد أصبحت البيروسترويكا سببًا في كشف أنواع مختلفة من الحقائق الكبرى حول:

- عدم حل مشكلة ١٢٦ شعبًا وأقليّة قوميّة حلًا ديمقراطيًا.
- الإعلان عن عدم توفّر الديمقراطية والحرّية.
- انخفاض مستوى التكنولوجيا.
- هبوط مستوى المستلزمات الصحّية الضرورية.
- الأزمات الاقتصادية في الاتحاد السوفييتي وفي الدول السائرة في ركابه.
- فرض المركزية الاقتصادية ومحاربة حرّية العمل والسوق.
- عدم الاهتمام اللازم بالأدب والفن والإبداعات المتنوّعة.
- السعي من أجل حل مشكلة الصين والاتحاد السوفييتي، والانسحاب من أفغانستان، والاعتراف بخطأ محاولة إنهاء الحرب، وإنهاء الثورة الكمبودية والفيتنامية ...إلخ.

إنّ مجرّد ظهور هذه الحقائق التي أصبحت الآن مبعثًا للأفكار والآراء المتعمّقة والمختلفة، لهو خدمة قلّ نظيرها، وإنّ ظهور أيّ محصلة نهائية لهذه الحقائق، وإجراء أيّ مناقشات ومجادلات حولها، في المستقبل، سيؤدّي حتمًا إلى بلورة الحقائق مجتمعة، ووضعها أمام أنظار الناس في العالم، وسوف يستفيد أولئك الناس حتمًا، كل حسب منظوره الاجتماعي المختلف، من تلك الحقائق المتبلورة، وستستعملها كل طبقة، من أجل الأهداف الطبقية الخاصّة بها.

٦/١- البيروسترويكا والثورية

البيروسترويكا التي غدت ظاهرة عالمية، تشمل حتمًا الثورة فيما تشمله من الظواهر والأحداث، وبحكم كون الاتحاد السوفييتي إحدى القوّتين العظميين في العالم، ولكون البيروسترويكا أهمّ استراتيجية له في تلك الفترة، يجب على أحرار العالم التمسّك بالحلقة التي تربط ما بين النضال التحرّري والديمقراطي، وسياسة الاتحاد السوفييتي، ويقيّموا الأحداث في ضوء البيروسترويكا، والتغيّرات الحاصلة في أوروبا الشرقية، وتأثيراتها على الأبعاد السياسية في العالم، وخاصّة في الشرق الاوسط، لا اللجوء إلى التخمين.

أوضحنا فيما سبق، أنّه بعد الحرب العالمية الثانية، حين حقّق ستالين أهدافه في أوروبا الشرقية، ورفع شعار الصداقة الدائمة مع الرأسماليين العالميين، وبعده خروتشوف الذي استمرّ بشكل مكثّف في السير على نهج التعايش السلمي الدائم، والتطوّر اللارأسمالي، ولم تتغيّر هذه الحالة في زمن بريجنيف ورفاقه ومن جاء بعدهم، استفادت الإمبريالية استفادة كبيرة من هذه التوجّهات، كما انتعشت وتقوّت بها الأنظمة البرجوازية والرجعية. أمّا العمّال والشعوب، لاسيّما شعوب الدول المستعمرة الخاضعة التي أريد الأخذ بيدها إلى الاشتراكية عن طريق «الديمقراطية الثورية»، فقد لحقت بها خسارة تاريخية.

ترى، هل تمّت معالجة تلك الخسائر، أو لنقل، تلك الأخطاء النظرية ذات الأضرار الجسيمة، في زمن البيروسترويكا؟ لنجب على السؤال: كما أنه لا يوجد في الفلسفة المادية الدياليكتيكية أيّ نوع من الوفاق الفلسفي بين الميتافيزيقية والدياليكتيكية، كذلك بين المثالية والمادية، ولن يكون أبدًا بالإمكان إيجاد أيّ نوع من الوفاق الدائم بين العمّال والرأسماليين، وبين الإمبريالية والشعوب المضطهدة. وإذا وُجِدَ وفاقٌ دائم كهذا، الآن أو في المستقبل، وأثبت علميًا، عندها، وبدون أدنى شك، يجب على كل واعٍ ومؤمن بالفلسفة العلمية إعادة النظر في هذه الفلسفة، والبحث عن نظام فلسفي علمي جديد للحياة. فقاعدة

الفلسفة العلمية بنيت على أساس العداء الثوري لمثل هذا النوع من الوفاق الدائم، وإنّ الأقطاب المتناقضة لا تتحمّل الجمع الأزلي من حيث المبدأ. إنّ المقصود هنا هو علاقة الاشتراكية بالرأسمالية من جانب، وعلاقتهما بالثورة التحرّرية للشعوب، من جانب آخر.

هذه الآراء لم تنشأ وتتبلور استنادًا إلى حادثة حصلت بالصدفة أو ظاهرة وقتية، لكي يقال إنّ انقضاء الحدث وزوال الظاهرة يبطلان الرأي. إنّ رأيًا كهذا حول التناقض الأساسي بين العمل ورأس المال، و بين العامل والرأسمالي، أصبح قاعدة للنضال الاجتماعي والعدالة الاجتماعية ضدّ الرأسمالية، وحيثما توجد هذه التناقضات، فإنّ هذه الآراء ستبقى أيضًا. وإذا تمّ تطويرها وفق الظروف المتغيّرة، فلا يجوز أن يخرج التطوير عن حدود منطق الآراء، أو تبدّل مضامين الآراء الثورية بمظهر إصلاحي هامشي.

من الواضح، أنّ النظام الرأسمالي الآن أكثر تسلّطًا من الماضي، وأنّ الولايات المتحدة الأميركية هي التي تقود الدول الرأسمالية في العالم. أي، كلّما كان التناقض الأساسي موجودًا بين العمل ورأس المال، فإنّ الأعداء الرئيسيين للعمّال والشعوب المضطهدة هم الرأسماليون بقيادة أميركا. وهم يجنّدون كل طاقاتهم وإمكاناتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والدعائية ضدّ الاشتراكية والانتصار الدائم للفلسفة الطبقية الرأسمالية، وهم مستمرّون على نهجهم هذا، ووفق هذا المعيار. وإن كان الهدف من البيروسترويكا هو المحافظة على الاشتراكية، وانتصارها في كل أرجاء العالم، فقد كان عليها أن تفكّر في تطوير النضال الديمقراطي والعدالة الاجتماعية للشعوب والمجتمعات، ضدّ أميركا والدول الشبيهة بالنظام الرأسمالي في أميركا، ولكي نبيّن هذا بشكل واضح، فمن الضروري أن ننظر إلى موقف البيروسترويكا من نضال العمّال والشعوب، من وجهة نظر الاستراتيجية البيروسترويكية.

كل ما ورد في كتاب البيروسترويكا يدور حول هذه الحقيقة التي تقول إنّ القضية المركزية للعالم، ليست هي النضال الطبقي للعمّال والنضال التحرّري للشعوب، بل إنّ القضية المركزية لهذا العصر في العالم هي نزع الأسلحة، وتدمير المخزونات النووية، ووضع كل القضايا الأخرى في خدمة هذه القضية، بما فيها الاشتراكية، والثورات التحرّرية للشعوب! ولهذا جرت مباحثات حول مصالح

أميركا والاتحاد السوفييتي وأوروبا الغربية ومناطق أخرى كأميركا اللاتينية، وأميركا الوسطى، والشرق الأوسط، بكل تفصيل. وقد طمأن غورباتشوف الدول الرأسمالية الكبرى، حتى إسرائيل بكل وضوح، على مصالحها في هذه المناطق، وأكّد لها أنّ الاتحاد السوفييتي لا يشكّل أدنى خطر عليها، وعليها ألا تشكّك في هذا أبدًا. وبذلك، تمّ خرق الواجبات الأممية كنضال ثوري مشترك للعمّال. ولئن هذه الحقيقة مرتبطة بالبيروسترويكا والثورة، في زمن غورباتشوف نفسه، نشير إلى ما قاله بهذا الصدد عن مصالح أميركا وأوروبا في الشرق الأدنى وآسيا وأميركا اللاتينية وكل مناطق العالم الثالث، من ضمنها أفريقيا الجنوبية:

لقد أوضحنا، في تلك الفرص الكثيرة التي سنحت لنا، أنّنا لا نسير وراء أيّ هدف على أساس قاعدة إلحاق الضرر بالدول الغربية. فنحن نعرف مدى أهميّة الشرق الأدنى، آسيا، وأميركا اللاتينية، ومناطق العالم الثالث كافّة، ومن ضمنها أفريقيا الجنوبية، لاقتصاد أميركا وأوروبا، ولاسيّما تلك المناطق التي لها علاقة بالمواد الأوليّة. لذلك فإنّ خلق المشاكل لعرقلة هذه العلاقة، هو آخر شيء يخطر في أذهاننا، إذ ليس لدينا مثل هذه النظرة التي تؤزّم العلاقات الاقتصادية التي تمّ اتخاذ موقف تاريخي تجاه مسارها.[٧٥]

لقد أرادت أميركا وأوروبا، طيلة عهود التاريخ، هذه الضمانة الاقتصادية، لا غيرها، وقد تمكّنتا من فرض هذه السياسة، سواء بالحرب أم بالسياسة.

٧٥ المصدر السابق ص٣٤٥.

٦/ ٣- الشكل والمضمون

في «الظاهر» يتّبع غورباتشوف سياسة التعايش السلمي في العالم، وفي «الباطن» يطبّق خططًا لتسليح الدول القويّة المدمّرة للعالم. إنّ سياسة متناقضة كهذه خطيرة جدًا، لأنّ هذا الشكل والمضمون المضاد أحدهما للآخر في السياسة السوفييتية السابقة، أثّر في القضايا الداخلية والخارجية للاتحاد السوفييتي. كما كانت لها صلة وثيقة بالكفاح المسلّح وحالة التكنولوجيا الحربية. لذا نرى من المفيد التحدّث عن بعض الحقائق حول القدرة النووية، والأسلحة المتنوّعة الأخرى، ومستوى بيع السلاح، وتجارة السلاح، لكي نقترب أكثر فأكثر من هذه السياسة العسكرية الكارثية، أثناء الحرب الباردة، ونقول ابتداءً:

إنّ تكنولوجيا الحرب ودرجة الاستعداد للاستمرار في الحرب، ليست مرتبطة فقط بإمكانيات الصناعة الحربية، ورفع الديناميكية السوقية الحربية للدول، لاسيّما بالنسبة إلى الدول العظمى، بل ترتبط هذه أيضًا بالأوضاع الاجتماعية والسياسية الدولية، ومنها نوعية النضال التحرّري الديمقراطي في العالم. إنّ استراتيجية الحرب لم تكن دائمًا مرتبطة تاريخيًا فقط بالحرب، وإنّما، بشكل أو بآخر، تؤثّر في نفسية الشعوب أيضًا. فمثلًا، نشر الصواريخ ذات الرؤوس النووية حول أوروبا كلّها،[٧٦] ليس الهدف منه فقط الحرب ودفع مخاطر الحرب، وإنّما تريد أميركا والاتحاد السوفييتي، عن طريق نشر صواريخهما ذات الرؤوس النووية، في خضمّ اشتداد الحرب الباردة والحرب النفسية، خلق ظروف نفسية-اجتماعية، بشكل تستطيعان به إحراز النصر في الحرب الإعلامية والسياسية القائمة بينهما.

وبينما كان يجري الحديث في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي المنعقد عام ١٩٥٦ عن التعايش السلمي والقضاء على سباق التسلّح

٧٦ كانت هذه الصواريخ من نوع SS20 التي تحمل رأسًا نوويًا بقدرة تدميرية تقدر بـ(١٥٠) كيلو طن نووي وتصل إلى بعد (٢٧٠٠) ميل، يمتلك السوفييت (٣٠٠) صاروخ منها، وحسب رأي المختصين، تستطيع (١٥٠) صاروخًا منها تدمير النظام الدفاعي لحلف شمال الاطلسي.

وإزالة السلاح النووي، نرى، حتى العام ١٩٨٢، أنّ وتيرة صنع الأسلحة النووية كانت تزداد باستمرار إلى أن وصلت إلى ما هو مبيّن في الجدول المعلن من قبل معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن، حيث يظهر بجلاء مجموع الأسلحة النووية ونوعيّتها لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وحلف الأطلسي وحلف وارسو:

الصواريخ	الولايات المتحدة الأميركية	الاتحاد السوفيتي
الصواريخ العابرة للقارات	١٠٥٢	١٣٩٨
الصواريخ العابرة للقارات ذات الرؤوس النووية	٢١٥٢	٥٢٢
الصواريخ الاستراتيجية الباليستية	٥٢	٩٦٩
الصواريخ التي تطلق من البحر الى البر	من (٢٦) غواصة نووية ٤٧٦٨	من (٨٠) غواصة نووية ١٧٥٢
الصواريخ الاستراتيجية المتوسطة المدى	×	٧٤
صواريخ أرض أرض	٨٠٪ من هذه الصواريخ موجودة في غرب الاورال	
الطائرات الاستراتيجية القاذفة للقنابل	٢٧٦، منها (٢١٦) طائرة ذات المدى البعيد	١٥٠، منها (١٠٥)ذات المدى البعيد

كان من المقرّر أن تتسلّح كل من ألمانيا الغربية وإنكلترا وإيطاليا وبلجيكا

وهولندا بصواريخ (برشينك ٢) وصواريخ أرض أرض (G.L.C.M)، وتزامنًا مع ذلك، حمّلت هذه السفن الحربية التي تجوب البحار بالأسلحة النووية:

السفن	الحلف الأطلسي	حلف وارسو
الغوّاصات النووية	٩٠	٩٩
السفن الحربية بالأطنان	٢٠٨٥*2	٢٠٦٨٥*1
السفن الحاملة للطائرات	١٨	٤
السفن ذات حمولة (٢٠٠٠) طن	٢٤٨	١٣٩
سفن إنزال الجنود	٧٥٩*4	١٤١*3
القوّة الجوية-البحرية	٢٦٠٠	٧٥٠

1*بملايين الأطنان.

2*بملايين الأطنان.

3*بملايين الأطنان.

4*بملايين الأطنان.

بالإضافة إلى كل ذلك، فإنّ القوّة العسكرية للمعسكر الشرقي والغربي المتمركزة في أوروبا عام (١٩٨٢) كانت بهذا الشكل:
الحلف الأطلسي، قوّات أميركا المتمركزة في أوروبا:

- أفراد: ٢٢٪ من الامريكان، منهم ٧٠٪ متمركزون في ألمانيا.
- دبابات: ما يقارب ١٠٠٠ دبابة.
- طائرات حربية: أكثر من ٨٠٠ طائرة.
- الأسطول السادس— البحر الأبيض المتوسط.

قوّات دول أوروبا:

- أفراد: (٢ , ٢) مليون شخص.
- دبابات: ١٦٠٠٠ دبابة.
- طائرات حربية: ما يقارب ٣٧٠٠ طائرة.

- سفن حربية كبيرة: ٢٦٠ سفينة.
- غوّاصات: ١٤٣ غواصة.

حلف وارسو، وقوّات روسيا السوفييتية المتمركزة في أوروبا.[٧٧]

- أفراد: ٥١٪ من السوفييت، منهم ٣٨٪ متمركزون في ألمانيا الشرقية.
- دبابات: ١٠٠٠٠ دبابة، منها ٧٠٠٠ دبابة متمركزة في تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية.
- الطائرات الحربية: ما يقارب ٢٠٠٠ طائرة، منها ٩٠٠ طائرة في ألمانيا الشرقية.
- أسطول البحر الأسود والبحر الأبيض.
- أسطول بحر البلطيق.

دول أوروبا الشرقية:

- أفراد: ٨٥٪ من السوفييت.
- دبابات: ما يقارب ١٤٥٠٠ دبابة.
- طائرات حربية: ما يقارب ٢٢٥٠ طائرة.
- السفن: ما يقارب ١٠ سفن حربية كبيرة.
- غوّاصات: ٦ غوّاصات.[٧٨]

هذه الإحصاءات ما هي إلا أدلّة صارخة على عدم تحقيق شعار التعايش السلمي الدائم وزوال خطر الأسلحة النووية والحرب. ويرجع السبب الرئيسي لعدم تحقيق هذا الشعار إلى الطبيعة الجديدة للاحتلال الإمبريالي التي لا يمكن أن يتحمّل الاحتكاريون في ظلّها، بدون تجارة السلاح وأسواق بيع السلاح، ومن ثم إلى سياسة الاتحاد السوفييتي في كيفيّة التعامل مع هذه الطبيعة الإمبريالية التي هي السبب في بقاء الإمبريالية قويّة، وفي عدم انفجار الأزمات والمشاكل المختلفة التي تعاني منها.

٧٧ القوات المتمركزة قرب أوروبا: بدون قوات روسيا السوفييتية المتمركزة في القسم الأوروبي منها، هي: ٦٩ فرقة ٣٦ فرقة منها مدرعة.

٧٨ ذار شاليان و ذان ثيرراذو، اطلس استراتيذيك جهان، ترجمة: د. ابراهيمجعفرى، انتشارات اطلاعات، تهران ١٣٦٦ ص٢٠٤-٢١٢.

كان غورباتشوف يعرف جميع هذه الحقائق، كما كان يدرك مدى ضررها في «الظاهر» وخطرها على السلام في «الباطن»، ومغزى الأضرار لسعي الاتحاد السوفييتي لتسليح نفسه ولحلفائه حتى النخاع. لذلك قرّر، وبصورة قاطعة، رفع الستار عن الحقائق عن طريق البيروسترويكا والغلاسنوست، والكشف عن الأزمات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية المخفيّة.

إنّ المفكّرين والمثقّفين الواعين في العالم، هم الآن أمام فرصة تاريخية كهذه، ليس فقط لكشف الحقائق، بل للحصول على أجوبة للأسئلة التي أطلقتها المسيرة الحضارية المشوّهة للإنسانية، في القرن العشرين، والتي ما زالت بلا جواب. تلك الأسئلة التي أجيب عنها بمختلف أنواع الكذب والدجل، وحرّفت الحقائق أو أخفيت عن الناس، لاسيّما وأنّ القرن العشرين، ومنذ عشرات السنين الماضية، ظلّ مصابًا بمخاض كذبتين: كذبة ادعاء الديمقراطية الرأسمالية، وكذبة الاشتراكية السوفييتية خاصّة في البلدان الشرقية والدول النامية، وكلتا الكذبتين ثرثرة واستهزاء بالإنسانية والإنسان الذي اضطهدوه، وأكلوه، وأخذوه، وعذّبوه، وسرقوه، وقتلوه، وعرّضوه للقتل. وكل ذلك تحت ستار الحرّية الكاذبة، والاشتراكية الزائفة. ولقد انكشفت كل هذه الجرائم في غضون السنوات القليلة هذه، بفضل البيروسترويكا والغلاسنوست، وكان في كشف هذه الجرائم خدمة كبيرة للإنسانية والإنسان.

لو دقّق النظر في هذه الأرقام، لعرف كيف أصبح العالم رهينة لهاتين الكذبتين اللتين أخفيتا تحت ستار «الحرّية والاشتراكية». ففي عام ١٩٨٦، صرف أكثر من ألف مليار دولار على الميزانية العسكرية، وهذه، بلا شكّ، ميزانية خيالية. وعندما تحلّل هذه الميزانية، يظهر أنّ في كل دقيقة واحدة صرف ما يقارب المليونيْ دولار على مدى أيام السنة. هذا في الوقت الذي كان يموت، في نفس السنة، وفي كل دقيقة ثلاثون طفلًا، بسبب الجوع، وعدم وجود الماء الصالح للشرب، وعدم الاهتمام بالصحّة العامّة. لقد وصل مجموع من مات من الأطفال في سنة واحدة إلى خمسة عشر مليون طفل، وفي اليوم الواحد إلى واحد وأربعين ألف طفل، وفي الدقيقة الواحدة إلى ثمانية وعشرين طفلًا.[٧٩]

جدير بالذكر، أنّه لو استطاع غورباتشوف، إلى جانب القضاء على

٧٩ ويلي برانت، جهان مسلح، جهان طرسنة - ص١١١.

البيروقراطية عن طريق البيروسترويكا، تخفيف ثقل هذا الجوع أيضًا عن طريق الغلاسنوست، لكان سجّل مكسبًا آخر لطرحه المبتكر قياسًا إلى الاشتراكية البالية في أوروبا الشرقية. كما أنّ النظر إلى حياة الجياع في العالم، من الناحية الإنسانية، ضروري لكل الثوريين، فلا يجوز وضع مبدأ جامد ومتحجّر فوق إرادة الجائعين الفقراء، وبمعزل عن ظروفهم. فالتوفيق بين إصلاح وضع أولئك الناس وبين النهج الثوري هو مهمّة إنسانية كبيرة، وواجب إنساني. ولهذا، فإنّ دعم الإصلاح هو عمل إنساني ضروري، وهو يخدم الجانب الاستراتيجي الديمقراطي والعدالة الاجتماعية في نهاية الأمر أيضًا.

من المؤكّد أنّ نجاح غورباتشوف، في هذه الناحية، كان مرتبطًا بمدى نزع الأسلحة الثقيلة، وتدمير مخزونات الأسلحة النووية. وإنّ انشغال أميركا وإصرارها على صنع واستخدام الليزر في حرب النجوم، في الوقت الذي جنّد فيه غورباتشوف كل ثقله وثقل الاتحاد السوفييتي من أجل القضاء على سباق التسلّح، كان دليلًا على عدم نجاح سياسة خلق عالم خالٍ من السلاح. لذلك، فإنّ هذا الإصلاح ضروري، في الأقل، من أجل تحسين معيشة الفقراء الجائعين. أمّا إذا بقي الإصلاح في الدائرة الضيّقة للإصلاحيين، فإنّه لا يقلّل شيئًا من آلام مئات الملايين من الجائعين في العالم، لأنّ الإمبريالية هي هي، وإنّ الحلّ الجذري للمشاكل والمعضلات، والأداة الوحيدة لهذا الحلّ هي التغيّرات الجذرية لتوزيع الثروات وتحقيق الديمقراطية والإصلاحات في هذه المرحلة.

عندما تستجيب الإمبريالية لنداءات غورباتشوف نتيجة لضغط الأحداث الجديدة، من الواضح أنّها لا تقصد حلّ أزمات التجربة الاشتراكية، بل لتعميق أزمة النهج الاشتراكي أيضًا، وجعل النضال الطبقي للعمّال والكادحين بلا أهميّة. فكلّما ترسّخ إفلاس الاشتراكية، وتهميش النضال الطبقي، في ذاكرة الناس، كلّما طال أمد الاستغلال الطبقي، ونهب الفقراء وسلبهم. وبالعكس، فكلّما انتشرت أفكار العدالة الاجتماعية والنضال من أجل تحقيقها، وفق منطق العصر، وعلى ضوء المستجدّات الاقتصادية والسياسية والثقافية، بالمقابل، سارع البرجوازيون إلى زيادة الإصلاحات، وإلى رفع المستوى المعيشي للناس خوفًا من الثورة.

لربّما استفاد كلا الطرفين، من الناحية الاقتصادية، من هذه الظروف السياسية-الاقتصادية التي وفّرها التعايش السلمي الدائم بينهما، بشكل متساوٍ أو بصورة

غير متجانسة، لكنّ الفلسفة الرأسمالية تستفيد منها من الناحية الإيديولوجية، بلا شكّ، ولذلك تعمد إلى عقد العلاقات من الناحية الاقتصادية. إنّ عقد العلاقات الاقتصادية القويّة بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه من جهة وبين الغرب من جهة أخرى، تطفئ جذوة نضال العمّال، وتخمد انتفاضات الشعوب، وإنّ فشل أو تأخير انتصار العمّال والشعوب، في بلد أو بلدين أو عدّة بلدان، مهم جدًا للإمبريالية، من الناحية الاستراتيجية.

إنّ عالم اليوم ليس، كما كان، عالم انتصار الاشتراكية وهزيمة الإمبريالية، وليس عالم السباق بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الإمبريالي. فالاشتراكية في تقهقر والمعسكر الذي أُريدَ تثبيته، في غضون أكثر من خمسين سنة، باسم الاشتراكية، لم يبقَ له وجودا كما أنّ عالم النضال الطبقي للعمّال أصبح ضعيفًا وواهنًا، ووصلت نهاية الثورة الطويلة الأمد إلى الركون في زوايا وأطراف العالم ضعيفة ومثخنة بالجروح، وأصبحت الإمبريالية والمصالح الرأسمالية مسيطرة. ويتمّ دعم الأنظمة البرجوازية الخاضعة، وكلّما قاربت أزماتها على الانفجار، سارعت الإمبريالية إلى مساعدتها وإنقاذها بسرعة.

إنّ ضرر هذه السياسات، علاوة على أنّها جعلت الأنظمة الديكتاتورية قويّة ومسيطرة، فإنها أرغمت أيضًا قيادات تلك الشعوب التي انتفضت، وثارت نتيجة لهجوم الفاشية الشرس عليها، على اللجوء إلى الأنظمة البرجوازية، كلّما صعبت وثقلت مهمّات الثورة المسلّحة الطويلة الأمد. وتضع متطلّبات إدارة الثورات قياداتها أمام خيار البقاء أو الفناء، لغياب الأصدقاء الاستراتيجيين والظهير والسند الأممي، وليس هذا فقط، بل وحتى اللجوء إلى الرجعيين أيضًا. والمبرّر هو فقط «عدو عدوك صديقك»، إلا أنّ مثل هؤلاء الأصدقاء غير دائمين، وليسوا على استعداد لتقديم المساعدة للشعوب باستمرار، لأنّ العداء بين الأنظمة البرجوازية و بين الأنظمة الرجعية اللتين لهما مصالح مشتركة، من الناحية الموضوعية، وتتحرّكان داخل دائرة النظام الرأسمالي العالمي، هو عداء وقتي، لذلك صداقتهما وقتية أيضًا، وتساعد كل منهما ثورات الشعوب بقدر ذلك العداء الموقّت بينهما.

إنّ إطالة فترة الصداقة الوقتية السابقة لمثل هذه الأنظمة قد قصر، بحكم الأوضاع العالمية الجديدة. فعندما تشكّل أيّ حركة خطرًا على مصالح القوى العظمى، فإنّها تشدّد ضغطها على هذه الصداقة الوقتية، فلا يمرّ وقت طويل إلا

وتدير هذه الأنظمة ظهورها لهذه الشعوب بدلًا من مساندتها. وفي نفس الوقت إذا شكّلت أيّ أنظمة رجعية ومتخلّفة خطرًا على الإمبريالية أيضًا، فإنّ الصداقة الموضوعية بينهما تتغيّر، لذلك فإنّ تغيير مثل هذه الأنظمة فرض نفسه على النظام الرأسمالي الجديد، بعد الحرب الباردة، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك:

الكورد طوال تاريخهم كانوا فريسة لمثل هذه الصداقة الوقتية. وأفضل مثال قريب على هذا، هو ثورة أيلول التي فعلوا بها ما فعلوا! ومثال آخر لحالة معاصرة أخرى هو ما فعلته الأنظمة العربية الرجعية بالثورة الفلسطينية التي لم تستطع عدوّتها إسرائيل أن تفعل بها ما فعلته هي، مثل معارك أيلول عام ١٩٧٠ في الأردن، التي راح ضحيتها ٢١ ألف أردني وفلسطيني، وقصف مخيّمات صبرا وشاتيلا المستمرّ من قبل إسرائيل ومرتزقتها في لبنان، وخلق الفوضى والمشاكل داخل المنظّمات السياسية، ثم إلقاء القبض على أعضائها.

كذلك حينما بدأ نضال «التاميل» في سيريلانكا من أجل التحرّر وتوسّعه توسّعًا ثوريًا مسلّحًا، سارعت الهند إلى مساعدتهم، وأنزلت من الجوّ، عن طريق الطائرات المواد الغذائية على جزيرتهم المحاصرة. وبعد شهر من ذلك، وعندما لم تحلّ القضية التاميلية بأكملها عن طريق النظام البرجوازي الهندي، تراجع هذا النظام عن مساعدة التاميل، وأرسل جيشًا لمطاردتهم طيلة سنة كاملة. فالمسألة كما هي، عندما علمت الهند أنّ ثورة التاميل ستتّسع وتتطوّر، أرادوا حلّ المشكلة فورًا، لأنّهم كانوا يعرفون أنّ التاميل في سيريلانكا الذين يبلغ عددهم ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، إن انتصروا، ونجحوا في تحقيق أهدافهم، سيؤثّرون في الأجزاء الأخرى من شعب التاميل الذي يبلغ تعداده خمسين مليون نسمة، موزّعين على مناطق متعدّدة، في ولاية «تاميل نادو» جنوب الهند. تلك هي الصداقة الوقتية، ففي شهر واحد تتغيّر طائرات المواد الغذائية إلى طائرات قاصفة للقنابل!

الجزائر بلد المليون شهيد، أعطت الأمان والملجأ الآمن لأحرار «كاتالان»، لكن، عندما تعقّدت قضيتهم، وضعت لاجئي «كاتالان» في سفينة، وسلّمتهم عن طريق البحر إلى النظام الإسباني.

ليس هناك طرف أو حزب في العالم، ليس بين الأطراف اليمينية فقط، بل

واليسارية أيضًا، لم يرغم، إذا وصل إلى درجة اليأس من المساندة الاستراتيجية، على اللجوء إلى الأنظمة البرجوازية الرجعية، جريًا وراء المثل القائل «عدوّ عدوّي صديقي» حتى ولو كان صديقًا وقتيًا. إنّ هذه الحقيقة، في هذه الأوضاع العالمية، شملت اليسار واليمين على حدّ سواء، وإذا ظلّ الوضع هكذا، فإنّ أيّ طرف يعمد إلى حمل السلاح، والقيام بالثورة الطويلة الأمد، من غير أخذ المتغيّرات الحالية للعالم بنظر الاعتبار، سوف يضطرّ إلى إجراء مساومة كبيرة مع عدوّ أعدائه.

لربّما يستطيع المؤيّدون لليسار القيام بثورة طويلة الأمد من العواصم الخارجية الجميلة نظريًا، بدون مساندة أيّ دولة، لكن، عندما يحمل السلاح من داخل أرض الوطن، بلا ظهير وبلا مال، فإنّ الثورة لا تستطيع في هذه الحالة إشباع بطن نصير واحد، ولا ملء مخزن بندقية واحدة. لذلك فإنّ القيام بالثورة ضدّ الأنظمة المدجّجة بالسلاح، في حالة عدم توفر السند والظهير تكون عواقبه وخيمة، لأنّ نجاح الثورات لا يتحقّق بالكلام والجمل الثورية والخطب الرنّانة.

٦/٣- هل تنتصر الثورة بلا ظهير؟

هل تنتصر الثورة الطويلة الأمد، من غير مساندة خارجية، ومن غير سلاح ومال وبندقية ودواء واتصالات مع الخارج، أم لا؟

هذه هي إحدى القضايا التي حصلت بسببها المجادلات والمناقشات منذ ظهور الإمبريالية وقيام الحرب الإمبريالية الأولى.

- صحيح أنّ المطالبة بحقوق الشعوب المشروعة لها دائمًا صدى ونجاح معنوي كبير، من الناحية السياسية، وأنّها تحفّز القوى الخفيّة للشعوب، وتفجّر الطاقات الجماهيرية بوجه المحتلّين.

- صحيح أنّ الشرط الموضوعي، والشرط الذاتي، يلعبان الدور المصيري، وأنّ مجرّد التفكير في الثورة بدونهما، هو هدر لدماء الناس الأبرياء. كل هذه، وحقائق كثيرة أخرى، هي من الحقائق البديهية التي لا تحتاج إلى برهان، لكنّ المساندة الخارجية المستمرّة، لاسيّما مساندة الأصدقاء الاستراتيجيين الحقيقيين، من أجل تنظيم أفضل وإدارة المهام الداخلية بصورة أحسن، أمام قوّات الأعداء الأكثر قوّة، لها أهميّة كبرى أيضًا. فبمرور الوقت، وشيئًا فشيئًا، تقدّمت تكنولوجيا الحرب، وقويت الأنظمة البرجوازية، سواء عن طريق الغرب، أم عن طريق الشرق، من أجل تأمين النفط والمواد الأوليّة من البلدان المتخلّفة، وازدادت أهمية مساندة ودعم الثورات أكثر ممّا مضى، لذلك يمكن القول أكثر ممّا كان يقال سابقًا:

إنّ المساندة الخارجية عامل من عوامل النجاح!! والمسائل الداخلية هي العوامل الأساسية! والسبب يعود إلى أنّ نجاح المهام الداخلية، أو نضج الشروط الداخلية، للثورة الطويلة الأمد، ونتائج التطوّرات الاقتصادية والاجتماعية، السياسية والعسكرية، أصبحت صعبة ومعقّدة للغاية، وأنّ الوضع السياسي الدولي سيطرت عليه المصالح الاقتصادية إلى درجة، لا يمكن، بعد الآن، إلا أن تكون للعوامل الخارجية تأثيرًا مصيريًا أكثر، أو اعتبارها والنظر إليها على

أنّها سبب ثانوي، أوعامل مساعد اعتيادي لنجاح الثورات المسلّحة في القرى والانتفاضات داخل المدن. فكما تغيّرت المهمّات الداخلية، وكما لا يمكن تأمين الاحتياجات الضرورية الداخلية للشعوب، وللدول، وللأنظمة، ومستلزمات بقائها وعدم بقائها، بدون المساعدات الخارجية، ولا يمكن أن يعيشوا، من غير العلم والمعرفة، ومن غير المساعدات المتنوّعة، هكذا أيضًا، لم تبقَ المساعدات الخارجية للثورات أيضًا عاملًا، ثانويًا في إطاره السابق، بل ازداد تأثيره أضعافًا مضاعفة.

في الماضي، عندما كانت التكنولوجيا غير متطوّرة، والأنظمة لم تكن قويّة، والسياسة الدولية لم تسيطر عليها المصالح الاقتصادية والديبلوماسية، فإنّ القيام بالثورة كان يرتبط بالمسائل الداخلية. فعلاوة على كل تلك العوامل الداخلية والخارجية الملائمة التي توافرت لأول ثورة مسلّحة طويلة الأمد، فإنّ قيادتها، وبعد أن يحمل الأنصار السلاح، ويتوجّهون إلى الجبال، وتتعقّد مهمّاتهم وتزداد واجباتهم، تصل إلى قناعة تعتبر المساعدة الخارجية، لا عاملًا من عوامل الانتصار والنجاح فحسب، بل تعتبرها كما قال ماو تسي تونغ:

يقولون لنا إنّ الانتصار سيتحقّق حتى بدون المساعدات الدولية. هذا رأي غير صحيح. إنّ الثورة الشعبية الحقيقية، في وجود الإمبريالية، لا تحقّق الانتصار، في أيّ دولة، بدون مساعدات ودعم القوى الثورية العالمية المتنوّعة التي تقدّم لها، بصور مختلفة. وإذا تحقق الانتصار، فإنّ الثورة لا تصمد بدون هذه المساعدة.[٨٠]

هذا رأي مهندس الثورة الطويلة الأمد، مهندس الثورة التي قامت في أكبر دولة، ووصل أحيانًا عدد الأنصار فيها إلى أكثر من مليون نصير. وقد اعترف بوضوح في هذه المقولة، بالمقاومة الشعبية، بشكل أكثر، حيث الفارق بين الثورة الطويلة الأمد والتطبيق العملي الميداني لها، كالفارق بين السماء والأرض. لذلك، إضافة إلى تلقّيها المساعدة والدعم من الاتحاد السوفييتي والحركة العمّالية العالمية، فقد تلقّت في خضمّ اشتداد الحرب العالمية الثانية مساعدات من أميركا وبريطانيا ضدّ اليابان حليف النازية (يظهر أنّها كانت بدون شروط).

أثناء اشتداد الحرب العالمية الثانية، صارت الدول الرأسمالية، إضافة إلى اكتسابها خبرة كبيرة في الحرب والمعارك، صاحبة معرفة بعلم فنون الحرب الذي

٨٠ ماوتسي تونغ - نقد المفاهيم النظرية - دار التقدم - موسكو - ص١١.

غيّر مسار الحرب تغييرًا أساسيًا، حيث نقل الحرب العالمية الثانية من حرب تقليدية إلى حرب حديثة. فقد كانت الحرب إلى تلك الفترة حربًا تقليدية، وحربًا جبهوية واسعة، وحرب استعدادات عسكرية كبيرة، وحرب هجمات بشرية متتالية. لكنّ هذه العلوم الحربية وتكتيكاتها واستراتيجيتها، خططها وبرامجها، أدواتها، أشكالها، هجماتها، تقدّمها وتراجعها...إلخ، تغيّرت، لاسيّما بعد توسّع الصناعة التكنولوجية الحربية.

مذّاك، هاجمت الإمبريالية ثورات الشعوب المضطهدة بشكل أكثر شراسة وعنفًا وقوّة، وأصبحت مطمئنّة من انتصارها، خاصّة بعد تطبيق ستالين لسياسة توفيقية في ذلك الوقت تجاه حركات الشعوب والثورات. فعندما هاجمت أميركا الشعب الكوري، ظنّت أنّها تهزمه بسهولة مثل البقايا الباقية من الجيوش المهزومة. لكنّه، عندما انتفض بوجهها ولم ينل من عزيمته لا انتصار أميركا في الحرب، ولا استعمال السلاح النووي في اليابان، عندها استعملت أميركا جميع إمكانياتها بما فيها السلاح الجرثومي وإمكانيات حلفائها. وعندما أصبحت الحرب حامية، عرف الشعب الكوري بسرعة أنّ النصر لا يمكن أن يتحقّق بدون المساعدات الخارجية، رغم أنّه سجّل ملحمة بطولية، وتحوّلت الحرب إلى رهان بين الإمبريالية والمناضلين الثوريين.

أراد الإمبرياليون، بعد الحرب العالمية الثانية، أن يفعلوا ما فعلوه في الحرب العالمية الأولى وكما يشاؤون، ويحتلّوا أراضي الشعوب متى ما أرادوا، ولكنّ ثوّار العالم لبّوا نداء ثوّار كوريا بعناد ثوري. وقد أوقع ذلك حتى ستالين في موقف حرج. فرغم أنّه أخطأ، من الناحية السياسية ووافق على تقسيم كوريا إلى كوريتين، شمالية وجنوبية، لكنّه كان لا بدّ له أن يسارع إلى تلبية استغاثة الشعب الكوري ومساعدته باستمرار.

تمّ تقديم المساعدات الآتية لهم:

نصف مليون جندي.. نعم نصف مليون! وهذا العدد من الجنود الصينيين بسلاحهم وعتادهم لبّوا نداء الثورة الكورية. وأمّن الاتحاد السوفييتي كل المستلزمات العسكرية والعتاد الحربي لهؤلاء الجنود، من دبابات ومدرّعات وطائرات، ولو لم تجرِ الأمور هكذا، كان من المستحيل أن تُلحَقَ بأميركا هذه الخسائر. ففي السنة

الأولى من الحرب أنفقت خمسين مليون دولار، وخسرت مع حلفائها ٥٩٨ ألف قتيل، و١٤٦ ألف قطعة سلاح ناري، ودمّر لها ٨٦٠٣٨ مدفعًا، و٩١٤٥ سيارة ودبابة ومدرّعة، وأسقطت ١١٣٠ طائرة، وأغرقت ١٢٢ سفينة.

إنّ النصر أمام استعمال قوّة كهذه، في حرب الأنصار، لهو جنون حقيقي لمخرجه، حتى في الفيليبين.

فيتنام:

كانت فيتنام تتمتّع، إضافة إلى ملاءمة الوضع السياسي والاجتماعي والعسكري، بدعم ومساعدة، ليس فقط من الناحية المادية والعسكرية واللوجستية، بل بكل أنواع الدعم والمساعدة والمساندة الدولية. كان هناك ٢٢٠ ألف متطوّع صيني غير نظامي يقاتلون إلى جانب الفيتناميين، قتل منهم ٤ آلاف متطوع، وأنفقت الصين لوحدها ٣٠ مليون دولار على الثورة الفيتنامية، إضافة إلى ما أنفقه الاتحاد السوفييتي وبقيّة العالم. فلو لم تجري الأمور هكذا، فإنّه كان من الصعب التصدّي للقدرة الهائلة التي تمتلكها الإمبريالية العالمية، رغم ملاءمة كل الظروف للكفاح المسلّح في فيتنام. وللتوضيح نذكر أدناه وبالأرقام قدرة الإمبرياليين وقوّتهم، ضدّ فرنسا:

كانت فرنسا تملك ٢٥٠ ألف مسلّح، و٥٢٨ وحدة جويّة، و٤٩٠ قطعة بحرية، و٢٦ رتل مدفعي، و٢٣٠ ألف مرتزق. وتحمّلت أميركا ٨٠٪ من نفقات الجيش الفرنسي، والتي وصلت إلى ٥٠٠ مليون دولار، إضافة إلى ما أعطته أميركا لفرنسا من أنواع المدافع. ففي سنة ١٩٥١ أعطتها ٦ آلاف مدفع، وفي سنة ١٩٥٣ أعطتها ٢٥ ألف مدفع، وبعدها ٨٨ ألف مدفع، وكان هناك جسر جوّي لإيصال المساعدات باستمرار، وشاركت ٢٥٠ طائرة في العمليات الحربية.

ضدّ أميركا والرجعيين السايغونيين:

كان الرجعيّون يمتلكون ٧١٠ آلاف مرتزق، وأوصلت أميركا عدد قوّاتها إلى أكثر من نصف مليون جندي، وبلغت نفقات سايغون الحربية، عدا أميركا، مليارًا وستمئة وأربعة عشر مليون دولار. المئات من الطائرات، والملايين من المدافع الثقيلة والمتوسّطة والصغيرة كانت تمطر الموت على الفيتناميين، علاوة على الغاز

السام وزرع الألغام.

أما فيتنام فقد كانت تملك:

- ١٠ آلاف مدفع ضدّ الجو.
- ٣٢٠ صاروخ سام ذات مدى ٢٠ كلم موزّعة على ٢٠٠ قاعدة.
- تسلّمت ما مجموعه ٤٩٠ طائرة و٥٠ هليكوبترًا، إلى يوم تحقيق النصر.

كان لدى «الفيتكونك»ما بين (١٩١٥-١٩٦٨) ما يقارب ٣ ملايين بندقية ورشاشة، والآلاف من مدافع الهاون والقاذفات والصواريخ والمدافع المضادة للدبابات، و٨ آلاف مدفع ميدان، و١٠ آلاف مدفع ضدّ الجوّ مع راداراتها، و٥٠ طاقمًا لصواريخ سام أرض جو، وألفي رادار، و١٢ ألف سيارة نقل، و٣٠ ألف سيارة صغيرة، و٢٠٠ مدرّعة، و٥٠ هليكوبترًا، و٦٠٠ طائرة، و٥٠ زورقًا حربيًا. إذن كيف لا ينتصرون؟!![٨١]

من غير المساندة والدعم الخارجيين، لم تكن هذه الثورات لتنتصر قط. لكنّها كانت بإمكانها أن تسجّل أكبر البطولات، ليس إلا.

إنّ الثورة الطويلة الأمد، في هذا العصر، لا يمكن أن تتاح لها نفس الظروف السياسية الملائمة التي أتيحت لكوريا وفيتنام، كما أنّ الظروف الدولية القائمة الآن هي ضدّ تيار الكفاح المسلّح، لذلك فإنّ انتصار الثورة، من غير المساعدات الخارجية، والدعم الأكبر، لاسيّما ضدّ نظام مقتدر ماديًا ومتسلّط، كالبعث في العراق- محال حتمًا، في مثل هذه الحالة.

ليس المقصود هو أنّ المساعدة الخارجية أهمّ من نضال الشعوب نفسها.. لا ليس هذا. فنضال الشعوب هو الأساس، لكنّ المساعدة الخارجية، مثلما كان يقال سابقًا، ليست عاملًا خارجيًا فقط، وإنّما هي، إلى جانب نضال الشعوب، ضرورة كبيرة ومصيرية للنضال الطويل الأمد. فهي مهمّة إلى حدّ، لو كانت جميع المستلزمات الضرورية الداخلية للثورة الطويلة الأمد ضدّ الأنظمة المقتدرة ملاءمة، ولم تضمن المساعدة الخارجية، فإنّ القيام بالثورة في هذه الحالة مغامرة وتهوّر.

---

٨١ جميع ثورات كوردستان، قبل الحرب العالمية الأولى، وإلى الآن، لم تتلق واحدًا من ألف هذه المساعدات، مع أن أعداءها كانوا أقوياء، ويتلقون الدعم باستمرار.

٦/٤ - الثورة المضادة

الثورة المضادة هي إحدى الوسائل الخطرة المستعملة لإلحاق الهزيمة بحرب الأنصار. فأميركا والدول الإمبريالية قامت بدراسة عميقة، بعد الحرب العالمية الثانية مستفيدة من تجارب حرب الأنصار التي قامت في الصين، فيتنام، ماليزيا، لاوس، كمبوديا، وأفريقيا...إلخ، للأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لاندلاع الحرب الطويلة الأمد، والوسائل العسكرية المستخدمة لانتصارها، من حرب الأنصار إلى الحرب الاستراتيجية المتكافئة، وأخيرًا إلى الحرب الهجومية الاستراتيجية. وقاموا بتقييم كل ذلك، ثم وضعوا خطّة مضادّة محكمة، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والعسكرية، ووفّروا لها الأموال، وهيّأوا لها السلاح، وقاموا بحملة دعائية وإعلامية كبيرة من أجل نجاحها، وأعدّوا كل طاقاتهم، وهيّأوا جميع إمكانياتهم بشكل منظّم، واستثمروها من أجل إلحاق الهزيمة بحرب الأنصار، سواء منذ البداية أم في النهاية.

في هذا المجال أيضًا، تمكّنوا وببراعة عن طريق خطط جديدة، وسياسة جديدة، وحرب جديدة، وسلاح جديد، من المحافظة على مصالحهم، على مستوى العالم، والدول الخاضعة لهم.

فمن الأسلحة الجديدة والخطط الجديدة التي ألحقت أضرارًا بالغة بحرب الأنصار، تهجير القرى، وإنشاء القرى القسرية المحاطة بالأسلاك الشائكة للفلاحين، وتشكيل مفارز مزيّفة باسم الأنصار، ومفارز للمرتزقة، وخلق البلبلة والمشاكل بين العشائر، وكذلك ظهور الهليكوبتر كسلاح عسكري فعّال ضدّ حرب الأنصار، والحروب الداخلية أيضًا. إنّ طائرات الهليكوبتر كظاهرة عسكرية فعّالة ومؤثّرة في تاريخ حرب الأنصار، تستطيع حمل صورايخ كثيرة، واستعمال رشّاشات متنوّعة، وقذف أنواع مختلفة من القنابل على ارتفاع منخفض، والوصول إلى أعلى القمم والوديان الضيّقة، وبأسرع وقت، وإنزال ما بين ٣٠ و٤٠ فردًا من أفراد القوّات الخاصّة في أعلى نقطة من قمم الجبال، وبأقصر الأوقات، وإيصال

مدافع الهاون من عيار ١٢٠ ملم والمواد التموينيّة والذخائر الكبيرة إلى المعسكرات البعيدة والربايا المرتفعة. وإضافة إلى كل هذا، فإنّ طائرات الهليكوبتر لها دور مؤثّر في تحديد مواقع مفارز الأنصار، وإنزال القوّات لمحاصرتها والقضاء على هذه المفارز. هذا عدا استعمال المدافع الرشّاشة للطائرات المروحية لاصطياد الثوار من السماء ومن دون خوف يذكر.

إنّ الثورة المضادة الآن ليست كالسابق، ففي هذه الحرب يعطى للربايا الموجودة على قمم الجبال، والقواعد الموجودة في السهول والبراري والقرى دورًا ديناميكيًا. فبدلًا من تواجد ما بين ١٥ و٢٠ جنديًا،على أكثر تقدير، في الربيئة الواحدة، حيث لم يكن مسموحًا لهم الحركة من مكانهم ليلًا ونهارًا، ومهما كانت الظروف والأحوال، وصل عددهم الآن إلى ما بين ٥٠ و١٠٠ جندي ومرتزق، وعليهم أن يفتّشوا، في كل وقت، عن الأنصار ويقاتلوهم، ويحاصروهم، إلى أن تأتي الهليوكوبترات العسكرية الكبيرة لنجدتهم، ويتمّ تضييق حلقة الحصار، وإبادة مفارز الأنصار.

ونادرًا ما تمكّنت مفرزة من الأنصار متكوّنة من ١٠ أفراد أو أكثر، حوصرت على الأرض، وهوجمت من قبل الهليوكوبترات من الجوّ في هذه الحالة، من الإفلات.

باختصار، الثورة المضادة هي أخطر أنواع أسلحة التصدّي لحرب الأنصار، ولقمع محاربي الثورة الطويلة الأمد، ومن الصعب جدًا، وفي ظروف دولية كهذه التي يتمتّع الأعداء فيها بالقوّة والمساندة الدولية القوية، من قبل الإمبريالية والغرب والاتحاد السوفييتي، أن يستطيع الأنصار، بالسلاح الخفيف وعن طريق تجريد العدو من سلاحه بالكلاشينكوف والبرنو، وفي أقصى حدّ، بالآر بي جي، والبيكسي، أو لنقل أكثر، بالدوشكا والمدفع من عيار ١٢٠ ملم والهاونات، من التصدّي للجيوش المدرّبة والمسلّحة تسليحًا قويًا، لخوض حرب الثورة المضادة، علمًا أنّ الحصول على مثل هذه الأسلحة صعب للغاية.

إنّ تجربة ثورة كوردستان العراق دليل صارخ على هذه الحقيقة. وقبلها أيضًا، لعبت الهليوكوبتر، في ثورات اليونان وإسبانيا وماليزيا وبوليفيا والأرجنتين، دورًا إندحاريًا كبيرًا. لقد صارت طائرات الهليوكوبتر السلاح الأخطر بيد الأنظمة

القمعية في الفيليبين وبيرو والسلفادور وأريتريا وفلسطين ولبنان.

الثورة المضادة، بإمكانيات أكبر، بأموال وأسلحة أكثر، بخطط أدقّ وتدريب أكثر كثافة، وبجيش ومرتزقة أكثر، تستطيع أن تجعل الأرض والسماء والبحر ميدانًا للحرب والمعارك ضدّ الأنصار، دون الاهتمام بالخسائر البشرية والمالية، وتبذل قصارى جهدها لقمع الثورة الطويلة الأمد، ومن أجل هذا الهدف لا ترتدع عن ارتكاب أيّ جريمة، أو إنزال أيّ عقاب، أو اتخاذ أيّ قرار، وإنّ قتل الألوف من المسلّحين وغير المسلّحين جماعيًا عملية سهلة واعتيادية لديهم.

وعدا كل هذه الأمور، تهتمّ خطط الثورة المضادّة بالحرب النفسية وزرع الإحباط واليأس في قلوب الجماهير والمقاتلين، وحبك مختلف الأنواع من الكذب والاتهام والمزاعم الباطلة والبهتان والزور والتهم المباشرة وغير المباشرة، وإذاعتها من مختلف وسائل الإعلام. فبهذه الطريقة يشوّهون سمعة قادة حرب الأنصار وكوادرها، وأعضاء منظّماتها وأنصارها، ويلقون القبض على ذويهم، أو يبعدونهم، أو يقدّرونهم، ويعطون لبعض من الكوادر السياسية والعسكرية راتبًا، لكي يشوّهوا صورته أمام الجماهير، كواحد من أبناء هذا الشعب.

عند مهاجمة القرى، يحدث أحيانًا، أنّهم يوزّعون المواد الغذائية على القرى البعيدة عن متناول اليد، ويساعدونها، ويعيّنون العاطلين عن العمل من سكّانها، فإن كانوا لا يعيّنون في السابق خادمًا لجامع إلا بألف رجاء وطلب، فإنّهم الآن يعيّنون لجامع صغير عددًا من الفرّاشين والخدّام، ويعطونه راتبًا جيدًا.

لو سلّم صاحب أكبر مسؤولية من الأنصار نفسه إلى العدوّ، فإنّه لا يحاكم، بل يحترمونه ويقدّرونه، ويحاولون تشكيل مفرزة ثورية مضادّة له، لأنّه اكتسب خبرة جيّدة في حرب الأنصار، ويطلقونه للهجوم على رفاقه السابقين. وبهذا العمل، إضافة إلى الفوائد العسكرية، فإنّهم يحقّقون خلق الإحباط واليأس في نفوس الناس أيضًا، بينما في السابق، لو سلّم النصير نفسه لكان يقتل، لا محالة.

إنّ الثورة المضادة في هذا العصر، وإلى اليوم الذي تظلّ فيه الشعوب المضطهدة بانتظار حرب الأنصار والثورة الطويلة الأمد، تشكّل خطرًا كبيرًا على انتصار هذه الشعوب. فإلى جانب الأسباب والعوامل العالمية الأخرى، تشكّل الثورة

المضادة عاملًا خطيرًا من عوامل إجهاض الثورات. فإن حازت الثورة المضادة النصر العسكري على الحركات المسلّحة الضعيفة، إلى نهاية الستينيات، فإنّها، بعد هذه الفترة، وبهذا الشكل، تنفّذ خططها بسهولة أكثر، سواء من الناحية العسكرية، أم من الناحية السياسية، وتحقّق أهداف الأنظمة التي تقف وراءها، فلولا وجود رجعيي حركة «كونترا» المضادّة في السلفادور، لم يكن من المستبعد أن تنجح ثورة السلفادور. لذلك، فأخذ الحيطة والحذر من الثورة المضادة، في هذه المرحلة، أهمّ بكثير، من المراحل السابقة.

يحتمل أن يصعّد الاستغلال اللامحدود للشعوب المضطهدة غضب التحرير المقدّس لأبنائها، حتى يصل هذا الغضب وحب الحرّية إلى درجة، يتمكّنون فيها من التصدّي للثورة المضادّة، بالسلاح الخفيف وتضحيات المئات والألوف من الشهداء، لسنوات وسنوات، وإحراز النصر في المئات من المعارك والمواجهات، والحصول على غنائم ومكاسب كبيرة، وتحرير المناطق والجبال والقرى والقصبات الصغيرة، بصورة موقّتة. كذلك يستطيعون جذب مشاعر الآلاف من الناس إلى جانبهم، ويكون لهم صيت ووزن كبير على المستوى العالمي، لكنّ كل هذه الأمور الإيجابية السابقة لا تستطيع، مقابل الوضع السياسي، وفي ظلّ الميزان العسكري السائد في هذا العصر، أن تحقّق النصر، إن لم يستطع الأنصار تأمين المساندة الاستراتيجية العالمية واستغلال الظرف الموضوعي المنهار للعدوّ، من كل النواحي، وليس اللجوء إلى لعبة «عدوّ عدوّي صديقي» و»الصديق الوقتي».

حاليًا وفي هذا العصر، لا تستطيع القوى المقاتلة، ولا القتال الملحمي، ولا المشاعر الاستشهادية المحرّكة للناس، ولا التخطيط، ولا خفّة الحركة ونشاط الأنصار، ولا شهرة ومدح القادة العسكريين والسياسيين، ولا المواقع الحصينة والجبال الوعرة، أن تكون عوامل حاسمة لانتصار حرب الأنصار، والثورة الطويلة الأمد.

ومن جانب آخر، لنفرض أنّ الوضع الاقتصادي، حصل فيه تغيير، وجرت تطوّرات في الوضع الطبقي، وأجرى الفلاحون مراجعة لمواقفهم السابقة، وانقلبت مواقف البرجوازية الصناعية رأسًا على عقب، وتحقّق التعايش السلمي، والتعاون الدولي، بعد انطفاء نار مواقد الحرب الباردة وحرب الأنصار، إلا أنه في المقابل أصبح الأعداء أقوياء ووصلت خطط ثورتهم المضادّة إلى القمّة، وليس هناك

أعمال ذات رؤى بعيدة، وذكية، وثورية، تفكّر بنفس المفاهيم القديمة، وبالتكتيك والاستراتيجية السابقين، في إشعال حرب الأنصار من جديد بناءً على مجموعة كبيرة من التناقضات الجيدة، أو بسبب الشعور القومي المسيطر المستند على العداء الوقتي للدول البرجوازية، وأخذ مسألة انتصارها بالاعتبار، بعد سنوات طويلة.

ومن أجل توضيح أكثر لهذه الحقيقة، فمن الأفضل تخصيص موضوع آخر لتكملة أسباب وصول حرب الأنصار، بأسسها وقواعدها السابقة، إلى طريق مسدود.

الفصل السابع

٧- الثورة بين نهجين

المقصود بـ «نهجين» هنا الطرائق والسبل الرئيسة لانتصار الشعوب، والتركيز عليها، لا الأشكال والصور الأخرى التي يجب أن تكون في خدمة الثورة، ولا يمكن أبدًا أن تتحرّر الشعوب عن طريقها، كالنهج الإصلاحي، والبرلماني، والتعاون والصداقة الوقتية...الخ، خاصّة، إذا أصبحت هذه السبل الثانوية بديلًا عن الثورة.

وهذان النهجان هما: نهج الثورة الطويلة الأمد، ونهج انتفاضة جماهير الشعب. وقبل أن نتحدّث عن أيّ النهجين هو النهج الرئيسي في هذا الوقت؟ من الأفضل أن نمحّص رأيًا آخر، ونغربله، لكي نعرف كيف جعل منه وسيلة ناجحة لتحريف العمّال، وطعمًا لبقاء الأنظمة البرجوازية في البلدان الخاضعة. إنّه من الواضح، أنّنا لا نريد الدخول في التفاصيل الدقيقة لهذا الموضوع. لكنّ القصد هو التمهيد فقط، لاختيار النهج الثوري الملائم لهذا العصر، بصورة أفضل.

تحدثنا سابقًا عن التطوّر اللارأسمالي، باتجاه الاشتراكية، والذي بذلت جهود حقيقية، منذ الستينيات من القرن العشرين من أجل جعله المقياس الحقيقي للنضال الطبقي للعمّال والكادحين المتصاعد حديثًا، في البلدان الساعية للحرّية والاستقلال. ولهذا بدأ المئات من الباحثين والكتّاب السوفييت المشهورين، بعد موت ستالين ومجيء خروتشوف، بالبحث والكتابة عنه. لكنّه، بالإضافة إلى عدم نجاح نظرية عقيمة كهذه، فإنّ مساعيهم في هذا المجال أدّت إلى قيام الثورة الاشتراكية المضادّة.

استقبلت هذه النظرية من قبل الأحزاب الشيوعية بترحاب، وطبّقتها بإخلاص، لأنّ هذه الأحزاب، بالرغم من أنّها كانت أقدم الأحزاب التي ظهرت في البلدان الخاضعة، إلا أنّها نسيت أهمّ واجب للشيوعيين طوال ٣٠ أو ٤٠ عامًا، بل إلى الستينيات من القرن العشرين، والذي تمّ إقراره بوضوح في البيان

الشيوعي العالمي، وهو القضاء على البرجوازيين من قبل تلك الأحزاب الشيوعية القديمة، لكنّهم لم يشيروا إليه في برامجهم، لا من قريب ولا من بعيد.

لقد أرادوا أن تقوم الأنظمة الملكية الرجعية بتغيير المأجورين والعملاء وتحقيق الديمقراطية البرجوازية. وإن تحدّث أيّ شخص، عن إسقاط تلك الأنظمة، كانت هذه الأحزاب الشيوعية تعتبره منحرفًا ومتطرّفًا، كما كانت تعتبر مواقفها هي المتوازنة والمعقولة. لذلك، حينما وصلت برجوازية البلدان التابعة إلى السلطة، سواء بالانقلاب أم باستغلال انتفاضة الشعب، وضيّعت تلك الأحزاب عشرات الفرص السانحة، أدركت الأحزاب الشيوعية جيدًا حقيقة نفسها، وبأنّها ليست أحزابًا للبروليتاريا والثورة الاشتراكية.

لذلك أيضًا عندما بادر السوفييت إلى تقديم مبدأ التطوّر اللارأسمالي، سارعت هذه الأحزاب، وبلا تردّد، إلى تطبيقه، وكان مثلهم في هذا الأمر كمثل الذي وجد عسل النحل لأول مرّة. ولم يكتفوا بهذا، بل سعوا إلى إيجاد المبرّرات لهذا المبدأ المحيّر، والدفاع عن الأنظمة القومية البرجوازية الرجعية، وجرّها إلى الاشتراكية، بشكل يمكن أن يقال فيه إنّ هذه الأنظمة عمياء، وهؤلاء يقودونها إلى طريق الاشتراكية. لقد أرادوا إعادة التاريخ عشرات المرّات، ونحت العشرات من أمثال كاسترو، لكنّهم لم يعلموا أنّ التاريخ لا يتكرّر، وأنّ كاسترو، لا يخلق مرّة أخرى!

على هذا الأساس، بقيت اليمن الجنوبية بأيديهم. لكنّهم، بالإضافة إلى كل المشاكل التي تعاني منها والاقتتال الداخلي غير المبرّر، وانخفاض المستوى المعيشي لمواطنيها، فإنّهم لا يعملون من أجل سلامة مستقبلها ومستقبل أجيالها، وإنّ ما تعرّضت، وتتعرّضه، جعلها مثلًا لا يُعتد به ولا يحتذى.[٨٢]

ظهر في كل أرجاء العالم، لاسيّما في تلك الدول الخاضعة التي لم تتطوّر تطوّرًا لارأسماليًا، ولم تصل إلى مرحلة الاشتراكية، كذلك داخل الشعوب المحتلّة المجزّأة، أنّ الأطراف الثوريّة فيها تواجه برامج ثوريّة واسعة وبعيدة المدى. فهذه الأطراف الثوريّة أمامها طريقان، إمّا أن يكونوا ثوريّين، من المنظور الطبقي، وإلا فليزولوا وينتهوا. فمن غير المقبول من الآن فصاعدًا، من أيّ طرف من الأطراف، يمارس

٨٢ بعد صدور الطبعة الأولى من الكتاب، سقطت اليمن الجنوبية، وألحقت باليمن الشمالية، لتكونا دولة واحدة باسم اليمن.

سياسة توفيقية، أن يعتبر نفسه ثوريًا.

لا بدّ أن تكون الاستراتيجية الطبقية واضحة، وتنبع التكتيكات أيضًا من هذه الاستراتيجية. فالأطراف اليسارية لا تحتاج إلى تقديم الشعارات البرجوازية المستهلكة، على أنّها تسعى، حسب الظاهر، إلى تنفيذها بصورة أفضل. إنّ مثل هذه الأفكار والآراء تشوّه البرامج السياسية الثوريّة لهذه المرحلة، وإذا لم تقلع هذه الأفكار والآراء من الجذور، فإنّ البرامج الإيديولوجية ستصاب أيضًا، وبلا شك، بأزمة خطيرة في المستقبل. إذن، بعد كل هذه الكوارث، وبعد كل هذه الهزائم، والدفاع عن الآراء غير الصحيحة ومساندتها، حان الوقت، لكي تفكّر الجماعات الماركسية واليسارية والجماهير الثورية بهدوء في المستقبل، ويدخلوا في مناظرة رفاقية، من أجل برنامج تنظيمي وإيديولوجي وسياسي ومهني ثوري، ويعملوا من أجل إيجاد النهج الثوري الرئيسي للنصر، وإيجاد البديل الحقيقي.

٧ /١- ثورة الجبال (النهج الأول)

لقد قيل الكثير عن هذا الموضوع قبل هذا، والمقصود هنا، هو أنّ الثورة الطويلة الأمد، التي هي أحد هذين النهجين اللذين نتحدّث عنهما، لها رواج أكثر الآن داخل الحركة اليسارية، ويُتحدّث عنها أكثر من بقيّة النُهَج الأخرى، بل وهناك من يعمل من أجلها، كما تطبّق في العديد من البلدان، والعديد من الشعوب. ففي هذه الفترة هناك ثورة طويلة الأمد في كوردستان وفلسطين وكمبوديا والتاميل (سيريلانكا) والبيرو والصحراء الغربية (بوليساريو) وأريتريا والفيليبين والسلفادور، بقيادات مختلفة وطنية وطبقية ومذهبية. وتسمع في كل هذه البلدان، أصوات طلقات بنادق الأنصار، ويوجد في البلدان المختلفة الآن على الأقلّ طرف سياسي يحمل الراية الحمراء، وشعار الثورة الطويلة الأمد، وهناك جماعات، ترفع صور ماركس وأنجلز ولينين وستالين وماو كشعار ودليل على إخلاصهم للنضال المسلّح الطويل الأمد. وهم ليسوا على استعداد للاعتراف حتى بأقلّ ما يمكن من تلك الجرائم التي أثبتت على ستالين، وليسوا مستعدّين أيضًا لسماع أيّ حديث عن الأخطاء التي ارتكبت في الصين، أو الاعتراف بأنّ هناك أخطاء ترتكب حاليًا.

إن إخلاص بعض الجماعات للثورة المسلّحة الطويلة الأمد نابع من فكر متحجّر، يمنعهم بأيّ شكل من الأشكال من إعادة النظر مطلقًا فيما جرى، في ضوء ما يجري من تغييرات وتبدّلات اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية، من زاوية إعادة النظر في الماضي، وكأنّهم لا يرون تلك التأثيرات القويّة التي حصلت بفعل التطوّرات الحاصلة على الثورة الطويلة الأمد. ومع هذا، فإنّ فكر هذه الجماعات، بشكله الصيني القديم، والجيفاري، تحسب الأنظمة لها، سواء أردنا أم لم نرد، حسابًا أكثر من اليمينيين.

الغريب أنّ الأحزاب اليمينية، عندما تنضمّ إلى الكفاح المسلّح اضطرارًا، فإنّ الأنظمة الديكتاتورية تحسب لها حسابًا أقلّ من الجماعات اليسارية، إذ يعتبرونها

ملكًا لهم في نهاية المطاف، من الناحية العسكرية، ويظهر أنّ هذه الأنظمة تعرف جيدًا هؤلاء اليمينيين نتيجة لسنوات طويلة من التحالف معهم، لذلك لا تهتمّ هذه الأنظمة، عندما يلتحق مثل هؤلاء بالثورة المسلّحة. إنّ اهتمام النظام باليمينيين ومراعاتهم له أسباب تاريخية ونفسية، وفي المقابل يجعل اليساريين بين الناس، وخاصّة بين الشباب، أكثر حبًا وقبولًا، لأنّ الطرف الذي يقف العدوّ ضدّه بقوّة، هو أكثر تقديرًا واحترامًا. هذا عدا أنّ نهج الثورة الطويلة الأمد، يتماشى مع الوضع النفسي للشباب، بصورة أكثر، وهذا يطيل من عمر الثورة المسلّحة سنوات وسنوات.

يجب أن نعرف بدءًا، أنّ النضال الثوري، أي الثورة بمفهومها الطبقي والوطني، ضدّ السلطة الرجعية للرأسماليين والمحتلّين، هو السبيل القاطع الوحيد لانتصار العمّال وتحرير الشعوب، إلى اليوم الذي يظلّ التناقض بين العمل ورأس المال قائمًا، والشعوب المحتلّة والمحتلّين باقيًا، وتظلّ الإمبريالية جاثمة على صدور الشعوب المضطهدة، ويستمرّ الإنسان في امتصاص دماء أخيه الإنسان، وتبقى الثورة والثورية أداة حقيقية لانتصار المضطهدين والمسحوقين على الظالمين والمستغلّين، لاسيّما العمّال ورافعي رايات الثورة والثورية.

إنّ الثورة، والثورة المسلّحة الطويلة الأمد، ليستا مشدودتين ومربوطتين معًا، إلى الأبد، وليس شرطًا أن تكونا متمّمتين لبعضهما. فالثورة لها مفهوم سياسي كبير وواسع، وإن كانت تدور، بصورة عامّة، داخل دائرة من العنف، عكس الإصلاح والليبرالية.

إنّ عبر التاريخ ودروسها سجّلت بشكل يظهر دومًا أنّ المضطهدين حاولوا دائمًا أن يسلكوا، في مقابل أصحاب السلطة المستغلّين، أنجع طرق المعارضة والخلاص، ليجبروهم على الاستسلام، بأقلّ الخسائر، وبأسرع الأوقات.

باختصار، الثورة ليست هي المناطحة بين الرأس الثوري المكشوف ورأس العدو الحديدي، بل هي تأجيج لنيران الغضب المقدّس للجماهير المضطهدة، من أجل صهر الرأس الحديدي لسلطة العدو، سواء العدو الطبقي أم القومي.

قديمًا كان الفلاحون هم محرّكو الثورات المسلّحة، لكنّهم ليسوا هكذا الآن.

وكان قسم من البرجوازيين في صفوف النضال الوطني، لكنّهم الآن عكس ذلك، كما حصلت تغييرات مدهشة في الوضع التكنولوجي والسياسي الدولي، بسبب التقنيات العالية، أي لم يتغيّر المجتمع فقط، بل حتى الطبيعة تغيّرت، في صالح الأنظمة والثورة المضادة.

وقديمًا أيضًا، كان شقّ طريق بطول ألف كيلومتر وتسويته يحتاج إلى آلاف العمّال الأقوياء والمهرة، وإلى عشر سنوات في أقلّ تقدير، لكي يكون جاهزًا لمرور الشاحنات والقوافل العسكرية الكبيرة، لكنّ هذه العملية لا تحتاج الآن إلا لوقت قصير وعمّال قليلين بسبب استعمال البلدوزرات، والديناميت، والآلات والأدوات الحديثة الأخرى، حتى أنّه بالإمكان إيصال الطرق إلى أصعب المناطق، وأعلى الجبال بوقت قصير، لتمرّ القوافل العسكرية الكبيرة عليها.

إنّ إيصال الطرق إلى قمة جبل كورك وجبل سرتيز ومضيق علي بط، وما حولها من المناطق الصعبة، غيّر ميزان القوّة العسكرية بين النظام العراقي وثورة أيلول، لصالح الخطط الحربية للنظام، لأنّ الدبابات والمدرّعات والمئات من المدافع الثقيلة والألوف من الجنود والمستلزمات الحربية واللوجستية كانت تصل إلى ساحات المعارك بكل سهولة، بينما الثورة لم تكن لتستطيع أن تجمع نصف تلك القوّة، ولفترة طويلة، لمواجهة قوّات العدوّ المحتلّ كما يجب. فبالإضافة إلى عدم التكافؤ في الأسلحة الميدانية الثقيلة، فإنّ النظام العراقي كان يمتلك الطائرات الحربية أيضًا، والتي تعتبر أكثر أسلحة العصر فتكًا وسرعة وحسمًا، في الحروب الجبهوية والاتساع الميداني، حيث بإمكانها زرع الموت في كل الظروف والأجواء، وفي الليل والنهار، وطيلة الفصول الأربعة.

إنّ التقدّم الصناعي، غيّر الطبيعة الجغرافية الصعبة، ممّا أدّى إلى إزالة الكثير من العقبات والعراقيل أمام الخطط العسكرية، والاستعدادات العسكرية وجعلها أكثر سهولة، وسهّل هذا بدوره احتلال الأماكن والجبال العصيّة التي كانت بيد الأنصار وقوّات المعارضة في بعض البلدان، كما قضى على وجود هكذا أماكن وجبال في بلدان أخرى نهائيًا، مثل فلسطين، وكوردستان/تركيا، وكوردستان/إيران، أي بفعل تغيير الطبيعة الجغرافية لم يبقَ للأنصار شيء يسمّى العمق الاستراتيجي، والانسحاب، وعرض القوّات، وفرص الاختباء، والمحافظة على المقرّات، والاستراحة في أوقات الشدّة، والاطمئنان على مقر القيادة، والإعلام، والمستشفى، ومخزن

المواد الغذائية ومخزن العتاد.

فحتى لو بنى الأنصار قواعدهم بصورة موقّتة، فإنّ خطر قصف المدافع الثقيلة البعيدة المدى، والطائرات السريعة تهدّدهم بصورة كبيرة، إضافة إلى الحاجة إلى قوّة كبيرة من الأنصار لحراسة هذه القواعد والمقرّات، لاسيّما الرئيسية منها. إنّ جمع مثل هذا العدد من الأنصار يكون على حساب مبادئ حرب الأنصار، وهذا بالذات يجبر الأنصار على حرب جبهوية قبل أوانها، وهي بعيدة عن خطّة حرب الأنصار، وموافقة مع خطّة الثورة المضادّة.

في حالة عدم وقوع قواعد ومناطق فعاليات الأنصار بالقرب من حدود دولة صديقة، فمن الصعب عليهم الصمود في مقرّاتهم الدائمة لفترة طويلة، أمام العدو المتفوّق عددًا وعدّة، حتى وإن كانوا يملكون أسلحة وعتادًا كافيين، وأنصارًا مسلّحين كثيرين مستعدّين للتضحية والفداء. فالعدوّ يشنّ عليهم هجمات متتالية ومستمرّة، بالأسلحة الثقيلة، وبقوّات المشاة الكثيرة العدد، وبقصف الطائرات المختلفة، والمدافع المتنوّعة، خاصّة أنّ العدو، إضافة إلى عسكرته لمناطق الأنصار، والحصار العسكري، فهو يعمد إلى محاصرة هذه المناطق اقتصاديًا، وحرق بيادر الفلاحين ومحاصيلهم الزراعية، ممّا يؤدّي إلى إشاعة الفقر والجوع في هذه المناطق.

إنّ الجوع بالنسبة إلى البيشمركةـالفدائيين، والمواطنين من سكّان هذه المناطق يقصم الظهر في أوقات اشتداد القتال وإطلاق النار. هذا صحيح بالنسبة إلى ثورة ضعيفة، بلا سند ولا ظهير، وبدون سلاح وقليلة القوّات، ولا شك في ذلك. لكن في الدول القمعية التي تقدّمت فيها تكنولوجيا الأسلحة بشكل كبير، لا تستطيع الصمود حتى الثورات القويّة التي تتمتّع بالتأييد والمساندة والدعم العالمي الكبير.

الثورة الفلسطينية:

فبالرغم من أنّها لا تمتلك الطائرات، إلا أنّها تمتلك الألوف المؤلّفة من الأسلحة الخفيفة، والمدافع الثقيلة والمدرّعات، والدبابات، والمدافع البعيدة المدى، والراجمات، والكاتيوشا، والمدافع المضادّة للجوّ، وعشرات الآلاف من المقاتلين، وتتلقّى المساعدات بمئات الملايين من الدولارات. ومع كل هذا، لم تستطع تحرير

شبر واحد من أرض فلسطين، ولم تتمكّن من إنشاء قاعدة واحدة داخلها.[٨٣] بل لا تتمكّن حتى مفرزة واحدة من البقاء ليلة واحدة داخل فلسطين، لأنّها تتعرّض للفناء بعد أن تعلم إسرائيل بوجودها، لأنّ إسرائيل أقوى من هذه الثورة إلى حدّ كبير جدًا. ولم يبقَ مكان أو جبل لم تسيطر عليه، إضافة إلى أنّ جيشها تدرّب على أحدث وسائل الثورة المضادّة.

ثورة كمبوديا:

المقاومة الكمبودية هي صاحبة تجربة غنيّة كبيرة في حرب الأنصار، وتتسلّم الدعم والتأييد من دول عظمى، ومع ذلك لا تستطيع البقاء داخل عمق أراضي بلادها، بل اضطرت إلى الانتقال بقواها الرئيسية الثلاث (البولبوتيين، والسونسونيين، والسيهانوكيين) إلى حدود البلاد.

ثورة البوليساريو:

لم تستطع قوّات البوليساريو من إنشاء قواعد رئيسية لها داخل وطنها، رغم ضعف النظام المغربي، والمساندة والدعم الكبيرين اللذين تلقّاهما، وتشكيلها لحكومة موقتة. رغم كل هذا قواعدها الرئيسية موجودة على أرض دولة الجزائر المجاورة.

ثورة كوردستان:

ليست لديها، في جميع أجزاء كوردستان، قاعدة واحدة تستطيع المحافظة عليها، فكل جزء منها واقع داخل دولة.[٨٤]

هناك، بلا شك، في بعض الأرجاء من العالم، مقرّات للأنصار استطاعوا المحافظة عليها، وظلّت بعيدة عن متناول يد العدوّ، مثل أريتريا والفيليبين والسلفادور. فعدا كون الأنظمة التي قامت الثورة ضدّها، ضعيفة من الناحية

٨٣ كان هذا قبل توقيع الاتفاقيات بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل التي سمح بموجبها بعودة ياسر عرفات رئيس المنظمة ومؤيدي هذه الاتفاقيات من قادة وأنصار المنظمة إلى بعض المناطق من فلسطين ذات الحكم الذاتي.

٨٤ هذا الرأي تأكد بعد عمليات الأنفال وقصف المناطق المحررة بالأسلحة الكيمياوية ممّا أدى إلى انسحاب الأنصار من مقراتهم داخل كوردستان العراق.

الاقتصادية، قليلة القوّة من الناحية العسكرية، وكثيرًا ما كانت تساندها وتساعدها القوى العظمى بسبب أهمّية الجغرافيا السياسية (الجيوبوليتيك) التي تتمتّع بها مناطقها، فبالرغم من الضعف الاقتصادي والعسكري لتلك الأنظمة، لم يستطع الأنصار نقل الثورة من حرب الأنصار والحرب المتحرّكة إلى بقيّة مراحل الثورة الطويلة الأمد. ففي الفيليبين ظلّت تراوح في مكانها بعد مرور ٣١ عامًا على اندلاع ثورتها، كذلك في أريتريا ظلّت هكذا بعد مرور ٢٩ عامًا عليها،[٨٥] أي أنّهما ما زالتا في مرحلة الدفاع السلبي.

إنّ دفاعًا كهذا سلبي وغير مجدٍ للثورة الطويلة الأمد، لاسيّما إذا امتدّت لسنوات طويلة، فإذا لم تنقل الثورة من هذه المرحلة إلى مرحلة الهجوم الاستراتيجي، أو إلى خلق أرضية مناسبة للانتفاضة الجماهيرية في المدن، فإنّ بقاء الثورة في حالة كحالة الفيليبين وأريتريا[٨٦] يعني وصول الثورة إلى طريق عسكري مسدود، ومن الواضح أنّ ذلك يؤثّر من الناحية السياسية–النفسية في نفوس ومواقف الجماهير. فالثورة الطويلة الأمد ترفع وتقوّي معنويات الجماهير شيئًا فشيئًا، عن طريق إضعاف العدوّ، ومن ثم توصلهم إلى قمّة الانتصار. وكل ثورة طويلة الأمد لم تستطع عمل هذا، بعد مرور سنوات طويلة، ستصل إلى مرحلة تأكل نفسها بنفسها، ثم إلى مرحلة التقهقر والتراجع، إلا إذا أنقذتها تطوّرات كبيرة، وتغييرات غير متوقّعة على الساحة، من التقهقر والطريق العسكري المسدود.

ظروف السلفادور لدى كتابة هذه السطور تبدو أكثر ملاءمة، ويتوقّع منها أن تضع انتفاضة المدن، مثلما حصل لنيكاراغوا، تاج الانتصار على رأس الثورة (إن انتصرت)، وإلا فإنّ حرب الأنصار فيها ينتظرها وضع صعب، حيث عليها أن تقضي على العدوّ مدينة بعد مدينة حتى تصل إلى العاصمة وتحرّرها.

ولكي نعرف، بصورة أفضل، وضع الفيليبين وأريتريا،[٨٧] فمن الضروري أن نتحدّث عن الأحداث السياسية في البلدين. ففي إثيوبيا التي تحتل أريتريا، جرى انقلاب كبير، وتغيّر نظام هيلا سيلاسي الرجعي، وحلّ محلّه نظام منغيستو ماريام،

٨٥ انتصرت ثورة أريتريا عن طريق الانقلاب والانتفاضة التي حصلت في إثيوبيا، وهي منشغلة الآن في تثبيت أركان دولتها المستقلة.

٨٦ كان هذا قبل نيل استقلالها - المترجم .

٨٧ قبل الاستقلال - المترجم .

وتبدّل الوضع السياسي في كل أرجاء البلاد كليًا، بينما ظلّت الحركة التحرّرية الأريترية تدور داخل دائرة الدفاع والمقاومة، والهجوم وأخطاء حرب الأنصار. وبقدر ما كان نظام منغيستو يطبّل للاشتراكية، كان السوفييت يساندونه، وتضيق فرصة انتصار الحركة التحرّرية الأريترية بصورة أكثر، وتلحقها خسائر فادحة إزاء الأسلحة الثقيلة للنظام، حتى أنّها اضطرت إلى التنازل عن مجموعة من الأهداف السياسية السابقة.

وفي الفيليبين، ونتيجة للضغط الجماهيري داخل المدن سقط نظام فرديناند ماركوس الديكتاتوري الكبير في هذا العصر، وتمّ إخراجه من البلد، وانتخبت كورازون أكينو التي قتل زوجها على يد رجال ماركوس القتلة بسبب مناداته بالحرّية، رئيسة للجمهورية. وشهدت الفيليبين أنواعًا من الإضرابات والمظاهرات والانقلابات والأزمات العميقة الأخرى، في ربع القرن الماضي، بينما لم تتحرّك لا الثورة الطويلة الأمد للحزب الشيوعي، ولا للمسلمين، من معاقلهما في الجزر النائية والغابات والجبال والبراري المهجورة. فلو كان الحزب الشيوعي الفيليبيني غيّر استراتيجيته هذه، بسياسة ثورية ملائمة مع الظروف المستجدة، وأعطى أهميّة لانتفاضة المدن، لحقّق تغييرًا كبيرًا، ولم يكن انتصارها مستبعدًا.

في التاريخ، حصلت ولادة مصادفتين تاريخيّتين متناقضتين في بلد واحد. الأولى هي ولادة حرب الأنصار، والثانية هي ضرورة التخلّي عن نفس الحرب في ظروف مغايرة.

سنة ١٩٣٩ كانت إسبانيا مركزًا لأكبر حرب داخلية في العالم، وأسرع الأحرار، من جميع أنحاء العالم لنجدة الجمهوريين ضدّ «الفالانج».[٨٨]* وقدّمت «الكومنترن» وأحرار العالم لهم ما كان باستطاعتهم، ولم يقصّروا في تقديم المساعدات لهم. غير أن حرب الأنصار التي انتصرت قبل مئة وثلاثين عامًا بقيادة متخلّفة، والتي قادها الحزب الشيوعي بمساندة أكثريّة بلدان وشعوب العالم، طوال اثني عشر عامًا من المعارك، انتهت إلى الفشل.

إنريكو لستي، أحد القادة الكبار المهزومين، يقول في هذا المجال:

---

٨٨ (الفالانج) أي: حزب الكتائب الاسباني الفاشستي الذي أيد الجنرال فرانكو دكتاتور اسبانيا ليحكمها بالحديد والنار مابين الاعوام (١٩٤٧-١٩٧٥)- المترجم.

لقد أظهرت تجربة إسبانيا أنّ البدء بالنضال المسلّح، في القرى، والنضال المكثّف في المدن، حيث يجمع الشكل الاعتيادي وغير الاعتيادي معًا، صعب للغاية، اللهم إلا إذا كان هناك أزمة ثورية غير عميقة. ففي بلد، يمتلك نظامه قوّة قمعية كبيرة، وشبكة مواصلات منظّمة لنقل وتوزيع قوّاته بسهولة، ويكون الوضع الثوري العامّ ضعيفًا أو صفرًا، من الصعب، في مثل هذه الحالة القيام بحرب الأنصار الطويلة الأمد.

الدرس الثاني الذي تعلمناه، وإسبانيا أيضًا ليست مختلفة عن البقية، هو أنّه من الضروري أن يستطيع قادة حركة المقاومة إيقاف حرب الأنصار في أقرب وقت، ولفّ راياتهم، قبل فوات الأوان، إذا ظهر لهم أنّ هذا النهج ليس أفضل وسيلة، وأنّه سيصبح سببًا في ضياع الموقع الطليعي وهزيمته.[٨٩]

هذا هو قانون الظواهر، واختفاء الشروط القديمة، وظهور الشروط الجديدة. ففي إسبانيا، ما زالت القضية القومية لـ «الباسك» بلا حلّ، وبالرغم من إيمان الشعب الباسكي بالنضال المسلّح، إلا أنّه لم يختر طريق الثورة الطويلة الأمد، بل اختار طريق القيام بالنشاطات الثوريّة الأخرى والاغتيالات واستعمال العنف داخل المدن. كما هي الحال عند الشعب الإيرلندي، لأنّ عدد نفوس الشعب الباسكي قياسًا إلى الشعب الإسباني الحاكم قليل، ومساحة أرضه أقلّ، وعدوّه أقوى وأكثر اقتدارًا، وتمّ إيصال طرق المواصلات والنقل إلى أبعد وأصعب مكان، ولأنّه آمن بأنّ حرب الأنصار والثورة الطويلة الأمد ضدّ نظام رأسمالي، يملك صناعة متطوّرة كبيرة، لا يمكن أن تنجح وتنتصر.

إذا كانت الثورة الطويلة الأمد ضدّ الأنظمة الضعيفة، وبمساندة الحركة الثوريّة الجماهيرية، أداة جيّدة لتحرير الشعوب المضطهدة، فيما مضى، فإنّ التخلي عنها، في هذه المرحلة، لاسيّما بعد هذا المستوى الاقتصادي المتقدّم للأنظمة القمعية الحاكمة، والقدرة والتكنولوجيا التي تمّت صياغة أسسها في السبعينيات، واكتملت في الثمانينيات، لهو وسيلة لإيجاد بديل جديد للتحرير والخلاص، كما أنّ أيّ إصرار على الثورة الطويلة الأمد، خاصّة، كقانون جامد لتحرّر الشعوب والعمّال، هو إراقة لدماء أبناء الشعب سدى، ليس إلا.

٨٩ الماركسية وحرب الأنصار، ترجمة ابراهيم العابد وماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١١١.

إنّ حرب الأنصار انسحبت من الساحة نظريًا وعمليًا أمام نموّ وانتعاش النضال الثوري الجديد، وحانت المرحلة التي يوضع فيها هذا الشكل من الكفاح المسلّح في خدمة ثورة أخرى، إذا تطلّبت الظروف ذلك، يُلجأ إليه كنهج وسيط، وعامل مساعد.

حرب الأنصار، سجّلت بفخر أمجادها وانتصاراتها على الظلم والقهر والاضطهاد، إلى الوقت الذي كان فيه مجال للنجاح، وكانت أداة فعّالة لإقلاق وإرعاب المحتلّين، ومن الضروري أن يكون منظورها محل تقدير واحترام الثوريّين الحقيقيين، إلى الحدّ الذي له علاقة بهذا النهج، وإلا فإنّ نجمة حرب الأنصار المتلألئة، كقانون للتحرير، آيلة إلى الأفول.

٣/٧- انتفاضة المدن (النهج الثاني)

منذ أن بدأ الإنسان ببناء المدن، والسكن فيها بشكل جماعي، كانت، بحكم اختلاف الأوضاع الاجتماعية فيها بين الغني والفقير، والقصور الكبيرة والبيوت الصغيرة غير المنتظمة، والغلاء والقحط، والظلم والجور، والسرقة والنهب... إلخ، مكانًا للتعبير عن عدم رضى سكّانها، وكانت من مظاهرها الانتفاضات والمظاهرات والإضرابات.

في مرحلة العبودية حيث كان السلاح وأدوات الحرب فيها قليلة، بسبب انخفاض المستوى التقني لصناعة السلاح، وحتى ذلك القليل الموجود كان بيد الحكومات ومالكي العبيد على الأكثر، ليس من المستبعد أن تكون الاحتجاجات الصغيرة للمظلومين، في المدن، قد وصلت إلى درجة الانفجار، لاسيّما في نهايات مرحلة العبودية. ولجأ سكّان المدن والقصبات إلى استعمال الحجارة والفؤوس والهراوات والعصيّ والمشاعل لحرق كل ما يملكه الأغنياء، وإلحاق الضرر والأذى بهم سرًا، لأنّ الطبيعة البشرية مجبولة على استعمال أيّ شيء، يقع بين اليدين وقت الضيق والاضطرار، للدفاع عن النفس والأهل، ليصبح سلاحًا للدفاع والهجوم أيضًا. لذلك كانت الحجارة مدفعًا بعيد المدى استعمله المظلومون ضدّ الظالمين، ومن الواضح أنّ حرب المواجهة ضدّ حاملي السيوف والدروع، كانت حربًا خاسرة. لذلك كانت الحجارة في المعارك، كسلاح مصنوع في معامل الطبيعة، شريكًا وفيًا للفقراء.

بعد أن توسّعت المدن، وازداد سكّانها، وكثرت المحلات والبيوت والطرق والشوارع فيها، بدأت احتجاجات وغارات سكّان المدن تزداد وتتوسّع، واتخذ الناس من أسطح المنازل والبنايات، ومن المحلات الضيّقة ربايا ومتاريس دفاعية. وقد حسّنوا وسائل التصدّي للعدوّ، حتى أوصلوها إلى حدّ صب الماء الساخن وقذف النار من على أسطح المنازل وعبر النوافذ، واختطاف وقتل الحرّاس في الطرقات الضيّقة والذي ما زال موجودًا إلى يومنا هذا. إنّ قمع الاحتجاجات

السلمية الهادئة، وعدم تلبية المطالب المشروعة للناس، يتطوّر إلى نشاطات عنيفة، وإلى القتل والدمار.

بعدما ظهرت الرأسمالية، وترسّخت أركانها، وأنشئت المعامل والمصانع في ظلّها، وربطت أحدث طبقة مضطهدة، بصورة جماعية، بمصدر وسائل المعيشة الحديثة، تمكّن هذا النظام من تغيير مسار المجتمع والحياة الاجتماعية، وشكل المدينة والمدنيّة، وتفكير الناس والفكر النظري والفلسفي والعلمي والثقافي والتنويري جميعًا. ونفث في نفوس الناس حب الحرّية والاستقلال والديمقراطية والسعادة، ووضع المظلوم والظالم في بوتقة النضال في جبهتين متضادتين منقطعتين عن بعضهما، وإلى الأبد، كما جعلت المعامل أفرانًا لتسخين وغليان كفاح العمّال والجماهير المضطهدة.

فبعد أفول شمس الإقطاع مباشرة، ساءت العلاقات بين الرأسماليين والعمّال، وتوتّرت، وتعمّق شيئًا فشيئًا هذا التوتّر والخلافات بينهما، ووصلت إلى درجة الاحتجاجات والإضرابات عن العمل، ثم التظاهرات، وأخيرًا الانتفاضات.

هذا هو المسار الديالكتيكي للتطوّر الاجتماعي. فالاحتجاج الطبقي، حتى لو تجمّع قطرة قطرة، فسيأتي يوم يتحوّل غضبه المقدّس إلى فيضان جارف من الحقد المقدّس.

إنّ العمّال، عندما تصل أياديهم المؤجّرة إلى وسائل الإنتاج، يحوّلون هذه الوسائل إلى أحسن الأدوات لتحقيق التحرير والخلاص من العبودية.

كانت المدن في ذلك الوقت، شاهدة حقيقية على الانتفاضات الكبرى للجماهير، لذلك وصفها ماركس بانتفاضة شاملة عامّة، أي كانت انتفاضات الجماهير عمومًا ضدّ المستغلّين.[٩٠] فالكل تخندقوا ضدّهم، ودخلوا في قتال مباشر معهم، وبلا شك، وقع السلاح أيضًا في أيدي الجماهير المناضلة، إضافة إلى ما كانوا يملكونه من وسائل القتال الأخرى كالعصيّ والحجارة والنار والحديد، وتمّ إيصال الانتفاضة إلى درجة بناء المتاريس في المدن، والقتال من خندق إلى خندق، وربيئة إلى ربيئة، ومتراس إلى متراس. وكما كان البرجوازيون يحاربون قديمًا

---

٩٠ ليست فقط انتفاضة العمال.

ضدّ الأرستقراطيين في الحروب الكبرى لفرنسا وأوروبا وأميركا، انتقل هذا الإرث إلى العمّال الذين حاربوا ضدّ البرجوازيين بنفس الصورة.

بلا شك، عندما كان البرجوازيون يحاربون الأرستقراطيين في حينه، كانت جيوشهم مؤلّفة فقط من الكادحين، وكان ذلك بمثابة تدريب عسكري جيّد لأبناء الكادحين. لكن، بعد أن انكشفت أكاذيب البرجوازيين بصورة صارخة، تخلّى أولئك العمّال الذين كانوا يجنّدون في صفوف جيوش البرجوازيين ضدّ الإقطاعيين، عن الانضمام إلى تلك الجيوش. وبمرور الزمن كثر عددهم، وأصبحوا أصحاب قرارهم وأصحاب نضالهم الطبقي المستقل، وأدّى هذا إلى خلق تغيير جذري من كل النواحي، حتى من ناحية الحرب والانتفاضة. ففي ذلك الوقت بالضبط الذي قدّم فيه المضطهدون رسالة التحرّر الثوري إلى الإنسانية، بعد انكشاف زيف وكذب «المساواة والإخاء والحرّية» التي كان ينادي بها البرجوازيون، تبيّن أيضًا بسرعة أنّها النهج الثوري الصحيح للعمّال والكادحين في سبيل الخلاص والحرّية.

فيما مضى، كان هناك خلط بين مفهوم الانتفاضة، وزرع المتاريس داخل المدن بصورة عامّة. ففي كل مرّة، تمّ فيها تنظيم الانتفاضة بشكل جيّد، وشملت شرائح المجتمع كافّة، واندلعت في وقتها المناسب، وقصمت ظهر اقتصاد الأنظمة الحاكمة، فإنّ الانتفاضة في مثل هذه الحالة تمكّنت من إجبار الأنظمة الحاكمة على التراجع، وزرع الشلل في مؤسّساتها الاقتصادية والقمعية. وإنّ عدم انتصار انتفاضات كهذه يعود إلى قياداتها، وليس إلى الانتفاضات نفسها، عندما لم تكن هناك خطّة مدروسة للانتفاضة، وكان التسرّع في اتخاذ القرارات هو الطابع المسيطر على الانتفاضة. كان الأعداء ينتصرون على الانتفاضة، في مثل هذه الحالات، بكل سهولة، لأنّهم في حرب البنادق، يملكون سلاحًا أكثر، وجيشًا مدرّبًا، وسلاحًا ثقيلًا وعتادًا كثيرًا، ولديهم المدافع والهاونات والصواريخ والقنابل، ويملكون قدرة سوقية واستعدادًا عسكريًا عاليًا، لذلك تنتصر الأنظمة في حرب البنادق، ويخسر الثوريون فيها.

في حرب البنادق الدفاعية، يستطيع العدوّ إلصاق أنواع التهم بالثوريّين، كالتمرّد وتحريض الأجنبي والخروج على القانون، وأنواع أخرى من التهم. وكانت مثل هذه الحروب النفسية، إلى حدّ ما، في صالح الرأسماليين، لاسيّما إذا استبدل

المسار الرئيسي للنضال بمسار ثانوي. هذا، إضافة إلى أنّ حرب البنادق بأصوات طلقاتها وضجيجها، موتها ودمارها، تجبر أكثريّة الجماهير على البقاء في منازلهم وعدم تركها. وبذلك تقع مسؤولية الدفاع على عاتق حاملي البنادق، وهم بسبب قلّة البنادق والعتاد. وبهذا يحصل نوع من القطيعة العسكرية بين الثوريين المسلّحين والجماهير. نعم هذا هو فخّ وقع فيه الثوريّون المغامرون.

في كومونة باريس التي اختلطت فيها الانتفاضة بالهجمات المسلّحة، وبدأت مرحلتها الأولى بالهجمات الكبيرة، واندفع الثوريون من كل الجهات لمهاجمة مؤسّسات النظام، انتصرت الانتفاضة، وتشكّلت الحكومة العمّالية في باريس. لكنّه، بعد الانتصار، إضافة إلى أخطاء الثورة السياسية التي تمثلت في عدم التفريق بين مهمات الثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية، والتي ارتكبها البلانكيّون»[91]*، فإنّ الثورة، من الناحية العسكرية، أوقفت هجماتها، ولم تهاجم قصر فرساي الذي جعله العدوّ مقرّا للإعداد والاستعداد من جديد، ولم تسيطر أيضًا على البنوك، واعتمدت على استراتيجية الدفاع بدلًا من الاستمرار في الهجوم.

إنّ خطأ هذه الاستراتيجية العسكرية، أي خطأ الدفاع عن النفس، بدل الهجوم المستمرّ، أغرق الكومونة، من الناحية العسكرية، بالدماء. وقد ظهر أنّ وقف الهجمات، والإعداد لدفاع قويّ، حتى في أوقات دحر وهزيمة الأنظمة، هو خطأ قاتل.[92] وهكذا هزمت الكومونة في الهجوم المضادّ للثورة المضادّة، وعندما هزموها، تبيّن من أعمالهم اللاحقة أنّهم كانوا لا يريدون تكرار قيام كومونة ككومونة باريس مرّة أخرى، في وقت قريب أو بعيد، ولم يخطئوا في تقديرهم هذا. صحيح أنّهم لم يتمكّنوا من اقتلاع نضال العمّال والانتفاضة من الجذور، لكنّهم استطاعوا، وإلى اليوم، عرقلة انتصار الاشتراكية.

إنّ أحداث التاريخ ليست أفلامًا سينمائية، حتى يستطيع أيّ حزب عرضها على شاشة موقف الجماهير، في أيّ وقت يراد، والإيمان برأي المخطئ هو خطأ

---

٩١ اوغست بلانكي (١٨٠٥-١٨٨١) اشتراكي طوباوي فرنسي، قضى معظم حياته في السجون أو وراء المتاريس أو في المنفى، لم يشارك في كومونة باريس بسبب اعتقاله قبيل اندلاعها، وكان لأنصاره دور بارز فيها- المترجم.

٩٢ نفس أخطاء الكومونة، تكررت في كوردستان، في زمان آخر وأرضية مختلفة وبقيادة أخرى، وتمكن الفاشيون العراقيون مثل البرجوازيين الفرنسيين من إيصال الثورة المضادة إلى النجاح والنصر.

قاتل. فما فُقِدَ في الماضي، لا يمكن تعويضه الآن، وما يضيع الآن لا يمكن تعويضه، في أيّ وقت يُشاء.

هكذا، وفي ظروف تاريخية متغيّرة، وفي ظلّ العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية الجديدة، وبعد قطع العديد من المراحل، ونجاح أنواع من التجارب الكبيرة والصغيرة، كذلك بعد اختبار نجاح الانتفاضة في بعض المناطق، والثورة الطويلة الأمد في مناطق أخرى، وفشل كلتا التجربتين أحيانًا في الكثير من مناطق العالم، فمن المنتظر أن يصبح نهج الانتفاضة المستمرّة الهدف البعيد للعمّال والشعوب، بعد أن فقدت الثورة المسلّحة الطويلة الأمد أهميّتها كاستراتيجية وحيدة للتحرّر، وكقانون ثابت غير قابل للتغيير، وهذا مبعث انتعاش لروح النضال القديم للمدن بفعل نسمات ثورة العصر الجديد، ونشاط الجيل الجديد.

٣/٧ – مضمون الانتفاضة

كان للانتفاضة ونهوض جماهير المدن ماضٍ مجيد، وسجلّ تاريخيّ عظيم حافل بالفخر والاعتزاز. كما أنّ أخذ الدروس والعبر من التجارب القديمة والجديدة للانتفاضة في هذا الوقت أحيا الوجه والجوهر العصريين لها. لكنّه لم يتمّ التنظير للانتفاضة الحديثة وتطبيق آلياتها بشكل جيّد. لذلك من الصعب تحديد أسسها وإطارها، وكيفية العمل بها، لكنّنا نستطيع التحدّث عن ظواهرها، لا التنبؤ بمجرياتها وتحليلها في هذا الإطار:

انتفاضة المدن، بمفهومها الخاصّ والعامّ نابعة من العلاقات الرأسمالية والثورات الرأسمالية ضدّ النظام الإقطاعي. فمنذ أن قطعت قدرات وعلاقات الرأسمالية حدود العوامل المتعدّدة، وصاغت أسس الرأسمالية، أصبحت المدينة منذ ذلك الوقت، سواء من حيث الإنتاج، أم كمركز للتحكّم السياسي في الدول الرأسمالية، أم من حيث سيطرة سكّان المدينة على سكّان القرى، طليعة لكل الأحداث، ومركزًا لانفجار الأحداث المصيرية.

إنّ تجمّع الناس في المدن وعملية التعارف بينهم، وصداقاتهم واختلاطهم، وتبادل الزيارات والثقة المتبادلة بينهم، وتواصل حياتهم ومعيشتهم المشتركة، وسهولة انتشار أخبارهم، أدّى إلى سيطرة المدينة على الحياة، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، على عكس ما كان سائدًا في السابق.

فالانتفاضة أيضًا، كأعلى مرتبة من مراتب نهج النضال، هي مكسب كبير لهذا العصر، وقد أنعشت الأسس والأطر الطبقية والسياسية، أثناء مسيرة تطوّر العصر الرأسمالي.

حينما بنيت المدن، وأصبحت نموذجًا للاستيطان وتطوّر المجتمع، لم يبقَ

للتمرّد المتفرّق والضعيف الذي كان يقوم به الفلاحون وسكّان القرى، أيّ دور فعّال مقارنة بما كان له من أثر في السابق. لقد فقد كل عمل في القرية أهميّته، بدون المدينة، سواء الأعمال الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية، ولم يبقَ لأيّ منها أيّ تأثير حاسم ومصيري، وليس باستطاعة القرية والقرويين إمساك زمام الأمور بأيديهم بمعزل عن المدينة. لذلك، فمنذ قيام الثورات البرجوازية الكبيرة، في أوروبا وأميركا التي وقعت فيها المدن بأيدي الطبقة البرجوازية الثوريّة حينذاك، حيث جعلوا منها خندقًا للمعارضة والقضاء على النظام الإقطاعي، لم يتمكّن الإقطاعيون مع كل ما كانوا يمتلكون من تجارب قديمة، ومن حقد وسخط، من الوقوف بوجه تيّار الأحداث، وإيقاف عجلة التاريخ.

ثورة هولندا في القرن السادس عشر، وثورتا إنكلترا في القرن السابع عشر، وثورة أميركا في القرن الثامن عشر، خير شاهد على أهميّة المدن وانتفاضة سكّان المدن ضدّ الإقطاع، وقد غيّرت انتصاراتهم التي قلّ نظيرها العالم قاطبة.

ثورة فرنسا الكبرى التي قامت بعد تلك الثورات، وفشلت، إلا أنّها هزّت العالم أكثر من تلك الثورات، وأثّرت أكثر منها في الأحداث السياسية والاجتماعية في قارة آسيا. ومن الممكن إرجاع سبب بروز تلك الحقائق إلى ثلاثة أسباب تاريخية:

١- حينما انتعشت هولندا وبريطانيا، بعد الاكتشافات الجغرافية الجديدة، وأصبح اقتصادهما وتجارتهما أكثر قوّة ونشاطًا، كانت آسيا في ذلك الوقت، غارقة في سبات القرون الوسطى، ولم تحدث فيها حادثة اجتماعية جديرة بالبحث، أو مؤدّية إلى التغيير.

٢- تزامن انفجار الثورة الفرنسية مع بداية ولادة الرأسمال والرأسمالية، والتقدّم التجاري، والأحداث الاجتماعية والسياسية في آسيا.

٣- أنجزت ثورة فرنسا، بعكس الثورات البرجوازية الأخرى، وبشكل قاطع، المهمّات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولم تدخل في مساومات مع الإقطاعيين والأرستقراطيين الرجعيين.

وهناك سببان تاريخيان مهمّان آخران، يرجعان إلى الثورة نفسها، جعلاها أهمّ ثورة برجوازية في العالم:

١ – عناد النبلاء وإصرارهم على المحافظة على مكانة الإقطاع في المجتمع، ووقوفهم ضدّ إعطاء أيّ مكسب لغيرهم .

٢ – سخط الناس الشديد، ووقوفهم ضدّ إعطاء الأهمّيّة لطبقة معيّنة والتمييز الطبقي بصورة عامّة.[٩٣]

إنّ نشوء الرأسمالية، وتوسّع المدن، وانتصار ثورة برجوازية المدن، دفعت الانتفاضات إلى التعاون فيما بينها. فحتى في البلدان المتخلّفة أيضًا، كان النضال من أجل الاستقلال السياسي في البلدان الشرقية، أفضل دليل على صدق تلك الحقيقة الصارخة، بالرغم من أنّ ظهور التقدّم الاقتصادي والاجتماعي في الشرق تأخّر، بحكم تقدّم الرأسمالية في الغرب وتأخّر إرسال الرأسمال والرأسمالية إلى الشرق.

لقد حصل بلا شك تغيير على ذلك التيّار، ولاسيّما في الدول المتخلّفة. فالثورة الطويلة الأمد، ضمن ظروفها الخاصّة بها، كانت أهمّ تيّار مغيّر للنضال من المدن إلى الجبال، ومع هذا، فإنّ الثورة الطويلة الأمد، من غير مشاركة المدينة، وفي كل الأحوال لم تستطع عمل أيّ شيء.

إنّ الهجرة من الريف إلى المدينة هي إحدى سمات نهاية القرن العشرين، وإنّ سكّان المدن، في أغلبيّة الدول المتقدّمة وشبه المتقدّمة، هم أكثر من سكّان القرى، حتى في دول كالعراق. فحصول المدينة على هذه الأهمّيّة، في مرحلة النموّ الاجتماعي، وفي ظروف العالم المتغيّرة، سيجعل المدينة مرّة أخرى، وأفضل من السابق، مركزًا سياسيًا مصيريًا وحاسمًا، مع أنّ هذه الظاهرة قد تمّ تغييرها، لفترة ما، في بعض الدول الآسيوية. فالمدن الآن مزدحمة ومليئة وكبيرة ومؤثّرة، ومعاملها وعمالها في تكاثر مستمرّ، وغدت مراكز للثقافة والأخبار، وعلاقاتها مستمرّة مع العالم، وتمثّل العمود الفقري للدول، وتصل أخبارها بسرعة إلى بقيّة الدول.

كما أنّ للعواصم والمدن الصناعية الكبرى أهمّيّة أكبر، وقد بني عليها النظام السياسي للدول، ولأصغر الأحداث فيها تأثيره الخاصّ به. هذه هي الجوانب

---

٩٣ البرسوبول، انقلاب فرانسة، ترجمة: عبدالرحمن صدرية، ضاث سوم تأريخ نشر ١٣٦٦، ص١٦.

المشرقة للمدن، حيث يستطيع المناضلون الثوريون الاستفادة من العمل التنظيمي والدعاية والنشاط الثوري، ونشر البيانات والأدبيات، والكتابة على الجدران وتعليق ولصق البوسترات، والاختفاء وإخفاء المطابع والاستفادة القصوى منها لتطوير النهج الثوري، وفسح المجال أمام الثوريين لتصل أيديهم إلى قلب المصانع والمعامل والأماكن التي يسكنها الكادحون، وليجتمعوا حول طليعتهم الطبقية.

للمدن في هذه الظروف جوانب سلبية أيضًا، ينبغي أخذها بالاعتبار، مثل انتشار أماكن شرب الخمر واللهو والسيارت والتنزّه والسينما والفيديو والنوادي الرياضية المختلفة والألعاب الأخرى. فهذه الظواهر، عدا جوانبها الايجابية، فهي تستعمل لأغراض سيئة أيضًا. وإنّ الحصول على كل الحاجات الضرورية للناس، وزيادة أجور العمّال والكادحين، وكل الأشياء التي أصبحت جزءًا من حياة الناس، إلى درجة يستطيع فيها حتى الناس غير المتمكّنين اقتصاديًا، من تأمين بعض رغباتهم واحتياجاتهم، ولاسيّما في الدول الغنيّة. وقد أثّر كل هذا، قليلًا أو كثيرًا، على شعور الناس والتخفيف من مواقفهم الثوريّة.

علاوة على ذلك، تحاول الأنظمة، كل من منظورها الخاصّ للعالم، وحسب القوّة والسلطة والمكانة التي تحتلّها، وبأحدث الخطط، وبأحدث المؤسّسات وشبكات التجسّس والجيش والشرطة والمرتزقة، السيطرة على العاصمة والمدن الصناعية المهمّة. ومن أجل هذا، تلجأ، بالإضافة إلى استعمال القوّة والعنف، إلى الدعاية النفسية الهدّامة، وتهدئة الغضب الجماهيري اللتين تتمّمان خطّة النظام، وكل هذه الوسائل معًا تؤثّر كالكابوس في معنويات الناس. لكن، وبالرغم من كل ذلك، لا تستطيع الأنظمة الفاشية والديكتاتورية، حتى لو كانت في أيديها أكثر من تلك القوّة، أن تطمئنّ على مستقبلها، ولن يتخلّى الناس للأسباب نفسها عن الديمقراطية والحرّية والخلاص والاستقلال الحقيقي أبدًا.

عندما يتعدّى الخوف والتخويف حدودهما، فإنّهما يزولان لا محالة. كما أنّ اللذّة والمتعة عندما تكونان على حساب كرامة الناس ستوضعان تحت الأقدام. كذلك الحال بالنسبة إلى المؤسّسات القمعية أيضًا، فهي تستطيع، وإلى فترة محدودة، السيطرة على غضب الناس وإخماد النار المتأجّجة في أعماق النفوس. وعندما تفلت الأمور من زمام السيطرة، لا تستطيع أيّ قوّة الوقوف أمام الغضب الجماهيري المقدّس. ليست هناك أيّ ظواهر أو مشاهد حياتية، سواء كانت

جيّدة أم سيّئة، ثابتة لا تتغيّر إلى الأبد. فالناس حتى وإن كانوا يعيشون في أقصى درجات السعادة الشخصية، فسيأتي يوم تشبع فيه رغباتهم من السعادة التي تحقّقت لهم، وتتغيّر هذه الرغبات ذاتها إلى رغبات ومتطلّبات أخرى.

إنّ متطلّبات التطوّر والتغيير في المجتمع الطبقي، حتى وإن تلقّت أجوبة وافية في حقّ الزمن، فإنّ هذه الأجوبة نفسها تصبح أسئلة أخرى. نفس المشروع سيستمرّ لتطوير الطبيعة وبلوغ حياة أرقى، وهذ هو القانون الموضوعي، ومنطق التاريخ، ولا يمكن تخريبه أو تغييره أبدًا بالملذّات والمسرّات، وبالخوف والإرهاب، والقمع والكبت، والقتل والذبح التي تقوم بها الثورة المضادّة.

إنّ مراكز النضال والثورة تعود، بلا جدال، إلى المدن من الآن فصاعدًا، وبما أنّ المدن كانت دائمًا مهمّة للانتفاضة، إلا أنّها أصبحت الآن أكثر أهميّة للانتفاضة من الماضي. لكنّ الانتفاضة، بمضمونها القديم وشكلها السابق، لا تستطيع، داخل مدن اليوم، تحقيق أهداف العمّال والكادحين وإلحاق الهزيمة بخطط الأنظمة الحديثة، وبنفس الطرق والوسائل القديمة والبالية. إنّ الانتفاضات السابقة كان لديها مشروع، يتلاءم مع ظروف المدن القديمة. لذلك فمن الضروري تطوير المضمون القديم للانتفاضة بمنطق هذا العصر، ليتلاءم مع الوضع المتطوّر الجديد، والتصدّي الفاعل للأنظمة المتقدّمة الحالية، ويجب تحويلها إلى انتفاضة حجارة.

٤/٧- الانتفاضة الإيرانية المستمرة

الانتفاضة المستمرّة، وهي ثورة أيضًا، يمكن أن نقول إنّها ولدت في نهاية السبعينيات من القرن العشرين، ولكون إيران موطنًا لولادة الانتفاضة المستمرّة، فمن الممكن استخراج هذه الحقائق منها:

١- صحيح أنّ انتفاضات أوروبا، لاسيّما الثورة الفرنسية الكبرى، وثورة أكتوبر، اندلعت في المدن، وانتصرت أيضًا في المدن، لاسيّما في العاصمة، إلا أنّها انتصرت في وقت قصير، وبتضحيات قليلة. لكنّ الانتفاضة الإيرانية المستمرة لم تكن بهذا الشكل، بل كانت صاحبة خصوصيّتها الجديدة ونضال شعوبها التي يمكن تلخيصها في هذه النقاط:

أ- استمرت أكثر من ستّة أشهر.

ب- لم يستعمل فيها المنتفضون أسلحة.

ج- قدّم أثناءها أكثر من ستّة آلاف شهيد.

د- ساهمت فيها الأغلبية العظمى من الجماهير.

٢- الانتفاضة التي عبّرت عن ولادة الشعوب الإيرانية، كانت لحسن الحظّ ضدّ نظام عميل للأجنبي، ومن أقوى الأنظمة في الشرق، وقامت في وطن متعدّد القوميات، يبلغ عدد سكانه أربعين مليون نسمة. لقد تمكّنت هذه الانتفاضة المستمرّة، لأول مرّة، من إسقاط قلعة حصينة للرجعية في الجولة الأولى، وقضت على تلك المخاوف التي كانت تزعم أنّ الأنظمة القويّة لا يمكن إسقاطها بالانتفاضة.

٣- هذه الانتفاضة لم تهيّأ أرضية نجاحها مسبقًا، بالثورة المسلّحة الطويلة الأمد، كما حصل في كوبا ونيكارغوا، مع حصول النشاطات الثوريّة من قبل الجماعات اليسارية طيلة السنوات التي سبقت الانتفاضة، لكنّه لا يمكن تسمية تلك النشاطات بالثورة، ولم تنفجر الانتفاضة تحت ضغط تلك النشاطات.

٤- مثّل المذهب الديني الذي تؤمن به غالبيّة الشعب الإيراني، دورًا كبيرًا في استمرار الانتفاضة، وفي إصابة روحيّة المؤسّسات القمعية للنظام الشاهنشاهي بالشلل، إلا أنّ الدور الوطني والطبقي والسياسي والمدني والنفسي كان لا يقلّ تأثيره وأهميّته في ذلك الوقت عن تأثير وأهميّة المذهب الديني، لاسيّما إضراب عمّال النفط والمصانع الأخرى الذي أسقط أعمدة اقتصاد النظام. ومن الواضح أنّ أكثريّة العمّال أيضًا كانوا يتحرّكون تحت تأثير المذهب الديني، وهذه حقيقة لا تتحمّل الإنكار.

٥- لم يكن بمقدور الإمبريالية أن تتدخّل عسكريًا في شؤون الانتفاضة، أو في شؤون إيران. ولم يكن باستطاعة أيّ مناورة سياسية أو انقلاب عسكري، إنقاذ النظام الشاهنشاهي أو مساعدته للخروج من هذا المأزق، كما حصل في عصر مصدّق.

٦- الإصرار والصمود القاطع لقيادة الانتفاضة، وبدون حصول أيّ مساومات، إلى يوم إسقاط نظام الشاه، كذلك براعة قيادة الانتفاضة في إدارة المنتفضين، وتشجيعهم على استمرار الانتفاضة، بدون أيّ توقّف أو استراحة، أو إعطاء فرصة للعدوّ للقيام بمناورات سياسية، وعدم خلط الانتفاضة بالنضال المسلّح.

هذه النقاط أهمّ أسباب نجاح انتفاضة شعوب إيران. وقد ألحقت بالإمبريالية أكبر الخسائر الاقتصادية والسياسية، وعرّضتها للوحشة والقلق، وأدخلتها في مأزق كبير في تلك الفترة. وكانت الانتفاضة قاصمة للظهر، ومفاجئة بالنسبة إلى أميركا، إلى الحدّ الذي لم تستطع فيه أبدًا التفكير في خطّة مناسبة تحافظ لها على هيبتها وماء وجهها، لأنّها لم تتوقع مسبقًا حصول مثل هذه الواقعة المزلزلة. لذلك، وبالرغم من المحاولات المستمرّة لنظام الشاه العميل، إلا أنّهم وقعوا في كمين الانتفاضة المستمرّة المحكم.

بعد انتصار الانتفاضة المستمرّة لشعوب إيران، بدأت الدول الإمبريالية، كما كانت حالها في جميع ثورات عمّال العالم السابقة الأخرى، تبحث عن المصادر الاجتماعية للانتفاضة والأسباب السياسية التي أدّت إلى نجاحها. وكتبت عنها المئات من التقارير والدراسات، والآلاف من المقالات والبحوث. ورسمت خطط مضادّة للقضاء عليها، إلا أنّ هذه المرحلة كمراحل الثورات السابقة، كان من الصعب على الإمبريالية أن تنفّذ ضدّها مؤامرة أو خطّة لتفريغ الانتفاضة المستمرّة

من محتواها بهذه السرعة. مع أنّ الإمبريالية تستطيع تحقيق بعض النجاحات في خضمّ اشتداد الثورة المستمرّة، كما حصل في الثورات السابقة، وعن طريق مساومة القادة اليمينيين، أو استعجال القادة اليساريين. كذلك بالدعاية للديمقراطية والحرّية والضغط على الأنظمة الديكتاتورية وتقديم المساعدة لهم، لكي يقلّلوا هم الضغط على الناس بدورهم.

فالإمبريالية تقوم بكل هذا، وتعمل جاهدة من أجل تطوير سبل نجاحها، ويتمّ كل هذا من أجل وضع العراقيل أمام انفجار الانتفاضة المستمرّة التي من الممكن أن تصبح ظاهرة عالمية، في هذا الوقت الذي لم يبقَ فيه مجال للثورة الطويلة الأمد، كما أصبح النهج الجيفاري والإرهابي بلا أهمّية.

إنّ الإمبريالية منهمكة، بحماسة أكثر، في خطط مضادة، وهي مستعدّة في سبيل ذلك لمراجعة سياساتها السابقة، والتخلي عن عملائها، وتحقيق مكاسب اجتماعية وسياسية أكثر للشعوب المختلفة. وكمثال على ذلك، حدثت انتفاضات عديدة أخرى في العالم، بعد الانتفاضة الإيرانية الناجحة، وجميعها في الدول الخاضعة لأميركا.

ففي شهر شباط (فبراير) عام ١٩٨٦، وفي دولتين من الدول الخاضعة للإمبريالية وهما هاييتي والفيليبين، ثار غضب الجماهير ووصل إلى حدّ الانفجار. وقد حكم في هاتين الدولتين الشعب بالحديد والنار ديكتاتوران قاتلان معروفان أكثر من عشرين عامًا، ولم يبقَ أمام الإمبريالية حلّ سوى الضغط على هذين الديكتاتورين من أجل تأمين نوع من الديمقراطية البرجوازية، لامتصاص غليان غضب الجماهير قبل انفجار الانتفاضة. وقد حدث ذلك فعلًا، وعندما جرت الانتخابات فيهما، وفشل كلا الديكتاتورين في تلك الانتخابات، وأرادا عدم الإذعان لنتائج الانتخابات، بادرت أميركا إلى سحب البساط من تحت أرجلهما، فازداد بذلك أعداد الحكّام المستبدين المهزومين في التاريخ.

ربّما لو كان هناك طليعة مجرّبة في هاتين الدولتين، وبادرت إلى استغلال تلك الفرصة الملائمة استغلالا حسنًا، لتمكّنت من تحقيق نصر تاريخي، لكنّ الخطة الديمقراطية البرجوازية المضادّة، وعدم وجود تلك الطليعة ضيّعت تلك الفرص التاريخية.

قبل عدّة سنوات، وقعت نفس الحادثة في باكستان، وتمّ امتصاص نقمة الجماهير بتسلّم بينظير بوتو الحكم، ونفّذ بذلك سيناريو الخطّة المضادّة للانتفاضة المستمرّة.

في بورما، وضعت الانتفاضة النظام بين فكّي كماشة الموت، لكنّ عدم وجود برنامج معدّ مسبقًا، وعدم انفجارها في الوقت المناسب، أدخل اليأس والقنوط في قلوب الناس، إضافة إلى سرعة لجوء اليساريين إلى الهرب والاحتماء بالجبال والغابات والشروع في حرب الأنصار.[٩٤] وهذا لوحده مرض خطير يهدّد محتوى الانتفاضة المستمرّة.

قد تستطيع حرب الأنصار في بلدان كالسلفادور، وفي الوضع الخاصّ لأميركا الوسطى، الضغط على تناقضات النظام، وتفجير الانتفاضة في المدن في النهاية، كما حصل في نيكاراغوا، لكن حينما تندلع الانتفاضة، أو بعد أن تفشل، لا تكون حرب الأنصار حينئذ بديلًا لها ولا سببًا لنجاحها، أو الاحتفاظ بروحيّة استمرارها.

في بنما أيضًا، نجحت عملية إفراغ غضب الجماهير ومنع أو إبعاد الانتفاضة بخطط مختلفة. فقد لجأت أميركا، إلى جانب الدعاية والتطبيل للديمقراطية والانتخابات، وعقد اتفاقيات ومعاهدات عدّة مع الاتحاد السوفييتي في تلك الظروف، تحت مظلّة التعايش السلمي، إلى التدخّل العسكري في بنما، ونفّذت خططها عن طريق حروب دموية.

يجب ألا يخامرنا أدنى شك بأنّ الإمبريالية لديها خطط جديدة أخرى، لم تنفّذها بعد، تدّخرها لانتفاضة مستمرة أخرى، تعرّض مصير نظام عميل آخر للخطر، وليس من المستبعد أنّه تمّ إنشاء مؤسّسات خاصّة في الدول الرأسمالية، بعد انتصار انتفاضة شعوب إيران، زوّدت بأسلحة ومهمّات جديدة متطوّرة، وهي منشغلة بتدريب تلك القوّات الخاصّة التابعة لتلك الدول التي يتوقع أن تندلع فيها الانتفاضة المستمرّة.

---

٩٤ هذا دليل على أنهم يعتبرون النضال المسلح فقط قانونا ثابتا للتحرر, غير قابل للتغيير, وهذا هو تحجر الثورة المسلحة.

إنّ نهج الانتفاضة المستمرّة، هو الظاهرة الثوريّة الجديدة للعصر، وإنّ ظاهرة ثوريّة كهذه الظاهرة التي بنيت على الأرضية الاجتماعية وزمن التناقضات الجديدة للعصر، والتي أصبحت أمل العمّال والشعوب، لا يمكن بهذه السرعة القضاء عليها، وستستمر إلى حين انتهاء كل أسباب قيامها. فهذا شعب فلسطين البطل الذي انتفض، والذي يقلّ عدد نفوسه عن الشعوب الإيرانية، وعلى مساحة ضيّقة من الأرض، ضدّ نظام قويّ مدعوم دعمًا بلا حدود، مستمرّ في انتفاضته التي دامت أكثر من الانتفاضة الإيرانية.

٧/٥- الانتفاضة الفلسطينية المستمرة

بعد احتلال فلسطين، وطرد الفلسطينيين من أرض آبائهم وأجدادهم، لجأ الفلسطينيون إلى السلاح مرّات عديدة وفجّروا حركات مسلّحة. ومع أنّهم هزموا في الماضي، وشرّدوا، إلا أنّهم تمكّنوا بعد عام ١٩٦٥، وبمساعدة الدول العربية، من السير بالثورة الفلسطينية على نهج جديد، وإدامة ثورتهم المسلّحة، إضافة إلى سعيهم المستمرّ من أجل تنمية الروح التحرّرية داخل الأمّة العربية. ففي سنوات اشتداد الثورة، اندلعت حربان كبيرتان ما بين ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ بين الدول العربية وإسرائيل، وقدّمت فيها تضحيات قلّ نظيرها، ومع ذلك لم تستطع الثورة الفلسطينية الطويلة الأمد، رغم سنوات طويلة من النضال المسلّح، تحرير الأرض الفلسطينية المحتلّة. والأكثر من ذلك هو أنّهم كدّسوا في مخيّمات داخل الأراضي اللبنانية، ولا يستطيعون القيام بالنشاطات الفدائية في أيّ منها، وما ينجز من عمل في هذا المجال يدخل في خانة الأعمال الانتحارية!

وصلت حرب الأنصار والثورة الفلسطينية الطويلة الأمد إلى طريق مسدود، من الناحية العسكرية، ولا تستطيع هذه الثورة بقدراتها الذاتية، وبتخطيط قيادتها تحقيق استراتيجية الثورة، عن طريق النشاطات العسكرية. فالثورة مرتبطة بشكل أكثر بتناقضات المنطقة، وتعتمد على الإمكانيات الديبلوماسية والسياسية والمالية للدول العربية. كما فقدت استقلاليتها العسكرية، وأصبحت تابعًا للأحداث، من الناحية العسكرية، ولا تستطيع الصمود والبقاء داخل الأرض الفلسطينية. وتتعرّض، في لبنان لضغط أشرس ثورة مضادّة، ويضيّق عليها الخناق يومًا بعد يوم، ولا يسمح لها القيام بالعمليات العسكرية من داخل أراضي الدول العربية المجاورة لفلسطين.

إنّ أيّ ثورة تصل إلى هكذا طريق مسدود، من الصعب عليها أن تتمكّن من تحقيق أهداف شعبها. فوصول الثورة الفلسطينية الطويلة الأمد إلى هذا الطريق

لم يكن خافيًا عن القيادة الفلسطينية، لأنّهم كانوا يعرفون أكثر من غيرهم، قوّتهم ومقدرتهم وإمكانياتهم وحدود نشاطاتهم، وتأثيرهم مقابل إسرائيل. لذلك، فهم، منذ فترة طويلة، منشغلون بكل إمكانيّاتهم بحثّ الجماهير الفلسطينية، إلى جانب وجود الثورة، على الإضراب والتظاهر والتعبير عن مختلف أنواع السخط وعدم الرضى والاحتجاج. وقد مورست مثل هذه الفعاليات النضالية منذ زمن بعيد في الأراضي الفلسطينية المختلفة، في القدس، نابلس، غزة، الخليل، حيفا، يافا، وفي المخيّمات المسيّجة بالأسلاك الشائكة. وألحقت هذه الفعاليات النضالية خسائر مؤثّرة بإسرائيل.

كانوا هم أيضًا يقدّمون الشهداء والجرحى من جرّاء تلك الأعمال، ويُلقى القبض على المئات منهم، ويعرّضون إلى التعذيب، لكنّهم كانوا يصونون الأسرار، ويحافظون على المبادئ الوطنية والروح الثورية العالية الصامدة أمام وحشية العنصرية الإسرائيلية، إلى درجة أدّت إلى رفع مستوى معنويات الناس بمرور الوقت. كما حافظ صمود الثورة الفلسطينية أمام كل خطط الثورة المضادّة المتنوعة للدول العربية والأطراف الرجعية الأخرى، على معنويات الشعب الفلسطيني، وجعل حقدهم وسخطهم على إسرائيل أكثر شدّة وعمقًا. إنّ كل هذه الأمور جعلت مسألة الانتفاضة المستمرّة في نظر الناس وقيادة الثورة أكثر قبولًا، وظهر لهم أنّه من المحال أن تنجح الثورة الفلسطينية، ويتحرّر الشعب بدون الانتفاضة المستمرّة.

فها هم مستمرّون داخل الأرض الفلسطينية، فيما تبذل إسرائيل ما باستطاعتها من أجل إخماد انتفاضتهم دون جدوى، حتى أوصلت الانتفاضة المستمرّة الحركة التحرّرية الفلسطينية إلى مستوى عالمي وسياسي وعسكري عال، وصل إلى حدّ تشكيل حكومة موقتة، اعترفت بها الأمم المتحدة، وإلى فتح سفارات في معظم الدول المهمّة في العالم حيث تمّ التعامل مع زعيم الثورة الفلسطينية كرئيس دولة. لقد أعادت الانتفاضة الهيبة والاحترام إلى الثورة والشعب والأرض والأمّة العربية، وأحيت معنويات الثوريين، وفضحت سياسة المساومات والتنازلات، لأنّها اندلعت ضدّ المحتلّ، ومن أجل تحرير شعب ووطن محتلّ.

اندلعت كل من الانتفاضتين الإيرانية والفلسطينية، بشكل عامّ، على أسس الانتفاضة المستمرّة، وصاغتا في هذه الظروف التي وصلت فيها الثورة الطويلة الأمد إلى طريق مسدود النهج الجديد للتحرّر ودحر الأنظمة الديكتاتورية. وأصبحتا

البديل الثوري للعمّال والشعوب المضطهدة، وفي مقدّمتها الشعوب المغلوبة على أمرها.

ويتوقّع أن يصل هذا النوع من الانتفاضات إلى الدول الرأسمالية الكبيرة أيضًا، وهذا مرتبط بمدى قدرة الشعوب الخاضعة على تحرير اقتصادهم من السيطرة الإمبريالية، عن طريق الانتفاضة المستمرّة، الأمر الذي له علاقة بلا شك بالنوعية الطبقية لقادة الانتفاضة. لكنّ الثورة الفلسطينية، بالرغم من القانون العامّ للانتفاضة المستمرّة، لها خصائص ذاتيّة نابعة من أعماق الشعب والأرض الفلسطينية:

١- اندلعت الانتفاضة الفلسطينية بعد ثلاثة وعشرين عامًا من قيام الثورة المسلّحة، أي بعد وصول الثورة إلى طريق مسدود.

٢- الانتفاضة الفلسطينية من صنع شعب صغير، وداخل مساحة صغيرة من الأرض، عكس إيران، فجّرها الشعب الفلسطيني ضدّ نظام مسنود من شعب أكبر عددًا وأكثر قوّة وبطشًا، ولم يستطع إلى الآن، أيّ نوع من أنواع الردّ العسكري والاقتصادي والسياسي المدعوم من أميركا القضاء عليها.

٣-بالرغم من استمرار الثورة الفلسطينية المسلّحة، إلا أنّ الانتفاضة داخل الأرض الفلسطينية لم تخلط بالنضال المسلّح.

٤-استمرار التعاون بين قيادتي الداخل والخارج للشعب الفلسطيني، تمّ على أفضل وجه، حتى أنّ قيادة الداخل تنفّذ ما تقرّره قيادة الخارج.

٥-تلقّت الانتفاضة مساندة واسعة، حتى من الدول الرأسمالية، ولم يكن هذا موجودًا في الانتفاضة الإيرانية.

٦-لا تعاني الانتفاضة والمنتفضون من أيّ مشاكل مالية.

٧-القيادة العليا للانتفاضة ليست تحت سيطرة العدوّ، وهي حرّة في إصدار القرارات والتحرّكات، ولم تكن كذلك في إيران.

٨-النضال الوطني والشعور القومي، هما اللذان يشجّعان معظم جماهير الانتفاضة.

٩-لم يلجأ المنتفضون إلى استعمال الأسلحة وبناء المتاريس وحرب الشوارع[٩٥] لكنّ رمي الحجارة وحرق السيارات والمخازن والغابات والمزارع العائدة للعدوّ، وحتى استعمال السكاكين وقتل الجنود والشخصيات الصهيونية والعملاء المأجورين تمارس أثناء الانتفاضة.

ومن هذه الحقائق، نستطيع استنتاج ما يلي:

أ-لا يجوز، سواء بوجود أم من غير وجود الثورة المسلّحة، خلط الانتفاضة المستمرّة بالنضال المسلّح، ودفعها إلى إقامة المتاريس والربايا، في الشوارع والمحلات والبيوت، والدخول في حرب شوارع مع العدوّ حتى وإن كان السلاح ضروريًا أيضًا، للمحافظة على أحد الأركان الضرورية للانتفاضة أو لقتل عميل، أو لإنجاز مهمّة ثوريّة أخرى، وبهذا الشكل لا يجوز أن يسيطر استعمال البندقية على جوهر الانتفاضة.[٩٦]

ب- احتباس الغضب والحقد الجماهيري المقدّس يصل أحيانًا إلى درجة، تدفع الجماهير إلى الإصرار على إدامة الانتفاضة المستمرّة حتى النصر.

ج- وجوب بقاء قيادة الانتفاضة المجرّبة المقتدرة المعروفة في مكان بعيد عن متناول يد العدوّ.

د- وجود أساس إيديولوجي راسخ وقويّ وغير قابل للفشل، يكون حافزًا مستمرًا للانتفاضة، ودافعًا أمينًا للمنتفضين.

هـ- إيصال القرارات السياسية وبيانات قيادة انتفاضة الحجارة إلى آخر شخص في الانتفاضة، عن طريق الإذاعة او اللاسلكي أو المنشورات.

و- تأمين المساندة الإعلامية الفعّالة للانتفاضة، من قبل وكالات الأنباء والرأي العامّ العالمي.

ز- عدم فسح المجال للتطرّف بكلا جناحيه اليميني واليساري، لأنّ الجناح اليميني المتطرّف يخلق التردّد واليأس في النفوس، واليساري المتطرّف ينشر روح الفوضى

---

٩٥ أي إلى حين صدور الطبعة الكردية من الكتاب - المترجم -.

٩٦ مع الأسف، سيطر السلاح على الانتفاضة التي اندلعت في العراق وكوردستان عام ١٩٩١.

بين صفوف الجماهير.

ح- جمع كل أطراف المعارضة، كالأحزاب والمنظّمات المهنيّة والجماعات الثقافية والصحف والمجلات والمذاهب والطرائق والشخصيات المعروفة حول الانتفاضة المستمرّة وفق برنامج سياسي ثوري وقيادتهم نحو تحقيق الهدف المنشود.

إنّ للانتفاضة وضعًا نفسيًا خاصًا، لذلك ينبغي المحافظة على هذا الوضع النفسي للجماهير المنتفضة والسائرة، بصورة مستمرّة على طريق الانتفاضة، وتطوير هذه العملية وتوسيعها. فعندما تتحوّل الانتفاضة إلى التقاتل بالبندقية، فبدون شك، يتغيّر الوضع النفسي للجماهير أيضًا، ويتطبّع بطابع نفسي مغاير.

إنّ الحكّام الديكتاتوريين ينوون، بكل ما أوتوا من إمكانية، جرّ الانتفاضة والمنتفضين إلى ميدان حرب البنادق، لأنّه في هكذا حرب، مهما يكن لدى المنتفضين من سلاح وعتاد ومقاتلين وربايا ومتاريس محصّنة ومحكمة ومحاربين، وحتى لو كانوا داخل مدن كبيرة وفي طرقات ضيّقة، وعلى أسطح المنازل والبنايات المرتفعة، فإنّ الطائرات والدبابات والمدرّعات والمدافع والغازات السامة... إلخ، والتي يمتلكها العدو، هي أقوى ممّا لدى الجماهير المنتفضة من إمكانيات وسلاح. وفي النهاية، تكون الغلبة للعدوّ، ومن المحتمل أن لا يكون أيّ تأثير لمواصلة الثوريين السير في طريق حرب البنادق على معنويات المؤسّسات القمعية، لأنّ جيوش الديكتاتوريين والفاشيين لديها وحدات خاصّة مدرّبة ضدّ الإضراب والتظاهر والانتفاضة.[٩٧] وقد ربّوهم تربية إيديولوجية، وزرعوا في داخلهم عقدًا نفسية، وشراسة سلوكية، وغسلوا أدمغتهم وعقولهم. لذلك أصبح قتل الناس، عند الفاشيين العنصريين كشرب الخمرة وتناول المسكّرات.

إنّ تجربة إيران وفلسطين، وتلك الدول التي هي تحت ضغط الجماهير، والتي هرب حكّامها الديكتاتوريون في غضون السنوات الأخيرة، تبيّن أنّ المؤسسات الفاشية القمعية، ليس بمقدورها استعمال كل الإمكانيات المتاحة لها، لأنّ جيش الشاه تمكّن طيلة أربعين عامًا من قمع العديد من الحركات المسلّحة في إيران وأذربيجان وكوردستان، وحتى في ظفار وبلوشستان وباكستان أيضًا، لكنّه لم

٩٧ حرب المتاريس داخل مدينة (سنه)، والتي قام بها منظمة (كومله) في كوردستان ايران، هي خير دليل على ذلك.

يستطع إخماد انتفاضة شعوب إيران المستمرّة. هذه الحقيقة نفسها تكرّرت داخل الثورة الفلسطينية، بشكل أوضح، أثناء اشتداد غليان الانتفاضة. فالفلسطينيون تمكّنوا، في هذه الثورة التي سبقتها ثورات أخرى، من تشغيل كل طاقات شعبهم، وطاقات الوطنيين العرب، في ساحات النضال، ولهم تجربة عسكرية عميقة وإمكانية عسكرية كبيرة، إلا أنّهم لم ينجحوا مقابل إسرائيل، وأفضل دليل على ذلك هو هذه المعركة الكبيرة التي تظهر الإمكانية العسكرية للفلسطينيين، وتشهد على عدم فائدة وجدوى نضالهم العسكري.

في بداية شهر تموز (يوليو) عام ١٩٨١، اندلع القتال بشدّة بين الفلسطينيين بمساندة سوريا وبين الإسرائيليين، وبعد قصف متبادل بين الطرفين، دام لأيّام، وفي العشرين من الشهر نفسه، قام الفلسطينيون انتقامًا لقصف الطائرات الإسرائيلية المستمرّ، بقصف ثلاثٍ وثلاثين مستوطنة قسرية داخل الأراضي الفلسطينية المحتلّة. وتمّ قصفها بالمدافع والكاتيوشا ثمانٍ وثمانين مرّة بصورة متلاحقة، ووصل عدد الصواريخ والقنابل التي أسقطت عليها إلى ١٣٣٠ صاروخًا وقنبلة، إلا أنّ النتيجة كانت قتل شخصين اثنين وجرح تسعة وخمسين شخصًا. بينما تمكّنت إسرائيل عن طريق الطائرات الحربية فقط، من قصف قواعد ومراكز ومقرّات الثورة الفلسطينية المهمّة في العاصمة اللبنانية بيروت، والجسر القائم على نهر الليطاني، ومناطق الزهراني والقاسمية. وكانت نتيجة الهجمات استشهاد مئة فدائي، وجرح مئة وعشرين فدائيًا، واستشهاد مئتي مواطن، وإصابة ثمانمئة آخرين.

حقًا إنّه لفرق كبير! والجدير ذكره هنا أنّ الثورة الفلسطينية كانت تملك في ذلك الوقت ٣٠٠ مدفع كبير، و٢٠٠ راجمة صواريخ بعيدة المدى، ومع هذا، فعلت إسرائيل ما فعلت بها، لأنّ الأنظمة القويّة تكون هي الغالبة والمنتصرة في ساحات المعارك التي تستعمل فيها الأسلحة الثقيلة والأسلحة المضادّة. لكن في معارك الشعوب ضدّ الأنظمة تكون الشعوب هي المنتصرة.

نفس الدولة صاحبة الآلاف من الطائرات والدبابات والمدافع والأسلحة الفتّاكة المختلفة، وقف جيشها حائرًا مذهولًا أمام الكفّ الناعم والنفس النقيّة والقلب الرقيق، لكن المليء بالغضب المقدّس، لأطفال فلسطين والحجارة

المتواضعة، وانحنت قامتها وشلّت سواعد جنودها التي طالما سحقت الفلسطينيين بلا رحمة وشفقة. فالجيش هو نفس الجيش المنتصر، إلا أنّ ظروف الانتفاضة، والعوامل الوطنية والسياسية والنفسية والاجتماعية، تختلف بشكل كبير في الوقت الحالي عمّا سبقه من عصور، حيث تسود الأفكار الإنسانية والديمقراطية والحرّة. فحتى لو كانت المناداة بهذه الأفكار ادعاءً فقط، فلا تستطيع حتى الأنظمة الديكتاتورية معاداتها مباشرة، لذلك أيّ خرق لهذه الاكاذيب التي أصبحت واقعًا في نظر الآخرين، يكلّفهم غاليًا.

٧ / ٦ - استمرارية الانتفاضة المستمرة

إنّ الانتفاضات السابقة ضدّ الأنظمة الرأسمالية القليلة التجربة تمكّنت من هزّ الأنظمة من الأساس، رغم افتقاد العمّال والكادحين إلى قيادة طليعية، وأوصلتها إلى حافة الهاوية والسقوط. لكنّ هذه الانتفاضات، باستثناء ثورة أكتوبر، قُمعت وفشلت، بالرغم من التجربة القليلة للرأسمالية وضعف قوّتها.

ففي هذه الظروف أيضًا، حيث انتشر الرأسماليون انتشارا واسعًا، وعملوا على تقوية الدول الخاضعة لهم، واخترعوا أحدث الأدوات والآلات وأشكال إخماد الإضراب والانتفاضة، من الناحية السياسية والعملية. فإن الانتفاضة بمضمونها القديم السابق، لو أعيد تكرارها بالروحية السابقة ذاتها، فإنّها ستخمد حتمًا، حتى لو كانت أقوى من السابق.

هذا الرأي ليس كلامًا عن حدث لم يقع بعد، بل هو تعمّق، بشكل أفضل، في حدث جديد، وهو الانتفاضة المستمرّة إلى يوم النصر، التي عندما نقول عنها: الانتفاضة المستمرّة، نقصد تهيئة كل المستلزمات الاجتماعية والسياسية والنفسية الضرورية للانتفاضة، في الفرصة الثوريّة المتاحة، ثم البدء بها، وإذا لم يتمّ إعداد وتحضير هذه المستلزمات الضرورية من كل النواحي، والتأكّد من ضمان نجاحها إلى حدّ ما، فإنّ انتفاضة الشعب ضدّ الأنظمة الشرسة، كالعراق، هي مغامرة ومجازفة خطيرة.

في هذا العالم المتبدّل، لا يجوز بقاء الثورة كما هي، فعدم الإقرار بالتغيير، والتأكيد على مفهوم الثورة غير القابلة للتغيير، هو تحجّر وجمود، ولنسمّه جمودًا طويل الأمد. إنّ هذا الجمود له أضرار خطيرة خاصّة داخل الحركة التحرّرية للشعوب في هذا العصر، لأنّه يمتزج بفكر اليسار، وبتشجيع المواقف التحرّرية القومية والطبقية للشعب.

هذا الجمود الطويل الأمد، لم يحصل على أيّ نجاح، في ميدان العمل، بعد مرور سنوات عديدة، ولم يحقّق أيّ تطوّر كبير أو يسمح بالتفكير في بديل ثوري، وبهذا نزع هذا الجمود عن وجهه قناع اليسار واليسارية شيئًا فشيئًا، ووجد نفسه في قالب الشراسة والوحشية، والظلم والاستكبار، والسرقة والكذب، والتخطيط والتآمر، وفقدان الرأفة، وقتل الأسرى وتعذيب الناس.

يرجع سبب ذلك إلى أنّه عندما تشعر البرجوازية الصغيرة التي تقود الهجمة الأخيرة للثورة المسلّحة بأنّها ستخسر، تلجأ إلى ارتكاب نوع من الأعمال الوحشية، يمكن وضعها في خانة الأعمال الفاشية. وكلّما تقدّم الزمن، يبتعد حاملو لواء نهج الجمود الطويل الأمد من الجماهير الكادحة أكثر فأكثر. وهذا الابتعاد الناتج عن الأعمال والتصرّفات السيئة، بالنسبة إلى أيّ جهة طبقية أو وطنية، يجبر الحركة المسلّحة على سلوك الاتجاه المعاكس لطريق النجاح والانتصار. ولن تستطيع تغيير نفسها، وانتهاج الاستراتيجية الثورية الجديدة، أي الانتفاضة المستمرة. فلا يستطيع كل ثوريّ مسلّح دفع شعبه إلى الانتفاضة، كما فعلت الثورة الفلسطينية المسلّحة التي دفعت بشعب فلسطين إلى القيام بالانتفاضة بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من اندلاع الثورة المسلّحة.

لقد أظهرت الانتفاضة المستمرّة بوضوح وبمنتهى الشفافية، أنّ السلاح الثقيل والقوّة الكبيرة لا تحرّر الشعوب ولا توصل إلى الهدف المنشود إن اتبع في استعماله نهجًا خاطئًا، لكن إذا اتبع نهجًا صحيحًا، فإنّ الشعب يستطيع دحر العدوّ المقتدر عن طريق الهجوم عليه بالحجارة.

الانتفاضة المستمرّة في العالم، ستظلّ مستمرة ضدّ الأنظمة التي تضطهد الشعوب، وليس باستطاعة الإمبريالية وعملائها قلع هذه الظاهرة من الجذور، بكل سهولة، والخطر الوحيد على هذه الظاهرة الجديدة هو خيانة البرجوازية. فهؤلاء في التاريخ، مثلما عملوا على ضياع العديد من الفرص التي كانت لصالح العمّال والشعوب، سيستطيعون هكذا أيضًا إجهاض ظاهرة الانتفاضة المستمرّة، ومن أجل هذه الحقيقة، فإنّ النضال لتهيئة ظروف مناسبة لتطبيق استراتيجية الانتفاضة المستمرّة داخل الشعوب ذات الميول القومية واليمينية، له تاريخ طويل وتأثير كبير.

بدون الانتفاضة المستمرّة، تستطيع الإمبريالية عن طريق عملائها قمع الأشكال النضالية الأخرى، إذا اتخذ أيّ منها نهجًا نضاليًا رئيسيًا. فإلى اليوم الذي تظلّ فيه الشعوب المضطهدة الخاضعة راضية بوضعها الذي هي فيه، ولا تعمل على تحرير نفسها، من الناحية الاقتصادية والسياسية، فلا ينتظر حتى في المستقبل البعيد، تعميق وانفجار أزمات الإمبريالية. وإلى أن يحين وقت انفجار أزماتها، لا يمكن أن نتوقّع إحياء نضال العمّال وطلوع شمس الثورة الاشتراكية.

الفصل الثامن

٨- الإعداد لثورة كوردستان

طوال التاريخ القديم والحديث لشعبنا، كانت الثورة المسلّحة المندلعة من الجبال سمة النهج المتّبع لتحرير الكورد وكوردستان منذ احتلال الأنظمة العثمانية والصفوية والملكية والجمهورية لكوردستان.

ففي كل مراحل النضال التحرّري القومي الكوردي، قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها، إلى الحرب العالمية الثانية، وبعدها أيضًا، إلى ثورة أيلول ١٩٦١، فإلى ما بعد الانهيار عام ١٩٧٥ والقيام من جديد بالثورة الطويلة الأمد عام ١٩٧٦، اندلعت الثورة المسلّحة مرّات عديدة، لكنّها فشلت في تحقيق أهدافها في كل مرّة. اندلعت واندحرت، هكذا، بدون أخذ الدروس والعبر الضرورية منها، أو بدون التفكير في تغيير النهج النضالي المسلّح.

كانت نتيجة كل نضال مسلّح إلحاق المزيد من الأضرار البشرية والمالية والسياسية والعسكرية الكبيرة والجسيمة بالشعب الكوردي. ومع كل هذا، لو حصل بين حين وآخر، وتحدّث المتنوّرون الكورد وسياسيّو كوردستان عن شكل آخر من النضال، فإنّ حديثهم ذاك لم يكن يلقَ آذانًا صاغية. وكان أيّ نوع من الخلاف السياسي والإيديولوجي بين المثقّفين والمتنوّرين الكورد، والعقلية العشائرية السائدة آنذاك، يجابه بردّ عنيف. وكان لهذا، بلا شك، أسباب تاريخية واقتصادية واجتماعية، مهّدت لسيطرة تلك العقلية العشائرية، وهي ليست مرتبطة بالعقلية الكوردية، كشعب له خصال عشائرية متأصّلة.

اتخذ النضال التحرّري الكوردي سمة المقاومة المسلّحة وطابعها، بعد الحرب العالمية الأولى، بشكل رئيسي، لأنّ العلاقات الرأسمالية التي نتجت عن الثورة البرجوازية، أو النموّ الاجتماعي الطبيعي في كوردستان، لم تكن مسيطرة، بل كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (الإقطاعية-التجارية) داخل إطار العقلية السياسية (العشائرية-الدينية) هي التي سادت كل نواحي الحياة في المجتمع

الكوردي. فهذه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعقلية السياسية أيضًا، وبحكم حصولها على سلطات مستقلّة، داخل إمارات كوردستان تحت ظلّ حكم وقانون السلاطين، دفعت أصحاب النفوذ والسلطة في كوردستان إلى أن يحكموا، ويتصرّفوا دائمًا بنفس العقلية والسلوك العشائري.

كانت المقاومة المسلّحة السبيل الوحيد للتصدّي ودحر هجمات الأعداء على الإمارات الكوردية، والسلاح الوحيد في الأوقات العصيبة، لأنّ شكلًا آخر من النضال كان لا يمكن ظهوره داخل تلك العلاقات والعقلية. وحتى لو ظهر، فإنّه لم يكن يؤثّر في إسطنبول وطهران. وكانت المقاومة المسلّحة حربًا جبهوية واسعة ضدّ السلاطين الصفويين والعثمانيين، وقليلًا، بل وبدون قصد، ما كان القادة العسكريون المشهورون يلجأون إلى حرب الأنصار، أي هجوم وفرار وكرّ وفرّ. وأحسن تجربة ناجحة جمعت بين نهجي الحرب الجبهوية وحرب الأنصار، هي التصدّي المسلّح الذي قام به عبد الرحمن باشا ابن محمود باشا بابان التي استمرت من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨١٣. فعلى الرغم من المؤامرات المختلفة التي حاكها والي بغداد ضدّه، وارتداد أخوته وأقربائه ووقوفهم ضدّه، وعداء العثمانيين والصفويين له، إلا أنّه لم يخسر المجابهة، طوال تلك الفترة.

بعد هذه المجابهة، اتخذ بعض من آغوات وزعماء مناطق موكري، ودرسيم، وهكاري، نفس نهج مزج حرب الأنصار بالحرب الجبهوية، وكانوا أكثر نجاحًا من معاركهم الجبهوية الصرفة. وكذلك الأمر مع الشيخ محمود الذي كان أفضل حالًا وأقلّ خسارة وأكثر صمودًا، عندما كان يلجأ إلى الجبال، ويبعد قوّاته عن المواجهة الجبهوية كالتي حصلت في دربندبازيان. لكنّ أيّ تجربة من تلك التجارب لم تغيّر النهج المسلّح المسيطر، ولم تدخل أيضًا براعة تكتيك الكفاح المسلّح ضمن استراتيجية المواجهة إلى حين اندلاع الحرب العالمية الثانية.

بعد فشل الانتفاضة المسلّحة التي اندلعت بعد الحرب العالمية الأولى، في جميع أجزاء كوردستان، ونشر الرأسمالية والعلاقات الرأسمالية في كوردستان، وربط أسواقها عنوة بأسواق الدول المحتلّة لها، لاسيّما في الثلاثينيات من القرن العشرين، نالت المدن والأسواق التجارية فيها أهميّة أكثر. ووجدت الحركة السياسية والثقافية والتنويرية طريقها إلى صفوف الناس، لكنّ النمو الاجتماعي والسياسي والثقافي قد شُوّه وحُرّف عن مساره، لأنّ العلاقات الرأسمالية لم تنشأ بصورة طبيعية، وإنّما

نقلت عن طريق الأجنبي، ووفق مصالحه إلى كوردستان.

أثّر كل ذلك تأثيرًا فعّالًا في التطوّرات ومسار الأحداث، ومنع حدوث الثورة البرجوازية في كوردستان ضدّ الإقطاع. وبهذا، إضافة إلى عدم تكوين البرجوازية الوطنية الصناعية، التي تكوّنت في البلدان المتقدّمة أو شبه المتقدّمة، بقي الإقطاع أيضًا. وببقائه، وبحكم مكانته الاقتصادية وسيطرته الاجتماعية ونفوذه الديني، دخل بشكل مباشر إلى أسواق المدن. فمن جانب ساندته الإمبريالية بخططها القديمة، ومن جانب آخر لم تكن البرجوازية الصناعية قد اكتملت بعد، لكي تقوم بالثورة ضدّها. بكلام آخر، إنّ المساندة الإمبريالية وعدم ولادة البرجوازية والحركة الثورية البرجوازية عرقلتا فلاحي كوردستان عن القيام بالانتفاضة الطبقية وقيادتها إلى النجاح والانتصار. وإن حدث وانتفض الفلاحون بشكل متفرّق في هورين وشيخان ومناطق دزيي وموكريان... إلخ، في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، نتيجة للظلم والجور الذي تعرّضوا له، فإنّهم أغرقوا في دمائهم، بكل سهولة، لأنّهم كانوا يفتقدون أرضية صالحة للنجاح، إضافة إلى كثرة أعدائهم.

على هذه الأرضية الاقتصادية والاجتماعية، تمّ نقل العقلية العشائرية إلى المدن، وتمّ خلطها بالفكر السياسي والتنويري والثقافي للقوى السياسية أيضًا، بل كانت هي المسيطرة ضمن النضال التحرّري بشكل واضح. أما في أوروبا، حيث انتصرت الثورة البرجوازية، وتمكّنت من قلع جذور الإقطاع، لم يبقَ سبيل أمام الأرستقراطيين البريطانيين والسويديين والهولنديين، وكل الدول التي بقيت فيها على شكل رموز، إلا الاستسلام للثورة البرجوازية. وباستسلام الأرستقراطيين هذا، بقي لهم قسم من أملاكهم، ولهذا، كانت الثورة البرجوازية مسيطرة في أوروبا، بالرغم من بقاء الشريحة الأرستقراطية. فهذه الشريحة عزلت وأبعدت تمامًا، بعد محاولاتها المضادّة في بداية انتصار الثورة البرجوازية، وأصبحت منذ أمد بعيد، جزءًا من التراث القديم.

إنّ المثال الوحيد الذي يدلّ على بداية نقل مركز النضال إلى المدينة في كوردستان العراق، انتفاضة «اليوم الأسود» في اليوم السادس من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٣٠. ويبدو أنّه كان بداية طبيعية ضمن إطار العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي سيطرت عليها العقلية العشائرية ولم تتمكّن فيها ترسيخ المكانة السياسية الجديدة للحركة التحرّرية لشعبنا. ومع أهميّتها لم تتمكن من إخراج حركة

شعبنا من تحت سيطرة السياسة العشائرية بشكل تام أو تمنع اللجوء بعدها إلى النضال المسلّح تحت قيادة العقلية العشائرية.

إنّ الآلام الكبيرة لبقاء الإقطاعية وعدم قيام الثورة البرجوازية ليست في عدم القضاء على هذه الطبقة، بل في التشويه الاجتماعي وتشويه الأسس الاقتصادية، في إطار ربطها بفلك الدولة المحتلّة قسرًا، وفي ارتباط العقلية العشائرية التي تمّ خلطها بالسوق والتجارة داخل المجتمع الكوردي. وعن طريق هذا حافظت على مكانتها القيادية داخل الحركة السياسية التحرّرية للشعب الكوردي، حين اندمجت بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بشكل اتخذت قاعدة الثورة البرجوازية ضدّ الإقطاع، في المجتمع الكوردي مجالًا آخر، وهو مجال النضال التحرّري ضدّ الأجنبي. وكان الظلم والجور الأجنبي قاسيًا وشديدًا إلى الحدّ الذي جعل التناقضات في المجتمع الكوردي فاترة، لكنّ العداء للأجنبي ساخنًا.

١/٨- جمهورية مهاباد.. والرجوع إلى المدن

كانت جمهورية مهاباد التي تأسّست خلال الفترة الممتدة بين عاميْ ١٩٤٥ و١٩٤٦ التجربة السياسية الجماهيرية الواسعة الوحيدة التي حصلت داخل كوردستان، ووضعت في خدمتها النضال المسلّح في الجبال. إنّ هذه الجمهورية، بالرغم من أنّها شكّلت جيشًا من»البيشمركة»، أي من الفدائيين، إلا أنّ نضالها الفدائي لم يتّخذ كاستراتيجية ثابتة، كما حصل في النضال التحرّري السابق لكوردستان. فالبيشمركة في الجمهورية كانت مهمّتها المحافظة على الجمهورية وعلى أمن كوردستان فقط، لأنّ الجمهورية لم تتأسّس نتيجة للكفاح المسلّح. وعندما تعرّضت الجمهورية إلى الهجوم، لم يلجأ زعيمها إلى الجبال لقيادة المقاومة المسلّحة من هناك، رغم امتلاكه لجيش تميّز بقوّة، تفوق عشرات المرّات قوّة زعماء القبائل الذين انتفضوا قبل قيام الجمهورية.

أسباب انهيار جمهورية مهاباد:

هناك آراء مختلفة حول الأسباب الاقتصادية والسياسية، والعسكرية والاجتماعية، كذلك الأسباب الإيرانية والعالمية والديبلوماسية لسقوط جمهورية مهاباد، بل هناك انتقادات ومآخذ شديدة موجّهة إلى القاضي محمد، بسبب استسلامه للنظام الشاهنشاهي بعد أن اتفق الاتحاد السوفييتي مع الدول الحليفة في مؤتمرَيْ طهران ويالطا على الانسحاب من إيران، وقلب ظهر المجن لجمهورية مهاباد، وتركها لوحدها في الميدان.

إنّ هذه الانتقادات الموجّهة إلى الزعيم القاضي محمد ورفاقه، بسبب استسلامهم للمحتلّين، كقادة للجمهورية، محقة، ولكنّ هذا لا يعني أنّ مقاومته المسلّحة بالجيش الذي كان لديه، أو تبديل الاستراتيجية العسكرية بحرب الأنصار، كان سيضمن النصر للجمهورية في المستقبل. إنّ رأيًا كهذا ناتج عن تأثير النضال المسلّح السابق للكورد.

إنّ ثورة أيلول، في كوردستان العراق، وبعد ثلاثة عشر عامًا من الأحداث السياسية والعسكرية والعالمية والإقليمية المختلفة، وفي أرضيّة متغيّرة متقدّمة، وبقيادة البرزاني الذي كان مؤيّدًا للمقاومة المسلّحة والدفاع المسلّح عن جمهورية مهاباد، أفضل دليل على أنّه كان من الصعب أن تنتصر جمهورية مهاباد بالمقاومة المسلّحة. فعندما تأسست جمهورية مهاباد، كانت الحرب العالمية الثانية في أيّامها الأخيرة، وقد وقعت اتفاقيات دوليّة حول الشرق الأوسط، وخاصّة حول إيران، بين القوى العظمى، وكان من المقرّر الانسحاب من المناطق الإيرانية كافة.

وقّع الاتحاد السوفييتي الذي كان مساندًا للجمهورية، جملة من الاتفاقيات مع الدول الكبرى بعد الحرب، وأمّن بذلك مصالحه في أوروبا الشرقية. لذلك عندما جاء موعد تنفيذ اتفاقية الانسحاب من إيران أيضًا، بقيت فقط مسألة اطمئنان الاتحاد السوفييتي لحدوده الجنوبية مع إيران، والحصول على مكسب هناك أيضًا. فباستثناء هذه الحقيقة، لم يكن للقضية الكوردية كقضية شعب محتلّ ومجزّأ، أيّ ملف سياسي لدى الاتحاد السوفييتي.

إذا كانت هذه الجمهورية قد تأسّست بدون الثورة البرجوازية، وفي ظلّ صراعات الحرب العالمية الثانية، ونتيجة لزوال سيطرة النظام الشاهنشاهي، فهذا يظهر بجلاء أنّ تحوّلًا سياسيًا-اجتماعيًا كبيرًا قد حصل في العلاقات الإقطاعية التي كانت مسيطرة في كوردستان. لكنّ هذا التحوّل لم ينشأ داخليًا، وفي إطار ثوري، بل ضدّ عدوّ أجنبي هو نظام إيران، وبمساندة صديق أجنبي هو الاتحاد السوفييتي الذي كان في الحقيقة «عدوّ العدوّ». وفي حالة كهذه، تختلط العلاقات العشائرية مع الجمهورية مرّة أخرى، وتصبح قسمًا مهمًا من تكوين الجيش، ومن مركز القرار السياسي للجمهورية. وعندما تأسّست الجمهورية، لم تصدر أيّ قرار حاسم ضدّ العشائرية، بل أصدرت قرارات بتعيين عدد من الزعماء والإقطاعيين في أعلى مراتب الجمهورية. وحينما توقّفت الحرب العالمية الثانية، وانسحب الاتحاد السوفييتي من الأراضي الإيرانية، فمن الطبيعي أن يكون من نتائجه تعرّض الجمهورية للهجوم مرّة أخرى.

إنّ ترك جمهورية مهاباد وحيدة في الساحة من جانب، وسقوط جمهورية أذربيجان من جانب آخر، أبقتها بلا سند وبلا دعم إلا من ذلك الجيش المؤلّف من زعماء العشائر والإقطاعيين، من ذوي النفوذ والسطوة في المجتمع

الكوردي. لذلك فبدون حصول أيّ تغيير جذري في إيران، لا تستطيع أبدًا قيادة الجمهورية، وهي على هذه الحالة، أن تصدر قرار المقاومة المسلّحة. وحتى لو أصدرت هذا القرار، فإنّها حتمًا ستفشل وتندحر، لأنّ القاضي محمد تأكّد، بعد زياراته إلى الاتحاد السوفييتي، من أنّ السياسة الدولية هي ضدّ بقاء الجمهورية داخل إيران. كما كان يعرف جيدًا زعماء وإقطاعيي المجتمع الكوردي، وأنه من الصعب الاعتماد عليهم في مسالة مهمة وخطيرة، كالمقاومة المسلّحة. وسرعان ما انكشف تردّدهم وخيانتهم، لذلك كان عمر جمهورية مهاباد، كتحوّل اجتماعي وسياسي من الجبل إلى المدينة، قصيرًا، ولم يستمر إلى حين إكمال المشروع المطلوب والمستلزمات الضرورية لتلك التحوّلات، لكن، كمكسب كبير، فمكانها، بين الأحداث، مشرق وزاهر، رغم إسكات صوتها بسرعة.

٣/٨- ثورة أيلول.. والعودة إلى الجبال

بعد قمع انتفاضة بارزان المسلّحة وسقوط جمهورية مهاباد، شهدت جميع أجزاء كوردستان تراجعًا في النضال المسلّح. ولم تندلع بعد ذلك انتفاضة مسلّحة سياسية تحرّرية ديمقراطية خاصّة بكوردستان، لكنّ النضال السياسي بقي موجودًا على الدوام. وامتزج النضال السياسي بالحركة العامّة في الدول المحتلة لكوردستان بحكم الأحداث، وتحت تأثير سياسة اليمينيين، بشكل أكثر من اللازم.

بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨، تغيّر النظام في العراق من الملكية إلى الجمهورية، وتمّ الحصول على مجموعة من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية البرجوازية، لكنّ الثورة البرجوازية سرعان ما تراجعت عن مهمّاتها الديمقراطية، وبدأت تمارس، إلى جانب عدائها للحرّية في أنحاء العراق، أعمالًا عدائيّة ضدّ الحقوق القوميّة للشعب الكوردي. حتى أنّها لم تعترف بالحكم الذاتي للشعب الكوردي، والذي يأتي في سلّم الحقوق المشروعة للشعوب في المرتبة الرابعة، بعد الاستقلال والكونفيدرالية والفيدرالية.

اشتدّ العداء للديمقراطية ولحقوق الشعب الكوردي شيئًا فشيئًا، لكن، قبل وصول الأمور في جميع أنحاء العراق إلى طريق مسدود وانتعاش الوضع الثوري فيها، تمّ دفع الشعور القومي، إلى الكفاح المسلّح دفعًا، قبل حلول أوانه.

في تلك الفترة التي اقتربت فيها التناقضات من النضال المسلّح في كوردستان، قبل نضوجها بصورة طبيعية، كانت التناقضات السياسية على مستوى العراق تسير نحو الاصطدام سواء بين مسؤولي النظام أنفسهم، أم بين القوى السياسية والنظام العراقي. ففي ظروف تتراجع فيها الثورة البرجوازية عن واجباتها الديمقراطية، وتتوقّف المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية، ويُمارَس العداء ضدّ الحقوق القومية لثاني شعب في العراق، من حيث العدد والأهميّة، وهو الشعب الكوردي، فمن السهل إذن أن تعود بقايا الإقطاع من الذين أخفوا

أنفسهم تحت ظلّ قانون الإصلاح الزراعي الناقص، والذين لم تقتلع جذورهم التاريخية داخل المجتمع الكوردي، بل امتزجت هذه الجذور بالنضال السياسي أيضًا. فليس غريبًا، في مثل هذه الحالة أن ترجع بقايا العشائرية إلى داخل الحركة المسلّحة الكوردية. وقد أثبتت الأحداث أنّه لا إلصاق تهمة الحركة الإقطاعية بثورة أيلول من قبل النظام العراقي تمكّنت من القضاء على مسيرة نضال كوردستان المسلّح، ولا كل الصراعات الثانوية التي تفجّرت في غير أوانها داخل الحركة، وإلى حدّ ما المصادمات المسلّحة والانشقاق العسكري، تمكّنت من تغيير جوهر الحركة.

فكلّما اشتدّ عداء النظام للحركة الكوردية، زاد حبّ الحركة في نفوس الكورد. ولم تتمخّض كل تلك الصراعات الطبقية اسمًا، داخل الحزب الديمقراطي الكوردستاني وخارجه، ضدّ قيادة الحزب والبرزاني أيضًا عن أيّ مكاسب اقتصادية واجتماعية وسياسية للعمّال والكادحين، بل ألحقت بهم أضرارًا بليغة. فعدا أضرارها البشرية والمالية، كانت لها أضرار سياسية، تمثلت في تضليل الكادحين.

كانت ثورة أيلول المسلّحة عمومًا عودة إلى النهج المسلّح نفسه الذي كان سائدًا في تاريخ الشعب الكوردي القديم، لكن في زمن وأرضية اجتماعية وسياسية عالمية جديدة، لاسيّما بعد أن وجدت انتصار ثورة فيتنام والصين وكوريا وكوبا صدى وانعكاسًا شديدًا داخل نضال الشعوب المضطهدة قاطبة. ولذلك فإنّ اختلاف العودة إلى النضال المسلّح القديم لكوردستان المتّبع في ثورة أيلول، يظهر بجلاء في تطبيق حرب الأنصار والبرنامج السياسي للكفاح المسلّح، وديبلوماسية الثورة، والمؤسّسات السياسية ذات الصلة، وفي طريقة إجراء مفاوضاتها مع الطرف المقابل.

ممّا يلفت النظر في هذه الثورة، هو أنّه رغم اختلاف تكتيك وشعارات ثورة أيلول التي تمكّنت من الاستمرار أربعة عشر عامًا في النضال المسلّح، نجد الحزب الديمقراطي الكوردستاني أيضًا يجعل النضال المسلّح استراتيجيّته الثانية، ويربط مصير سياسته أيضًا بنتيجة هذا النضال المسلّح. لقد جرى هذا في الوقت الذي كان للحزب الديمقراطي الكوردستاني اتصال مستمرّ بالمدن الكوردستانية، وأجرى بين حين وآخر مفاوضات ومحادثات مع الأنظمة الحاكمة.

إذا كان هناك تبرير سياسي وعسكري لاستمرار الثورة المسلّحة، من بداية الثورة إلى «بيان ١١ آذار»، فإنّه يصبح غير منطقي بعد بيان آذار، لأنّ استراتيجية سياسة البارتي المتمثلة في «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكوردستان» لم تتغيّر. فالظروف السياسية العالمية والمنطقة كانت تميل لصالح القوى العظمى والأنظمة البرجوازية-الديكتاتورية الشرقية بدرجة أكبر، لاسيّما بعد ارتفاع أسعار النفط في بداية سبعينيات القرن العشرين، والذي رفع الإيرادات المالية للنظام العراقي إلى درجة أظهرت أنّ هذا النظام سيطول عمره السياسي، عن طريق شريانه الاقتصادي. لذلك كان على قيادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني، بعد توقيع اتفاقية آذار أن تحاول بجديّة تبديل استراتيجية النضال المسلّح من الجبال، باستراتيجية انتفاضة المدن، أي وضع النضال المسلّح وقوّات الأنصار في خدمة الفعاليات النضالية داخل المدن، وخاصّة الانتفاضة، لاسيّما أنّها جرّبت مرّات عديدة ولسنوات طويلة في العراق، وكانت لها نتائج معروفة ومفيدة.

إنّ دروس تاريخ النضال المسلّح في كوردستان، وجمهورية مهاباد في النضال السياسي والجماهيري داخل المدن، وتجارب الانتفاضات في العراق والمنطقة لم تتمكّن جميعها من تغيير عقلية مواصلة النضال المسلّح داخل الحركة الكوردية كاستراتيجية ثابتة. ومع أنّ شكل النضال السياسي والدبلوماسي وإضراب المدن لم يجرِ نسيانها، إلا أنّ الاستراتيجية المسلّحة بقيت كما كانت، وأصبحت تلك الأشكال النضالية الأخرى فروعًا لها. وأصبح الحزب الديمقراطي الكوردستاني، بعد بيان آذار، في طليعة الشعب الكوردي بعد دحره لمعارضيه، وصاحب قوّة إعلامية كبيرة، وعشرات الألوف من الكوادر، ومئات المنظّمات السياسية والاجتماعية والمهنية، وكان معظم مناطق كوردستان تحت سيطرته السياسية والإدارية، وبقيّة المناطق الكوردية التي كانت تحت سيطرة النظام، كانت تدار بصورة غير مباشرة من قبل البارتي والبرزاني. هذه الإمكانيات التي أتيحت في تلك الفترة للحزب الديمقراطي الكوردستاني، كانت مواد أوليّة مهمّة لبناء استراتيجية جماهيرية داخل المدن.

كان باستطاعة الحزب الديمقراطي، وفي أيّ وقت يشاء، إنزال مليون شخص إلى الشوارع، ليقفوا، ويهتفوا ضدّ شوفينية النظام، ويؤثّر حتى في بقية مناطق العراق، فيحرّك، بهذه الطريقة، الرأي العامّ في المنطقة، وفي العالم أيضًا. إلا أنّه

لم يحصل أيّ شيء من كل هذا. وبعد اليأس من تنفيذ الاتفاقية السياسية التي وقّعت في آذار عام ١٩٧٠ بين الحزب الديمقراطي الكوردستاني والنظام العراقي، لجأت الحركة الكوردية إلى النضال المسلّح مرّة أخرى، وكانت العاقبة الانهيار المليء بالآلام والعذاب الذي حصل في آذار عام ١٩٧٥.

بهذه الصورة، ضاعت فرصة اختيار نهج جماهيري آخر في ظلّ النضال المسلّح، بإمكانية مالية وإدارية وحزبية وإعلامية ودبلوماسية كبيرة داخل المدن والقرى الكوردستانية، في حين استغلّت قيادة الثورة الفلسطينية البعيدة عن شعبها في الداخل ووطنها، نفس التجربة، وأشعلت الانتفاضة المستمرّة في ظلّ النضال المسلّح. لكنهم إن لم يصلوا إلى هدفهم المنشود، وهو استقلال فلسطين، فإنّهم، على الأقل، حقّقوا نوعًا من الاتفاق السياسي الذي يبعدهم عن الانهيار الذي نتج عن تكرار التجربة الكوردية المأساوية.

٣/٨- مقارنة عسكرية بين الثورة الكوردية والنظام العراقي

اندلعت ثورة أيلول في العراق ضدّ نظام جمهوري قومي عربي، على عكس الانتفاضات المسلّحة التي قامت بعد تأسيس الدولة العراقية ضدّ النظام الملكي. وإن كان النظام الجمهوري القومي، إضافة إلى الاحترام والتقدير الذي كان يجده في الأوساط العربية العراقية محلّ إسناد في مجال العلاقات العربية من معظم الدول العربية بالرغم من تناقضاتها المختلفة. هذا علاوة على المحاولات المستمرة التي جرت لتوحيد الشعوب والدول العربية، بعد تأسيس الجمهورية العراقية، لاسيّما لتوحيد العراق والجمهوريات العربية المتفقة في الأهداف. وكان لمسألة العداء لإسرائيل وتحرير فلسطين دور كبير في تحريك مشاعر العرب والقومية العربية والتفافهم حول هذا النظام الجمهوري القومي في العراق، وكان كل هذا يطبّق بروح بعيدة عن الديمقراطية، وبنهج قومي عربي.[٩٨]

هذا النظام الجمهوري العراقي، وضمن إطار الصراع السياسي والعسكري العربي الإسرائيلي، استفاد كثيرًا من قضية الصراع العربي-الإسرائيلي بشكل ديماغوجي مضلّل، في الساحة العربية، وفي ظلّ الحرب الباردة أيضًا. فبلا شك، كانوا إلى ما بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ من مؤيّدي الدول العربية القومية التي كانت تدّعي وتتفاخر بتحرير فلسطين، ومن مؤيّدي الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية. بالإضافة إلى ذلك أصبح هذا المعسكر، بكل ما أوتي من إمكانيات سياسية، مظلّة للمحافظة على سياسة الدول الديكتاتورية كالعراق، بذريعة العداء لإسرائيل. وتحت هذه المظلّة قام الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية من أجل الفوز بـ «مصيدة» الحرب الباردة، بتزويد هذه الأنظمة كالعراق، وبلا اعتراض، بالأسلحة المدمّرة الكافية. كما أنّ الغرب، ومن أجل عدم التخلّي عن هذه الأنظمة تمامًا،

---

٩٨ باستثناء مصر، في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، حيث كان له مواقف ودية تجاه القضية الكردية.

ووفق حساباته السياسية البعيدة المدى في كيفيّة التعامل مع تناقضات الحرب الباردة، ونتائج هذه الحرب، لم يغلق أيضًا أسواق السلاح بوجه هذه الأنظمة.

بذلك تهيّأت الفرص المناسبة لأنظمة مثل العراق لكي تستفيد من الطرفين، وتشتري السلاح الأكثر قتلًا، وفتكًا، وهدمًا وتخريبًا، من أموال تصدير نفطها، وتحصّن به نفسها، وتبيد معارضيها عن طريقها أمام أنظار الرأي العامّ العالمي. ففي السبعينيات من القرن العشرين، كانت سوق بيع وشراء الأسلحة من أكثر الأسواق العالمية رواجًا، وكانت البلدان الشرقية أفضل الأسواق لبيع السلاح، وكان النظام العراقي في مقدّمة المشترين وبلا حدود.

هذه المعضلة العسكرية القاتلة بالنسبة إلى لنضال المسلّح للشعوب، لم تحل في ثورة أيلول، في الوقت الذي تمكّن النظام الجمهوري العراقي، بعد عام ١٩٥٨، من بناء جيشه بصورة عصرية، وغدا شيئًا فشيئًا جيشًا قويًا وصاحب تكتيك وتقنية عسكرية متقدّمة مقارنة بما كان عليه في العهد الملكي. وكان يأتي بعد جيش مصر من حيث الأهميّة والقوّة، حتى أنّ نظام عبد الكريم قاسم كان يرى أنّ بمقدوره التصدّي لبريطانيا وإيران، واحتلال الكويت التي اعتبرها جزءًا من العراق، انطلاقًا من النزعة الشوفينية للنظام الجمهوري العراقي. ومع هذا، وبفعل عنصرية النظام، وتراكم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، استطاع الحزب الديمقراطي الكوردستاني إدامة نهج حرب الأنصار ضدّ الإمكانيّات العسكرية الكبيرة للنظام، في المناطق الوعرة في كوردستان، والمحافظة على استمرار الثورة، إلى بيان آذار، بالرغم من الانشقاق الذي وقع في صفوفه، والحرب الداخلية، والسياسة الشرسة لمحتلّي كوردستان.

لم يتغيّر الجوهر الشوفيني للنظام بصدور بيان آذار، بل أعدّ نفسه وهيّأ كل إمكاناته لتحقيق أهدافه القومية البعثية بشكل أفضل. ولذلك كان الهدف الرئيسي لاتفاقية آذار، في نظر النظام، هو القضاء على الحركة المسلّحة في كوردستان، وبأيّ ثمن، لكي يتفرّغ البعث لتعبئة العراق والعراقيين مع كوردستان من أجل الأهداف الاستراتيجية العربية البعثية. ففي تلك الفترة، إضافة إلى إسرائيل، كان للبعث الحاكم في العراق مشاكل عميقة مع إيران، ومع سوريا، وكان يخاف من تركيا أيضًا. ومن أجل الاطمئنان على الأمن الاستراتيجي العربي والعراقي والبعثي، حاول النظام جاهدًا إنهاء النضال الكوردي المسلّح، وطمس

قضية شعبنا بشكل حاسم. ولتحقيق هذا الهدف، كان منشغلًا بإعداد أخطر خطط الثورة المضادّة، في ظلّ بيان آذار، والتي تمثّلت فيما يلي:

- بناء الجيش العراقي وتطهيره وتسليحه لتقوية حكم البعث.
- القضاء على كل أنواع الأخطار المسلّحة في كوردستان وعلى حركتها التحرّرية.
- تقوية الاقتصاد العراقي وترضية جماهير البعث، وهم من صغار البرجوازيين على الأغلب.
- تقوية المؤسّسات القمعية وتطويرها.
- فرض التعريب والتهجير والتبعيث.
- التقليل من شان المعارضة العراقية.
- توسيع العلاقات الديبلوماسية والسياسية والاقتصادية للنظام مع دول الجوار والعالم.

هذه هي الأسس المهمّة لسياسة البعث، ويتعلّق قسم منها بالبرنامج البعيد المدى لأهدافه، والقسم الآخر، وهو الأكثر، يتعلّق بالكورد وكوردستان. ومن أجل هذا، بدأ حزب البعث بعد صدور بيان آذار مباشرة بممارسة الضغط وتنفيذ خطط التعريب والتبعيث والتهجير والعنف، بلا تحفّظ، وتوسيع خططه العسكرية ضدّ الكورد وكوردستان. إنّ هذه الحقائق جميعها تؤكّد شوفينية النظام وعنصريّته، ومراوغته وخداعه في إصدار بيان آذار.

هناك ظاهرتان بارزتان في الساحة العراقية كانتا ضدّ الكورد وثورتهم مباشرة، وخلقتا خطرًا مخيفًا، بعد بيان آذار، على وجود الكورد وقضيّتهم وثورتهم، وهما:

١- التعريب والتهجير والتبعيث.
٢- تسليح الجيش والتوسّع في مدّ الطرق في كوردستان.

بالنسبة إلى الظاهرة الأولى، أي التعريب والتهجير والتبعيث، فقد كانت تعرّض، إضافة إلى مصير الثورة، الوجود القومي للخطر أيضًا. إنّ سياسة تعريض وجود شعب للخطر سيكون لها حتمًا ضرر مباشر على نضاله المسلّح أيضًا. فمثلًا، المناطق التي اعترف بها النظام على أنّ لها الحقّ في التمتّع بالحكم الذاتي، والتي سمّيت في عام ١٩٧٤ بمنطقة الحكم الذاتي، هي محافظات السليمانية وإربيل

ودهوك، وتبلغ مساحتها مجتمعة ٢٦٣٤٧ كيلومترًا مربّعًا، في الوقت الذي تبلغ مساحة كوردستان/العراق ٨٦٠٠٠ كيلومتر مربّع. وقد تمّ تعريب ٤١,٤٩٪ من أرض كوردستان/العراق بالقوّة.[٩٩]

إنّ هذه السياسة المخيفة، إضافة إلى تضييق مساحة أرض كوردستان، وإبعاد مئات الآلاف من الكورد إلى جنوب العراق، ممّا يؤثر مباشرة تأثيرًا سلبيًا ديموغرافيًا وجغرافيًا واجتماعيًا وسياسيًا، وحتى نفسيًا في الثورة الكوردية المسلّحة، كان لها أيضًا تأثير فعّال من الناحية العسكرية. فمن جانب، كانت تقلّل من إمكانية حشد وتسليح البيشمركة وتضيّق مجال دعم الحركة بالقوّات بصورة مستمرة، ومن جانب آخر، كانت لها فائدة مؤثّرة للنظام في نشر وتحصين القوّات وتحشيدها، والمحافظة على القواعد والمعسكرات الكبيرة والمتوسطة ومخازن أسلحة النظام، وما حولها. إذ كلّما تمّت السيطرة على مناطق أكثر، اقتربت المعسكرات ومخازن الأسلحة من مناطق قتال وأماكن البيشمركة أكثر فأكثر.

إنّ تقريب قوّات عسكرية كبيرة، ومخازن الأسلحة من أماكن تواجد قوّات البيشمركة، له أهميّة قصوى للثورة المضادّة من الناحية السوقية الحربية في بلد جبلي ككوردستان، مليء بالوديان والمضائق والمناطق الوعرة التي تصلح أن تكون ساحات لنزال وحرب الأنصار. كما يقلّل هذا الأمر من نفقات الحرب أيضًا، خاصّة في حالة ثورة كوردستان التي تفتقد إلى الظهير الاستراتيجي، حيث السلاح الثقيل البعيد المدى يخلق خطرًا على معسكرات العدوّ ومخازن أسلحته.

أمّا بالنسبة إلى الظاهرة الثانية، أي تسليح الجيش والإكثار من الطرق في كوردستان، فإنّ النظام بدأ بتنفيذ خطّة واضحة المعالم في الأعوام ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٤ ضدّ ثورة كوردستان، بتخصيص أموال وإمكانيات كبيرة لشقّ ومدّ الطرق إلى كل مكان في كوردستان. فبالإضافة إلى مخاوف النظام من كوردستان، فإنّ قلقه من إيران وتركيا وسوريا، كان ينعكس على أرض كوردستان. لذلك، فإنّ معظم الطرق الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية للنظام العراقي مقابل سوريا وتركيا، تقع في حدود محافظتيّ الموصل وإربيل. كما تتّسم محافظة السليمانية بأهميّة كبيرة من هذه الناحية، حيث شقّت طرق عسكرية مقابل مدن كرمنشاه، سنه،

٩٩ ضيا, ئةمنى ستراتيجى عيَراق و سآكوضكةى بةعسييان: تةرحيل، تةعريب، تةبعيس- كؤمةلَةى رةنجدةرانى كوردستان- زنجيرةى ليَكؤلَينةوةى (٣) ل ٢٨٤.

سقز، بانه، وسردشت الواقعة في كوردستان/إيران. هذا عدا الطرق التي شقّت في مناطق خانقين ومندلي وبدرة، والمناطق الجنوبية الأخرى التي هي طرق استراتيجية للمحافظة على بغداد. فما عدا هذه الطرق، هناك طرق أخرى تمّ إنشاؤها في كل أرجاء كوردستان لاستخدامها ضدّ الحركة الكوردية.

باختصار، تبلغ مساحة الأراضي العراقية ٣٤٨٤٤٦ كيلومترًا مربّعًا بينما تبلغ مساحة الطرق المعبّدة بين عامَيْ ١٩٧٤ و١٩٧٥ ما يقارب ٩٢٤٠ كيلومترًا، وغير المعبّدة ٢١٧٧ كيلومترًا. فإذا قارنا هذا بدولة كالسعودية التي تبلغ مساحتها ١٧٦٠٠٠٠ كيلومتر مربّع، أي خمسة أضعاف مساحة العراق، نجد أنّ مساحة كل الطرق التي تمّ إنشاؤها فيها، أثناء نفس الفترة (١٩٧٤-١٩٧٥) لا تتجاوز ٨٧٥٩ كيلومترًا، أي ما يقارب ثلث ما أنشأه العراق خلالها، علمًا أنّ السعودية أغنى من العراق. وفي ما يتعلّق بتسليح الجيش، فإنّ الجدول أدناه، مع بعض الإحصائيات التي تتناول الأسلحة الخطيرة المختلفة، يظهر تفوّق النظام العراقي على إمكانيات المقاومة المسلّحة لشعبنا، والذي كان يحتّم على الثورة، وجهاز «الباراستن»[100] والحزب الديمقراطي الكوردستاني، والمكتب العسكري، أن يحسبوا له حسابًا عسكريًا، لكنّه، وبكل أسف، لم يحصل شيء من هذا.

---

١٠٠ الجهاز المكلف بحماية الحزب الديمقراطي وثورة أيلول وقيادتها - المترجم -.

الجدول رقم (٧)

النفقات العسكرية

* تقرير جمعية الدراسات الاستراتيجية-لعام ١٩٨٠-لندن- العدد ٨-ص٥٦.

* المؤسسة المركزية للإحصاء (الحسابات القومية)-كتاب الجيب الإحصائي-عام ١٩٨٢- ص٤٥.

	النسق	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٩	١٩٨٠	النسبة المئوية سنويًا ٧٥-٨٠
المصروفات العسكرية السنوية	مليون دولار	١٢١٢	١٥٦٦	١٦١٤	٢٧٧٥	٢٠٠٠	٨٥,٩٪
الواردات العسكرية السنوية	مليون دولار	٦٢٥	٦٢٥	٦٧٥	٢١٠٠	٢٢٧٠	٢٣٦,٣٪
عدد القوات المسلحة	ألف فرد	١٠٥	١٠٥	١١٠	١٥٥	٣٨٤	٢٤٩,١٪
معدل حصة الفرد من الدخل القومي	دينار واحد	٣٨٠٠	٥٠٠٠	٤٩٠٠	٦٠٠٠	٢٦٠٠	
معدل حصة المواطن من الدخل القومي	دينار واحد	١٣٠	٢٧٠	٣٢٠	٨٣٠	١١٦٠	

حسب الجدول أعلاه يتبيّن أنّ النفقات العسكرية بلغت في عام ١٩٧٣، وهو العام الذي تعقّدت فيه الأوضاع بين النظام والثورة، وتبيّنت فيه مظاهر استئناف القتال، ما يقارب مليارين وسبعمئة وثمانية آلاف دولار، والواردات العسكرية مليارًا وثلاثمئة وخمسين ألف دولار. ففي هاتين السنتين، كان معدّل حصّة دخل الفرد العسكري عام ١٩٧٣ يزيد بثلاثة آلاف وستمئة وسبعين دينارًا على معدّل دخل المواطن المدني. وفي عام ١٩٧٤ كان أكثر منه بأربعة آلاف وسبعمئة وثلاثين دينارًا.

لو أضفنا هذه الميزانية العسكرية إلى حسابات المبالغ المرصودة لشراء السلاح للجيش العراقي، فإنّ قوّة السلاح العراقي تصبح في وضع يميل فيه ميزان القوّة العسكرية بين الثورة والنظام لصالح النظام العراقي بصورة كبيرة جدًا. فمثلًا، كان العراق يملك بين عاميْ ١٩٧٤ و١٩٧٥ خمسمئة وستّ وأربعين طائرة حربية، ومئة واحدى عشرة طائرة هليكوبتر، وألفًا وستمئة دبابة، وتسعمئة مدفع ثقيل، وألفًا وخمسمئة ناقلة جنود.

إنّ هذا الاختلال في التوازن بين ثورة أيلول والنظام العراقي من الناحية العسكرية والبشرية، ومن جهة العلاقات الدولية والديبلوماسية والإمكانية الاقتصادية والمالية، كان خطيرًا جدًا، وكان على قيادة الثورة أن تحسب حسابًا دقيقًا شاملًا في الأعوام ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٤ لكل هذه الفروق والاختلالات، وتحلّلها وتدرسها بعناية، وتقارنها مع إمكانيات الثورة والبارتي، وإمكانيات شعبنا، في كل النواحي، بصورة موضوعية، ومن ثم يصدرون-بعد ذلك- قرار المقاومة المسلّحة، إن كان في ذلك ضرورة لا بدّ منها.

في سنوات استئناف القتال، كان المساند والظهير الوحيد للثورة هو إيران، وعن طريق إيران دخلت أميركا على الخط، وكانت أميركا وإيران أيضًا تتحرّكان داخل إطار تأمين مصالحهما في الشرق والخليج في خضمّ الأمواج العاتية للحرب الباردة، إضافة إلى أنّ النظام الإيراني كان نظامًا مؤيّدًا للتوجّهات العنصرية الفارسية ضدّ الكورد، ولم يكن أبدًا مؤيّدًا للحقوق السياسية للشعب الكوردي، لأنّه كان يخشى من انعكاس ذلك على كوردستان/إيران.

في غضون سنة كاملة من القتال الشديد الصعب، وإن قدّمت إيران وأميركا

فيها مساعدات سخيّة للثورة، شملت الناحية الإدارية في مخيّمات اللاجئين داخل إيران، وفي المناطق الحدودية، إلا أنّهما قضتا-هكذا- على شعبنا، من الناحية السياسية والعسكرية. ففي مقابل هذه الإمكانيات العسكرية والهجمات الاستراتيجية التي كان يشنّها النظام العراقي على المناطق المحرّرة، أدخلت إيران وأميركا أسلحة عسكرية تكتيكية فقط إلى الميدان، ولم تعطِ للثورة قط أسلحة تستطيع بها قصف الركائز الاقتصادية ومعسكرات الجيش الكبيرة والمهمّة. وبهذا العمل وضعوا الثورة، من الناحية العسكرية، في خندق الدفاع السلبي، والقتال الجبهوي الواسع، وهذا النوع من القتال الجبهوي الواسع فيه خطر استراتيجي قاتل، بالنسبة إلى حركة مسلّحة، تعمل ضمن حدود جغرافية ضيّقة، وشعب مضطهد، أقلّ عددًا من الشعب الحاكم، وبمساندة ضعيفة، وبتدريب وإعداد عسكري متخلّف. ومن الناحية السياسية، لم يجرِ بحث القضية الكوردية بصورة رسمية في المؤسّسات الدولية، ولم يجرِ فضح جرائم النظام أيضًا. ووضع النظام كل إمكانياته العسكرية والسياسية والنفسية في ميدان المعركة، والتي شملت أحدث أنواع الأسلحة الشرقية والغربية، وذلك بفضل سياسة الحرب الباردة، بحيث كانت:

- الطائرات الحربية الفتّاكة، مقابل المضادّات الجوية الضعيفة القليلة.
- الدبابات الفعّالة الحديثة، مقابل الأسلحة القليلة المضادّة لها وبشرط استعمالها في مناطق محدودة.
- المدافع الحديثة والمواقع المدفعية الحصينة، مقابل ردّ فعل قليل محدود، وما كان موجودًا منه، كان على الأغلب في منطقة القيادة وعمق منطقة راوندوز.

إنّ هذا التوازن العسكري المختلّ، تسبّب في نجاح النظام العراقي في معظم جبهات القتال، بفعل هذه الأسلحة الثقيلة، حتى أنّ قمم الجبال العالية الصعبة مثل طلي علي بط، سرتيز، حسن بط، كورك، وهندرين، وقعت بأيدي النظام، بينما لم تستطع الأنظمة فيما مضى وطيلة الانتفاضات الكوردستانية المسلّحة احتلال تلك الجبال.

احتلال هذه الجبال شكّل خطرًا مباشرًا على قيادة الثورة ومؤسّساتها الكبيرة والمؤثّرة الفعّالة، كذلك أثّرت على معنويات البيشمركة وفعاليّاتهم السياسية والعسكرية.

٤/٨ - علاقات البارتي... والانهيار

بالرغم من الفارق العسكري والأسلحة الفتّاكة للنظام، ووجود مئات النواقص الكبيرة والصغيرة، الطبقية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، والتقصير بحق الكادحين، وعدم وجود تكتيك مناسب وملائم للثورة في مجال الحرب وساحات المعارك، وفي حرب الأنصار، والحرب المتحرّكة، والحرب الجبهوية، والحرب الدفاعية الاستراتيجية، وعلى مستوى ثقل هذه الحرب والإمكانيات العسكرية والتدريب العسكري، والتقنية العسكرية الحربية للنظام العراقي.. بالرغم من كل ذلك، صمدت قيادة البارتي بفضل بطولة الجماهير والبيشمركة وتضحياتهم داخل كوردستان، واستمرّت في المقاومة. ونعتقد أنّ ذلك الصمود، وتلك المقاومة، لوجرت بشكل مبدع، ووفق الأسس والقواعد العلمية لحرب الأنصار في كوردستان، لتمخّضت في غضون تلك السنة عن نهاية عسكرية وسياسية جيدة.

لم يحصل هذا، ومع ذلك لم يستطع النظام تحقيق خططه الاستراتيجية في دحر وهزيمة البيشمركة، رغم تفوّقه على الثورة في كل الميادين والمجالات، بل توصّل هو بنفسه إلى نتيجة أنّه لا يستطيع عن طريق القوّة العسكرية من وضع نهاية لهذه الحرب التي تدور في حلقة مفرغة. إذ تتوقّف الحرب ثم تستأنف من دون انتصار أيّ طرف فيها انتصارًا استراتيجيًا. لذلك قرّر، وعلى أساس القضاء على الثورة بأيّ ثمن، الدخول في أكبر مساومة مع النظام الشاهنشاهي الإيراني، من أجل فرض أهدافه العنصرية. وبهذا تنازلوا عن كل ادّعاءاتهم في الخليج وشطّ العرب لصالح الشاهنشاهي، ووقّعوا اتفاقية الجزائر المشؤومة في السادس من آذار (مارس) عام ١٩٧٥.

إنّ تلك الاتفاقية التي وقّعها صدام مع شاه إيران، لم يقدم على إبرامها حتى الأنظمة التي كانت خاضعة للاستعمار البريطاني في حينه، وهذا أفضل دليل على عنصرية النظام وشوفينيّته، حتى النخاع، تجاه الكورد. فهو اختار الخزي والعار والمهانة والركوع أمام نظام الشاه مقابل القضاء على النضال المشروع للشعب

الكوردي، من خلال تخلّي إيران وأميركا عن مساندة البارتي. وهذا دليل صارخ على أنّ أميركا وحلفاءها كانوا متلهّفين، بل لاهثين لفرض مصالحهم وتأمينها بأيّ ثمن عسكري وسياسي واقتصادي، حتى لو كان بارتكاب غدر تاريخي ضدّ شعب مظلوم.

في بداية الحرب الباردة، ضحّى الاتحاد السوفييتي بجمهورية مهاباد من أجل فرض معسكره والمحافظة عليه، وأثناء اشتداد الحرب الباردة سارعت أميركا لبيع ثورة أيلول. وفي نهاية الحرب الباردة أيضًا، يقصف شعبنا بالأسلحة الكيمياوية الفتّاكة للشرق «الاشتراكي» والغرب «الإنساني».

إنّ هذا الغدر والظلم الذي تعرّض له شعبنا مع فشل ثورة أيلول، تسبّبا في حصول كارثة عظيمة في تاريخ الكورد المعاصر. فلكي نتعامل مع التاريخ بأمانة تاريخية، من الأفضل أن نقوم بدراسة الغدر الكبير دراسة جديدة داخل كوردستان، في ضوء العلاقة الحالية للحركة الكوردية بالغرب، ووجود قوّات الحلفاء بقيادة أميركا على حدود كوردستان، بعد انقشاع غيوم الماضي وزوال الضباب من سمائها وأجوائها.

في ظلّ الحرب الباردة، كان كل نوع من العلاقات والصداقة مع الاتحاد السوفييتي والمعسكر الشرقي يدخل في خانة التقدّمية والديمقراطية، وعلى النقيض من ذلك، كان أيّ اتصال أو علاقة بأميركا والغرب، يعتبر سلوكًا رجعيًا وعلاقة مشبوهة. إلا أنّ العلاقات الاقتصادية والسياسية والديبلوماسية للدول بالغرب، كانت مسألة اعتيادية في نظر الاتحاد السوفييتي والدول والقوى والأحزاب السائرة في ركابه، أمّا الحركات المسلّحة التي كانت تتعرّض للقصف يوميًا، وتدمّر مدنها وقراها، وتخرّب أراضيها وممتلكاتها، كان محرّمًا عليها أن يكون لها أيّ اتصال أو علاقة بتلك الدول. وإذا حصل عكس ذلك، فهي جريمة لا تغتفر. واستنادًا إلى هذه المعايير المزدوجة، اعتبرت علاقة البارتي والبارزاني بإيران وأميركا خيانة قومية ووطنية، إلى الحدّ الذي وصل الأمر ببعضهم إلى رفع السلاح بوجههما.

والآن، وبعد أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، وانقضت أيّامها واختفى شبحها، وتغيّرت العلاقات والترتيبات، فمن العدل والواجب أن تقيّم الحقائق التاريخية، من رؤية ومنظور آخر، بعيدًا عن الإنعزالية النظرية، والمنافسة السياسية،

لأنّ الحقائق انكشفت من تلقاء نفسها، ولأنّ الحركة الكوردية في كوردستان العراق لها علاقات أكثر دفئًا مع الغرب في الوقت الحاضر. وليس هناك الآن أيّ خلاف في وجهات النظر بين القوى الرئيسية والمعروفة، حول أسس وقواعد العلاقات الدبلوماسية والسياسية والعسكرية والإدارية أيضًا، بالغرب وأميركا. علمًا أنّ هذه الخلافات كانت أكثر قوّة وشدّة.

فالمواقف السابقة والحالية متناقضة جدًا، وأضرار الخلافات الماضية داخل الحركة الكوردية لم تنتهِ بعد، بل لا تزال مستمرة. وآثار تلك العداوات ونتائجها السياسية والعسكرية والإيديولوجية، تعيد يوميًا إلى الأذهان، عن طريق (الفلاش باك) صور الصراعات الحزبية والسياسية والشخصية داخل الحركة الكوردية، وتنكأ جراح الماضي ببرودة أعصاب. وهذه الآلام هي جزء من خميرة فعّالة تضخّم المواقف المتناقضة الحالية، لذلك ينبغي تقييم التاريخ السياسي لثورة أيلول، وانهيارها وعلاقاتها ونكبتها من جديد، بعيدًا عن المنافسة الحزبية. كما يجب إعادة دراسة جميع الأحداث السابقة ومناقشتها، وبشكل علمي وموضوعي، ووضع الحقائق كما هي، في مراحلها التاريخية الخاصّة بها.

إنّ القصد من البحث في هذا الفصل هو توضيح ما يلي:

لقد تطلّبت الظروف السياسية والعسكرية في كوردستان والمنطقة بعد بيان ١١آذار ١٩٧٠ التفكير العميق في مسألة عدم إبقاء النضال المسلّح نهجًا ثابتًا لتحرير الكورد. وبذلت المساعي الجادّة لتبديل ثقل هذا النضال من الجبل إلى المدن، لأنّه بالإضافة إلى التطوّرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإنّ النضال المسلّح لم يكن باستطاعته تحقيق أكثر ممّا حقّقه بيان آذار، لاسيّما إذا عرفنا أنّ استراتيجية البارتي هي «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكوردستان».

لم يكن البارتي في وضع تسمح له الظروف الدولية والإقليمية والنضال القومي الكوردي أيضًا في عموم كوردستان، بتغيير هذه الاستراتيجية، وكانت العلاقات السياسية والعسكرية التي ربطت ثورة أيلول بإيران وأميركا والمساعدات التي قدّمتها هاتان الدولتان لها، لم تتجاوز حدود منطق المساعدات الوقتية غير الكافية، «عش ولا تمت»، ولم تكن مساعدات استراتيجية.

ثورة ضعيفة، وكوردستان أضيق من السابق، وعدوّ أقوى وذو واردات وإمكانيات أعظم، ولم تبرم هذه الثورة أيّ اتفاقيّات موثّقة مع جهة أمينة ومساندة لها إلى يوم النصر النهائي، علاوة على عدم نضج شروط الظرف الثوري في العراق! ترى ماذا تعني إعادة القيام بالثورة المسلّحة في هذه الحالة والظروف غير الملائمة؟!

لكي تكون هذه الحقائق المتعلّقة ببحثنا مدعومة بالأدلّة والوثائق، فمن الأفضل البدء بالوثائق الأميركية السريّة، من أجل تحديد مصير تلك العلاقات والمساعدات التي قدّمت بفضل تلك العلاقات، لأنّ هناك الكثير من الأحاديث حولها، لكنّ الحقائق ليست واضحة مثل الوثائق. ولم يكتب حتى الآن دراسة عميقة حول تلك العلاقة، بل بقي أكثر جوانبها غير معلن، وغير معروف، وما نقصده هنا هو التقرير الذي نشرته لجنة «أوتيس بايك» التي تشكّلت عام ١٩٧٦ لإجراء دراسة حول النشاطات السريّة لجهاز الاستخبارات الأميركية، وكانت هذه اللجنة برئاسة أوتيس بايك الذي اشتهر التقرير باسمه. ولئنّ أميركا غدرت بالحركة الكوردية غدرًا كبيرًا حينذاك، لم يكن واردًا، بأيّ شكل من الأشكال، نشر التقرير. ومع ذلك وجد طريقه إلى النشر خلسة، في صحيفة فلاحية معارضة، تصدر في قرية «جرينيش» القريبة من نيويورك باسم «صوت الريف». إلا أنّ جهاز الاستخبارات الأميركية صادر العدد فورًا، وقدّم الصحفي إلى المحاكمة، ونشر القسم الذي كان له علاقة بالكورد تحت اسم «الحالة رقم-٢- مساعدات السلاح».

أثبت التقرير، أنّه في آب (أغسطس) عام ١٩٧١، اتصل ملا مصطفى بارزاني بقيادة الاستخبارات المركزية الأميركية في طهران طالبًا منها مساعدته ضدّ العراق، لكنّ طلبه الذي جاء ضمن رسالة، لم يردّ عليه. وفي آذار (مارس) عام ١٩٧٢، كرّر طلبه، وهذه المرّة أُرسل الطلبان إلى «لجنة الأربعين» التي تشرف على جميع النشاطات السريّة للاستخبارات الأميركية، وكان هنري كيسنجر يرأسها حينذاك. وقد أورد تقرير أوتيس بايك المعلومة على الشكل الآتي:

إنّ الوثائق التي جمعتها اللجنة تثبت أنّ القرار اتخذ من قبل الجهات العليا، من أجل طمأنة إيران الحليفة التي تتعاون معنا بإخلاص، وتعتقد أنّ هناك أخطارًا تهدّدها من العراق جارها، حيث العداء بينهما قديم، وليست خلافاتهما

أساسًا ناتجة عن خلافات عقائدية، لكنّ في الوقت نفسه لها علاقة بالولايات المتحدة.[١٠١]

هذه الوثيقة التي نشرتها، بعد الدراسة، اللجنة الخاصّة بدراسة النشاطات السريّة للاستخبارات المركزية الأميركية، تحتاج إلى دراسة سياسية وافية، كي تستخرج منها نتائج مفيدة:

١- التقرير لم يشر لا من قريب ولا من بعيد، بصورة جيّدة أو سيئة، وبشكل مباشر أو غير مباشر، إلى الخيانة والعمالة أو الدسيسة والتآمر والأعمال التجسّسية للبارتي والبارزاني، لصالح المخابرات الأميركية.

٢- البارزاني هو الذي طلب المساعدة من أميركا، ولم تخطّط المخابرات الأميركية مسبقًا لجرّ البارتي والبارزاني للوقوع في حبائلها.

٣- حين طلب البارزاني بنفسه المساعدات من أميركا، لم يكن العراق قد أمّم نفطه بعد[١٠٢] لكي يقال إنّ تلك العلاقة كانت من أجل الوقوف ضدّ التأميم، وبدسيسة أجنبية. كذلك لم يجرِ أيّ حديث عن حرب تشرين ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، في تلك الفترة، لكي تربط تلك العلاقة بمسألة الحرب.

هذا بالنسبة إلى حقيقة وجوهر العلاقة بين البارتي والبارزاني وبين أميركا. تبقى هناك أسئلة تحتاج إلى أجوبة، وهي بأيّ قصد، أو من أجل ماذا قرّروا مساعدة الكورد؟

ترى، أكان هذا من أجل الديمقراطية والقضاء على الظلم والجور، أم كان من أجل تأمين مصالحهم هم؟

إنّ السياسة التي اتبعتها أميركا ضدّ فيتنام ولاوس وكمبوديا في تلك الفترة التي قرّرت فيها مساعدة الكورد، هي خير جواب على تلك الأسئلة التي تدور حول سبب دخول أميركا إلى هذا الميدان، فهم يقولون في التقرير:

---

١٠١ انظر- هيكل، محمد حسنين- الحل والحرب- شركة المطبوعات للنشر- الطبعة الأولى ١٩٩٧- بيروت ص ١٣٧-١٤١.

١٠٢ تم تأميم النفط في ١٦/ تموز/١٩٧٢ بطريقة بعثية.

إنّ هدف الولايات المتحدة من مساعدة الأكراد لم يكن من أجل تمكينهم من إحراز انتصار يساعدهم على الحصول ولو على حقّ الاستقلال الذاتي. إنّ حصول الأكراد في العراق على هذا الحقّ يمكن أن يؤثّر على أكراد إيران وهذا يسبّب مشاكل للشاه. وبالتالي، فلقد كان المطلوب هو ضبط حدود المساعدة للملا مصطفى بحيث يظلّ دائمًا على مستوى معين! مستوى يستطيع عنده استنزاف قوّة الجيش العراقي وإنهاك أسلحته وقيادته وأفراده، وفي نفس الوقت في مستوى لا يستطيع معه إحراز انتصار مؤثّر يحقّق الاستقلال، و يؤثّر على أكراد إيران.[١٠٣]

هذا النصّ يثبت سطرًا بعد سطر تلك الحقيقة التي تؤكّد أنّ أميركا وإيران نزلتا إلى الميدان وفق خطّة، بل مؤامرة، كان هدفهما منها خدمة مصالحهما فقط. ولئن قيادة الثورة الكوردية لم تكن عميلة لهما، لذلك ساعدتاها بصورة لا تمكّنها على تحقيق انتصارات كبيرة خوفًا من تأثيرها في كورد إيران أيضًا.

القسم الأخير من التقرير يؤكّد حقيقة تاريخية، أو لنقل فيه اعتراف وإقرار بالغدر الكبير الذي ارتكبته أميركا بحق الكورد، حيث يقول بوضوح:

لقد كانت سياستنا غير أخلاقية إزاء الأكراد، فلا نحن ساعدناهم، ولا نحن تركناهم يحلّون مشاكلهم بالمفاوضات مع الحكومة العراقية. لقد حرّضناهم ثم تخلّينا عنهم.[١٠٤]

هذا القسم من التقرير الذي يكشف غدر أميركا للكورد، والذي تنعت فيه لجنة تحقيق عالية المستوى لقوّة عالمية عظمى سياسة بلادها بـ«اللا أخلاقية»، لم يبقِ شيئًا للكورد على أميركا، لكي يقولوه لها؟![١٠٥]

---

١٠٣ هيكل محمد حسنين، الحل والحرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى ١٩٩٧، ص ١٣٩.

١٠٤ هيكل، محمد حسنين، الحل والحرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ١٣٨ - ١٣٩.

١٠٥ بعد زيارة وفد المعارضة العراقية إلى أميركا في ٢٧ تموز ١٩٩٢، قال مستشار الأمن القومي لأميركا ردًا على سؤال وجهه إليه السيد مسعود بارزاني حول كارثة ١٩٧٥: «هذا العار لن يتكرر أبدًا».

أمّا ما بقي من هذا الأمر، فله علاقة بالبارتي وقيادته، في حدود صلته بمضمون حديثنا، وماذا يقولون عنه. فأميركا تقول: «كنّا بلا أخلاق».. ترى، ماذا يقول الكورد عن أنفسهم بخصوص هذه المسألة؟!

إنّ الإجابة على هذا السؤال، لها فروع كثيرة، ولا بدّ من توضيح هذه الحقيقة من قبل المؤرّخين مستقبلًا، لكن من الجائز أن يقال هنا: كان من المفروض، في أقل تقدير، أن تكون قيادة البارتي والبارزاني على دراية بنوايا أميركا وإيران، عندما رضيتا بمساعدة الثورة. فإن كانوا على علم بها، ومع ذلك قرّروا عام ١٩٧٤ استئناف القتال، بهدف إفراغ الشروط البعثية العنصرية من محتواها، فإنّهم بهذا الشكل، مكّنوا النظام، عن طريق اتفاقية الجزائر المهينة من الفوز بالرهان، وهذا الفوز، وبهذه الطريقة، يثبت أنّ حسابات قيادة الثورة للعداء الموجود بين العراق وإيران تجاوزت حدودها بشكل كبير. وإن كانوا لا يعرفون، بصورة دقيقة، من أجل أيّ هدف كانت أميركا وإيران تساعدان الثورة، فإنّ قرار استئناف القتال، بهذا الشكل أيضًا، وعلى أساس تأييدهم ومساعدتهم، بدون معرفة أهدافهم ومقاصدهم من هذه المساعدة، هي التي جعلت هاوية الانهيار والسقوط من نصيبها.

نحن نعتقد أنّ أفضل مبادرة كان من الواجب القيام بها، سواء عرفوا أم لم يعرفوا الأهداف الحقيقية لأميركا وإيران، اعتماد البارتي في أعماله ومخطّطاته خلال الأعوام ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٤ على جماهير شعبنا، بدرجة أكبر. ونقل مركز ثقل الثورة وروح المقاومة إلى داخل المدن. وكان بالإمكان عن طريق هذه السياسة فقط، إنقاذ الثورة وشعبنا من الغدر التاريخي، وإجبار النظام على تراجع كبير في نفس الوقت. لكنّ هذا لم يحصل، لأنّ عقلية النضال المسلّح وفق خصال المجتمع الكوردي، كانت مسيطرة داخل قيادة البارتي.

مئات الألوف من جماهير شعبنا، كانوا مستعدّين للانخراط في صفوف البيشمركة، أو الذهاب إلى المخيّمات التي أقيمت في الأراضي الإيرانية، أو البقاء في المناطق المحرّرة. فهذه الجماهير، لو ظلّت في مدنها وقراها، وأثيرت مشاعرها بالتكتيك والشعارات الثورية للقيام بالتظاهر والإضراب والانتفاضة، لتغيّر حينذاك الوضع السياسي في كوردستان، ولتحدّد مستقبل أفضل لشعبنا. لكن، بكل أسف، لم يكن عدم تغيير استراتيجية النضال المسلّح في الجبال في مصلحة

مستقبل شعبنا فقط، بل ألحق ضررًا بالغًا به أيضًا، إضافة إلى ظهور ثلاث حقائق تاريخية أمام حركة شعبنا المشروعة:

١- النظام العراقي لا يقرّ ولا يعترف أبدًا بحق الكورد في تقرير مصيرهم، وهو مستعدّ من أجل عدم الاعتراف بهذا الحق، للتنازل والخضوع، حتى لنظام رجعي كنظام الشاه.

٢-كل نمط من أنماط العلاقات الديبلوماسية والعسكرية والإدارية والاستراتيجية للحركة الكوردية مع الجهات الخارجية، ينبغي أن يكون موقعًا وواضحًا وموثقًا ومعترفًا به، وإلا فإنّ كل جهة أو دولة، لها الحقّ أن تتلاعب بها على ضوء متطلّبات مصالحها.

٣- النظام العراقي كان مستعدًا من أجل القضاء على الحركة الكوردية للخضوع التام لنظام الشاه، إلى درجة التنازل عن الحدود الدولية المرسومة للعراق، لكنّ قيادة البارتي لم تكن مستعدّة للتنازل عن كركوك وخانقين ومندلي وشيخان وسنجار، كذلك لم تكن مستعدة أيضًا، للانضمام إلى «الجبهة الوطنية» الصورية بقيادة حزب البعث العنصري.

لو قيل إنّ المرونة كانت ضرورية من الناحية السياسية التكتيكية، في مثل هذه الأمور، نقول إنّ تجربة الحزب الشيوعي العراقي كحزب، أثناء انضمامه إلى الجبهة مع حزب البعث، قد أثبتت عدم جدوى التكتيك المرن مع نظام عنصري مستبدّ، فلا يستطيع أيّ حزب أن يكون مرنًا أكثر من المرونة التي أبداها الحزب الشيوعي العراقي مع حزب البعث، ومع ذلك طارده دون هوادة!

٥/٨ – الوضع بعد الانهيار

عندما انهارت ثورة أيلول، سنحت الفرصة أمام النظام لكي يعمل، إضافة إلى انهيار الكورد العسكري، من أجل تحقيق انهيارهم السياسي والنفسي وحتى القومي أيضًا.

فباختصار، لم تمرّ الأمّة الكوردية أبدًا، منذ فشل انتفاضة «اكري داغ» في كوردستان/تركيا عام ١٩٢٥ بظروف قاسية كالتي أصيبت بها بعد انهيار ثورة أيلول. فليس الشعب والوطن والأصل والتراث والتاريخ والأهل، أصبحوا في مهبّ الريح، بل لم يكن أيّ شخص مطمئنًا حتى على شرفه الشخصي أيضًا. فمثلما يقع الغزال فريسة نمر جائع، وقع الكورد هكذا أمام هجوم نظام عنصري مستبدّ.

عندما أعلن الحزب الديمقراطي الكوردستاني انهياره العسكري، في ظروف كهذه، لم يكن لديه بالمقابل أيّ خطة سياسية لما بعد الانهيار العسكري، حيث أعطى الخيار للبيشمركة والناس في اتخاذ قرارهم، سواء البقاء في إيران أم العودة إلى العراق. فبالإضافة إلى التنظيمات العلنية للحزب الشيوعي العراقي وقتذاك، كانت هناك في الساحة هذه المنظّمات السريّة أيضًا:

١– «كاذيك» التي سميت بـ «باسوك» فيما بعد، وتأسّست عام ١٩٥٦.

٢– العصبة الماركسية- اللينينية الكوردستانية، وتأسّست في العاشر من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٠.

٣– كما وضعت الكوادر المعروفة في الثورة بقيادة الشهيد صالح اليوسفي أثناء انهيار الثورة، اللبنات الأولى لبناء «الحركة الاشتراكية الكوردستانية».[١٠٦]

٤– بعض من بقايا القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، من الذين كانوا

---

١٠٦ كان اسم منظمتهم في البداية (الحركة الاشتراكية الديمقراطية الكردستانية)، لكنهم غيروه بناء على طلب مام جلال إلى (الحركة الاشتراكية الكردستانية) لأنّه بيّن لهم أن (الاشتراكية-الديمقراطية) اسم أعلن افلاسه، وخان حاملوه الاشتراكية .

يقومون بنشاطات سياسية وعسكرية.

خارج الوطن، وبعد مشاورات بين قيادة «عصبة الماركسية-اللينينية الكوردستانية» والسيد جلال الطالباني، الشخصية السياسية المعروفة، جرت مناقشة أشكال مختلفة من الأحزاب والتنظيمات، انتهت بتأسيس الاتحاد الوطني الكوردستاني في الأول من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٥. وفي تلك الفترة نفسها أعلن عن تشكيل الحزب الديمقراطي الكوردستاني (القيادة الموقتة).

إنّ الظروف التي خلقها انهيار الثورة داخل الوطن لم تسمح حتى بإتاحة أقلّ الفرص لإجراء دراسة حرّة للوضع في كوردستان، وإعداد استراتيجية جديدة لما بعد الانهيار، ولكنّ الفرص كانت متاحة في الخارج بشكل واسع وكبير للكتابة عن هذا الوضع بلا رقيب، ولعقد الندوات والاجتماعات والمؤتمرات، ولنشر الكرّاسات والكتب، وإصدار الصحف والمجلات.. هذا عدا كسر الحصار الإعلامي المفروض على الأنباء والأخبار المتعلّقة بالعراق والقضية الكوردية، حيث كان بالإمكان الإطلاع على وضع النظام العراقي والقضية الكوردية عن طريق الوسائل الخاصّة والعامّة. كما أصبحت المكانة السياسية والقانونية لقضية شعبنا، وإلى أيّ حدّ تلقى المساندة والدعم، مسألة معروفة للمتتبعين.

في أيّام كأيّام الانهيار، حيث انقطعت كوردستان عن الخارج، ولم تكن هناك بينهما اتصالات يوميّة، بل حتى الشهرية، كان من الصعب التوصّل عن طريق حديث شامل إلى تفسير حالة الانهيار، وكيفيّة النضال في زمن ما بعد الانهيار، واستخلاص نتائج دقيقة عنه.

إنّ التفسير غير الدقيق للأحداث ألحق ضررًا بالغًا برسم الاستراتيجية الجديدة، بل تحكّمت الحالة النفسية السلبية التي أحدثها الانهيار، والسياسة العنصرية البعثية الخطيرة، في الآراء والقرارات المتّخذة. لذلك كانت أكثرية الآراء والقرارات خارج وداخل كوردستان، في خدمة استئناف القيام بحركة مسلّحة، وهذا لا يعني طبعًا أنّه لم تكن هناك آراء وتوجيهات مخالفة حول الكفاح المسلّح، كذلك حول نوعية هذا الكفاح المسلّح، والهدف من القيام بحركة مسلّحة، بعد الانهيار، ضدّ حزب البعث. وفي ظلّ وجود اتفاقية الجزائر كانت هناك آراء مختلفة حول كل ذلك، بل كانت هناك آراء مضادة للكفاح المسلّح أيضًا، إلا أنّه في نهاية المطاف

اتفقت الآراء بوجه عامّ على الكفاح المسلّح، وفق أساسين مختلفين:

الأساس الأول: البدء بالثورة المسلّحة الطويلة الأمد، عن طريق مفارز للبيشمركة، خاصّة بحرب الأنصار، تتحرّك بعيدًا عن أنظار السلطة وعملائها، مستهدفة توعية الكادحين، باسم الثورة الجديدة، في القرى والجبال من أجل إسقاط النظام، وتغييره بنظام ديمقراطي ائتلافي، يحقّق الحكم الذاتي الحقيقي لكوردستان، وتسمّي الثورة بـ»الثورة العراقية المندلعة من جبال كوردستان».

الأساس الثاني: تكوين قوّة مسلّحة كبيرة، تضمّ كل الطبقات والشرائح الاجتماعية، كتظاهرة مسلّحة من أجل الضغط على النظام، لكي يقرّ بمبدأ المفاوضات بسرعة، وبذلك يتمّ إنقاذ الشعب الكوردي من خطر العنصرية والاستبداد.

أول هذين الرأيين، كان للهيئة المؤسّسة للاتحاد الوطني الكوردستاني وعصبة الماركسية-اللينينية الكوردستانية. أمّا الثاني، فللحركة الاشتراكية الكوردستانية، وكلاهما كانا يقومان معًا بالعمليات العسكرية في إطار الاتحاد الوطني الكوردستاني، بشكل عامّ.

أمّا الحزب الديمقراطي الكوردستاني (القيادة الموقتة) الذي كان يعمل تحت التأثير السياسي والعسكري والنفسي لانهيار ثورة أيلول أكثر من الأطراف الأخرى، بحكم كونه مسؤولًا عن قيادتها ونتائجها، فقد بدأ عمله عن طريق المفارز الصغيرة المكوّنة من كوادره المثقّفة والمخلصة للقيام بحرب الأنصار. لكنّه لم يمض وقت طويل حتى بدأوا يجمعون هم أيضًا بين حرب الأنصار والحرب المتحرّكة، كما حصل في ثورة أيلول.

لم تمرّ فترة طويلة من الزمن حتى احتضنت كوردستان مرّة أخرى، وابتداءً من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٦ مفارز الأنصار وقوّات عشائرية أكبر في المناطق الجبلية التي تسكنها هذه العشائر. وقد اشترك في هذه المفارز وقوّات البيشمركة مسلّحو جميع الأطراف، واستؤنفت العمليات والنشاطات العسكرية من جديد، شيئًا فشيئًا، ووصلت أخبار استئناف الكفاح المسلّح إلى أنحاء العالم. وعندها اقتنع النظام بأنّه لا بدّ من الاعتراف بالحقائق، والتخلّي عن الكذبة التي كان

يروّج لها، وهي إنهاء روح المقاومة والتصدّي عند الشعب الكوردي، حيث بدأ بتنفيذ أوسع خطّة للثورة المضادّة في المنطقة التي أنشأها بنفسه، ومفادها القضاء نهائيًا على روح المقاومة عند الشعب الكوردي.

إنّ عملية تقييم استراتيجية الكفاح المسلّح لهذه الحركة التي قامت من جديد بعد الانهيار، وتقييم خطط الثورة المضادّة الجديدة للنظام، لها علاقة عضوية بجوهر بحثنا، أمّا بالنسبة إلى استراتيجية الكفاح المسلّح، وضرورة استبدالها باستراتيجية الانتفاضة، والتي لم تستبدل حتى بعد تجربة الانهيار أيضًا، فإنّ تأثير الأحداث خلق بصورة موضوعية هذه الاستراتيجية من جديد وفرضها على ساحة النضال في كوردستان.

٦/٨ – أرضية استئناف القيام بالكفاح المسلّح

أ– الأرضية السياسية:

ما دام شعبنا، من الناحية السياسية، صاحب قضية ديمقراطية مشروعة، وهي حقّ تقرير مصيره بنفسه، فإنّ هذه القضية المشروعة تعطي الحق له، من الناحية السياسية، في ممارسة كل أشكال المقاومة، إلى حين حصوله على حقوقه المشروعة، خاصّة وأنّ عدوّ شعبنا معروف بعدائه وبتجربته الطويلة في خرقه الدامغ للحقوق الديمقراطية والمدنية والإنسانية. لكن إذا أردنا إخراج هذا المبدأ العامّ من إطار الرؤية الشمولية العامّة، وتحليله قسمًا قسمًا، فإلى أيّ نتيجة ستقودنا هذه العملية؟!

إنّ الإجابة على سؤال كهذا سيأخذنا مرّة أخرى إلى حيث القوانين العامّة والخاصّة المتعلّقة بتحرير الشعوب، داخل إطار الاستراتيجية المسلّحة. وبعد ذلك، يمكن إصدار حكم علمي على كيفية استئناف الكفاح المسلّح بعد الانهيار، لأنّنا إذا لم نضع هذه القوانين العامّة أمام أنظارنا، فإنّ القانون الخاصّ للكفاح المسلّح لتحرير شعبنا سيتعقّد فهمنا له، لاسيّما في بداية استئناف حرب الأنصار، وبعد الانهيار، حيث كانت كل الأطراف تعتبر نفسها أقرب من القانون العامّ لتحرير الشعوب، ومن الفكر اليساري.

إنّ المبادىء التي وضعت في إطار القانون العامّ، بعد الحرب العالمية الثانية، لاسيّما بعد انتصار ثورة الصين الطويلة الأمد، فيما يتعلّق باستراتيجية الكفاح المسلّح التحرّري، هي:

١– الشروط الموضوعية، وتتحقّق بفقدان ثقة الناس بالنظام، وعدم قدرة النظام على حلّ الأزمات ومشاكل الناس، ويحدث هذا عندما يقع صراع غير قابل للحلّ بين قوى الإنتاج والعلاقات الإنتاجية.

٢-الشروط الذاتية، وتتمثّل هذه الشروط في الحزب الطليعي، وجبهة الشعب المتحدة، والثورة المسلّحة.

إذا قسنا النقطة الأولى، وهي الشروط الموضوعية على حالة العراق وكوردستان، ورجعنا إلى زمن وأرضية ما بعد انهيار ثورة أيلول، لوجدنا الأمر هكذا:

لتوفر مادّة النفط والمواد الأوليّة المتنوّعة الكثيرة، في العراق، فقد اعتمد النظام العراقي كليًا في تأمين وارداته على هذه المصادر الاقتصادية التي ساعدته كنظام برجوازي متخلّف على السيطرة التامّة على مقدّرات الشعب العراقي، حيث جنّد هذا النظام كل إمكانياته المالية الهائلة لحلّ كل المشاكل الاقتصادية للناس، بصورة عامّة، مثل تأمين فرص العمل، وتوزيع الرواتب، والسكن، والاحتياجات الضرورية الأخرى، وكان هذا سببًا في عدم تراكم الضوائق الاقتصادية العميقة. فما دام الأمر هكذا، إذن، لم يكن بالإمكان، تفجير القضايا السياسية والاجتماعية العميقة، عن طريق الإضرابات والتظاهرات الطبقية فقط.

وفي حالة كهذه، وعلى مستوى العراق كلّه، إن لم يكن الوضع الثوري مهيّأ، حتى إلى حدّ القيام بانتفاضة جماهيرية لإسقاط النظام، أو لإجباره على التراجع، فمعنى هذا أنّه لم يكن الشرط الموضوعي، مع مفهومه العلمي، مناسبًا للقيام بـ «الثورة العراقية المندلعة من جبال كوردستان».

إنّ السخط الموجود بين الناس وبين الساسة العراقيين ضدّ النظام، كان من غير الممكن جعله أساسًا لخلق وضع ثوري يؤدّي إلى إسقاط النظام، أو بعبارة أخرى، لم يكن السخط إلى درجة، بحيث يؤدّي إلى الإسراع في انتعاش مسألة القيام بالثورة العراقية، من جبال كوردستان. وبناءً عليه، فإنّ وجود سخط الناس والأحزاب السياسية العراقية المشرّدة، لم يتمكّن طوال العديد من السنوات، مع وجود الكفاح المسلّح في كوردستان، من دفع هذا السخط دفعًا ملحوظًا إلى الأمام، ليقترب من الوضع الثوري شيئًا فشيئًا. فإلى ما قبل الانتفاضة الجماهيرية، لم يرَ جنوب العراق نموذجًا واحدًا للنضال الجماهيري المهمّ، كشاهد على عمل القوى السياسية العراقية المعارضة.

أمّا بالنسبة إلى كوردستان، فمن الناحية القومية والنفسية والسياسية، كان

معظم جماهير كوردستان ضدّ عنصرية النظام، ويمكن اعتبار هذا الأمر جزءًا من الخاصّية المتاحة للشرط الموضوعي في كوردستان. وهذه الخاصّية المتاحة للشرط الموضوعي في كوردستان هي نفسها التي تفصل بين الوضع السياسي الخاصّ في كوردستان والوضع السياسي العامّ في العراق، كما تجعل منها أرضيّة صلبة لروح المقاومة الكوردستانية.

إذا كان بالإمكان ربط العلاقات السياسية والاجتماعية والقومية الموجودة داخل الدول، بصورة ميكانيكية، بالأسس الاقتصادية، فيجب في هذه الحالة ألا تصل قضية الديمقراطية لشعب كالكورد إلى حدّ نضج الشرط الموضوعي في كوردستان، وذلك حسب أسس الاقتصاد العراقي الذي لم تصل أزمته إلى حدّ الانفجار. لكن بفعل سببين أحدهما اقتصادي والآخر سياسي، يظهر أنّ العلاقات الاقتصادية ليست علاقات ميكانيكية. وأمّا هذان السببان فهما:

١-ليست الأسس الاقتصادية والعلاقات والقوى الإنتاجية الاقتصادية هي التي تقرّر فقط، بصورة حاسمة، مسار الظواهر السياسية والاجتماعية وشكل الروابط الاجتماعية في الحياة، بل وفي أحيان كثيرة، تصبح القضايا القوميّة والوطنية للشعوب، والمطالب الديمقراطية، أُسسًا للنضال الثوري.

٢-للقضية الكوردية جذور أكثر عمقًا من قضايا الشعوب المحرومة من الحقوق الديمقراطية في الشرق، ولا يمكن أبدًا وضع هذه القضية داخل قالب اقتصادي معدّ مسبقًا، فهي تزداد اشتعالًا ولهيبًا باستمرار إلى أن يحصل الشعب الكوردي على حقّ تقرير المصير، ويمارسه بكل حرّية، ويقرّر بنفسه مسألة استقلال أمّته ووطنه. هذه الحقيقة القوميّة تحوّلت في الحسّ الشعبي، والموقف السياسي للشعب الكوردي، إلى قوّة مادية فعّالة، تتميّز بميزات خاصّة بها بعيدة عن ظروف وأوضاع الدول المحتلّة لكوردستان، وتنعكس ثوريًا فيها كحركة ديمقراطية لشعب مضطهد.

فلو سلّمنا أنّ الأمور تسير بموجب هذه الحقائق، فإنّ الشرط الموضوعي كان ملائمًا للمقاومة الثورية في كوردستان، بالرغم من كارثة الانهيار ونتائجها وسيطرة النظام في الفترة التي تلت الانهيار على مقاليد الأمور فيها. لكن هل استطاع النظام العراقي تأمين المطالب التي أنعشها الشرط الموضوعي في كوردستان، والتي تمثّلت في مطلب تحقيق الديمقراطية والحرّية لشعب مضطهد، وبهذا كان سيلغي

فعالية الشرط الموضوعي هذا، لاسيّما أنّه كان يملك كل الإمكانيات الضرورية لتحقيق ذلك؟!

إذا كانت المسألة هي الاحتياجات الاقتصادية المنفصلة عن بقيّة الاحتياجات السياسية والاجتماعية والديمقراطية، فإنّ القدرة الاقتصادية للنظام، بعد انهيار ثورة أيلول، كانت أكثر بكثير من الفترة التي سبقت الانهيار، وذلك بسبب الانهيار الذي وفّر عليه الكثير من النفقات الحربية، وبسبب الإيرادات النفطية الهائلة التي تحقّقت نتيجة لارتفاع أسعار النفط في تلك الفترة. ففي عام ١٩٧٠ كانت إيرادات النفط العراقي بليونًا ومئتين وثلاثين مليون دولار، ووصلت عام ١٩٨٠ إلى خمسة وعشرين بليون دولار، أي بزيادة عشرين ضعفًا.[١٠٧]

كانت الإمكانيات الاقتصادية للنظام في مستوى تأمين الاحتياجات الضرورية للناس. فعلى الرغم من التمييز العنصري الصارخ بين القوميّات في العراق، إلا أنّ الحياة المعيشية للناس، بصورة عامّة، كانت أفضل لو قورنت بحياتهم المعيشية في السنوات التي سبقت الانهيار. زادت الإمكانيات المالية للناس، والأعمال الإنشائية والمقاولات والأعمال التجارية والرواتب المغرية والتعاملات المختلفة. ومع مرور الوقت، وحسب تخطيط النظام، من أجل خلق أوسع قاعدة جماهيرية للبرجوازية الصغيرة، كانت هذه القاعدة تتوسّع باستمرار، وفي نفس الوقت تقلّ احتياجات ومشاكل الماضي.

في عام ١٩٧٤، زادت رواتب الموظفين وأفراد القوّات المسلّحة والعمّال ما بين ٩ إلى١٩ دينارًا، وفي عام ١٩٧٩ ما بين ١٠ إلى١٧,٥ دينارًا، وشملت الزيادة هذه المرّة حتى المتقاعدين.

أصبح دخل المواطن العراقي، بفعل واردات النفط، كما يلي:

في عام ١٩٦٨ كان دخل المواطن العراقي السنوي ٤٩٢ دينارًا، فارتفع إلى ١٥١٧ دينارًا عام ١٩٨١،[١٠٨]

---

١٠٧ لمراجعة الارقام، انظر «حرب الخليج، أوهام القوة والنصر»، محمد حسنين هيكل، ص٩١.

١٠٨ التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع، حزيران ١٩٨٢، ص ٩٤.

هذه الخطّة، خدعت الناس وخرّبت البنية الاقتصادية في العراق نتيجة للسياسة الاقتصادية المعتمدة على واردات النفط. وقد أراد النظام، عن طريق تلك الحروب التي أشعلها ضدّ الكورد وإيران والكويت، تعويض خسائر تلك السياسة. وبهذا يتأكّد أنّ حركات الشعوب والقضايا الاجتماعية، لا تحرّكها الأسس الاقتصادية والمشاكل والأزمات الاقتصادية فقط، بل هناك أسباب أخرى أيضًا، القومية والسياسية والنفسية التي تلعب دورًا مؤثرًا، قد يصل إلى حدّ تهيئة الظرف الموضوعي لنشوء روح المقاومة لدى الشعوب المضطهدة. لذلك، ورغم عدم استفحال الأزمات الاقتصادية للنظام، ورغم تحسّن الحياة المعيشية والمالية، وتأمين المستلزمات الضرورية للناس، في الفترة التي أعقبت كارثة الانهيار، استردّ شعب كوردستان عافيته، وانبعثت فيه روح المقاومة بالقدر الذي تتطلّبه مرحلة التحرّر والديمقراطية، بسبب عنصرية النظام، التي لم تكن لها حدود.

لم يكن الشرط الذاتي مهيّأ للكفاح المسلّح في كوردستان، بعد الانهيار وبداية استئناف الكفاح المسلّح، كما كان مهيأً في البلدان التي أوصلت كفاحها إلى النصر، كالصين وفيتنام وكوريا وكوبا ولاوس. ولم تكن الأرضية الاجتماعية، ولا القوّة الطبقية، ولا النضال السياسي، ملائمًا فيها لولادة الحزب الطليعي مع مفهومه الطبقي، كما كانت في تلك البلدان. أمّا تشكيل «الجبهة الوطنية الكوردستانية، فلم يتحقّق بسبب تعقيد المشاكل القديمة بين الحزب الديمقراطي الكوردستاني والاتحاد الوطني الكوردستاني، بالإضافة إلى النتائج التي تمخّض عنها انهيار ثورة أيلول، وعدم التئام كل جراحات الماضي، كذلك لاختلاف الرؤية السياسية الجديدة إلى الأمور.

عندما تأسّس الاتحاد الوطني الكوردستاني، وانتعش الحزب الديمقراطي من جديد، لم يتمّ التوقيع على أيّ اتفاقيات بينهما لتنسيق عملية القيام بالكفاح المسلّح وتقويته.[١٠٩] وبدلاً من ذلك اشتدت روح العداء والحقد بين الطرفين بمرور الزمن. فهذا الوضع السياسي المتأزم العصيب، إضافة إلى تأخيره لضرورات تشكيل الجبهة الوطنية بشكل مؤثّر، فإنّه فجّر أيضًا التناقضات الثانوية. ومنح فرصة ملائمة لأعداء شعبنا لكي يعملوا من أجل تشجيع تفاقم المشاكل والتدخّل

---

١٠٩ الاتفاقية الميدانية الوحيدة التي وقعها(الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني) كانت عام(١٩٧٧) لكنها الغيت بعد شهرين من توقيعها.

من أجل إثارتها بشكل أعمق. وهكذا وقعت كارثة الحرب الداخلية الملازمة لحركة حرب الأنصار، واستمرت إلى بدايات عمليات الأنفال، بشكل مأساوي.

يمكن القول إنّ كل الأطراف، وبلا تمييز، مسؤولة عن الحرب الداخلية هذه، وإنّ كل الذين اشتركوا فيها، ووفق درجات مسؤوليّاتهم داخل الحركة، ابتداءً من أصحاب المسؤوليّات الكبيرة وانتهاءً بأصحاب المسؤوليّات الصغيرة، يتحمّلون الخطايا السياسية والعسكرية لكوارث الحرب الداخلية. وكل تنصّل أو تهرّب أو تبرئة للنفس من هذه الخطايا هو كذبة تاريخية الهدف منها خداع الجماهير. ففي محكمة التاريخ يعلّق بلا شك الكبير من رجله والصغير من رجله، أو كل يعلّق من عرقوبه، كما يقول المثل.

وبناءً على ما تقدّم، نجد أنّ الشروط الموضوعية في كوردستان/العراق لم تكن مهيّئة رغم الوضع المأساوي الذي خلقته كارثة الانهيار في عام١٩٧٥. فباستثناء المسألة القومية والسياسية، لم تكن الشروط الذاتية مواتية أيضًا. فعلاوة على عدم وجود حزب طليعي (ليكن حتى غير طبقي)، لم يكن هناك أيضًا حزب ثوري ديمقراطي لوحده في الساحة، أو أقوى بكثير من الأطراف الأخرى لسدّ ثغرات الشروط الموضوعية والذاتية الضروريتين كثيرًا جدًا للثورة المسلّحة. إنّ هذه المسألة لم تكن مطروحة للبحث، بل الذي حصل هو نقيض هذا، لأنّ جميع القوى كانت ترى نفسها أولى بالقيادة والحكم. فإذا كانت الأمور تجري بهذا الشكل، فهو يعني أنّ:

- الشرط الموضوعي لم يكن ملائمًا، كما يجب.
- الشرط الذاتي أيضًا لم يكن ملائمًا، بل كان معقدًا.
- المستلزمات الضرورية للكفاح المسلّح، لم تؤمّن بشكل مناسب.
- النظام كان أكثر سيطرة وقوّة من سنوات ما قبل الانهيار.

وعلى رغم كل هذا، أشعل فتيل الثورة من جديد.

ب – الأرضية العسكرية:

عندما يتهيّأ، إلى درجة جيدة، الشرط الموضوعي والعوامل المساعدة على

المقاومة لدى شعب مضطهد ومجزّأ ومنهك ماديًا ومعنويًا، ويكون المحتلّ لأرضهم، بسبب عنصريته، ضدّ مطالب هذا الشعب، وتكون الظروف السياسية المختلفة داخل بلد واحد متعدّد القوميات، في صالح القوميّة الحاكمة، وفي صالح وطن تلك القوميّة، فإذا كانت الظروف هكذا، فهل يمكن ربط الظروف الموضوعية بسهولة وبصورة تلقائية بالثورة المسلّحة؟! أي بأحد الوسائل الذاتية للتحرير، أو حتى إذا ربطت هذه الظروف بالثورة المسلّحة، فهل الذي احتلّه، ولا يستجيب لمطالبه السياسية، ضعيف إلى الحدّ الذي لا يستطيع فيه إفشال تلك الحركة المسلّحة؟ أي، ما هو الفرق بين الظرف الموضوعي المطلوب لإنعاش روح المقاومة لدى شعب يتصدّى للخطط العنصرية لمحتلّيه، وبين قوّة وإمكانية الكفاح المسلّح لهذا الشعب ومحتلّه، وكيف يكون؟

أصبح الشعب الكوردي، بعد الانهيار، وحيدًا يائسًا بائسًا على أرض وطنه، وبدأ البعث بمضايقته ومطاردته، وقام الغرب والشرق في هذا العالم المليء بالتباهي بالاشتراكية والديمقراطية بتسليح النظام الشوفيني البعثي حتى النخاع، ونسوا الكورد بسبب المصالح المشتركة والتواطئ بين معسكري الحرب الباردة. فما عدا سوريا التي ساندت القوى السياسية العراقية والكوردستانية، بموجب التناقضات السياسية في المنطقة وعدائها مع البعث العراقي، لم تجرأ أيّ دولة أو جهة على مساندة الكورد، إلا ليبيا التي ظلّت صديقة لهم، لكن من بعيد، والبعد الجغرافي مشكلة كبيرة جدًا للدول المساندة.

لم يكن هذا الشعب يملك سلاحًا، ولا مالًا، وكان عدوّه قويًا ومسيطرًا. إنّ كل ما كان يملكه من الناحية العسكرية، بعد الانهيار، هو عشرات أو إلى أقصى الحدود مئات من قطع السلاح التي أخفيت أثناء الانهيار، من قبل الأحزاب أو المواطنين أو المهرّبين. ولم تكن لديه أعتدة، ولا مخازن، ولا مدافع دوشكا أو أيّ أسلحة متوسّطة وثقيلة أخرى. أمّا النظام العراقي، فقد احتلّ آخر قمّة من قمم جبال كوردستان، وفتّش كل المناطق الخاصّة والسرية للبيشمركة، وكان يعرف كل مسالكها وخباياها، صغيرها وكبيرها. وبالرغم من خضوع النظام العراقي لنظام الشاه بعد اتفاقية الجزائر، إلا أنّ واردات نفطه، بعد انهيار ثورة أيلول، تجاوزت ١٥ بليون دولار. وبهذه الواردات تمكّن من تخصيص بليون ونصف بليون دولار سنويًا كميزانية للجيش، ووصل عدد أفراد قوّاته المسلّحة إلى ١٩٠ ألف شخص،

موزّعين على ١٢ فرقة، بينما كانت لديه ٦ أو ٧ فرق عسكرية.

ابتداءً من استئناف القتال عام ١٩٧٤، ثم انهيار الثورة عام ١٩٧٥، وإلى بداية حرب الأنصار والمقاومة الباسلة لشعبنا منتصف عام ١٩٧٦، أصبحت قدرة النظام العسكرية التكنولوجية بهذه الصورة:

- من ٢٥٠ طائرة حربية، إلى ٤٥٠ طائرة.
- من ٨٠ طائرة هليكوبتر، إلى ٢٥٠ طائرة هليكوبتر.
- من ١٤٠٠ دبابة، إلى ضعفي هذا العدد.
- من ١٥٠٠ ناقلة جنود، إلى ضعفي هذا العدد
- من ٩٠٠ مدفع عيار ١٢٢ ملم وعيار ١٨٠ و١٠٥ ملم، إلى أكثر من ضعفي هذا العدد.

هذه هي الأسلحة التي تستعمل في كوردستان فقط، عدا أسلحة القوّات البحرية، وصواريخ أرض- أرض.

مقابل كل مراحل الحروب التحرّرية للشعب الكوردي، قام النظام العراقي بتسليح جيشه وفق نهج الثورة المضادّة بكل أنواع الأسلحة الضرورية والوسائل اللوجستية، والإمكانات الاستخباراتية والإعلامية، من أسلحة حديثة، لاسيّما طائرات الهليكوبتر، وناقلات الجنود، والمدافع، والدبابات.

في مفترق الطريق التاريخي هذا، وفي ظلّ هذا التفوّق العسكري الشاسع، وعدم وجود السند والظهير الأممي والدولي، تعرّض الكورد مرّة أخرى إلى اختبار جديد في كل النواحي التي خلقتها ظروف ما بعد الانهيار. فقبل الانهيار كان لديهم ١٣٠ ألف بيشمركة، وعشرات الآلاف من قوّات المقاومة الشعبية، والآلاف من الكوادر العسكرية والسياسية والإدارية والإعلامية المختصّة، وعشرات من المضادّات الجوية، والمئات من المدافع والهاونات والآربي جي، مقابل نفس النظام، لكنّه أضعف من ناحية السلاح والجيش والإمكانيات المالية والإدارية، ومع كل هذا تمكّن هذا النظام الضعيف من هزيمة هذه الثورة بهذه الإمكانيات عن طريق اتفاقية الجزائر بين النظام الإيراني الشاهنشاهي والنظام العراقي البعثي عام ١٩٧٥.

نفس الشعب، لكن بدون إمكانية، وفي حالة ضعف، على أرض نفس الوطن، لكن بدون شبر من الأرض المحرّرة، وفي ظلّ نفس الأنظمة المحتلّة للأجزاء الأخرى من كوردستان، بدون تغيير أيٍّ منها، وداخل دائرة نسق الحرب الباردة نفسها، بدون ظهور علامات تغيير، أُجبر مرّة أخرى على الوقوف في المفترق الصعب لاختيار طريق الحياة أو الموت: الحرب المسلّحة أم استراتيجية جديدة؟

- بعد فشل انتفاضة «درسيم» عام ١٩٣٧ وإلى عام ١٩٨٥، حيث استأنف حزب العمّال الكوردستاني (PKK) نضاله المسلّح، في كوردستان/تركيا على شكل حرب الأنصار، لم تندلع هذه الحرب طيلة ٤٨ عامًا.

- بعد إخماد انتفاضة البارزانيين عام ١٩٤٥ وإلى اندلاع ثورة أيلول عام ١٩٦١ في كوردستان/العراق، لم تقم أيّ انتفاضة تحرّرية طيلة ١٦عامًا.

- بعد سقوط جمهورية كوردستان عام ١٩٤٦ وإلى اندلاع حرب الأنصار بقيادة ملا اواره وسليمان معيني عام ١٩٦٧ في كوردستان/إيران، لم يندلع النضال المسلّح طيلة ١٩ عامًا. وبعد فشل هذه الحركة المسلّحة أيضًا، تطلّب قيام الثورة من جديد ١٣ عامًا آخر.

أمّا بعد انهيار ثورة أيلول عام ١٩٧٥، فلم تتحمّل القيادة الكوردستانية والجماهير الملتفّة حولها السياسة الشوفينية البعثية إلا سنة وثلاثة أشهر. ووجدت أصوات طلقات الأنصار وفعاليّاتهم الثورية صداها في كل أوساط المجتمع الكوردي، لأنّه إذا كانت كل انتفاضة مسلّحة، تمّ إخمادها في كوردستان، تحتاج إلى ما بين ١٠ و٢٠ سنة لكي تتّقد وتشتعل من جديد، فإنّ حزب البعث، ولاسيّما بعد انهيار ثورة أيلول، كان قد خطّط بشكل، لا يستطيع الشعب الكوردي أن يستيقظ قوميًا إلا بعد قرن من الزمن. فالبعث نظام صاحب إيديولوجية سياسية وقومية محدّدة، وله، وبصورة منظّمة، في كل النواحي العسكرية وحتى أصغر مسألة اجتماعية واقتصادية وسياسية وتاريخية، خططه المضادة.

إنّ خطأ سياسيًا كبيرًا يرتكبه من يعتقد أنّ البعث لم يقم بعمليات التعريب والتهجير والتبعيث، أو بهدم القرى، إلا كردّ فعل للكفاح المسلّح. إنّ رأيًا كهذا ليس له أساس علمي، بل هو بعيد عن معرفة جوهر الشوفينية وفاشية البعث،

إن لم يكن تبريرًا لهما!

إنّ القيام بحرب الأنصار، من أجل إحياء روح المقاومة، كان سياسة صائبة وصحيحة. لكن من الضروري التحدّث عن الهدف الاستراتيجي الذي قامت حرب الأنصار من أجله، ثم، ما هي أخطاء القيام بها؟ إنّ تحليل هذه الأسئلة والإجابة عليها، الآن، وبعد وضوح الأحداث وانكشاف كوامنها، لأسهل بكثير من السنوات الماضية المليئة بالتعقيدات والعنف، حيث كان السلاح هو الفيصل في تقرير مصير الأشياء.

٨/٧- الفرق بين الحركات الكوردية

كان باستطاعة أيّ قوة سياسية تشكيل مفارز مسلّحة، في بداية استئناف الكفاح المسلّح، وإرسالها إلى ساحة النضال. ولا تعود ظاهرة تعدّد القوى والقوّات إلى انتهاج سياسة ديمقراطية، بل إلى عدم وجود قوّة رئيسية مسيطرة على الساحة وعلى السلطة في كوردستان، ولها القدرة على منع نشاطات وفعاليّات الأطراف الأخرى.

إنّ عدم وجود طرف يملك السلطة المطلقة في كوردستان، هو الذي هيّأ الظروف لظهور حرّية عمل العديد من القوى، بشكل غير مقرّر مسبقًا:

- عصبة الماركسية- اللينينية الكوردستانية [١١٠]
- الاتحاد الوطني الكورستاني (الهيئة المؤسسة- الخط العامّ)
- الحزب الديمقراطي الكوردستاني (القيادة الموقتة)

هذه القوى كانت من القوى الرئيسية المعروفة التي بدأت نشاطاتها بعد الانهيار مباشرة، كما تحرّك «الباسوك»[١١١] من الناحية السياسية بحسب طاقاته وإمكانياته، ثم أعلن عن تشكيل الحركة الاشتراكية الكوردستانية أيضًا. فما عدا «الباسوك» الذي أرسل مفرزة من البيشمركة إلى الجبال، بعد الهجوم على منظّمتهم، فإنّ الأحزاب والمنظّمات الأخرى قامت بالإعلان عن كفاحها المسلّح، الواحدة بعد الأخرى، وفق قرارات وسياسات معلنة مسبقًا.

لا ريب أنّه كان لكل طرف سياسي من تلك الأطراف برنامج، للحركة الكوردية، يختلف عما لدى الأطراف الأخرى.

---

١١٠ غير اسمها إلى (عصبة كادحي كردستان) بعد سقوط نظام الشاه وتوسع الكفاح المسلّح، وثقل المسؤولية الشعبية الملقاة على عاتقها.

١١١ الباسوك، من الأحزاب الكوردستانية ذات التوجهات القومية المتطرفة وهو امتداد لحزب (كاذيك) القومي الذي تأسس عام ١٩٥٩م- المترجم.

– الاتحاد الوطني الكوردستاني كان يعمل داخل إطار شبيه بالجبهة التقدمية.

– الحزب الديمقراطي الكوردستاني أعلن عن مشروع جديد متشبّع باليسارية لتوسيع الحركة الكوردية بعد ممارسة عملية النقد الذاتي.

– «الكوملة . العصبة» وكانت ماركسية لينينية على نهج ماو تسي تونغ. [١١٢]

– «باسوك»جدّد نفسه، بعد أن مارس عملية النقد لقيادة «كاذيك».

– الحركة الاشتراكية الكوردستانية، كانت تؤمن في برنامجها بالاشتراكية والسياسة الإصلاحية...إلخ.

استطاع الاتحاد الوطني الكوردستاني، إضافة إلى الخط العامّ، ضمّ العصبة والحركة الاشتراكية الكوردستانية إلى صفوفه، وبدأ الحزب الديمقراطي الكوردستاني نشاطه بصورة مستقلّة. وعندما دخل «الباسوك» إلى الميدان، تحرّك في البداية بلا انحياز بين الاتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني. لقد اجتمعت كل القوى السياسية، على الرغم من اختلاف برامجها ومناهجها وقياداتها وماضيها، حول مبدأين اثنين:

١– الديمقراطية للعراق، والحكم الذاتي الحقيقي لكوردستان العراق.

٢– انتهاج منهج حرب الأنصار، والاستراتيجية المسلّحة.

ينبغي هنا أن نقوم بتقييم استراتيجية جميع الأطراف، وتحليلها في ضوء الحقائق التي ظهرت الآن. فبالنسبة إلى شعار «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكوردستان» فإنه نفس الشعار السياسي للحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي رفعه منذ تأسيسه عام ١٩٤٦ وإلى يوم انهيار ثورة أيلول عام ١٩٧٥، ما عدا كلمة (الحقيقي) التي ألصقت به، وهي لا تغيّر المضمون الاجتماعي والجوهر السياسي للحكم الذاتي. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يعني أنّه بعد الانهيار، وبعد تجربة مختلف أنظمة الحكم في العراق، وبعد تجربة بيان آذار، لم يحصل أيّ تغيير سياسي جذري على العقلية البرجوازية الكوردية، إلا في الشكل وفي الظاهر، وليس في المضمون.

---

١١٢ عندما بدأ الكفاح المسلح تم التخلص من الماوية والعداء للاتحاد السوفييتي في صفوف العصبة تحت تأثير فكر الشهيد آرام.

كان الكورد ينتظرون دائمًا من كل انتفاضة مسلّحة، طبقًا لشعورهم الطبيعي وإخلاصهم الذاتي، تحقيق هدفهم الأسمى في استقلال شعبهم ووطنهم. لكنّ انتظارهم هذا لم يتحقق، بل تعرّض للذبح أو الوأد في كل مرّة. ففي هذه المرّة أيضًا، وبعد الانهيار، تمّ تحريك عملية القيام بالكفاح المسلّح من جديد، بنفس الاستراتيجية القديمة ما ولّد كارثة عسكرية من ناحيتين:

١- عدم تحديد أهداف حرب الأنصار، كشكل من أشكال النضال المفروض، من أجل تهيئة الأرضية الملائمة لانتفاضة المدن، بل تمّ جعل الكفاح المسلّح مرّة أخرى، النهج الرئيسي للنجاح والانتصار.

٢- عدم وجود مخطّط علمي مدروس وبرنامج دقيق لكيفية استئناف حرب الأنصار.

لقد جعل كل طرف من الأطراف أهميّة نهج حرب الأنصار مرشدًا ودليلًا عسكريًا له، سواء عن طريق الكتابة أوالكلام، لكنّهم في الشهور الأولى من بدء حرب الأنصار، بدأوا عمليًا بفرض النضال المسلّح العشائري، والعشيرة المسلّحة، والفكر العشائري على نهج حرب الأنصار، وكان جميع الأطراف، وبدون تمييز، مشتركين في تطبيق هذه السياسة العسكرية المضرّة، قليلًا أو كثيرًا.

إنّ حركة تكوّنت بعد الانهيار، وبدأت عملها حديثًا، وهي ما زالت ضعيفة بلا سند وظهير، وبلا سلاح وعتاد، وبلا مورد مالي واقتصادي، تدخل إلى الساحة هكذا، من غير برنامج علمي، ماذا يتوقع منها؟! في حالة كهذه، تتداخل المشاكل القديمة التي كانت موجودة في صفوف الشعب، بالأزمات الجديدة، وستجد الفتن القديمة طريقها إلى الانتشار والتوسّع.

هذا ما كان. فما عدا هدم ركائز حرب الأنصار، أدّى وجود القوى المسلّحة الكثيرة المتنوّعة، داخل الحركة، إلى ظهور روح التسلّط والتحكم في الأوضاع، وانتهاج كل السبل من أجل تحقيق ذلك، حتى لو كان عن طريق الحرب الداخلية، إضافة إلى السرقة والظلم والتصرّفات المتخلفة. أمّا خارج الحركة، فإنّ ازدياد قوّة حركة، تعتمد على نهج حرب الأنصار، بشكل غير طبيعي، أمام دولة قوية مقتدرة، وصاحبة قوّات كثيرة ومتنوّعة، جعل النظام يلجأ إلى إعداد

الجيش لحرب جبهوية، ثم إجبار قوّات البيشمركة على التراجع، وإلحاق أضرار بالغة بمعنويات الجماهير المنتعشة حديثًا، من الناحية العسكرية والنفسية. ففي صيف عام ١٩٧٧، حيث لم يمض عام كامل على الثورة الطويلة الأمد، سلّم الآلاف من المسلّحين العشائريين أنفسهم إلى قوّات النظام، وانهارت عزيمة المئات من الكوادر والبيشمركة الواعيين، وبهذا انتشر، إلى حدّ ما، عدم الثقة بانتصار الثورة بين الجماهير.

إنّ الافتقار إلى مخطّط يبيّن كيفية القيام بحرب الأنصار، أدّى إلى اعتبار النهج المسلّح استراتيجية صالحة لتحرير شعبنا، طوال بدء الكفاح المسلّح بعد الانهيار، وإلى انتهاء عمليات الأنفال. فبالرغم من تطوّر الأحداث، بأشكال مختلفة:

١- سقوط نظام الشاه، وانتفاضة شعوب إيران.

٢- الحرب العراقية-الإيرانية.

٣- مظاهرات المدن، بين حين وآخر.

٤- قيام البيروسترويكا وانتهاء الحرب الباردة.

٥- ظهور السلاح الكيمياوي واستعماله.

٦- بقاء الحركة المسلّحة داخل دائرة حرب الأنصار، والحرب المتحرّكة.

٧- عدم القدرة على تحرير ناحية صغيرة في كوردستان، والمحافظة عليها.

٨- عدم وجود الظهير الاستراتيجي.

٩- عدم حدوث تغيير ثوري في العراق...إلخ.

إنّ كل هذه الظواهر والأحداث العالمية والإقليمية والعراقية والكوردستانية لم تؤدِ إلى مراجعة جادّة، لما هو موجود، والتفكير في تغيير استراتيجية الكفاح المسلّح واتخاذ القرار الحاسم بذلك، وكبح جماح الرغبة الشديدة في السيطرة والنزوع إلى التسلّط لفرض سلطة القوى الرئيسية على الآخرين في الساحة، والتي أتبعت طيلة ١٣ عامًا كاملًا.

ممّا لا شك فيه أنّه حصلت معارك بطولية في تلك الفترة، تلقّى المحتلّون أثناءها ضربات موجعة ومؤثّرة، وتكبّد النظام من جرّائها خسائر جسيمة، وقدّمت تضحيات بلا حدود في سبيلها، ولم يبخل الآلاف من المناضلين بأرواحهم

وأموالهم، في المدن والجبال، من أجل تحقيق النصر، وتمّ إعداد الآلاف من الكوادر المناضلة الواعية،[١١٣] ولكنّ كل هذا، يجب ألا يؤدّي إلى نسيان الحقائق التي تؤكّد أنّ الكفاح المسلّح رغم كل تلك الحقائق لم يتمكّن من تحقيق الهدف المركزي له وهو تحرير كوردستان.

وليس فقط لم يتمكّن من إسقاط النظام، ولم يتمكّن من جعل الثورة ثورة عراقية أيضًا، بل مني بهزيمة منكرة ومخيفة أثناء عمليات الأنفال، وهذه الهزيمة، في الحقيقة، وقعت متأخّرة، لأنّه عندما اندلع الكفاح المسلّح، من غير برنامج معدّ مسبقًا، وبدون دراسة سياسية وعسكرية دقيقة، وبدون مقارنة ماضي ثورة أيلول وقدرات النظام آنذاك مع قدرات النظام وقدرات شعبنا بعد انهيار ثورة أيلول، ولأنّ الكفاح اندلع بدون أرضية مادية لدراسة مستقبل الأحداث لصالح نجاح الاستراتيجية المسلّحة، فكان من المتوقع أن يفشل، وينهزم قبل ذلك بكثير. لكنّ حدثين غير منتظرين، أصبحا سببًا لبقاء وإطالة عمر الكفاح المسلّح الصعب هذا، وهما: سقوط نظام الشاه، واندلاع الحرب العراقية-الإيرانية. إنّ هذين الحدثين، ومن كل النواحي السياسية والعسكرية والإدارية، قد سنحا لإمكانية استمرار الحركة، وإلا لم يكن بالإمكان إطالة عمرها إلى زمن الأنفالات.

بعد سقوط الشاه واندلاع الحرب العراقية-الإيرانية، ساد جوّ من التفاؤل الشامل بين كل القوى بتوقّع سقوط النظام العراقي أيضًا، لأنّ الحرب كانت تشتدّ وتصبح أكثر سخونة بمرور الزمن. لكنّ النظام لم يسقط في هذه الحرب التي ليس لها نظير، من بعد الحرب العالمية الثانية، بل أصبح أكثر متانة وقوّة من الناحية العسكرية والتسليحية والقدرة الحربية.

في خضم اشتداد الحرب لم يسقط النظام العراقي، لأنّه استطاع في ظلّ سياسة

١١٣ إنّ عدم التطرق إلى الظواهر التي كانت متفشية داخل الحركة والتي تتقزز النفس من ذكر أكثرها، ليس من أجل إخفائها، بل لأنّ البحث يتصل بتقييم الاستراتيجية، لذلك لا ندخل في التفاصيل التي تبعدنا عن الهدف الرئيس.

لعبة المصالح التي مارستها الدول العظمى في الحرب الباردة تأمين احتياجاته من الشرق والغرب، واستغلال أموال وإمكانيات الدول الخليجية لصالحه، وخداع الناس بحجّة الدفاع والمحافظة على البوّابة الشرقية للعرب والعراق. وبهذا لم يبقَ أمام القوى المسلّحة الكوردستانية الرئيسية، الاتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الديمقراطي الكوردستاني والحزب الاشتراكي الكوردستاني والحزب الشيوعي العراقي، أيّ حلّ سوى وضع حدّ لصراعاتهم الدموية. وهكذا، تأسّست الجبهة الكوردستانية في الأيّام الأخيرة من الحرب، وبدء عمليات الأنفال، على أرضية هشّة، وبمواد بناء مستهلكة متكوّنة من بقايا الحركة المسلّحة هذه.

الفصل التاسع

٩- الأنفالات والأحداث

عمليات الأنفال أشنع عار تاريخي وصم جبين النظام العراقي وقيادة حزب البعث في العراق وشخص صدام حسين، وخطيئة سياسية وإنسانية كبيرة تقع مسؤوليّتها السياسية والإنسانية الكبيرة على عاتق تلك الدول الشرقية والغربية التي سلّحت العراق بالأسلحة الكيمياوية الفتّاكة ذات الدمار الشامل. وقد سعت منها لكسب الرهان في لعبة المصالح الدولية في ظلّ الحرب الباردة، والاحتفاظ بمصالحها الاقتصادية والسياسية في المنطقة على حساب آلام الشعوب المضطهدة فيها، والتي اختارت السكوت أثناء جريمة استعمال هذه الأسلحة المحظورة دوليًا ضدّ الكورد. وبذلك ارتكبت جريمتين، بل وأكثر من ذلك بالنسبة إلى الدول العربية (باستثناء ليبيا وسوريا)، والتي ساعدت بصورة مباشرة أو غير مباشرة النظام العراقي.

عندما أوقفت إيران الحرب، كان النظام العراقي يملك قوّة عسكرية كبيرة لا يستهان بها، إذ كان لديه:

- ٩٠٠ ألف جندي موزّعين على ٦٣ فرقة عسكرية.
- ٥٧٤٧ دبابة، منها ١٠٧٢ دبابة من نوع «t72» السوفييتي الصنع.
- ٣٥٠٠ مدفع، من بينها ٣٣٠ مدفعًا ذاتي الحركة.
- ٣٠٠٠ ناقلة عسكرية ثقيلة.[١١٤]

إنّ القدرة العسكرية العراقية هذه، ومن كل النواحي، تصل إلى عشرة أضعاف قدرتها في بداية قيام ثورة أيلول عام ١٩٦١، وثمانية أضعاف قدرتها في بداية انطلاقة الثورة الجديدة عام ١٩٧٦. فمع اندلاع الكفاح المسلّح من جديد، بعد

---

١١٤ الجيش الأميركي بكل صنوفه كان لديه (٥٠٠) ناقلة ثقيلة، وهذا يعني أنّ النظام العراقي كان لديه ما يعادل ستة أضعاف ما يملكه الجيش الأميركي منها، في نفس الفترة.

انهيار ثورة أيلول، دخل حزب البعث إلى الميدان بتجربة أعمق ومساندة أكثر، وحماسة عسكرية أشرس، ودخلت الثورة الكوردية إلى الميدان وهي لا تملك ١٪ ممّا كانت تملكه ثورة أيلول في عام ١٩٧٤ من قوّة وإمكانية.

فبسبب استعمال الأسلحة الكيمياوية المحرّمة دوليًا، وعمليات الأنفال الإجرامية، وسياسة الأرض المحروقة التي اتبعها النظام العراقي الفاشي، قتل أكثر من ٢٨٣ ألف إنسان كوردي، وسوّيت بالأرض آلاف القرى في كوردستان، إضافة إلى فشل الحركة الدفاعية لشعبنا وهزيمتها والتي دامت، بعد الانهيار، أربعة عشر عامًا كاملًا.

عندما لم يهزم النظام العراقي في الحرب، واضطرت إيران إلى إيقاف الحرب في الثامن من آب (أغسطس) عام ١٩٨٨، تفرّغ الجيش العراقي بكامل أسلحته الفتّاكة للهجوم على قوّات بيشمركة كوردستان والمناطق المحرّرة فيها. وتمكّن في غضون شهر واحد من دفع كل القوى السياسية وجميع المسلّحين وسكّان هذه المناطق إلى خارج الحدود العراقية. إمّا إلى داخل الحدود الإيرانية، أو الحدود التركية، وعن طريق هذه السياسة، تعرّضت قوّات بيشمركة كوردستان لهزيمة كارثية كبيرة، وخسرت المكاسب التي حصلت عليها في غضون الأربعة عشر عامًا الماضية.

وكانت لهذه الهزيمة، علاوة على أضرارها العسكرية، أضرار مادية وسياسية ونفسية غير محدودة، للبيشمركة ولشعبنا على حدّ سواء. إنّ خيبة الأمل العسكرية والسياسية شملت، لا الجماهير فقط، بل قوّات البيشمركة وآلاف الكوادر والقيادات السياسية للقوى العاملة على الساحة أيضًا، وضيّق القلق والارتباك الخناق على الجميع.

في تلك الأيّام السوداء، لم تكن أيّ دولة من دول هذا العالم المليء بدعوات حبّ الإنسان والإنسانية مستعدّة حتى لمجرّد التسبّب في إزعاج النظام العراقي، وإظهار التعاطف مع الشعب الكوردي ولو بالكلام فقط. فبينما في الغرب ارتفعت أصوات غير رسمية تستنكر هذه الجرائم، كانت الأصوات على شكل همسات خجولة في الشرق الاشتراكي. ونجد الموقف في»صين ماو تسي تونغ»، و «يوغسلافيا تيتو»، و»كوبا كاسترو» مختلفًا وغريبًا، فهم لم يكتفوا بعدم وقوفهم

إلى جانب الشعب الكوردي المكافح، وعدم استنكار هذه الجرائم فحسب، بل وقفوا مع الجاني وضدّ من استنكر هذه الجرائم أيضًا. وتصرّفت الدول العربية (باستثناء سوريا) نفس التصرّف والسلوك. أمّا تركيا، فقد وصل تعاونها وتأييدها للنظام العراقي إلى حدّ تكذيب ما أورده الأطباء العالميّون حول تسبّب المواد الكيمياوية في إحداث الجروح التي كان اللاجئون الكورد في تركيا يعانون منها.

لقد جثم على صدور الكورد المنكوبين على مرّ التاريخ كابوس جديد مرعب آخر.. إنّه كارثة أخطر من الكوارث الماضية!

وبهذه الصورة، أثبتت النهاية العسكرية والسياسية والنفسية لنكبة الأنفال أنّ حرب الأنصار واستراتيجية الكفاح المسلّح داخل الحركة التحرّرية لشعبنا، هي استراتيجية منفصلة عن بقيّة ضرورات النضال داخل المدن، لاسيّما أن التظاهرات والانتفاضات في تلك الفترة، من الأخطاء الاستراتيجية القاتلة. فمع أنّ نتائج التظاهرات والانتفاضات في هذه المدينة الكوردستانية أو تلك، كانت محاولة لتشجيع جماهير هذه المدن لممارسة الأشكال النضالية الأخرى، لكنّه، بسبب اتخاذ الكفاح المسلّح استراتيجية ثابتة، لم يتمكّن من توسيع وتفعيل وتطوير غليان جماهير المدن، وإعداد استراتيجية جديدة لنضال هذا الشعب.

إنّ الإصرار على استراتيجية الكفاح المسلّح، ثم الإصرار داخل هذا الكفاح على الحرب الداخلية، قد ضيّع من أيدينا سنوات ذهبية، وذهبت الفرص التي قلّ نظيرها في تاريخ الانتفاضات الكوردستانية المسلّحة سدى. هذا، في الوقت الذي كان يجب أن تأخذ كل الأطراف الكوردستانية السياسية المسلّحة عبرًا ودروسًا كبيرة من تاريخ قمع الانتفاضات الكوردستانية السابقة، وكيف خطّط المحتلّون لإخماد تلك الانتفاضات. ففي هذه المرّة، ليس فقط لم يلجأ العراق وإيران إلى العمل المشترك، بل كانا غارقين في أوسع الحروب وأشدها حقدًا وكراهية، ومع ذلك، فإنّ الأحقاد الداخلية وشهوة التسلّط الحزبي، ألحقت أضرارًا بالغة بنضال شعبنا، بدلًا من الاستفادة القصوى من هذه الفرصة المتاحة. كما أنّ مسألة سقوط النظام كانت أمرًا مفروغًا منه عند الأغلبية المطلقة من هذه القوى، لذلك:

- لم يفكروا في تغيير استراتيجية الكفاح المسلّح.
- لم يوقفوا الحرب الداخلية.
- لم يعمّقوا أشكال النضال الأخرى في المدن.
- لم يحدّدوا وفق اتفاقية مشتركة لأجنحة الحركة الكوردية، تكتيكًا عسكريًا مناسبًا شاملًا، في زمن الحرب.
- لم تكن هناك سياسة مشتركة تجاه النظام، فقد كانت تتأرجح بين سياسة إسقاط النظام، وبين إجراء مفاوضات مرنة معه.

وعندما تجاوز الأمر حدود العمل المشترك، ووصلت الحرب بين العراق وإيران إلى طريق مسدود، لم تسعف الحركة، كما يجب، المصالحة العامّة والجبهة الوطنية وحلّ المشاكل التي كانت تعاني منها، كما لم ينقذها إيقاف الحرب الداخلية من هزيمة الأنفالات.

١/٩ - نهاية الحرب الباردة والكورد

استمرت الحرب الباردة، الباردة شكلًا والساخنة مضمونًا، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٩٠. أمّا الفارق بين الحرب الباردة وبين الحربين العالميتين، فهو عدم محاربة القوى العظمى بعضها البعض مباشرة، كما حصل في الحربين الأولى والثانية، بل عن طريق الدول والشعوب والعمّال والقوى المسلّحة الأخرى. وكانت فائدة هذه الحرب، وفي جميع مجرياتها، ولمدّة طويلة، للقوى العظمى، لأنّ الدول الرأسمالية ذات الأسواق المفتوحة، والحرّية الليبرالية، هي التي انتصرت في المحصّلة النهائية على الدول ذات الأسواق المغلقة والنظم البيروقراطية. فإن حدث في غضون المراحل الطويلة لهذه الحرب، وحصلت الشعوب على مساعدات عسكرية أو سياسية أثناء الأزمات السياسية والعسكرية من هذه الدولة أو تلك، نتيجة لصراعات الحرب الباردة، لاسيّما من الاتحاد السوفييتي والصين، فإنّ انتهاء الحرب الباردة بالشكل المعروف أتى على كل الفوائد السياسية والعسكرية التي جنوها منها، ليس هذا فحسب، بل قضت على رأسمالهم النضالي أيضًا.

إنّ أكثر دول أوروبا الشرقية والدول السائرة في فلك المعسكر الشرقي، كالصين وكوبا وألبانيا...إلخ، ابتليت بأزمات شديدة وضائقات اقتصادية لا يمكن معالجتها أو تجاوزها دون أضرار بالغة.

كان الكورد، على رأس قائمة الشعوب التي تمّت التضحية بها، بل في بداية بدء الحرب الباردة، أصبح ضحية لنوايا الاتحاد السوفييتي، حيث قضي على أول جمهورية تاريخية كوردستانية، أي جمهورية مهاباد. وبعدها، كانت منطقة الشرق الأوسط تعاني من المشاكل التي تثيرها الحرب الباردة، ولم تكن كوردستان خالية من الفعاليّات النضالية والفدائية، لكنّ القضية الكوردية، وفي غضون قرن كامل، لم يعد لها ملفّ سياسيّ خاصّ مثل قضايا الشعوب الأخرى من قبل الاتحاد السوفييتي، لأنّه كان صديقًا، لكنّه يميل إلى أعداء شعبنا أكثر، وصداقته لشعبنا

أيّام ثورة أيلول كانت قصيرة جدًا. ففي فترة الحرب الباردة التي أعقبت سقوط جمهورية مهاباد، كان هناك، وفي كل أجزاء كوردستان، أحزاب تحمل لواء تحريرها، وتعتبر الاتحاد السوفييتي حامل لواء الاشتراكية ونصير الشعوب، وكانت تسعى دائمًا من أجل بناء روابط الصداقة معه، واللجوء إليه وطلب العون والمشورة منه.

فعندما اندلعت ثورة أيلول، وجد الحزب الديمقراطي الكوردستاني نفسه في جبهة الاتحاد السوفييتي، حيث ظلّ البارزاني ومئات الأشخاص من عشيرته ورفاق نضاله ١٣ عامًا في الاتحاد السوفييتي. لكن وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الاتحاد السوفييتي لم يجعل في يوم من الأيّام أبدًا القضية الكوردية قضية سياسية مهمة ماعدا بعض الأوقات، وكان هذا أيضًا تكتيكًا منه، لا استراتيجية.

أثناء الحرب الباردة، كان من السهل على الأنظمة المحتلّة لكوردستان، سواء أكانت ملكية كالشاهنشاهية الإيرانية، أم جمهورية كالعراقية والتركية، الاتصال في أيّ وقت تشاء بالاتحاد السوفييتي والدول الأوروبية الشرقية، حتى إذا كانت هذه الأنظمة مرتبطة بعلاقات قويّة مع البيت الأبيض الأميركي. وكان الاتحاد السوفييتي يقبل، وبسرور، إنشاء علاقات صداقة مع هذه الأنظمة، وكانت محصّلة أكثر هذه الصداقات ضدّ الديمقراطية، وضدّ مصالح شعوب المنطقة، وخاصّة الشعب الكوردي. وكانت معاداة القضية الكوردية طوال تاريخ الحرب الباردة أكثر شدّة وشراسة من أيام الحرب العالمية الأولى والثانية، ويعود أحد أسبابه الرئيسة إلى العلاقات الاقتصادية والسياسية القويّة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، مع حكومات الدول التي تتقاسم كوردستان فيما بينها. ونتيجة لهذه العلاقات المبنيّة على المصالح الاقتصادية، فقد لزم الصمت المطبق كل من مجلس الأمن والأمم المتحدة، وجامعة الدول العربية، والمؤتمر الإسلامي، ودول عدم الانحياز، تجاه الجرائم المرتكبة بحقّ الشعب الكوردي الأعزل المسالم .

كانت القوى العظمى تتعامل مع القضية الكوردية وفق متطلّبات مصالحها، وكانت آخر هديّة من الدول العظمى إلى النظام العراقي في نهاية الحرب الباردة الأسلحة الكيمياوية المحرّمة دوليًا. فحتى الدول المحايدة والملتزمة بعدم تدخّلها في النزاعات العسكرية، كسويسرا والنمسا، عقدت صفقات عسكرية مع النظام العراقي، إذ باعت سويسرا العراق طائرات البيلاتوس، بينما وفّرت النمسا له مدافع بعيدة المدى.

ظلّت القيادة المخطّطة لاستراتيجية الحركة الكوردية تنتظر طوال نصف قرن كامل من الحرب الباردة أن يصبح الاتحاد السوفييتي نصيرًا وسندًا للثورة المسلّحة الكوردية، إلا أنّ ثورة أيلول (١٩٦١-١٩٧٥)، وقبلها جمهورية مهاباد، انتهتا من دون أن يتحقّق هذا الأمل. وبعد ثورة أيلول أيضًا، أصيب من جديد الكفاح المسلّح لشعبنا (١٩٧٦-١٩٨٨) بنتيجة خيبة الأمل من الدعم السوفييتي، بنكسة مخيفة، ولم يتجرّأ الاتحاد السوفييتي على الوقوف ضدّ عمليات الأنفال واستعمال السلاح الكيمياوي من قبل حزب البعث في كوردستان، حتى بقدر فرنسا.

وكذلك الحزب الديمقراطي الكوردستاني/ إيران، ظلّ يأمل طوال ١٢ عامًا من نضاله المسلّح، وإلى ما قبل انهيار المعسكر الشرقي، في نصرة ومساندة هذا المعسكر له، لكن خاب أمله!

والأمر نفسه بالنسبة إلى حزب العمال الكوردستاني (PKK) الذي كان يدور منذ بدئه بحرب الأنصار وإلى ما قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، ضمن إطار أفكار المعسكر الشرقي، وكان أمله كبير بمساندة ومساعدة ذلك المعسكر، لكنّ أمله خاب أيضًا!

بخلاف هذه التجارب، بدا الحزب الشيوعي الإيراني (الكوملة - العصبة)، من القوى السياسية المسلّحة الثورية التي شخّصت جيدًا منذ بدء نضالها الدفاعي المسلّح وبرؤية واضحة، المعسكر الشرقي. وكان هذا الحزب يتخذ مواقفه السياسية تجاه هذا المعسكر، بكل دقّة وعلمية، فلم يكن يعتمد على مساعدة ومساندة الاتحاد السوفييتي له. ولذلك لم يتسبّب موقفهم هذا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، في انحراف طبقي وسياسي كبير لهم. ولم تؤدِّ انتهازية القوى اليمينية والقوميّة أيضًا، كأدوات سياسية للسوفييت وأذناب للمعسكر الشرقي، بعد انهيار المعسكر، إلى انهيارها.

ومع هذا، فلو قسنا ظواهر وأحداث ما بعد وما قبل الحرب الباردة، بالمقياس النظري المنفصل عن بقيّة الحقائق السياسية والاجتماعية، كان ينبغي أن يكون للموقف الحاسم ضدّ المعسكر الشرقي، بعد انهيار هذا المعسكر، فائدة سياسية فعّالة للقوى صاحبة المواقف. وعلى النقيض من ذلك، كان يجب أن يسحق كل

المرتبطين بالمعسكر الشرقي، بعد انهيار المعسكر، لكن لم يحصل أيّ من هذين التوقّعين. ويرجع سبب هذا إلى أنّ المقياس النظري ليس بمقدوره إصدار الأحكام التاريخية لوحده، كما أنّ عجلة الحياة، بالنسبة إلى النضال الطبقي وفلسفة التحرّر والديمقراطية والاشتراكية، لا يزال أمامها طريق طويل.

لقد أظهر انتهاء الحرب الباردة الكثير من الحقائق غير المعروفة سابقًا، حول الديمقراطية ومهمّات الديمقراطية، وكيفية حلّ مشاكل مرحلة الديمقراطية، والعمل من أجل التقدّم الاجتماعي والحضاري. إنّ هذه الحقائق كافّة تحتاج إلى تأمّل وتفكير ودقّة نظر وإعادة صياغة من جديد، لاسيّما ونحن نعيش في ظلّ عصر جديد، عصر انتهاء الحرب الباردة، وعصر فهم واستيعاب صغائر وكبائر السياسة التي صيغت وتصاغ، في زمن ما بعد الحرب الباردة، وبوادر تغيير هذه السياسات نحو الأحسن، بالنسبة إلى الشعوب وقضيتهم الديمقراطية، بدأت بالبروز، وخاصّة التحليلات الاقتصادية والسياسية المعمّقة التي تشير إلى أنّ الدول الرأسمالية تبني استراتيجيّاتها الجديدة وفق منطق اقتصادي وسياسي جديدين، وحسب متطلّبات النظام الدولي الجديد، وإملاءات توفير الأسواق الحرّة والمزدهرة داخل الدول الفقيرة والمتخلّفة، وليس على النمط الكلاسيكي.

في هذه المرحلة من الحياة، يجب تقييم مرحلة الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنظرية والفلسفية الرأسمالية من جديد، وتحديد مدى تأثيرها، بصورة عامّة. يجب معرفة كيف يتمّ التخطيط لنظام السوق الحرّة، والحرّية الليبرالية، من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية، وكيف يتمّ تنفيذ هذه الخطط وبأيّ شكل وصورة، وبأيّ قوّة ووسيلة تتمّ السيطرة على السوق والسياسة الدولية.

فعلى الحركة التحرّرية لشعب كوردستان التي كانت القوى العظمى تحيك ضدّها المؤامرات باستمرار، أن تدرس بكل إمعان ودقّة ماضيها، وتحدّد بوضوح الأسباب المختلفة التي أدّت إلى وقوف الآخرين ضدّ هذا الشعب المضطهد، لتعرف:

– لماذا قضوا على حكومة الشيخ محمود، في الحرب العالمية الأولى، وخرقوا معاهدة «سيفر – ١٩٢٠»؟

– لماذا ساندوا محتلّي كوردستان، ووقفوا ضدّ الثورة الكوردية، أثناء اشتداد الحرب الباردة خلال الأعوام ما بين ١٩٥٠ و١٩٨٨؟

– لماذا ساندوا الحكومات التي حاربت بشراسة الثورة الكوردستانية الجديدة بين ١٩٧٦ و١٩٨٩؟

هذه المراحل السياسية العالمية، لكل منها، بالنسبة إلى القوى العظمى، أسباب سياسية وعسكرية واجتماعية. فالاقتصاد الرأسمالي والسياسة الإمبريالية في الحرب العالمية الأولى، بنيا على أساس الانتصار في الحرب، ووفق المفهوم الكلاسيكي للرأسمالية. وقد تمّ تغيير هذا الأساس، كما تمّ تغيير السياسة الرأسمالية المستندة على احتكار الشركات المتعدّدة الجنسيات للأسواق العالمية. وفي مقابل ذلك فرض المعسكر السوفييتي سياسة السيطرة على الأسواق المرتبطة باقتصاد هذا المعسكر، ونظرية التطوّر اللارأسمالي العقيمة، وبهذا وقع العالم بين مطرقة وسندان هذين النظامين.

بعد أن انتهت الحرب الباردة بانتصار القطب الرأسمالي وهزيمة الاشتراكية السابقة لأوانها، وقع كل أرجاء العالم تحت سيطرة الدول الرأسمالية الكبيرة، وزعيمتها أميركا. وهذا النجاح لم يأتِ عفويًا وبشكل فوري، بل استغرقت مقوّماته ما يقارب عقدًا من الزمن. وبهذا الشكل، سيوضع كل أرجاء العالم، من الآن فصاعدًا، في قالب رأسمالي من طراز جديد، حيث لا تصرّ الرأسمالية على الأسس الاقتصادية التي اتبعت في الحرب العالمية الثانية، ولا على سياسة تطوير الاقتصاد الرأسمالي المتبعة أثناء الحرب الباردة وبعدها، لأنّ التحوّلات والتطوّرات العالمية، والمطالب والتطلّعات، والتوافقات والتناقضات، والصداقات والصراعات، والظواهر الطبقية والاقتصادية والاجتماعية، والعلاقات الدولية، والرؤية العالمية المشتركة، قد تغيّرت بأجمعها. فمثلما لم يبقَ عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية كما كان بعد الحرب العالمية الأولى، كذلك لا يبقى عالم ما بعد الحرب الباردة كما كان أثناء نصف قرن من الحرب بين المعسكرين.

٣/٩ - متغيّرات الحرب الباردة

لو بقيت الأسس الاقتصادية والنظام السياسي بعد الحرب العالمية الثانية، كما كانت بعد الحرب العالمية الأولى، لأدّى ذلك الوضع بلا شك إلى الانفجار، وإلى تراكم الأزمات، بصورة أسرع، وهذا ينطبق على الوضع القائم في يومنا هذا. فإذا بقيت القاعدة الاقتصادية والنظام السياسي في العالم، كما كان في العقود السابقة، فإنّ الأزمات ستنفجر عاجلًا لا محالة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، حتى إن كان هذا التوقع نابعًا من أقصى درجات السذاجة النظرية، هو: إذا انفجرت الأزمات، كيف يمكن استغلالها لصالح العمّال والشعوب المضطهدة؟

من الواضح أنّ استغلال الأزمات العالمية العميقة يتمّ عن طريق البديل العالمي، والبديل العالمي يتمّ بالاقتصاد العالمي، وبالطبقة العالمية، والسياسة العالمية، والحضارة العالمية، وليس بالرغبات النظرية. فعندما لا يكون بديل حاجات العالم مطروحًا كنبوءة صادقة مؤكّدة وموثوق بها، ومستندة على الأسس الاقتصادية وتأثيراتها وتفاعلاتها الاجتماعية، أو كان هناك اتجاه آخر في الطريق ينبغي سلوكه إلى أن يظهر ذلك البديل العالمي، ففي هذه الحالة من الضروري أن يعرف ما مدى هذا الاتجاه ومدى سعته ومجاله، كذلك كيفية النضال وطريقته ضمن مشروع متطلّبات هذا الاتجاه.

ما دام البديل غير موجود حتى الآن، فهذا يعني أنّ الثورة الاشتراكية لا تؤخذ بالاعتبار، إلى فترة أخرى بعد الحرب الباردة، بل ليس بعيدًا أن تؤثّر الأحداث المستقبلية على مسار النضال الاشتراكي وكيفية تحقيق الاشتراكية، وتغييره جذريًا أيضًا. وإذا كان الأمر هكذا، فإنّ النظام الجديد الناجح الذي ظهر بعد الحرب الباردة، قد انفتحت أمامه أبواب الميادين بشكل أفضل من السابق لتنفيذ برامجه وتثبيت خططه، بل هو في الحقيقة مستمرّ في تثبيت خططه، لأنّه لم يبقَ أمامه حتى العراقيل السابقة. إذن، الرأسمالية التي انتصرت رغم كل ذلك العداء والصراع الذي واجهته، ستنتصر بسهولة أكثر الآن بانبساط واستواء الأرضية التي تسير

عليها سياساتها. كما أنّ الصراعات الطبقية والسياسية الباقية المناوئة لها، ما زال أمامها شوط بعيد جدًا لكي تشكّل خطرًا على خططها الرأسمالية، بل تحتاج إلى وقت طويل لتخلق وضعًا اجتماعيًا، ووعيًا سياسيًا ونظرية مرشدة فعلًا، للتغيّرات المستقبلية نحو العدالة الاجتماعية.

إنّ إحدى الخواص الهامّة للظواهر الرأسمالية الجديدة، هي إلغاء القوانين والقواعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في ظلّ الحرب الباردة، وظهور التحوّلات الاجتماعية الجديدة، والظواهر الحضارية الجديدة والحوادث السياسية الجديدة أيضًا وتشمل:

١- تقهقر الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية.

٢- تقدّم ألمانيا وأوروبا الغربية بشكل أكثر تأثيرًا.

٣-إنسحاب الصين من المواقع الإيديولوجية المتزمّتة.

٤- انتعاش اليابان ودول آسيا الشرقية.

٥- فشل الثورة المسلّحة الطويلة الأمد.

٦- انتصار الانتفاضة المستمرّة.

٧- سقوط الأنظمة الديكتاتورية (الديمقراطية الثورية).

٨- إحياء البرلمانات البرجوازية.

إنّ انطلاق هذه الظواهر والتحوّلات والأحداث الجديدة، كأيّ مسألة أخرى، كانت لها جوانب ايجابية وجوانب سلبية. فالجوانب السلبية تمثّلت في الاستغلال الطبقي، والتفرقة العنصرية والجنسية والحضارية والصناعية، وخرق الحريّات، ووجود الآلاف من شبكات التجسّس، وفقدان العدالة، وتفشّي الظلم والقهر المتعدّد الألوان والأشكال، أمّا الجوانب الايجابية لها، فتمثّلت في معرفة كل الحقائق، وانتهاء عصر الخداع والزيف، حيث لم يبقَ مجال لخرق الحقوق الديمقراطية والإنسانية، باسم الاشتراكية، ولا مجال لمساندة ومساعدة الأنظمة الديكتاتورية باسم الرأسمالية. في بداية مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، ألغي معظم الأسس والقواعد القديمة، وانتفضت الشعوب المكبّلة بأغلال التبعية وكسرت قيودها، وحصلت على استقلالها، أو هي في طريقها للحصول على الاستقلال. إنّ

الميزة الواضحة الظاهرة لنجاح استقلال هذه الشعوب، بعد الحرب الباردة، أنّها انتصرت وحقّقت استقلالها بدون الثورة الطويلة الأمد، بل بالانتفاضة والكفاح داخل المدن، وفي فترة وجيزة. وبهذه النجاحات والانتصارات، وبتجربة العديد من الشعوب في أوروبا الشرقية، أثبت أنّ هذا العصر يحمل بشرى تغييرات سياسية مؤثّرة وفعّالة للشعوب والحقوق الديمقراطية، وأهمّها التخلّي عن الثورة الطويلة الأمد المليئة بالأضرار، واندحار الكفاح المسلّح، ومن ثم الترحيب بالانتفاضة القصيرة الأمد، والمحقّقة لانتصار الشعوب بصورة أسرع. وبهذا، لم يصبح نجاح الكفاح المسلّح من الناحية العسكرية صعبًا جدًا فحسب، بل حتى الاستمرار على نهج الثورة المسلّحة، كنهج استراتيجي لانتصار الشعوب المضطهدة بات عملًا صعبًا أيضًا من الناحية السياسية. فإن لم يلتفت أحد إلى القضية الكوردية، أو الحركات المسلّحة الأخرى في العالم، التفاتة سياسية، في فترة اشتداد الحرب الباردة، وفي حالة وجود كل تلك الصراعات والثغرات في صفوف أطراف الحرب الباردة، فكيف يمكن أن تحقّق الثورة المسلّحة أهدافها بعد انتهاء الحرب الباردة؟!

في جميع أجزاء كوردستان، لا تزال الثورة المسلّحة مقبولة إلى الآن. كوردستان/ إيران فيها كفاح مسلّح على طريقة حرب الأنصار، لكنّها أجبرت على التقهقر إلى ما وراء الحدود. وبهذا الشكل فإنّ القوى المسلّحة في الساحة هي:

- الحزب الديمقراطي الكوردستاني/ إيران.
- منظّمة الحزب الشيوعي الإيراني (الكوملة - العصبة).
- الحزب الديمقراطي الكوردستاني (القيادة الثورية).

لم يكن لدى هذه الأحزاب أقلّ ما يمكن من البرامج السياسية المشتركة، والأسوأ من ذلك هو عدم تمكّنهم من الاحتفاظ بمقرّ واحد لهم داخل كوردستان/ إيران، إضافة إلى أنّهم لم يتمكّنوا من إيجاد حلّ جذريّ لداء حرب الاقتتال الداخلي المجهضة لآمال الجماهير الذي أصيبوا به منذ سنوات طويلة، حيث لا تزال حرب «قتل الديمقراطيين» بين جناحي الحزب الديمقراطي مستمرّة إلى يومنا هذا[115]*.

١١٥ بعد طبع الكتاب توقف الاقتتال بين الجناحين الديمقراطيين وبعد مرور سنوات عديدة من توقف القتال اندمج الجناح المنشق الى الحزب الام! الطبعة الجديدة المنقحة.

في كوردستان/تركيا، تواصلت حرب الأنصار بقيادة حزب العمّال الكوردستاني (PKK) الذي احتكر الساحة لنفسه، وحرم الأطراف الأخرى من المشاركة فيها، بل اغتال وقتل عشرات المناضلين والمقاتلين من الأحزاب الكوردستانية الأخرى، من الذين حاولوا تشكيل مفارز للمقاومة. والأنكى من ذلك كلّه، قتله العشرات من الذين تركوا صفوفه، وأرادوا أن يقاتلوا مستقلّين. لكنّه وعلى الرغم من كل ما ذكر، فإنّ هذا الحزب وحركته المسلّحة، انبثقا من رحم شعب مضطهد مظلوم، حُرم أبناؤه حتى حقّ التكلّم بلغته الأم الكوردية. ومن هذا المخاض القومي، تمكّن حزب العمّال الكوردستاني من إيقاظ الوعي القومي الكوردي في كوردستان/تركيا، بعد عشرات السنين من السبات والقنوط، ومن قيادة الحركة المسلّحة الكوردستانية والاستمرار في المقاومة والبقاء. إلا أنّه لم يتمكّن رغم مرور سبعة أعوام من عمر هذه الحركة، التي صادفت ذكرى تأسيسه السابعة نهاية الحرب الباردة، وبداية عصر جديد، من تأسيس مقرّ ثابت واحد داخل كوردستان/ تركيا.

فطوال اثني عشر عامًا من حرب الأنصار في كوردستان/إيران، وسبعة أعوام في كوردستان/تركيا أيضًا، لم يتحوّل شكل النضال من حرب الأنصار إلى الحرب المتحرّكة. لذلك يمكن أن نقول إنّ حركة حرب الأنصار، في هذين القسمين من كوردستان تدور في دائرة مغلقة، وفتح هذه الدائرة من الناحية العسكرية، إن كان ممكنًا في عصر الحرب الباردة، إلى حدّ ما، فإنّه وصل إلى طريق مسدود بعد الحرب الباردة. إنّ السبيل الثوري الوحيد (عدا استراتيجية حرب الأنصار) للخروج من دائرة حرب الأنصار المغلقة هذه، يكمن في تغيير استراتيجية الكفاح المسلّح لتحرير كوردستان المندلع من الجبال، ونقلها إلى المدن، أي من الكفاح المسلّح إلى الانتفاضة. فعدا هذا السبيل ليس هناك سبيل آخر، إلا إذا حصلت مصادفة تغيّرات في السياسة العالمية والإقليمية التي حصلت في أوروبا الشرقية، وتغييرات في ميزان القوى بين الحركة المسلّحة وإيران وتركيا، وإلا فمن المستحيل إسقاط النظام أو طرد المحتل، بهذه الحركات المسلّحة.

إذن لم يكن هناك من حلّ أمام قوى حرب الأنصار في هذين القسمين من كوردستان، سوى إخراج هذه القدرة القتالية لحرب الأنصار التي بحوزتها، من الإطار الاستراتيجي، وتحويلها إلى أداة عسكرية تكتيكية، لخدمة استراتيجية الانتفاضة، أي الانتفاضة المستمرّة في المدن. وهي أيضًا إضافة إلى استراتيجية

الانتفاضة المعدّة مسبقًا، تحتاج إلى التكتيك والشعارات والسياسة الإعلامية والإدارية والنظرية، وهذا يستحيل بدون تغيير الإيديولوجية الجامدة، والانعطاف الفكري من الماضي إلى الحاضر، إلى جانب التغيّرات النفسية والجماهيرية المختلفة الشاملة. وتحتاج إلى تحرّكات عالمية وإقليمية وإيرانية وتركية وكوردستانية واسعة ومستمرّة، إضافة إلى اقتلاع جذور الحقد والكراهية من النفوس، وتصحيح الأخطاء وسدّ الثغرات، ونقد الذات، وتغيير جمود الكفاح المسلّح والعقلية العسكرية العشائرية من الأساس، والعمل باستمرار من أجل تثبيت الاستراتيجية الجديدة، استراتيجية الانتفاضة المستمرّة، وتربية الجماهير بهذه الروحية.

٣/٩ - انتفاضة كوردستان

إن لم تصل استراتيجية الكفاح المسلّح في كوردستان/العراق، بانهيار ثورة أيلول، من كل النواحي العالمية والإقليمية والعسكرية والسياسية إلى طريق مسدود، وبقي، إلى حدّ ما، مجال من الناحية السياسية والقومية لاستئناف الكفاح المسلّح مجدّدًا، بعد الانهيار في كوردستان/العراق، فحتى الآن، وبعد سنوات طويلة من الكفاح المسلّح، وداخل اشتداد مختلف أنواع الأحداث الكبيرة والصغيرة التي هزّت العالم والمنطقة وكوردستان، لم يتمّ وضع هذا القسم من الكفاح المسلّح الذي ظلّ يملك قابلية للعمل، حتى بعد الانهيار، في خدمة استراتيجية الانتفاضة داخل المدن. إنّ الكفاح المسلّح هذا، على الرغم من حصول العديد من الأحداث الكبيرة المساعدة والمهيّئة لفرص نجاحه، مثل سقوط نظام الشاه، والحرب العراقية—الإيرانية، إلا أنّه أصيب بهزيمة نكراء، وفاقت تضحياته وضحاياه كل تضحيات وضحايا الأمم على وجه الأرض. إنّها هزيمة عمليات الأنفال للإبادة الجماعية على يد النظام البعثي العراقي الشوفيني خلال الأعوام ما بين ١٩٨٧ و١٩٨٩!

بعد عمليات الأنفال، تغيّرت سيماء الحركة المسلّحة لشعبنا بالكامل، وأصيب كل الأحزاب الكوردستانية المسلّحة بكارثة كبيرة أوصلتها إلى حدّ اليأس من تحقيق كل أهدافها وتطلّعاتها القومية والطبقية. واستحالت إلى أمل وحيد، تمثّل في منع النظام العراقي بأيّ وسيلة من ترحيل كل سكّان كوردستان عن طريق الضغط الدولي والديبلوماسي، أو إجراء مفاوضات مرنة معه، من أجل تحقيق أقل ما يمكن تحقيقه، من مطالب الجبهة الكوردستانية. باختصار، فمنذ انتهاء عمليات الأنفالات وإلى يوم احتلال الكويت، كانت المحاولات السياسية والديبلوماسية المهمّة لقوى الجبهة الكوردستانية تنصبّ على بذل الجهود لإعادة الحالة إلى أيّام ما بعد انهيار عام ١٩٧٥، زمن اتفاقية الجزائر.

فالنظام انهزم من الناحية العسكرية في تلك الاتفاقية، ونكّس رأسه مجبرًا لنظام شاه إيران، لكنّه في الأنفالات التي جرت بعد إيقاف الحرب العراقية—الإيرانية،

كان يعتبر نفسه منتصرًا. لذلك، فإنّ رفض ذلك المطلب في حينه، وفي زمن ضعف النظام العراقي عام ١٩٧٥، يعني أنّه لا يقبل به مطلقًا، بأيّ شكل من الأشكال، في زمن انتصاره العسكري، وأعلى درجة من قدراته العسكرية الفاشية، وبكل ما يملكه من أسلحة كيمياوية. لن يقبل حتى بأدنى درجة من درجات الاتفاق السياسي، لاسيّما أنّه كان ينظر إلى علاقات قوى الجبهة الكوردستانية مع الحكومة الإيرانية، بأقصى درجات الحقد والكراهية الفاشية، واعتبرها خيانة وطنية عظمى، لكنّها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر، بل الخيانة الوطنية العظمى كانت تلك الحرب القاسية التي أشعلها النظام ضدّ إيران.[١١٦]

إذا قارنّا الهزيمة العسكرية في الأنفالات عام ١٩٨٨ مع جميع الهزائم التي مني بها الشعب الكوردي في تاريخه المعاصر، فإنّها كانت أخطر بكثير من الهزائم السابقة، بسبب تغيّرات أرضية هذه الهزيمة وزمانها مقارنة بالهزائم السابقة. فبعد كل هزيمة عسكرية، في الانتفاضات المسلّحة السابقة منذ القرن التاسع عشر، وإلى ثورة أيلول أيضًا، كان يصدر قرار فوقي بإنهاء الانتفاضات وتشتيت المنتفضين.

في هزيمة الأنفالات، ومع كل الأخطاء الاستراتيجية العسكرية التي شاركت فيها جميع القوى السياسية الكوردستانية المسلّحة، طوال سنوات الكفاح المسلّح، بالإضافة إلى الجرائم وعمليات النهب والسلب التي حصلت طوال عمر هذه الحركة، بدءًا من الحرب الداخلية، وإلى التصرّفات المشينة، والظلم والجور الذي ارتكبه على مرأى ومسمع منهم اللصوص المتستّرون بلباس الثورية من ذوي المسؤوليّات العالية في الحركة الكوردية، وانتهاءً بالعداء المباشر للحرّية والديمقراطية، نعم بالإضافة إلى كل هذه الحقائق التي أصبحت وصمة عار على جبين الحركة المسلّحة، يجب ألا ننسى جملة من الحقائق العسكرية والسياسية، وألا نجعلها لقمة سائغة للطروحات النظرية، لأنّه كلّما تمّت غربلة الحقائق للتفريق بين ما هو ايجابي أو سلبي منها موضوعيًا، كلّما أصبح الطريق أمام خطوات الكفاح المستقبلي أكثر ضياءً ووضوحًا. أمّا هذه الحقائق، فهي:

١١٦ كان من المفروض انتهاج تكتيك عسكري وسياسي أكثر فعالية، أثناء الحرب العراقية-الإيرانية، لكن هذا العمل كان محالًا، بدون تعاون ومشاركة كل القوى الكوردستانية.

١- إنّ البرجوازية الكوردية، الضعيفة أصلًا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، بالإضافة إلى هزائمها ومسؤوليتها عن جميع الأعمال المخجلة داخل الحركة الكوردية المسلّحة، والأخطاء الاستراتيجية السياسية والعسكرية لحركتها من نواحٍ كثيرة، إلا أنّها ظلّت تدافع باستمرار عن أهدافها الطبقية. كما سعت عمليًا، من أجل تحقيق ذلك الهدف ميدانيًا، وعرّضت حياتها للخطر في سبيله. ففي الوقت الذي كان معظم اليساريين أخلص من أولئك البرجوازيين وأنقى، ولم يكونوا مسؤولين حتى عن أقل الجرائم خطرًا وعقوبة، إلا أنّ ابتعادهم عن الحركة المتاحة للجماهير، ودورانهم في المتاهة النظرية، ضيّع من أيديهم رأسمالهم النظيف هذا، ومنعه من أن يكون سببًا في نجاحهم السياسي. كذلك لم يكن قسم من أولئك الأشخاص أو الجماعات من الذين احتسبوا زورًا على اليسار مستعدّين بقدر استعداد البرجوازية الكوردية للتضحية بأنفسهم، ووضعها أمام مخاطر ساحات النضال.

٢- إنّ قدرة القوى البرجوازية الكوردية، رغم كثرة مشاكلها وهزائمها، وضعف القوى اليسارية الكوردستانية، وقلّة هزائمها وقلّة أزماتها ومشاكلها السياسية، لا تعود أسبابها فقط إلى قدرة القوى البرجوازية والمساندة التي تتلقّاها، بل إلى الأرضية الاجتماعية للحركة التحرّرية، في حين لا يملك اليسار هذا الرصيد.

٣- إنّ برجوازية الشعوب المضطهدة، على الرغم من ضعفها الاقتصادي داخل مجتمعاتها، لها قاعدة اقتصادية طبقية على المستوى العالمي أيضًا، في الوقت الذي لا يملك العمّال والفلاحون هذه القاعدة، وما كان باسمهم في هذا المجال، ظهر أنّه كان عكس المطلوب!

٤- كان من المنتظر الإعلان عن انهيار سياسي وعسكري آخر، بعد الأنفالات، إلا أنّ هذا لم يحدث، وكان عدم الإعلان عن الانهيار، بل الإصرار على إدامة الكفاح المسلّح على نهج حرب الأنصار في تلك الأيّام الصعبة التي قلّ نظيرها، وفي ظلّ القرى المهدّمة الخالية في كوردستان، أحد الأعمال الحسنة التي تسجّل لصالح الجبهة الكوردستانية.

كانت المفارز المسلّحة التي قامت، بعد الأنفالات، بتنفيذ الواجبات والمهمّات التي أثبتت عدم انهيار الثورة الجديدة، في أحلك وأخطر الظروف التي مرّت بها

كوردستان، تتكوّن من أبناء بررة لشعبنا. كانوا أبطالًا بكل معنى الكلمة.[١١٧]

إنّ بقاء المقاومة المسلّحة، بعد الأنفالات، واستمرارها في العمل يعود إلى مخلّفات الصراع بين العراق وإيران، وبداية عصر انتهاء الحرب الباردة، إذ تعرّضت الأنظمة الديكتاتورية والفاشية، كالعراق، إلى ضغط دولي. وكان النظام العراقي في مقدّمة الأنظمة الفاشية التي تعرّضت للنقد. وليس بعيدًا أن يكون حبّ العظمة، والبرامج العسكرية البعثية، بعد انتهاء الحرب العراقية – الإيرانية، وضعا تحت مجهر تأمين مصالح أميركا في الشرق الأوسط والخليج.

إنّ صمود الجبهة الكوردستانية، إن لم يتمخّض عن مكاسب سياسية تؤدّي إلى إقناع النظام بالتفاوض معها، فهو لم يعد بالضرر عليها، بل استفادت منه أعظم فائدة بعد احتلال الكويت، وقيام الانتفاضة الجماهيرية في كوردستان/ العراق.

كانت الانتفاضة، بصورة عامّة، انتفاضة عفوية ضدّ الفاشية، ولم تخطّط مباشرة أيّ جهة عراقية، أو كوردستانية، يسارية أم يمينية أم معتدلة، للقيام بها من الناحية الاستراتيجية. فحتى بعد اندلاعها، لم تتمّ قيادتها مباشرة، من قبل أيّ طرف من الأطراف.

إنّ الأحزاب العراقية في المنفى، لاسيّما في إيران وسوريا، كانت تنتظر سقوط النظام العراقي نتيجة لحرب الكويت، لكي يعود كل طرف، إمّا بمساعدة إيران أو سوريا، إلى الوطن، ولم يكن لدى الجبهة الكوردستانية أيّ قرار بإطلاق انتفاضة. كانوا خائفين من نتائج هذه الحرب وتقلّبات ظروفها إلى الحدّ الذي لم تبادر بقايا قوّات الجبهة التي تمّ إعدادها وتهيئتها، إلى الهجوم على النظام في أيّ مدينة أو قصبة، قبل هزيمة النظام وبعدها. وكان ذلك خوفًا من تكرار كارثة حلبجة وبقاء النظام والعودة إلى المفاوضات معه، لكنّ سياسة الجبهة الكوردستانية هذه لا تعني أنّ أطراف الجبهة لم يكونوا قد أعدّوا أنفسهم لفرصة سانحة أخرى، خاصّة إذا قامت الانتفاضة، بل كانت الانتفاضة ضمن توقّعاتهم وحساباتهم.

---

١١٧ بعد الانتفاضة، أهمل البعض من البيشمركة الذين شاركوا في عمليات حرب الأنصار التي أعقبت الأنفالات، وصعد على اكتافهم مجموعة من الانتهازيين.

عندما ظهرت هزيمة العدوّ للجميع، بدأت مشاعر السخط وعدم الرضى في أعماق الناس تزداد وتكبر باستمرار، بل ظهرت علامات هيجان وفوران الانتفاضة. عندها بدأت وسائل إعلام الجبهة الكوردستانية بتشجيع وتحريض الجماهير على الانتفاضة بصورة مكشوفة، بل واقتربت مفارزهم المسلّحة من المدن أيضًا. في خضمّ هذا الاضطراب الذي هزّ العالم بأجمعه، من جرّاء هذه الحرب، كانت المعارضة العراقية غارقة في جدال ونقاش حول ضرورة وعدم ضرورة عقد مؤتمر حول الأوضاع المستجدّة في العراق؟!

حينما انهزم النظام كليًا، وانتفضت الجماهير في معظم المدن والقرى العراقية والكوردستانية، قرّرت قوى المعارضة العراقية عقد «مؤتمر بيروت» من أجل عدم ضياع الفرصة. ومع ذلك كان مؤتمرًا ضعيفًا، وبلا برنامج، ومليئًا بالتناقضات والصراعات، حتى أنّه ظهرت فيه منظّمات سياسية، لا تمثّل إلا الذين تحدّثوا باسمها، ولم تكن تملك، لا في العراق ولا في كوردستان، حتى عش عصفور! ناهيك عن التنظيمات والجماهير!

٤/٩ – الهزيمة الموقتة والحرّية

كانت الانتفاضة عفويّة ومليئة بالنواقص والثغرات، وكان أهمّ تلك النواقص وأكبرها هو عدم وجود برنامج محدّد مشترك للانتفاضة، معدّ من قبل المعارضة مسبقًا. هذه العفويّة والافتقار إلى برنامج محدّد عرّضت هذه الانتفاضة إلى مشاكل سياسية وإعلامية يومية. فوجود هذه النواقص والثغرات خطرة حتى في انتفاضة منظّمة، فكيف بانتفاضة عفويّة غير منظّمة. هذا، عدا موقف أميركا والغرب غير الإيجابي، أثناء اشتداد الانتفاضة.

نستطيع أن نقول إنّ النتائج التي خلّفتها السياسة الفاشية للنظام العراقي في نفوس الناس، بعد يأسهم من الكفاح المسلّح وعدم سقوط النظام في الحرب العراقية–الإيرانية، قد خلقت لديهم قناعة بدائيّة وعفويّة بالانتفاضة. لكنّه كان إيمانًا حديث التكوين والظهور، غير مطعّم بالفكر الحقيقي للانتفاضة والقيادة الثورية لها. فبدلًا من أن يُترك لهذا الفكر الحديث الولادة للانتفاضة أن ينمو بشكل طبيعي داخل مشروعه، بعد اندحار الكفاح المسلّح، ثم ينضج ويكتمل بصورة تامّة، فاجأه احتلال النظام للكويت، ثم هزيمة النظام المفاجئة والسريعة في الحرب. وقد خلق هذا الأمر ضغطًا كبيرًا بين الناس، لصالح الفكر الجديد لقيام الانتفاضة، لاسيّما إصرار النظام على عدم الانسحاب من الكويت، وإصرار دول الحلفاء على دحر النظام العراقي وطرده منها. وقد أيقن الناس في العراق أن النظام سيسقط، ووصل هذا الإيمان، برؤية الجيش العراقي المندحر والمجبر على الانسحاب من الكويت بشكل غير منظّم إلى حدّ إشعال فتيل بارود الحقد المكتوم في أعماق الناس ضدّ الفاشيين. وشملت نيران الانتفاضة أكثر المناطق التي يسكنها الشيعة في وسط وجنوب العراق، ومعظم مدن كوردستان.

إنّ الشيعة، ومنذ ملحمة كربلاء التي قتل فيها الحسين بن علي ورفاقه وأهل بيته، يؤمنون بالانتفاضة المسلّحة، وكان للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق حضوره العسكري والسياسي المؤثّر على الساحة العراقية، ولاسيّما في

الجنوب. والكورد أيضًا جعلوا الكفاح المسلّح سنّة وطريقًا لتحرير كوردستان، لاسيّما في تاريخهم المعاصر، إلا أنّ الكفاح المسلّح لكلا الطرفين تعرّض إلى هزيمة عسكرية، بعد توقف الحرب العراقية-الإيرانية. إذن، إذا كانت استراتيجية الكفاح المسلّح لم تتغيّر عند الطرفين، ولم يعدّا مسبقًا لهذه الانتفاضة، فلا بدّ أنّهما اعتبراها فرصة، للعودة إلى الميدان، عن طريق القوّة، من أجل تحقيق استراتيجيتهما المسلّحة.

في هذه المرحلة بالذات، أدى نزول الشيعة إلى الميدان بالسلاح، في المناطق التي تسكنها أغلبيّة شيعية، ونزول قوّات الجبهة الكوردستانية أيضًا إلى الساحة في مدن وقصبات كوردستان، إلى سيطرة نهج الكفاح المسلّح من جديد على نهج الانتفاضة. بل خلط بين الانتفاضة والانتفاضة المسلّحة، بشكل اعتقدت الجماهير بأنّ الكفاح المسلّح هو الوسيلة المثلى للقضاء على بقايا الجيش العراقي المهزوم. وكانت سيطرة النضال المسلّح على الانتفاضة، أكبر خطأ عسكري وسياسي وقعت فيه الشيعة والجبهة الكوردستانية، إذ غيّروا، بذلك، نهج الانتفاضة، كنهج ثوري يلائم المدن، إلى نفس النهج المسلّح القديم المهزوم باستمرار.

قامت الانتفاضة بصورة عفويّة، ولم يكن لها برنامج محدّد، ولا شعار مركزي واحد، ولا إعلام موحّد، ولم تظهر قيادة محنّكة أثناءها. وكان أمام الانتفاضة شوط بعيد لتشمل كل المدن العراقية الكبيرة والمتوسطة، لاسيّما بغداد والموصل والمدن القريبة من بغداد. ولم تنضم الكثرة الكافية من الناس إلى الانتفاضة، ولم يحصل تمرّد كبير داخل قوّات الجيش العراقي، وهو شرط مهم، لإصابة النظام العراقي بالشلل. فبالرغم من عدم اكتمال هذه العوامل الضرورية، رجعت المعارضة العراقية والكوردستانية إلى الميدان بعقلية الكفاح المسلّح بدلًا من السعي لتحقيق اكتمال تلك العوامل الضرورية عن طريق خدمة الانتفاضة، والتعويض عن نواقص وقصور عفويّة قيام الانتفاضة، بقدر الإمكان.

ففي الوقت الذي لم يكن لدى المعارضة العراقية أيّ برنامج مشترك للانتفاضة، حتى على الصعيد العسكري، وهو ما حصل أيضًا في الهزيمة العسكرية للحركة المسلّحة الكوردستانية في الأنفالات، كان كل طرف يرسل ويستدعي مفارزه حسب هواه، ووفق سياسته!

إنّ تحكّم الكفاح المسلّح في الانتفاضة، بهذه الصورة الواسعة، وعدم وضعه

في خدمة وتطوير وترسيخ نهج الانتفاضة، حتى وإن ألحقت ضربات من الناحية العسكرية بالنظام العراقي، هنا أو هناك، فإنّها، هكذا أيضًا، ألحقت أضرارًا بالغة بالانتفاضة من ناحيتين:

١- أوقف الكفاح المسلّح انتشار الانتفاضة بين أكثريّة الجماهير، ومنع توسّعها وانتقالها إلى المدن العراقية والكوردستانية الأخرى، وربط آمالهم وأمانيهم في النجاح والنصر، بانتصار القوى المسلّحة من الناحية العسكرية. جرى هذا، في الوقت الذي، يكمن جوهر نجاح الانتفاضة في دفع الجماهير إلى الالتفاف حول راية الانتفاضة، والسعي من أجل إمّا كسب الجيش وأجهزة النظام القمعية للانضمام إلى صفوف الانتفاضة، وإمّا إقناعها بالوقوف على الحياد، أو تشتيت صفوفها.

٢- أعطى الكفاح المسلّح مبرّرات للنظام، لكي يحشد جيشه ومؤسّساته القمعية الأخرى، ويشجّع جنوده، ويبعث النخوة الوطنية فيهم، باسم إيقاف التدخّل الخارجي، ومنع احتلال الوطن، للتصدي للمنتفضين وقمع الانتفاضة بلا رحمة. هذا في حين كانت معنويات الجيش العراقي، نتيجة لاندحاره في حرب احتلال الكويت، في حالة انهيار وهبوط تامّين، ولكنّ النظام العراقي استغلّ الأخطاء العسكرية في الانتفاضة، من أجل إعادة تنظيم صفوف جيشه المنهار.

فبالإضافة إلى مسألة الكفاح المسلّح هذه والانتفاضة، فإنّ النظام استغلّ بعض المسائل السياسية والديبلوماسية والتصرّفات الخاطئة المختلفة الأخرى، لإخماد الانتفاضة منها:

- قرار أميركا القاضي بالتفاوض مع النظام العراقي، وهو في أقصى درجات هزيمته، والذي صدر في الثامن والعشرين من شباط (فبراير) عام ١٩٩١، ألحق أثرًا نفسيًا خطيرًا بمعنويات الجماهير المنتفضة، وبالمقابل أحيا الآمال الميّتة للنظام وجيشه. وقد حصل هذا، في الوقت الذي كانت الجماهير تنتظر من دول الحلفاء عدم إيقاف الحرب إلا بعد سقوط النظام. وكان النظام يعرف تمام المعرفة أنّه يقف على حافة هاوية مهلكة، لذلك رضي بكل شروط أميركا في تلك المفاوضات التي أعقبت وقف إطلاق النار!

- إظهار انتفاضة سكّان جنوب العراق بمظهر شيعي- إسلامي أفزع الغرب خوفًا من تكرار التجربة الإيرانية في العراق، في حين لم تكن للغرب علاقات وطيدة مع

المعارضة العراقية والكوردستانية آنذاك. كما أنّ القوى الليبرالية والمذهبية الصديقة للغرب، كانت ضعيفة في ذلك الوقت.

– عندما فرض الكفاح المسلّح على الانتفاضة، لم يكن هناك برنامج عسكري دقيق للقيام بهجمات متكرّرة ومستمرّة على قوّات النظام العراقي حتى تشكل خطرًا على بغداد، بل حصل عكس هذا، فبعد العديد من النجاحات والانتصارات، خاصّة في كوردستان، اعتمدت خطّة الدفاع السلبي، وفي الدفاع موت للثورة. وهذا أعطى للنظام فرصة للانسحاب من الكويت، كما كان يرغب، ولتنظيم صفوفه، واستغلّ فوضى عدم وجود برنامج عسكري للانتفاضة، وعدم استمرار الهجمات العسكرية، ليبدأ الهجوم من جديد، ويرتكب مذبحة في جنوب العراق. أما في كوردستان فوقعت كارثة الهجرة الجماعية، بدون أن يتمكّن عشرات الألوف من المسلّحين من التصدّي للهجمات العسكرية العراقية، بنفس مستوى التصدّي في المعارك الأخيرة العنيفة للأنفالات.

– التصرّفات اللصوصيّة المشينة لبعض أفراد القوى المسلّحة، مثل السرقة، والسلوك غير الثوري، والابتعاد عن تنظيم الجماهير، وعدم وجود برنامج لتقديم الخدمات والتربية السياسية، والعداء لليساريين، والتصرّف بدون برنامج إداري ديمقراطي لإدارة الشعب والأحزاب السياسية المختلفة.

– العلاقة غير المنظّمة بين المعارضة العراقية ودول الجوار، وسعي هذه الدول من أجل تنفيذ خططها ضدّ النظام العراقي، أثناء الانتفاضة.

هذه الحقائق التي تجسّدت جميعها داخل الانتفاضة العفويّة، لم تترك مجالًا لتحويل هذه الانتفاضة، إلى انتفاضة تحرّرية مستمرّة، إلى حين تحقيق آخر هدف من أهداف الشعب العراقي عمومًا، والشعب الكوردستاني خصوصًا، وهو إسقاط الفاشيين، ووصول بديل ديمقراطي إلى الحكم، يقرّ بدون شروط، حقّ تقرير المصير للكورد، بما فيه حقّ الانفصال وتأسيس جمهورية كوردستان المستقلة أيضًا[١١٨]*.

---

١١٨ طرحنا هذه الأفكار عدة مرات، قبل انتصار الانتفاضة، وقبل رفع الأحزاب الكوردستانية شعار الفيديرالية في كوردستان العراق، الطبعة الجديدة المنقحة والمزيدة.

على الرغم من إخماد الانتفاضة في عموم العراق إخمادًا دمويًا على أيدي جلاوزة النظام البعثي العراقي، إلا أنّ الكورد، كعادتهم دائمًا، تمكّنوا من إحياء وتفعيل ميزتهم وخاصّيتهم الكوردستانية في هذه المرحلة من تاريخهم، واستطاعوا بعد الكبوة الموقتة والهجرة الجماعية تحرير معظم مناطق كوردستان والمحافظة على الحرّية التي سادت كوردستان، ماعدا كركوك وخانقين ومندلي وسنجار، في ظلّ وضع عالمي جديد، يشمل الشرق في بداية عصر انتهاء الحرب الباردة. وهكذا ثبت عمليًا وموضوعيًا أنّ الانتفاضة هي مرحلة جديدة، ولها استمرارية سياسية واجتماعية وقانونية أيضًا، على الرغم من كل الأخطاء والانحرافات الذاتية.

٩/٥- الهجرة والمفاوضات والبرلمان

عندما أخمدت الانتفاضة، اتّضح بشكل جلّي ومؤكّد أنّ جميع القوى العراقية والكوردستانية، بكل ما تملك من سلاح، وجميع المؤيّدين المسلّحين الذين التفّوا حولها، لم يكن بمقدورهم إلحاق الهزيمة العسكرية التامّة بالبعث العراقي، على الرغم من هزيمته النكراء في حرب الكويت. هذه الحقيقة العسكرية، وبعد فرض النهج العسكري على الانتفاضة، أصبحت هي الخطيئة التاريخية الثانية التي تقع مسؤوليتها على عاتق القوى المسلّحة التي بدّلت سيماء وجوهر الانتفاضة، عن طريق المقاومة المسلّحة، في الوقت الذي لم يكن لديها حتى أقلّ ما يمكن من الخطط والبرامج العسكرية لهذه المقاومة. وتوضّح أنّ جميع الأطراف كانت تعتقد أنّ النظام ساقط لا محالة، وواثقة من النصر! وهكذا وقعت الواقعة الكبرى، إذ أبيد أكثر من سبعين ألف إنسان في الجنوب، وأجبر الشعب في كوردستان على الهجرة الجماعية.

إنّ هجرة الشعب في كوردستان لها سببان مباشران:

الأول: شراسة الفاشية العراقية صاحبة السجلّ الأسود والجرائم النكراء المخجلة، كجريمة قصف حلبجة والقصبات والقرى الكوردستانية الأخرى في عمليات الأنفال بالأسلحة الكيمياوية.

الثاني: عدم ثقة الناس بـ «الجبهة الكوردستانية» في التصدّي حتى للجيش العراقي المهزوم.

وبناءً على هذين السببين، قام الشعب الكوردي لأول مرّة في تاريخه القديم والحديث، بالهجرة الجماعية العفوية، وترك مدنه وقراه. وفي خضمّ اشتداد هذه الهجرة، وموت العشرات من الأطفال، وقسوة ظروف الناس التي وصلت إلى حدّ لا يطاق، وضع الشعب مرّة أخرى وكل القوى على المحك العسكري والسياسي والإداري. وظهر ضعف الأحزاب الكوردستانية، إضافة إلى اندحارها العسكري،

ولجوئها مرّة أخرى إلى خيمة المفاوضات المهترئة الغريبة والعجيبة، مثلما كانوا ضعفاء من جهة إدارة شؤون الناس.

ففي الأسبوع الأول من الهجرة، تعلّم الناس بسرعة في ميدان تجربة الهجرة الجديدة، أنّ الجبهة الكوردستانية ليس لديها خيارًا سياسيًا وعسكريًا وبديلًا آخر، سوى المفاوضات. وظهر جليًا ولأول مرّة في التاريخ، أنّ المفاوضات لا تلقى أيّ مساندة أو دعم على المستوى العالمي، بل تلقى الرأي العامّ العالمي، لاسيّما الأوروبي المتعاطف مع الكورد، أنباء مفاوضات قيادة الجبهة الكوردستانية مع أشدّ الأنظمة المثيرة للتقزّز والاشمئزاز في العالم، بكل استغراب واستهجان[119]*.

تبيّن أنّ هذه الظروف المستجدّة سوف تعقبها تغييرات سياسية أخرى، وتبعًا لذلك تغيّرت الهجرة من كارثة كبيرة إلى دعم خيالي لقضية شعبنا. ففي أثناء الهجرة المليونية الكبرى، ونشر صور المنكوبين من أبناء شعبنا على شاشات الفضائيات العالمية، وتأثيرها البالغ والمحزن على الرأي العالمي، وخاصّة الأوروبي، اضطر وزير خارجية الولايات الأميركية جيمس بيكر، وهو على متن الطائرة أن يتكلّم مع رئيسه جورج بوش الأب، لكي يطلب منه اتخاذ موقف إنساني، للحدّ من كارثة إنسانية حقيقية غير مسبوقة تحصل لشعب كوردستان العراق.

تحرّكت أميركا فعلًا على الصعيد العالمي، ولاقى تحرّكها تجاوبًا من الدول الأوروبية، ولاسيّما من فرنسا. واقترحت في مجلس الأمن تحديد منطقة آمنة للشعب الكوردي. وبناءً على ذلك، اجتمع مجلس الأمن، وصوّت لصالح التدخّل المباشر في القضية، وأصدر القرار رقم ٦٨٨، وفرض بموجبه منطقة آمنة للشعب الكوردي، تمتد إلى خطّ العرض ٣٦. وقد فتح هذا القرار الباب أمام الأمم المتحدة ومجلس الأمن لكي يقرّرا التدخّل في شؤون الداخلية لكل دولة يواجه شعبها كارثة إنسانية. وكان هذا القرار لا سابقة له في مجلس الأمن والأمم المتحدة، ومهّد السبيل لتدخّلهما في القضايا السياسية لمصلحة شعوب يوغسلافيا السابقة وأفريقيا.

---

١١٩ عرفنا في اليوم التالي من المفاوضات، أنّ دولة السويد وبعض الدول الاسكندنافية والأوروبية الأخرى، قد اتخذت قرارًا، بطرح قضية استقلال كوردستان عن العراق، في مجلس الأمن والأمم المتحدة، ولكنّ المفاوضات، وبالشكل الذي أجريت، قد أجهضت هذه الفكرة، الطبعة الجديدة المنقحة والمزيدة.

عدم الثقة بالنظام، وظهور ضعف الجبهة الكوردستانية، وظهور معالم دعم القضية الكوردية من قبل الرأي العامّ العالمي، أثّر في مواقف الجماهير ومشاعرها. ففي الوقت الذي كانت وفود الجبهة الكوردستانية منهمكة في المفاوضات والتنقّل بين بغداد وكوردستان، وإجراء المقابلات التلفزيونية مبشّرين بنجاح مفاوضاتهم مع البعث و «الرئيس صدام» وإعلان نتائجها قريبًا، بدأت الجماهير المتمرّسة التي نضجت خصالها الثورية في أتون الانتفاضة بالهجوم على معسكرات جيش النظام ومقرّاته في المدن، وطرد آلاف الجنود المنهارين بالتصفيق والضرب بالأيدي، وحرّروا معظم مدن كوردستان من دون أيّ تخطيط وقرار من قبل الجبهة الكوردستانية.

عادت الجبهة الكوردستانية إلى الميدان مرّة أخرى، إلا أنّ الكادحين من البيشمركة، كانوا يهاجمون في أحيان كثيرة مؤسّسات النظام القمعية تضامنًا مع الجماهير، بدون قرار مسبق من قياداتهم. وبالمقابل حصل في هذه الفترة أنّ بعضًا من مسؤولي الجبهة عملوا على إخماد روح التمرّد عند الناس، ومنعوهم من الهجوم على مؤسّسات النظام، حتى أنّهم أنقذوا مجرمين كبارًا للنظام من أيدي الجماهير! ونتيجة لاشتداد حماسة الدعم العالمي ومجيء جيش الحلفاء إلى حدود كوردستان إثر الهجرة الكبرى، وإصرار الجماهير على طرد النظام، رجعت الجبهة الكوردستانية إلى داخل المدن، وسيطرت عليها مرّة أخرى. وبهذا الشكل، سيطرت الجبهة مرّتين على كوردستان في غضون شهرين. ولكن ظهر، وفي المرّة الثانية أنّ النظام لا يستطيع أن يعود إلى كوردستان، كما حصل في المرّة الأولى، لأنّ قرارات الأمم المتحدة لا تسمح بهذا.

كان على الجبهة تأمين الأمن والاستقرار والمحافظة على أرواح وممتلكات الكورد في كوردستان، وكانت هذه المهمّة الأكثر أهمّية بالنسبة إليها، إلى جانب ترسيخ الديمقراطية والحرّية. لكنّ ما حصل فعلًا بعد مرور خمسة أشهر على الهجرة، وتحرير معظم مناطق كوردستان العراق مرّة أخرى، وإلى يوم صدور قرار إجراء انتخابات البرلمان، أي في غضون سنة كاملة، نستطيع أن نقول عنه إنّه أسوأ النماذج في تاريخ كفاح الشعوب من أجل نيل الحرّية. فالسرقات، والفوضى، والقتل والنهب، وقطع الطرقات على الناس، والعيش على حساب الآخرين، انتشرت كالنار في الهشيم داخل المجتمع الكوردي. بينما كان المفروض أن يحصل العكس، لأنّ قوى الجبهة الكوردستانية قد ذاقت مرارة الفشل طوال تاريخها، إلى

الحدّ الذي كان يجب عليها أن تحافظ على هذا المكسب بكل ما أوتيت من قوّة ومن إمكانيات، وأن تسارع إلى تقديم الخدمات والأعمال المفيدة إلى الجماهير، وإلى السهر على أمنهم واستقرارهم.

ومع كل هذا، كان الضرر السياسي المؤثّر يكمن في عدم دراسة مرحلة ما بعد الانتفاضة، كمرحلة جديدة، من قبل أكثرية القوى، وعدم معرفة واجباتها ومهمّاتها الأساسية، فهم تصرّفوا في هذه الفترة، كما في السابق، بنفس العقلية الثورية المسلّحة: جمارك متعدّدة، وسيطرات لا عدد لها، وآلاف من المقرّات، وظاهرة حمل السلاح، وعدم الاهتمام بالقضاء والعدالة، والحزبية الضيقة...إلخ، هذه جميعها كانت من المظاهر البارزة غير الصحية لمعظم قوى الجبهة، ولم يؤخذ بالاعتبار ربع مستلزمات تأمين الواجبات السياسية والإدارية والقانونية والثقافية الضرورية لتلك المرحلة.

إنّ هذه الظواهر السلبية كانت تلحق أضرارًا بالغة بالانتفاضة والجماهير، والمكانة السياسية لشعبنا بين الأمم، وفي نظر الرأي العامّ العالمي، ضمن مشروع مستلزمات المرحلة السياسية الجديدة لما بعد الانتفاضة. حتى أنّ الاختلافات على مسألة المفاوضات والظواهر السياسية العالمية الجديدة بين الجماهير والقوى السياسية، اقتربت من الهاوية والدخول في طريق مسدود، أي بدأت الجماهير تتساءل بقلق عن خطر اندلاع حرب داخلية وشيكة أخرى!

- إلى متى تستمرّ الفوضى السياسية؟!
- إلى متى يستمرّ تشتّت قوّات البيشمركة وعدم توحيدها؟!
- إلى متى تستمرّ عمليات النهب والسلب وارتكاب الجرائم؟!
- إلى متى يستمرّ عدم انتخاب سلطة ديمقراطية، و.. إلى متى تستمرّ هذه المفاوضات العقيمة مع النظام، والتي جرّبناها طوال ٢٢ عامًا بمختلف أنواعها وصورها؟!

إنّ هذه الاسئلة كانت تولّد ضغطًا سياسيًا واجتماعيًا ونفسيًا كبيرًا على الجبهة الكوردستانية التي كانت تعاني من اختلافات في الآراء ووجهات النظر حول هذه المسائل، لاسيّما بين الاتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الديمقراطي

الكوردستاني. كما كانت الأطراف اليسارية وغير اليسارية خارج الجبهة عاجزة عن اتخاذ قرارات حول هذه المسائل، لأنّها، إضافة إلى قلّة إمكانياتها، لم تكن متّفقة على أدنى برنامج مشترك. وأمّا الأطراف الأخرى داخل الجبهة، فكانت تسعى إلى المحافظة على مصالحها الحزبية الخاصّة لدى الطرفين الرئيسيين في الجبهة، وحتى لو قدّمت اقتراحات مفيدة، كانت اقتراحاتهم لا تلقى آذانًا صاغية!

بعد أن كادت المشاكل والاختلافات تصل إلى حافة هاوية الانفجار المدمّر، رضخت الجبهة الكوردستانية إلى ضغط الجماهير، والضغوطات الخارجية، والخوف من انفجار التناقضات التي تهدّد الجميع، وقرّرت أخيرًا إجراء الانتخابات البرلمانية.

إنّ انتخاب البرلمان، كمشروع ومبدأ وتجربة جديدة ديمقراطية، داخل مجتمعنا الكوردي، أحد المنجزات السياسية الديمقراطية التي لا مثيل لها بين شعوب الشرق. هناك شعوب قليلة استقبلت بهذا الشوق والحماسة مشروع الديمقراطية، لاسيّما بين الشعوب المتخلّفة. لكنّ تلك التجربة الفريدة، وبكل أسف، قد وصم جبينها بوصمة تقليل الاهتمام بالروح الديمقراطية عندما فرضت نسبة ٧٪ من مجموع الأصوات كشرط للدخول إلى البرلمان، هذا إضافة إلى الألاعيب المفضوحة التي مورست من أجل الحصول على أكثرية الأصوات، إلى الحدّ الذي طعن في نزاهة الانتخابات.

هذه الظاهرة ليست لها علاقة بالشعب، ومع ذلك نجحت الانتخابات، وولد البرلمان، ووضع وجهًا لوجه أمام المهمّات السياسية والاجتماعية والديبلوماسية الجديدة، لإنجاز واجبات الانتفاضة. فإذا كان إعلان الفيديرالية لكوردستان، وإصدار قرار بناء أسس توحيد قوّات البيشمركة، ومنع انفجار الحرب الداخلية بين الحزب الديمقراطي الكوردستاني والاتحاد الوطني الكوردستاني، من الأعمال الجيّدة للبرلمان، فإنّ هناك الكثير من الأعمال غير المنجزة أمامه وأمام مجلس وزراء كوردستان، منها:

- إنعاش اقتصاد كوردستان المشرف على الإفلاس، والإنتاج العامّ المقترب من الصفر.

- إيجاد فرص عمل للعمّال والكادحين الذين يعانون أكثر من غيرهم من الفقر، ومعالجة البطالة التي وصلت إلى أعلى معدّلاتها.

- المحافظة على أمن الحدود، والضرب على أيدي الجواسيس والمخرّبين واللصوص الذين ما زالوا يعبثون بأمن البلاد.

- الاهتمام بالوضع الصحّي للناس، والذي هو في أدنى درجاته، كذلك المستلزمات الحياتية الضرورية الأخرى، كالماء والكهرباء والنظافة والرواتب والطرق والجسور... إلخ.

- إعمار القرى المهدّمة التي تحتاج إلى تعمير وإعادة بناء، والتي لم يعمّر إلا ما يقارب ١٠٪ منها.

- التخطيط التربوي العلمي، ومحو الأمّية، والبرامج الاجتماعية والثقافية... إلخ، التي لم يجرِ تخطيط وإعداد لها بعد الانتفاضة.

لم يمرّ وقت طويل على إجراء انتخابات البرلمان، لكن مع ذلك، كان من الممكن تنفيذ بعض من تلك المهمّات والواجبات، وتحقيق بقيّة المهمّات والواجبات بالكفاح والسعي المستمرّ. إنّ تحمّل مسؤولية تشكيل البرلمان ومجلس الوزراء، له علاقة بدرجة تنفيذ المهام التشريعية الديمقراطية البرلمانية. فكل طرف أعطى في زحمة اشتداد الحملة الانتخابية وعودًا وعهودًا كثيرة للجماهير، كان من الضروري أن يعرف أنّ الجماهير تنتظر منه تحقيق متطلّباتها وتأمين احتياجاتها، وإلا فإنّها غير مستعدّة للبقاء على موقفها وثقتها السابقة لهذه الأطراف بدون تحقيق تلك المطالب. فمن الآن فصاعدًا، تنتظر الجماهير تحقيق آمالها الاقتصادية والسياسية والثقافية، لأنّ الجماهير الكوردستانية ضحّت بكل غالٍ ونفيس أثناء النضال من أجل التحرير والنصر.

إنّ الحياة السياسية داخل المدينة تختلف عن ظروف الكفاح المسلّح في الجبال. فإذا كانت الجماهير قد وقفت صامدة في الجبال في وجه المشاكل أكثر ممّا كان متوقعًا خوفًا من هجمات النظام الذي كان يهدّد مصير شعبنا وأرضنا، وخوفًا على مصير الكورد، وإذا كانت الجماهير داخل المدن أخذت المشاعر السياسية والقومية والخدمات السابقة، بالاعتبار، فإنّ على هذه القوى أن تعرف أنّ الثقة التي منحتها الجماهير لها، ستقلّ شيئًا فشيئًا تناسبًا مع مدى تحقيق مطالبها، لأنّ الحقائق تظهر في المدن بسرعة أكثر وينمو وعي الجماهير فيها، بشكل أفضل.

للجبل مهامّه، وللمدينة مهامّها، ومشاكل الناس بعد نيلهم الحرّية تكون أكثر من مشاكل طريق نيل الحرّية.

ينبغي أن يعرف الجميع أنّ انتخابات البرلمان ومجلس الوزراء ليست أول تجربة لممارسة الحكم الوطني في كوردستان، بل هناك تجربة حكومة الشيخ محمود وجمهورية مهاباد المنكوبتين. وهما تجربتان سابقتان لشعبنا في هذا الميدان، كما أنّ هذه المساندة الدولية للقضية الكوردية ليست الأولى من نوعها في تاريخ شعبنا، لأنّ معاهدة «سيفر» ومساندة الاتحاد السوفييتي لجمهورية مهاباد ما زالتا حيّتين في أذهان شعبنا.

صحيح أنّ الزمان والأرضية السياسية والدولية والإقليمية قد تغيّرا، وصحيح أنّ أحداث التاريخ لا تتكرّر، لكنّه إضافة إلى هذه الحقائق، هناك حقيقة مصيرية أخرى، يجب أخذها بالاعتبار دومًا، وهي أنّ مصير الشعوب هو بيد الشعوب أنفسها، وكل شعب سنحت له فرصة مواتية كالتي سنحت لشعب كوردستان، ولم يتمكّن قادته من استغلالها على أكمل وجه، ولم يمنعوا فشل هذه الفرصة، عن طريق تقديم الخدمات وتحقيق المنجزات وإشاعة الديمقراطية، فإنّ خطرًا جسيمًا يظلّ يهدّد هذا الشعب، كيفما تطوّر الزمان، لاسيّما إذا كان الشعب محاصرًا كالشعب الكوردي.

ملخص لإثباتات إحصائية

بعد انتهائنا من كتابة فصول الكتاب المخصّصة للبحوث والمسائل السياسية والعسكرية والنظرية جملة وتفصيلاً، ركّزنا في متن الكتاب على كيفيّة إثبات حقيقة تاريخية مشوّشة ومعكوسة، تسلّحت بها الشعوب من أجل تحرّرها، وهي: نهج الكفاح المسلّح، ودوره في تحرير الشعوب المظلومة. وطبقًا لمنهجيّة الكتاب، وحسب الفسحة العلمية للمنهج الدياليكتيكي في الكتابة، سعينا، وبطريقة، مركّزة إلى إثبات ما اعتقدناه صائبًا، مع علمنا المسبق بأنّ تأليف كتاب، يحتوي على مواضيع لم يعتد عليها السياسيون والثوريّون في كوردستان والمنطقة، هو بمثابة مغامرة في هذا المضمار من البحوث.

كنّا نعرف سلفًا بأنّ كتابة بحث من أجل نفي ما بات من المسلّمات النظرية والإيديولوجية، مسألة شائكة ومعقدّة. ولإثبات هذه المفاهيم الجديدة داخل ساحة اليسار الديمقراطي والتحرّري، اضطررنا إلى أن نغوص في أعماق نماذج متعدّدة من تجارب الشعوب والحركات المسلّحة والثورات الطويلة الأمد، اقتبسناها من قارّات مختلفة، ومن نماذج لشعوب عديدة. لكن ومع كل هذه الأمور، تبيّن لنا بعد انتهائنا من كتابة فصول الكتاب بأنّه لا يزال بحاجة إلى إثباتات ودلائل دامغة مساندة لبحثنا، ومن صلب المواضيع، وبطريقة علمية ومكثّفة. ولم يكن دليلنا إلى هذا الطريق المختصر سوى ملاحق إحصائية. وظهر لنا أثناء بحثنا وتقصّينا في بطون الكتب والموسوعات، لجمع المعلومات، من أجل إتمام الملاحق الضرورية لهذا الغرض، بأنّ هذه الملاحق لها دلالة علمية ومعرفية بالغة، لإثبات ما ورد من مواضيع في هذا الكتاب وتوثيقه.

تكشّف لنا بعد هذا، ومن خلال تجربتنا الخاصّة أيضًا، بأنّ لغة الأرقام والإحصاء لذاتها، هي اللغة الصادقة القاطعة المبرهنة للحقائق والوقائع، في حين أنّ لغة البحث والتحليل، على الرغم من اعتباراتها العلمية المؤثّرة، سوف تبقى لغة تحليلية نسبية، من وجهات نظر مختلفة. فإن أردنا إبداء وجهة نظر أكثر شمولاً،

لكي نميّز بدقّة علمية ودلائلية بين لغة الإحصاء وخطاب البحث، نقول: إنّنا- معشر الكتّاب والمثقفين- في الشرق الإسلامي المعتادين على أنماط النقاشات المطوّلة والبحوث المفصّلة، وإلى يومنا هذا الذي تجاوزت فيه المناهج العلمية مراحل تحليلية عديدة، ما زال أكثرنا وإلى الآن، أسرى للمناهج الكلاسيكية في الكتابة، لاسيّما الكتّاب والمثقفون في شرق كوردستان وشمالها.

لقد حاولنا، من خلال هذا الملحق الإحصائي، أن نستند إلى لغة الأرقام ونستند على التجارب المرحلية في تاريخ الشعوب، ومن ثم نترك للقارئ الحكم ال نهائي.

إنّ الملحق الاحصائي هذا يقلّب صفحات التاريخ، ابتداءً من الحرب العالمية الأولى وإلى نهاية الحرب الباردة، وخاصّة صفحات الحروب الطويلة الأمد لعصرنا «المعولم» الذي نعيش في خضمّ تطوّراته ومتغيّراته وتحوّلاته، عصر العولمة الذي بات واضحًا فيه أنّ ثورة المعلومات، سوف تنتصر على كل الثورات والمفاهيم الثورية السابقة. ولكن، ومع الأسف الشديد، فإنّ معلومات بعض الأحزاب وقادة الحركات حول هذا العصر، وإلى الآن، شحيحة، إلى درجة لو أصرّوا على تعنّتهم الإيديولوجي، وشحّة معلوماتهم في عصر ثورة المعلومات، سوف يتسبّبون في كارثة سياسية لشعوبهم، ومن ضمنها الشعب الكوردي، في شرق كوردستان وشمالها.

لعلّنا، بملحقنا الإحصائي هذا، قد خدمنا القارئ النبيه الكريم، إذ الحكم له أولًا وأخيرًا، وله منّا الشكر الجزيل، في كل الأحوال.

الملحق (١)

الحركات المسلّحة المنتصرة، بعد سنوات الحرب العالمية الثانية

الحركة	سنة قيام الحركة	ضد	سنة الانتصار
الصين	١٩٢٧	داخلية، اليابان	١٩٤٩
فيتنام الشمالية	١٩٤٦	فرنسا، أميركا	١٩٥٤-١٩٧٥
لاوس...	١٩٤٦-١٩٦٠	فرنسا، أميركا	١٩٥٤-١٩٧٥
فيتنام الجنوبية	١٩٤٦-١٩٦٠	فرنسا، أميركا	١٩٥٤-١٩٧٥
كوريا...	١٩٢٧	اليابان، أميركا	١٩٥٢
الجزائر...	١٩٥٤	فرنسا	١٩٦٢
كوبا	١٩٥٦	داخلية، أميركا	١٩٥٩
الكاميرون	١٩٥٧	فرنسا	١٩٦٠
كاتنكا...	١٩٦٠	داخلية، أميركا	١٩٦٤
أنغولا	١٩٦١	البرتغال أفريقيا الجنوبية	١٩٧٥
كينيا	١٩٦٣	البرتغال	١٩٨٣
الموزنبيق	١٩٦٤	البرتغال	١٩٧٤
غواتيمالا	١٩٦١-١٩٦٨	داخلية — أميركا	١٩٨٠
كمبوديا	١٩٦٥	أميركا	١٩٧٥
ناميبيا	١٩٧٠	أفريقيا الجنوبية	١٩٧٩
روديسيا	١٩٧٢	أبارتايد	١٩٧٩
نيكاراغوا	١٩٧٢	أميركا	١٩٧٩
التشاد	١٩٧٦	فرنسا	١٩٨٠

الملحق (٢)

الحركات المسلّحة المستمرة

الحركة	سنة قيام الحركة	ضد
الفيليبين، الحزب الشيوعي	١٩٥٧	النظام الفيليبيني الديكتاتوري
أريتريا	١٩٦١	النظام الإثيوبي (5)
فلسطين	١٩٦٥	إسرائيل
أوغندا	١٩٢٤	إثيوبيا
لبنان	١٩٧٥	داخلية، إسرائيل
الباسك (إرهاب)	١٩٧٥	إسبانيا
إيرلندا الشمالية	١٩٦٨	بريطانيا
كوردستان/العراق	١٩٧٦	نظام البعث العراقي
السلفادور	١٩٧٦	داخلية، أميركا
كمبوديا	١٩٧٨	داخلية، فيتنام
أفغانستان	١٩٧٩	داخلية، الاتحاد السوفييتي 6*
كوردستان/إيران	١٩٨٠	الجمهورية الإسلامية الإيرانية
كوردستان/تركيا	١٩٨٥	النظام التركي
بيرو	١٩٨٥	داخلية، أميركا
التاميل	١٩٨٦	النظام السيريلانكي
البوليساريو	١٩٧٥	المغرب

(5) نالت أريتريا استقلالها من إثيوبيا- المترجم.

6* نالت أفغانستان حريتها بعد انسحاب الاتحاد السوفييتي منها (المترجم).

الملحق (٣)

الحركات المسلّحة الفاشلة

الحركة	سنة قيام الحركة	ضد	سنة الفشل
إسبانيا (الجمهوريون)	١٩٣٩		١٩٥١
اليونان	١٩٤٧	داخلية، بريطانيا	١٩٤٩
كوردستان/العراق (البرزانيون)	١٩٤٣	الحكم الملكي	١٩٤٥
كوردستان/ايران (جمهورية مهاباد)	١٩٤٦	الحكم الشاهنشاهي	١٩٤٦
آذربايجان/ايران	١٩٤٦	الحكم الشاهنشاهي	١٩٤٦
التيبت	١٩٥٥	الصين	١٩٥٩
ماليزيا	١٩٤٨	بريطانيا	١٩٥٧
الكونغو	١٩٥٨	بلجيكا	١٩٦٠
البارغواي	١٩٥٩	داخلية، أميركا	١٩٦١
الدومينيكان	١٩٥٩	داخلية، أميركا	١٩٦١
سومطرة	١٩٥٧	إندونوسيا	١٩٥٨
كولومبيا	١٩٦٠	داخلية، أميركا	١٩٦١
البرازيل	١٩٦١	داخلية	١٩٧٠
كوردستان/العراق	١٩٦١	النظام العراقي	١٩٧٥
بيرو	١٩٦٢	داخلية، أميركا	١٩٦٣
الإكوادور	١٩٦٢	داخلية، أميركا	١٩٦٣
فنزويلا	١٩٦٢	داخلية، بريطانيا	١٩٦٧
لواندا	١٩٦٣	داخلية	١٩٦٤
تنزانيا	١٩٦٤	داخلية، بريطانيا	١٩٦٤

كينيا	١٩٦٤	داخلية، بريطانيا	١٩٦٤
الغابون	١٩٦٤	داخلية، فرنسا	١٩٦٤
بوليفيا	١٩٦٥	داخلية، أميركا	١٩٦٧
كوردستان/إيران	١٩٦٧	النظام الشاهنشاهي	١٩٦٨
الأورغواي	١٩٦٥	داخلية، أميركا	١٩٧٢
ظفار/عمان	١٩٦٨	النظام العماني والبريطاني والإيراني والأردني	١٩٧٦
بورندي	١٩٧٢	داخلية	١٩٧٢
الأرجنتين	١٩٧٢	داخلية	١٩٧٢
بلوشستان	١٩٧٣	باكستان	١٩٧٧

الملحق (٤)

الدول التي قامت فيها حركات مسلّحة، في قارة آسيا التي يبلغ عدد دولها ٣٨، توزّعت على الشكل الآتي:

الحركات الناجحة	الحركات المستمرة	الحركات الفاشلة
١-الصين	١-الفيليبين	إندونيسيا
٢- فيتنام	٢-كمبوديا	٢-ماليزيا
٣-كوريا الشمالية	٣-فلسطين	٣-كوردستان/العراق
٤-لاوس	٤-كوردستان/ العراق	٤-بلوشستان/ باكستان
٥-اليمن الجنوبية	٥-لبنان	٥-ظفار/عمان
٦-كمبوديا	٦-كوردستان/إيران	٦-كوردستان/إيران

	٧-كوردستان /تركيا	٧- أذربيجان /إيران
	٨-التاميل /سيريلانكا	

المجموع = ٦ + ٨ + ٧ = ٢١

وهذا يعني أنّ من مجموع ٣٨ دولة آسيوية، اندلعت في ٢١ دولة منها حركات مسلّحة، بعد الحرب العالمية الثانية، نجحت منها ٦ حركات، وفشلت ٧ حركات، ومازالت ٨ حركات مستمرّة إلى يوم الانتهاء من هذا البحث.

الملحق (٥)

الدول الأفريقية التي قامت فيها حركات مسلّحة، بعد الحرب العالمية الثانية، هي ٢٣ دولة، توزّعت على الشكل الآتي:

الحركات الناجحة	الحركات المستمرة	الحركات الفاشلة
الجزائر	اريتريا / اثيوبيا[7]*	بورندي
انغولا	بوروندي	تانزانيا
اوغندا	بوليساريو / المغرب	روندا
التشاد	تيمور الشرقية/ إندونيسيا	كونغو
زامبيا	أوغندا	المغرب
زائير		كاميرون
زيمبابوي		كينيا
ساحل العاج		
غينيا		
غينيا بيساو		
كينيا		

7*انتهت حركة شعب أريتريا بالنصر وحصول شعبها على الإستقلال .

المجموع = ١١ + ٥ + ٧ = ٢٣

أي من مجموع ٥٢ دولة أفريقية، قامت في ٢٣ دولة منها حركات مسلّحة، نجحت منها ١١ حركة، وفشلت ٧ حركات، ومازالت ٥ حركات مستمرّة إلى حين الانتهاء من هذا البحث.

الملحق (٦)

دول أميركا الوسطى التي قامت فيها حركات مسلّحة، بعد الحرب العالمية الثانية، هي ٩ دول، توزّعت على الشكل الآتي:

الحركات الناجحة	الحركات المستمرة	الحركات الفاشلة
كوبا	السلفادور	جامايكا
نيكاراغوا		الدومنيكان
		كوستاريكا
		غواتيمالا
		هايتي
		هندوراس

المجموع = ٢ + ١ + ٦ = ٩

أي من مجموع ١٨ دولة في أميركا الوسطى، قامت في ٩ دول منها حركات مسلّحة، نجحت منها ٢ (اثنتان)، وفشلت ٦ حركات، وما زالت حركة واحدة منها مستمرّة إلى حين إعداد هذا البحث.

الملحق (٧)

دول أميركا الجنوبية التي قامت فيها حركات مسلّحة، بعد الحرب العالمية الثانية، هي ١٢ دولة، توزّعت على الشكل الآتي:

الحركات الناجحة	الحركات المستمرة	الحركات الفاشلة
لا توجد	١- بيرو	١- الارجنتين
		٢- الإكوادور
		٣- الأورغواي
		٤- البرازيل
		٥- بوليفيا
		٦- باراغواي
		٧-كولومبيا
		٨-فنزويلا

المجموع = ٠ + ١ + ٨ = ٩

أي من مجموع ١٢ دولة في أميركا الجنوبية، قامت في ٩ دول منها حركات مسلّحة، لم تنجح في أيّ من هذه الدول، وفشلت في ٨ دول، وما زالت واحدة منها مستمرّة إلى حين إعداد هذا البحث.

الملحق (٨)

ملخّص إحصائي بالحركات المسلّحة في القارات والمناطق الحيوية في العالم، بعد الحرب العالمية الثانية:

القارات	عدد الدول	الناجحة منها	المستمرة منها	الفاشلة
آسيا	٣٨	٦	٨	٧
أفريقيا	٥٢	١١	٥	٧
أميركا الجنوبية	١٢	×	١	٨
أميركا الوسطى	١٨	٢	١	٦
المجموع	١٢٠	١٩	١٥	٢٨

ملاحظة:

يظهر من هذه الإحصائيات بصورة عملية، وبدون جدال، أنّ الكفاح المسلّح، سواء حرب الأنصار، أم الثورة الطويلة الأمد، مع أنّه بذلت جهود كبيرة من أجل جعله قانونًا ثابتًا لتحرير الشعوب المحتلّة والخاضعة للإمبريالية، إلا أنّه لم ينجح إلا داخل ١٩ شعبًا من هذه الشعوب من مجموع ١٢٠ شعبًا، وفشل في ٢٨ شعبًا، وهو أكثر من مجموع الحركات الناجحة، وما زالت ١٥ حركة مجهولة المصير إلى الآن، إضافة إلى ٥٨ دولة لم تقترب من الكفاح المسلّح.

أمّا في قارة أوروبا، فإنّه بعد فشل ثورات اليونان وإسبانيا لم يؤيّد أحد في هذه القارة نظرية الكفاح المسلّح، ولم يظهر فيها شيء من هذا القبيل باستثناء العمليات الإرهابية للباسك في إسبانيا، والإيرلنديين في إيرلندا الشمالية، لذلك لم ندخل دول أوروبا في هذا الجدول، أي إنّ الثورات المسلّحة كانت ناجحة في الدول المتخلّفة بصورة أكثر، وأقل استمرارية في الدول شبه المتقدّمة، وفاشلة في الدول المتقدّمة، وإنّ ٤٠ ثورة من المجموع الكلّي لهذه الثورات كانت ثورات داخلية، وضدّ الأجنبي، و١٨ منها ضدّ أميركا، و٧ منها ضدّ بريطانيا، و٦ منها ضدّ فرنسا و٧ منها ضدّ اليابان.

المصادر

المصادر العربية:

– إدغار سنو، النجم الأحمر فوق الصين، المراحل الأولى من تاريخ الثورة الصينية، ترجمة: كمال أبوالحسن وكمال أبو العز.

– أحمد نوري النعيمي، الدكتور، تركيا و حلف شمالي الأطلسي، المطبعة الوطنية، الأردن ١٩٨١.

– أوليانوفسكي – بافلوف، آسيا تختار، دار التقدم، – موسكو.

– التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع، حزيران، ١٩٨١.

– جان اسمين، الثورة الثقافية الصينية، ترجمة، ذوقان قرقوط.

– جان بابي، القوانين الأساسية للاقتصاد الراسمالي، ترجمة: لجنة من: شريف حتاتة، محمد خليل قاسم، سعد كامل، حليم طوسون.

– جان اللنشتين، تاريخ الظاهرة الستالينية، ترجمة، جوزيف سماحة.

– روجيه دوبرييه، ثورة في الثورة، ترجمة: الياس سحاب، الطبعة الأولى، كانون الثاني ١٩٦٨.

– كارل ماركس– فريدريك أنجلز، البيان الشيوعي، دار دمشق للطباعة والنشر.

– الماركسية وحرب العصابات، ترجمة: ابراهيم العابد وماهر الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت.

– ماوتسي تونغ، المؤلفات المختارة، المجلد الثاني، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين ١٩٦٩.

– محمد حسنين هيكل، الحلّ والحرب، شركة مطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت –

لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٧.

المصادر الفارسية:

- آدينه, ذمارة: ٢٩, آبان ١٣٦٧.

- ادوارد كرانشكاو, خاطرات سياسى خروتشوف, مرتجم, محمد رفيعى مهرآبادى.

- ارتور كند, يالتا يا تقسيم جهان, مترجم: محمد طلوعى, ضاث اول, ثائيز ١٩٦٥.

- ارنستو ضةطوارا در انقلاب (با دو مقالة ضاث نشدة) انتشارات مرواريد, مترجم: م.أ. رهجو.

- از لينين تا طورباتضف, مرتجم: نطارش محمود طلوعى, سازمان انتشارات هفتة, ضاث اول ١٣٦٧.

- ذارذ شاليان- ذان بيرراذو, اطلس استراتيذيك جهان, ترجمة: د. ابراهيم جعفرى, انتشارات اطلاعات, تهران ١٣٦٦.

- مسائل نيمكرة غربي, كوبا, كاسترو و انقلاب, منوضهر كمالى طه, موسسة انتشارات امير كبير, تهران ١٣٦٦.

- ميخائيل طورباتضوف, ثراسترويكا دومين انقلاب روسية, مترجم: عبدالرحمن صدرية, ضاث سوم تاريخ نشر ١٣٦٦.

- يان دريبشاير, تحولات سياسى در اتحاد شوروى (از برذنف تا طورباتضف) مترجم: هرمز همايون ثور, ضاث اول ١٣٦٧ تهران.

المصادر الكوردية:

- ضةثكآ لة قسةكانى سةرؤك ماوتسى تؤنط, كتيَبخانةى بيرى نوآ, بةغداد ١٩٧٣.

- ضیا، ئەمنی ستراتیژی عێراق و ساکوضکەی بەعسییان: تەرحیل، تەعریب، تەبعیس، کۆمەڵەی رەنجدەرانی کوردستان، زنجیرەی لێکۆڵینەوە / ٣.

- عەزیز شەمزینی (دکتۆر) جولاّنەوەی رزطاری نیشتمانی کوردستان، ضاثی دووەم، ضاثخانەی ئیبراهیم عەزۆ ١٩٨٥، وەرطێرِانی فەرید ئەسەسەرد.

- کارل مارکس، هەذدەی برۆمێری لویس بۆناثارت، وەرطێرِانی: سیامەندی شاسواری.

الفهرست

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

المترجم في سطور

الدكتور بندر علي أكبر شاكه محمد

- من مواليد ١٩٤٨، مدينة مندلي/كوردستان العراق.

- حاصل على شهادة:

١- بكالوريوس آداب اللغة العربية / جامعة بغداد، كلية التربية ١٩٧٠.

٢- ماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة السليمانية ٢٠٠٣.

٣- دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، من جامعة الأنبار ٢٠٠٧.

٤- يعمل الآن أستاذًا في جامعة السليمانية /كلية التربية.

٥- عمل كمدرس في وزارة التربية أكثر من ٢٢ سنة في عدة محافظات عراقية.

٦- عيّن مديرًا للمناهج والمكتبات في وزارة التربية في إقليم كوردستان، ثم مستشارًا تربويًا، ومسؤولًا عن وضع وتغيير المناهج، ومشرفًا اختصاصيًا في نفس الوزارة من (١٩٩٢ - ٢٠٠٣).

في المجال الأكاديمي:

١-صاحب رسالة الماجستير الموسومة «صور الطبيعة ودلالاتها في الشعر الجاهلي والشعر الكوردي الكلاسيكي» - جامعة السليمانية.

٢-صاحب أطروحة الدكتوراه الموسومة «المؤثر العربي والإسلامي في شعر الغزل الكوردي» - جامعة الأنبار. علمًا أنّ الأطروحة قد تمّ طبعها ونشرها.

في المجال السياسي:

- انضمّ إلى صفوف الحركة الكوردية منذ ١٩٦٦، وأصبح عضوًا في منظمة جامعة بغداد للحزب الديمقراطي الكوردستاني ومسؤولًا للجنة المحلية في مندلي بعد اتفاقية آذار ١٩٧٠، وصدر بحقه مذكرة إلقاء القبض ١٩٦٩.

- التحق بصفوف الحركة الكوردية المسلّحة (١٩٧٤- ١٩٧٥).

- انضمّ إلى صفوف «العصبة الماركسية اللينينية» في ١٩٧٤، ثم الاتحاد الوطني الكوردستاني، منذ تأسيسه في ١٩٧٥، وعمل في صفوف تنظيماته السرية في بغداد، بعد اتفاقية الجزائر التي قضت على الحركة، وإلى عودته وإبعاده إلى محافظة الأنبار.

- ألقي القبض عليه في ١٩٧٧ و١٩٧٨ بسبب نشاطه السياسي المعارض، وتعرّض للتعذيب والمحاكمة أمام محكمة الثورة، ثم الملاحقة والمحاسبة، إلى عام ١٩٩١.

- مسؤول لجنة التنظيمات السرية في بغداد ومندلي للاتحاد الوطني الكوردستاني (١٩٩٣-٢٠٠٣).

- نائب مسؤول مركز تنظيم بغداد للاتحاد الوطني الكوردستاني (٢٠٠٣-٢٠٠٥).

- نائب مسؤول مكتب العلاقات الوطنية والعربية للاتحاد الوطني الكوردستاني (٢٠٠٥ - ٢٠٠٨).

- عضو مكتب الفكر والتوعية للاتحاد الوطني الكوردستاني.

- عضو أكاديمية التوعية وتأهيل الكوادر للاتحاد الوطني الكوردستاني حاليًا.

في المجال الثقافي والصحفي والأدبي:

١- عضو تحرير صحيفة الاتحاد والمشرف اللغوي لها منذ (١٩٩٤- ٢٠٠١)، وصاحب زاوية اسبوعية، وكتب العديد من المقالات المتنوعة، وترجم الكثير من المقالات والدراسات من اللغة الكوردية والفارسية إلى العربية، ونشرها في الاتحاد والصحف العراقية والعربية التي كانت تصدر في لندن، كالزمان والشرق الأوسط،

باسم مستعار هو (أنور مندلاوي).

٢- ترجم كتاب «شورشي كوردستان وكورانكاريه كاني سه رده م - ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر»، لمؤلّفه ملا بختيار إلى اللغة العربية، وطبع مرّتين، وهذه الطبعة هي الثالثة.

٣- ترجم العديد من القصص باللغة الكوردية إلى العربية ونشرها في المجلات.

٤- ترجم كتاب «ميذووي بيري كوردي» لمؤلّفه ماموستا جعفرإلى اللغة العربية.

من منشورات مكتب الفكر والوعي

للإتحاد الوطني الكوردستاني لسنتي (٢٠١٠ ـ ٢٠١١)

المنشورات	المؤلف والمترجم	سنة الطبع
حول الفيديرالية ـ النظامان السويسري والعراقي - دراسة مقارنة	كاوسين بابكر	٢٠١٠
المركز القانوني الدولي للقوات المتعددة الجنسيات في العراق	عبدالصمد رحيم كريم زنطنة	٢٠١٠
جلال طالباني ـ مواقف وآراء	صلاح برواري	٢٠١٠
قراءة البعث للفاشية التاريخية	د. البرت عيسى	٢٠١٠
٢٠١٠ سالَى كؤنطرةى رووبةرِووبوونةوة	حاكم قادر حمةجان عزيز	٢٠١٠
ثرؤذةى مةكتةبى بيروهؤشيارى بؤدارِشتنى بةرنامةى (ى. ن. ك)	عوسمان حةمة رةشيد طورون	٢٠١٠
ئاغاو شيَخ و دةولَةت	و. كوردؤ عةلى	٢٠١٠

ميَذووى فەلسەفە	و. لەسويدييەوە: عوسمان حەمە رەشيد طوررون	٢٠١٠
طالباني جورج واشنطن العراق	خليل عبدالله ترجمة: حسن شندي	٢٠١٠
العدالة بين الفلسفة والقانون	اسماعيل نامق حسن	٢٠١٠
حوارات ونقاشات فكرية وسياسية واجتماعية و اقتصادية	د. كاظم حبيب	٢٠١٠
المجتمع المدني والدولة، وإشكالية العلاقة	زبير رسول أحمد	٢٠١٠
الطبيعة القانونية لعقد الزواج	زبير مصطفى حسين	٢٠١٠
ئايين و دەسەلآت	هاشم كەريمى	٢٠١٠
فيمينيزم	رەسول سولَتانى	٢٠١٠
سياسة التعريب في قضاء شنكال	بيان محمد سعيد	٢٠١٠
الأمن ومستقبل السياسة الدولية	فرهاد جلال مصطفى	٢٠١٠
زنجيرەيەك طفتوطؤى مەدەنى، عەلمانيەت و ئايين، عەقلأ و شەريعەت، كوردو ميدياى عەرەبى	ئوميَد قەرەداغى	٢٠١٠
مسرحيات وتحليل	فريدريش دورينمات ت: غسان نعسان	٢٠١٠
رجعية القانون في الماضي على الجرائم ضدّ الإنسانية	زانا رفيق سعيد	٢٠١٠

کوردەکان و مافی ضارەی خۆنووسین زنجیرەی هۆشیاری ، ذمارة (١)	ئیسماعیل بێشکضی و. رەوا حاجی	٢٠١٠
سیستمی سیاسی سویسرا زنجیرەی هۆشیاری ، ذمارة (٢)	خەلیل عەبدوڵلآ	٢٠١٠
ئاین و دەولَةت لەمیسری سەردەمی محەمەد عەلی ئاشادا زنجیرەی هۆشیاری ، ذمارة (٣)	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٠
طۆظاری کەلتور		٢٠١٠
رۆذنامەی کوردی طۆظاری هەولێر سالَی (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢)	ئامادەکردنی: د. هیمدادی حوسێن	٢٠١٠
ناوضة جیَناکۆکەکان، ئایندەو ئاسۆکانی ضارەسەر، زنجیرەی هۆشیاری، ذمارة (٤)	تەحسین نامیق	٢٠١٠
بەعەرەبکردن و بەجولَةکەکردن ، زنجیرەی هۆشیاری، ذمارة (٥)	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١٠
ئایین و ئازادی بیروڕا زنجیرەی هۆشیاری، ذمارة (٦)	ن: عەبدولڕەحمان مونیف و: عوسمان حەسەن شاکر	٢٠١٠
نەتەوة ضییە...؟ زنجیرەی هۆشیاری، ذمارة (٧)	ن. ئێرنست ڕینان و. کامیل محمد قەرەداغی	٢٠١٠
خانقين .. حكايات أعوام الرماد	يوسف يوسف	٢٠١٠
بەعسیزم و سەرکوتکردنی ذیان	رامیار مەحمود	٢٠١٠
الدولة الأيوبية في اليمن	د. فرست مرعي	٢٠١٠

سثينؤزا	ن. هاشم صالح و. ئارام ئةمين شوانى	٢٠١٠
ئةرلةمان ميَذووى سةرهةلَدان و ثيَكهاتةو ئةركةكانى	ئامادةكردنى عادل عةلى	٢٠١٠
الحصانة البرلمانية في قانون انتخاب برلمان كوردستان - العراق ومشروع دستور إقليم كوردستان	د. شورش حسن عمر	٢٠١٠
ئاين و مؤديَرنة زنجيرةى هؤشيارى ذمارة ١٠	مستةفا مةلةكيان و. لةعةرةوبيةوة: ياسين عومةر	٢٠١٠
المدارس السياسية الثلاث في العراق و إمكانية التعايش السلمي فيما بينها زنجيرةى هؤشيارى ذمارة ١١	فريد اسسرد	٢٠١٠
طؤظارى كةلتوور		٢٠١٠
نويَنةرانى كورد لةيةكةمين خولى ئةرلةمانى عيراقى نويَدا	ئامادةكردنى: سالَح رةحمان	٢٠١٠
الموسوعة الكورد الصغرى	كنياز ابراهيم ميرزويف ت. عن الروسية: احمد حيدر علي	٢٠١٠
ثيَطةى ميديا لةهةلَبذاردنى سةرؤكايةتى ئةمريكادا ،ذ. ز، (١٢)	ريَبين حةسةن	٢٠١١
مميزات النظام الفيديرالي في العراق (ذ. ز. ١٣)	د. شورش حسن عمر	٢٠١١
جيهانطيرى ، فاكتةرء طرفتةكانى ديموكراسى، ذ، ز، (١٤)	مةلا بةختيار	٢٠١١

ئەیدابونی عەلمانیەت لەتورکیای عوسمانیدا، ذ. ز. (١٥)	فەرید ئەسەسەرد	٢٠١١
ئیسلامء مۆدێرنە، ئیسلام لەبەردەم ئەطەری عەلمانیەتدا(ذ. ز. هۆشیاری (١٦)	ن. محمد رەزا شالطونی و. عوسمان حسن شاکر	٢٠١١
سیاسەتی روسیای قەیسەری بەرامبەر بەکورد (١٨٠٥٠-١٩١٤)	هەستیار کەمال کوردی	٢٠١١
المحطات، أثرت في حياة الكورد وحركاتهم القومية	بقلم: عبد الرزاق محمود القيسي	٢٠١١
کورتە باسێکی فەلسەفەی سیاسی	ن. دەیظد میلەر و. لەئینطلیزیەوە: کارزان کاوسێن	٢٠١١
هەواڵنامەی کوردستانی عیراق	ئامادەکردنی : نەوزاد عەلی ئەحمەد	٢٠١١
ئاغاء شێخء دەوڵەت بەرطی دووەم	ن. مارتین ظان برونەسن و. لەئەڵمانیەوە: د. کوردۆ عەلی	٢٠١١
تاريخ الفكر الكوردي	مامۆستا جعفر ترجمة: د. بندر على	٢٠١١
رۆذنامەنووسی کوردی لە کوردستانی عیراقدا (١٩٩١-٢٠٠٥)	هەڵەت خەسرەو هەمەوەندی	٢٠١١
مافی ضارەی خۆنووسین لەئەدەبیاتی (ی. ن. ك)دا (١٩٧٥-١٩٩٢)	نەوزاد عەلی ئەحمەد	٢٠١١

سیاسەتی طۆڕینی رووخساری نەتەوەیی ناوضەی کەرکوك - ذ. ز. هۆشاری (١٧)	د. نوری تاڵەبانی	٢٠١١
ئەنفال لەکوردستانی عیراق ذ. ز. هۆشیاری(١٨)	ن. مایکلاٛ لیزنبێرط و. کارزان محەمەد	٢٠١١
ئۆئۆزسیۆن لەضەمکەوە بۆ ئەرك، ذ. ز. (١٩)	بەختیار جەبار شاوەیس	٢٠١١
بەشداریکردنی سیاسی ذ. ز. (٢٠)	عابد خالد رەسول	٢٠١١
سیستمی فیدرالاٛ لەدەوڵەتی ئیاراتدا، ذ. ز. (٢١)	ن. عەبدوڵلآ عەنزی و. سەردار عبدالکریم	٢٠١١
کوردء ثرسی دانثێدانانی دەستووری	خەلیل عەبدوڵلآ	٢٠١١
تیرۆریزم هەرِەشەء مەترسیەکان	عادل عەلی	٢٠١١
ضرای ماڵە هەذارەکان	ئامادەکردنی: عەلی جۆلآ	٢٠١١
کەلتور – ذمارة (٣)		٢٠١١
سیکۆلاریزم بەزمانی سادة – عەلمانیەت	نوسینی : ئاستین کلاین و. لەفارسیەوە: کاوسێن بابەکر	
کوردستان	نەوزاد عەلی ئەحمەد	٢٠١١
دراسة تاريخية وسياسية حول "الشعب الكوردي"	تاليف: حسن ارفع ترجمة: عبد الرزاق محمود القيسي	٢٠١١

كورتەيەك لەتاوانەكانى رذيمى عيراق دذى طةلى كورد	ن: نورى تالَةبانى و. شاناز رةمزى	٢٠١١
طةشةكردنى سةرمايةدارى لةكوردستاندا	فةريد ئةسةسةرد	٢٠١١
سياسةت لةنيَوان بيرو جيَبةجيَكردندا	و. مظفر عبدالوهاب	٢٠١١
كورد طةليَكى بآ دةولَةت، زنجيرة ناميلكةى كورد لةميدياى جيهانيدا، ذمارة(١)	ن. ئينطوَنوَيمايةر و. ريَبوار توَفيق	٢٠١١
لةديكتاتوَريةوة بوَ ديموكراسى	ن. د. جين شارث و. كارزان محمد	٢٠١١
موَديَلى حزبايةتى لةكوردستان ذ. ز. هوَشيارى (٢٥)	ئةنوةر حسيَن بازطر	٢٠١١
فلسفة الديمقراطية الاجتماعية ذ. ز. هوَشيارى (٢٦)	د. حميد عزيز ت: محسن بني ويس	٢٠١١
دةولَةتشارى ديَرين ذ. ز. هوَشيارى (٢٧)	ن. موَريس بارييَة و. عوسمان حسن شاكر	٢٠١١
ئاينء سياسةت ذ. ز. هوَشيارى (٢٨)	ن. نينيان سمارت و. ياسين عومةر	٢٠١١
بةجينوَسايدناسينى ئةنفال ذ. ز. هوَشيارى ، ذ(٢٩)	خةليل عةبدوللآ	٢٠١١
جيوَثوَلةتيكى كوردستان ز. هوَشيارى، ذ. (٣٠)	فةريد ئةسةسةرد	٢٠١١
ديموكراسىء بنةماكانى طةشةثيَدانى سياسى، ز. هوَشيارى، ذ. (٣١)	ن. حةميد حسين كازم ئةلشةمةرى و. عادل عةلى	٢٠١١

ثورة كوردستان ومتغيّرات العصر

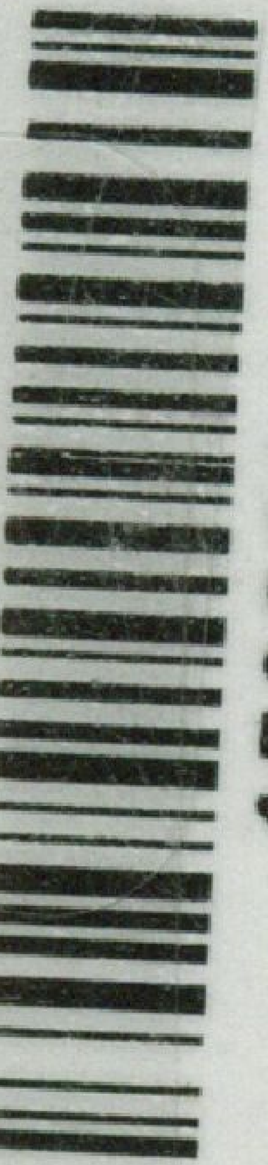
نضال الجبال أم انتفاضة المدن؟

ما بين التدوين والتأريخ والتحليل، يفرغ المُلّا بختيار مخزون الذاكرة المختمرة من ثقافة واسعة لتاريخ الحركات الثوريّة في العالم، وتجربة نضاليّة وسياسيّة طويلة، ليقيّم ويستخلص الوسائل الفعّالة الواجب أن تتبنّاها الحركات التغييريّة، حتّى لا تكون فريسة سهلة للأنظمة القمعيّة.

في هذا الكتاب، يسترجع التجارب الثوريّة في كوبا وبوليفيا ونيكاراغوا والاتحاد السوفييتيّ والصين وغيرها من الدول، ويقارنها مع التجربة الكورديّة، محذّرًا من الروح الإقطاعيّة وتهميش الديمقراطيّة وعدم إيلاء الثقافة أهميّة متقدّمة في حياة الشعوب التائقة إلى الحرّيّة.

إنّه ثبت لنضالات الشعب الكوردستانيّ ودفاع منطقيّ عن قضيّة شعب يبحث عن مكان حرّ له تحت الشمس، ونقد ذاتيّ حادّ يعكس ثقة كبيرة بالذات الجماعيّة الكورديّة وفخرًا بالشخصيّة الكورديّة، أكان على مستوى ما اعتبره الكاتب «الخطايا الخفيّة للشعب الكورديّ» أم على مستوى انتقاده اللاذع للقيادات لعدم تعلّمها من أخطاء الماضي.

حكمت محمد كريم، معروف في الأوساط الكورديّة بلقب المُلّا بختيار، هو حاليًّا مسؤول الهيئة العاملة في المكتب السياسيّ للاتحاد الوطنيّ الكوردستانيّ، وله العديد من المؤلّفات والمقالات والدراسات. انضمّ إلى صفوف العصبة الماركسيّة اللينينيّة الكوردستانيّة سنة ١٩٧٠ وإلى ثورة أيلول المسلّحة سنة ١٩٧٤، مرافقًا القضيّة الكورديّة في مختلف منعطفاتها ونجاحاتها وإخفاقاتها.



ISBN 978-614-451-032-2
